رايلي ساجر

مؤلف النجاة من الليل والمنزل قبل الظلام

Riley Sager

رواية

البيت المُقابل للبُحيرة

The House across the Lake

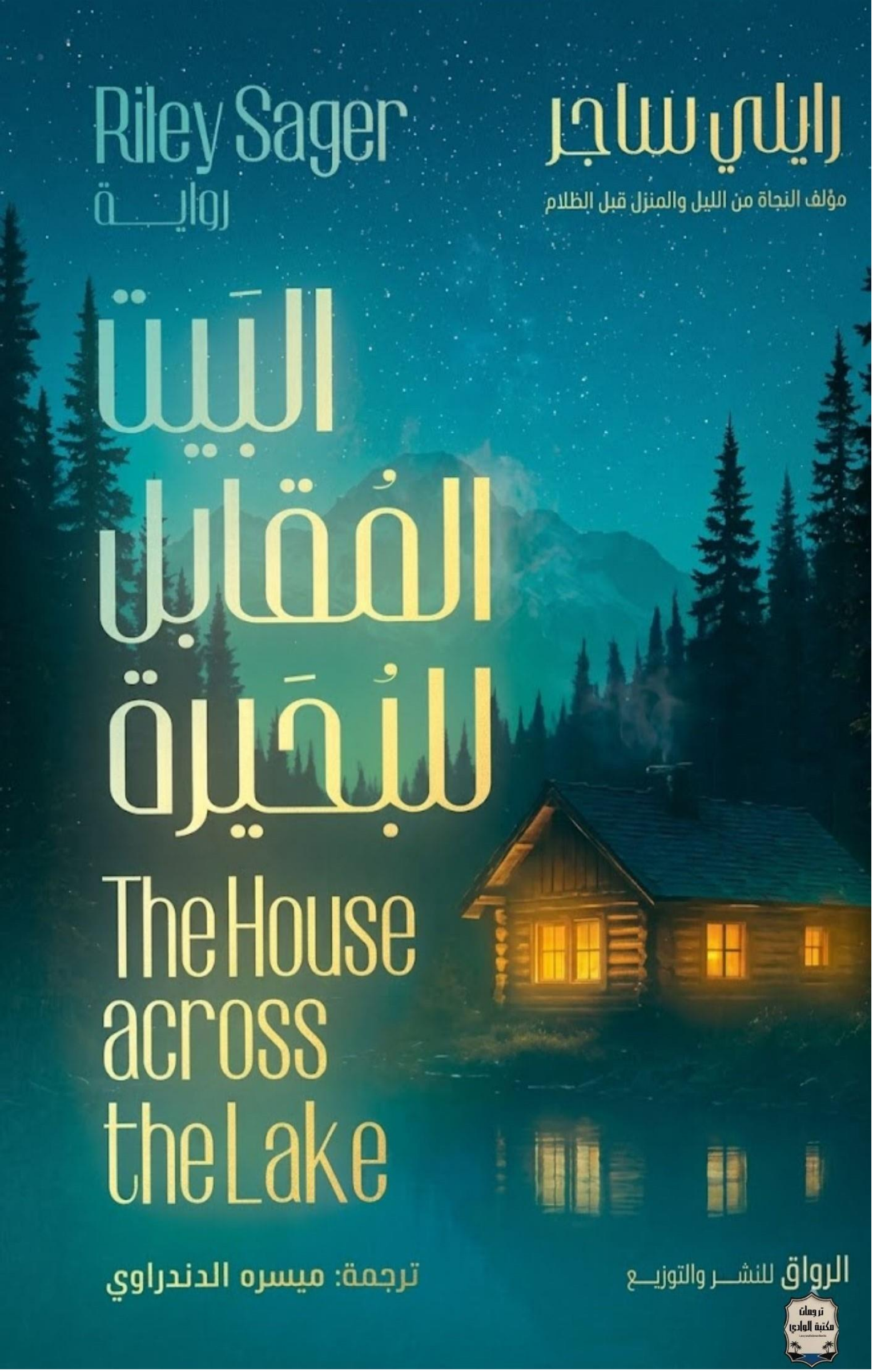

ترجمة: ميسره الدندراوي

الرواق للنشر والتوزيع

ترجمات مكتبة الوادي

رايلي ساجر
Riley Sager
مؤلف "النجاة من الليل" و"المنزل قبل الظلام"

رواية

البيت المقابل للبحيرة

The House across the Lake

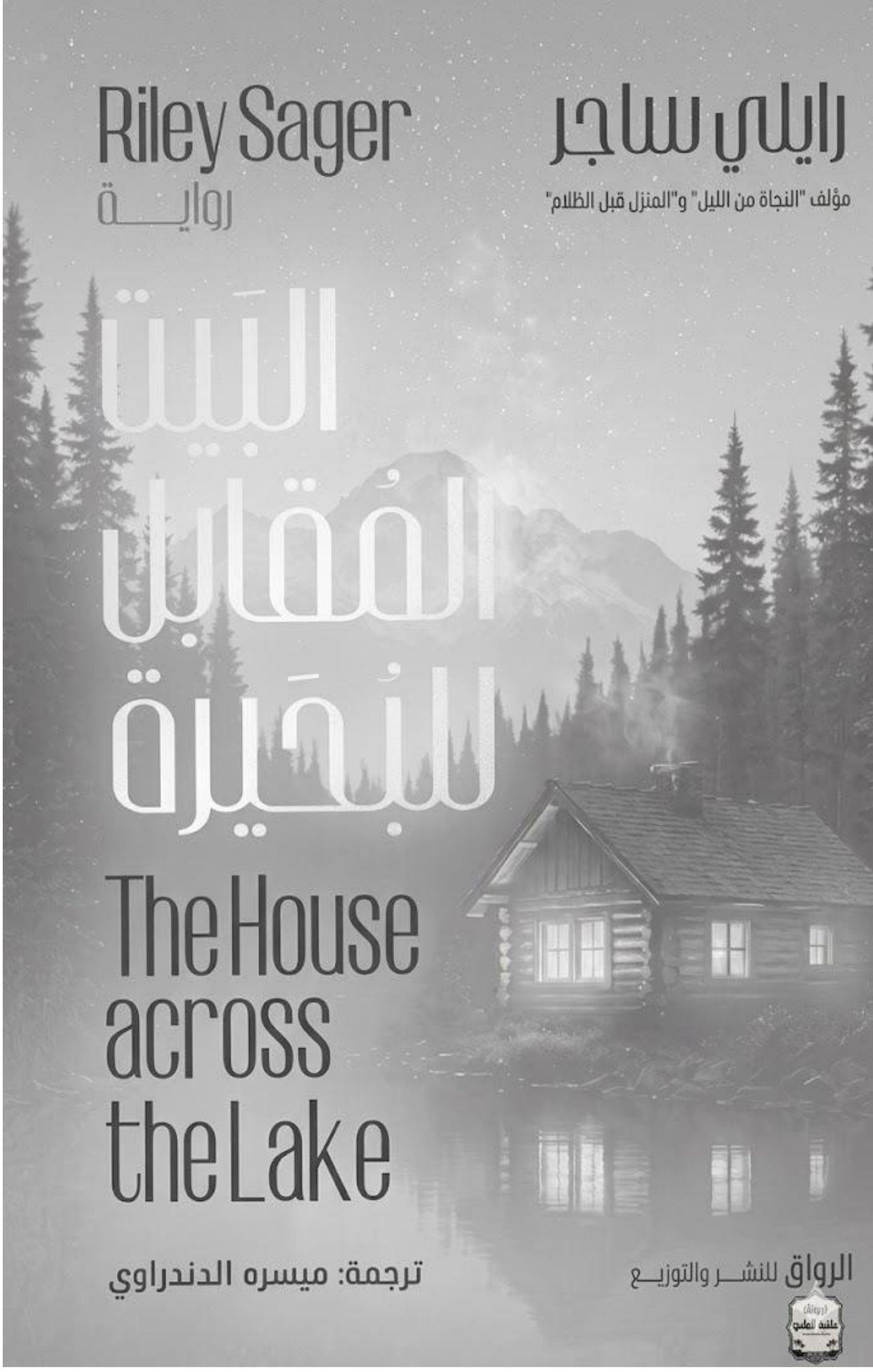

ترجمة: ميسره الدندراوي

الرواق للنشر والتوزيع

البَيت المُقابل للبُحَيرة

البيت المقابل للبحيرة

رواية

رايلي ساجر

ترجمة / ميسرة الدندراوي

تم إعداد هذه النسخة الإلكترونية بواسطة /

مكتبة الوادي

تحرير وتدقيق:
كاميليا

رايلي ساجر

استهلال

مياه البحيرة أشد حلكة من تابوت أُحكم إغلاقه. هكذا كانت تردد مارني أيام طفولتنا، حين كانت تسعى دائمًا لبث الرعب في نفسي. مبالغة بلا ريب، لكنها لا تجافي الحقيقة كثيرًا؛ فمياه بحيرة جرين قاتمة السواد، حتى وإن تسللت إليها خيوط الضوء.

تابوتٌ غطاؤه موارب.

وأنت خارج الماء، لن يتجاوز بصرك قدمًا واحدة تحت السطح قبل أن تتغشى الرؤية، ثم تستحيل إلى سوادٍ حبري، لتغدو في النهاية مظلمة كالقبر. ويزداد الأمر رعبًا حين تغوص بكليتك في جوفها؛ حيث يتقاطع بريق الضوء المنسدل من الأعلى في تضاد صارخ مع الأعماق الموحشة في الأسفل.

أيام كنا صغارًا نتأرجح على أمواج البحيرة، طالما تحدتني مارني أن أغوص متجاوزًا حدود الرؤية لألامس القاع. حاولت مرارًا دون جدوى. ففي غياهب ذلك الظلام، طالما فقدتُ بوصلتي ودرتُ حول نفسي، لأجدني أسبح نحو السطح بينما أظنني أغوص نحو القاع. كنت أخرج لاهثًا، مشتتًا، تساورني رهبة خفية من ذلك التناقض الصارخ بين الماء والسماء.

فوق السطح، نهارٌ ساطع الجلاء.

وعلى بُعد شبر تحته، ليلٌ يتربص.

على الضفة، تستقر خمسة منازل بمحاذاة المياه القاتمة لـ بحيرة جرين، تتأرجح طُرزها المعمارية بين الكلاسيكية الدافئة والحداثة الصارخة. في فصل الصيف، حين ترتدي ولاية الجبل الأخضر حُلتها الأبهى، وتغص المنازل بالأصدقاء وأفراد العائلة ورواد العطلات، تتلألأ تلك البيوت كمناراتٍ تبشر بملاذ آمن. وعبر نوافذها، تلوح غرفٌ غارقة في الضوء، تضج بأناس يأكلون ويشربون، يضحكون ويتجادلون، يلعبون ويهمسون بالأسرار.

يتبدل الحال بانقضاء الموسم، إذ يسربل الصمتُ تلك المنازل، بادئ الأمر خلال أيام الأسبوع، ثم يزحف ليشمل عطلات نهاية الأسبوع أيضًا. لا يعني هذا أنها خاوية. أبدًا. فالخريف يغوي الناس بالقدوم إلى فيرمونت تمامًا كما يفعل الصيف. غير أن الأجواء تختلف كليًا؛ إذ تغدو خافتة، ومثقلة بالوقار. وبحلول منتصف أكتوبر، يخيل إليك أن ظلمة البحيرة قد فاضت على الضفاف، وتسربت إلى مسام المنازل ذاتها لتخفت ضوءها.

يتجلى هذا، بوجه خاص، في المنزل القابع في الجهة المقابلة من البحيرة مباشرة. ذلك البناء المشيد من الزجاج والصلب والحجر، والذي يعكس صفحة المياه الباردة وسماء الخريف الرمادية، متخذًا منهما ستارًا يحجب كل ما قد يجري بين جدرانه. وحين تشتعل أضواؤه، بوسعك أن تخترق السطح بنظراتك، لكن إلى حدٍ معين فحسب. إنه يشبه البحيرة في ذلك. فمهما أمعنت النظر، سيبقى هناك دائمًا شيءٌ خفيّ يغوص تحت السطح.

وأنا أدرى الناس بذلك.

فلطالما كنتُ أراقب.

الوقت الحاضر

أُحَدِّق في المحققة الجالسة على الجانب الآخر من الطاولة، وأمامي كوب قهوة لم تمسسه شفة. يضفي البخار المتصاعد منه هالة شفافة من الغموض عليها؛ لا لأنها بحاجة إلى مزيد منه. تتسم ويلما آنسون ببرود هادئ وخالٍ من التعابير، ونادرًا ما يتبدل. وحتى في هذه الساعة المتأخرة، ورغم بللها من العاصفة، فإنها لا تزال محتفظة برباطة جأشها.

سألتني:

– «هل راقبتِ منزل عائلة رويس هذه الليلة على الإطلاق؟»

أجبتُها، فلا جدوى من الكذب:

– «أجل.»

سألتني:

– «هل رأيتِ أي شيء غير مألوف؟»

أجبتُ:

– «أكثر غرابة من كل ما رأيته سلفًا؟»

أومأت ويلما برأسها قائلة:

– «هذا ما أسأل عنه.»

هنا لزم الكذب، فقد رأيت الكثير هذه الليلة؛ أكثر مما وددتُ رؤيته. قلتُ:

– «لا. لماذا تسألين؟»

تلطم هبة ريح قطرات المطر بقوة على الأبواب الزجاجية المزدوجة المؤدية إلى الشرفة الخلفية. نتوقف لحظة لنراقب القطرات وهي تصفع الزجاج. لقد تفاقمت العاصفة بالفعل لتتجاوز توقعات راصد الطقس على شاشة التلفاز – رغم أن توقعاته

كانت تنذر بالأسوأ. إنها الذيل الأخير لإعصار من الدرجة الرابعة تحول إلى عاصفة استوائية، ليرتد كطفرة قوية من عمق اليابسة عائدًا نحو شمال الأطلسي.

أمرٌ نادر الحدوث في منتصف أكتوبر.

وأشد ندرة في شرق فيرمونت.

قالت ويلما:

– «لأن توم رويس ربما يكون مفقودًا.»

أنتزع نظراتي من ألواح الزجاج الملطخة بالمطر لأرمي ويلما بنظرة مندهشة، لتبادلني نظرة لا تتزعزع كعادتها.

سألتُها:

– «هل أنتِ واثقة؟»

أجابت:

– «كنتُ هناك للتو. المنزل مفتوح، وسيارته الفارهة ما زالت في الممر. لا شيء يبدو مفقودًا من الداخل؛ سواه.»

ألتفت مجددًا نحو الأبواب الزجاجية، وكأنني سأتمكن من رؤية منزل رويس ينتصب على الضفة المقابلة للبحيرة. وبدلًا من ذلك، لا أتبين سوى ظلام يعوي، ووميضات برق تضيء صفحة مياه تجلدها الرياح بوحشية.

سألتُ:

– «هل تظنين أنه هرب؟»

قالت ويلما:

– «محفظته ومفاتيحه على رخامة المطبخ. من الصعب الهرب بلا نقود أو سيارة، لا سيما في طقس كهذا. لذا أستبعد الأمر.»

ألاحظ اختيارها للكلمات. تستبعد.

اقترحتُ:

– «ربما تلقى مساعدة من أحدهم.»

ردت:

– «أو ربما تعمد أحدهم إخفاءه. هل تعرفين شيئًا عن ذلك؟»

انفرجت شفتاي من فرط الدهشة، وسألت:

– «هل تظنين أن لي يدًا في هذا؟»

قالت:

– «لقد اقتحمتِ منزلهما بالفعل.»

قلتُ، آملة أن يخفف هذا التمييز اللفظي من وطأة الجريمة في عينيها:

– «لقد تسللتُ، وهذا لا يعني أنني أعرف وجهة توم الحالية.»

تلوذ ويلما بالصمت، راجية أن أسترسل في الحديث وأورط نفسي. تمر الثواني؛ ثوانٍ كثيرة. يعلن عن مرورها دقات ساعة الحائط الكبيرة في غرفة المعيشة، كإيقاع ثابت يرافق أنشودة العاصفة. تصغي ويلما للصوت دونما عجلة ظاهرة. إنها أعجوبة في رباطة الجأش. أظن أن لاسمها دورًا كبيرًا في ذلك؛ فإذا كانت سخرية العمر المرتبطة بشخصية عائلة «فلينتستون» تعلمك شيئًا، فهو الصبر العميق.

قالت ويلما بعد ما بدا وكأنه ثلاث دقائق كاملة:

– «اسمعي، أعلم أنك قلقة بشأن كاثرين رويس. وأعلم أنك تريدين العثور عليها. وأنا كذلك. لكنني أخبرتكِ سلفًا أن أخذك للأمور على عاتقك لن يجدي نفعًا. دعيني أؤدي عملي يا كيسي. إنها فرصتنا المثلى لاستعادة كاثرين حية. لذا، إن كنتِ تعرفين أي شيء عن مكان زوجها، أرجوك أخبريني.»

انحنيتُ إلى الأمام، وبسطتُ كفَّي على الطاولة، محاولة استحضار تلك الطاقة الغامضة ذاتها التي تبثها المحققة، وقلت:

– «ليس لدي أدنى فكرة عن المكان الذي قد يكون فيه توم رويس. وإن كنتِ لا تصدقينني، فلكِ مطلق الحرية في تفتيش المنزل.»

تتدبر ويلما الأمر. ولأول مرة منذ جلوسنا، أستشعر دقات عقلها تعمل بانتظام يضاهي دقات ساعة الحائط الكبيرة.

قالت أخيرًا:

– «أصدقك؛ في الوقت الحالي على الأقل. لكني قد أغير رأيي في أي لحظة.»

أحرص على مراقبتها حين تنصرف، أقف عند الباب بينما تصفعني أمطار مائلة تضرب الشرفة الأمامية. في الممر، تهرول ويلما عائدة إلى سيارتها السيدان غير المميزة وتنزلق خلف المقود. ألوّح لها وهي ترجع بالسيارة إلى الخلف، لتطيش المياه من بركة لم تكن موجودة قبل ساعة، ثم تنطلق مسرعة.

أغلق الباب الأمامي، أنفض عني المطر، وأتجه نحو المطبخ، حيث أصب لنفسي كأسًا ضخمة من مشروب البوربون. فهذا المنعطف الجديد للأحداث يتطلب جرعة لا تستطيع القهوة توفيرها.

في الخارج، تضرب المنزل هبة ريح أخرى. تئن حواف السقف وتومض الأضواء.

علامات تنذر باشتداد العاصفة.

ذيل الإعصار الأخير، يا للسخرية.

أتوجه إلى الطابق العلوي والكأس في يدي، وأدلف إلى أول غرفة نوم على اليمين.

هو كما تركته تمامًا.

ممدد بكامل جسده على السرير الفردي.

كاحلاه ومعصماه موثوقة بأعمدة السرير.

وهناك منشفة محشوة في فمه ككمامة مرتجلة.

أنتزع المنشفة، وأجلس على سرير مطابق في الجانب الآخر من الغرفة، وآخذ رشفة طويلة وبطيئة من البوربون.

قلتُ:

– «لقد بدأ الوقت ينفد منا. أخبرني الآن؛ ماذا فعلت بـ كاثرين؟»

قـبـل ذلـك..

ألمحه بطرف عيني.

خرقًا لسطح الماء.

تموجات.

ضوء شمس.

شيء يبرز من الماء ثم يغوص ثانية.

كنت أراقب البحيرة بانفصال ذهني تام، وهو ما يحدث عادة حين ترى شيئًا ألف مرة. تنظر دون أن تبصر حقًا. تقع عيناك على كل شيء، ولا يسجل عقلك شيئًا.

ربما للبوربون يد في ذلك.

هذا كأسي الثالث.

أو ربما الرابع.

عدُّ الكؤوس – شيء آخر أفعله بانفصال تام.

لكن حركة الماء الآن تستحوذ على انتباهي بالكامل. أنهض من الكرسي الهزاز على ساقين تترنحان بعد ثلاثة – أو أربعة – كؤوس نهارية، لأراقب السطح الزجاجي للبحيرة وهو يتكسر مجددًا إلى دوائر تتراقص عليها بقع الشمس.

أُضيِّق عينيّ، محاولة الانسلاخ من ضباب البوربون لبرهة تكفي لتبين ماهية ما أراه. بلا طائل. فالحركة تتمركز في قلب البحيرة الميت؛ أبعد من أن تُرى بوضوح.

أبرح الشرفة الخلفية لمنزل البحيرة، وأتخطى العتبة إلى الداخل، ثم أجرجر قدميّ نحو البهو الضيق خلف الباب الأمامي مباشرة. ثمة مشجب هناك، يئن تحت

وطأة المعاطف المبطنة والسترات الواقية من المطر. ومن بينها، يتدلى منظار مكبر محفوظ في جراب جلدي بحزام مهترئ، لم تمسه يد لأكثر من عام.

أعود إلى الشرفة الخلفية والمنظار في يدي، أقف عند السياج وأمسح صفحة البحيرة. تعاود التموجات الظهور، ومن بؤرتها، تنبثق يد من الماء.

يسقط المنظار على أرضية الشرفة.

أفكر: *أحدهم يغرق.*

أفكر: *عليَّ إنقاذه.*

أفكر: *لين.*

هذه الفكرة الأخيرة – عن زوجي، وعن كيف لقي حتفه في هذه المياه العميقة ذاتها – تدفعني للتحرك. أندفع مبتعدة عن السياج، فترتجف مكعبات الثلج في كأس البوربون القابع بجوار الكرسي الهزاز. يَرنّ الكأس بخفوت وأنا أغادر الشرفة، أهبط الدرج مسرعة، وأثب عبر الأمتار القليلة من الأرض المكسوة بالطحالب الفاصلة بين المنزل وحافة الماء. ينتفض الرصيف الخشبي حين أقفز عليه، ويواصل ارتجافه بينما أركض نحو القارب الآلي المرسو عند نهايته. أفك قيد القارب، وأترنح داخله، وألتقط مجدافًا لأدفع به مبتعدة عن الرصيف.

يدور القارب حول نفسه للحظة، مؤديًا رقصة باليه غير أنيقة على سطح الماء قبل أن أُقوّم مساره بالمجداف. وما إن توجه القارب نحو وسط البحيرة، حتى درت المحرك الخارجي بجذبة قوية أوجعت ذراعي. وبعد خمس ثوانٍ، كان القارب ينزلق فوق الماء، قاصدًا البقعة التي رأيت فيها التموجات الدائرية آخر مرة، والتي لا أرى فيها شيئًا الآن.

أبدأ في التمني بأن ما رأيته لم يكن سوى سمكة تقفز من الماء. أو طائر غواص يغوص فيه. أو أن انعكاس شمس السماء على صفحة البحيرة، مع عدة كؤوس من البوربون، قد جعلني أتوهم شيئًا لا وجود له.

مجرد أمانٍ واهية.

لأن القارب حين اقترب من منتصف البحيرة، لمحتُ شيئًا في الماء.

جسدًا.

يطفو على السطح.

بلا حراك.

أُطفئ المحرك وأزحف بلهفة نحو مقدمة القارب لأحظى برؤية أوضح. لا أستطيع الجزم إن كان الشخص مستلقيًا على ظهره أو وجهه، حيًا أم ميتًا. كل ما أراه هو ظلال أطراف ممدودة في الماء، وتشابك خصلات شعر تطفو كأعشاب البحر. تقتحم صورة لين ذهني وهو في الوضعية ذاتها، فأصرخ باتجاه الضفة:

– «النجدة! أحدهم يغرق!»

تتردد أصداء الكلمات بين الأشجار المتوهجة بألوان اللهب على جانبي البحيرة، والأرجح ألا أحد يسمعها. نحن في منتصف أكتوبر، وبحيرة جرين – التي لم تكن تعج بالزوار قط – مهجورة بالكامل. الساكن الدائم الوحيد هو إيلي، وقد غادر ولن يعود قبل المساء. وإن كان هناك من يتواجد بالجوار، فهم لا يفصحون عن وجودهم.

أنا بمفردي.

أتناول المجداف مرة أخرى وأشرع في التجديف نحو الشخص الطافي في الماء. أتبين الآن أنها امرأة. شعرها طويل. ترتدي ثوب سباحة من قطعة واحدة يكشف عن ظهر لوحته الشمس، وساقين ممشوقتين، وذراعين مشدودتين. تطفو كقطعة خشب طافية، تتأرجح برفق في الأثر الذي يخلفه القارب.

تزاحم صورة أخرى لـ لين عقلي وأنا أتخبط بحثًا عن المرساة المربوطة بأحد المرابط على حافة القارب. ليست المرساة ثقيلة – تزن نحو عشرين رطلًا فقط –

لكنها ثقيلة بما يكفي لمنع القارب من الانجراف. ألقيها في الماء، ويهسهس الحبل المتصل بها ضد جانب القارب وهي تغوص نحو قاع البحيرة.

بعد ذلك، أنتزع سترة نجاة مخزنة تحت أحد المقاعد، وأتعثر نحو جانب القارب لألحق بالمرساة في الماء. أهبط إلى البحيرة بطريقة خرقاء؛ فلا مجال لغوصة رشيقة، بل مجرد سقطة جانبية. لكن برودة الماء توقظني كصفعة. تتقد حواسي ويلسعني جسدي، فأطوي سترة النجاة تحت ذراعي اليسرى وأستخدم اليمنى لأشق طريقي نحو المرأة.

أنا سباحة ماهرة، حتى وأنا نصف ثملة. لقد ترعرعت على ضفاف بحيرة جرين، وأمضيت أيامًا صيفية لا تحصى داخل مياهها أكثر مما أمضيته خارجها. ورغم انقضاء أربعة عشر شهرًا منذ آخر مرة غصت فيها في البحيرة، إلا أن مياهها مألوفة لي كفراشي. تنعش الجسد حتى في أشد الأيام حرارة، وتظل نقية كبلورة للحظات معدودة قبل أن يبتلعها الظلام.

وأنا أضرب الماء متجهة نحو المرأة الطافية، أبحث عن أي علامة من علامات الحياة.

لا شيء.

لا ارتعاشة في ذراعيها، ولا ركلة من قدميها، ولا التفاتة بطيئة من رأسها.

تتردد فكرة واحدة في جمجمتي حين أبلغها. نصفها رجاء، ونصفها صلاة.

أرجوكِ ألا تكوني ميتة. أرجوكِ، أرجوكِ كوني حية.

لكن حين أطوّق عنقها بسترة النجاة وأقلبها، لا يبدو عليها أي أثر للحياة. محتضنة بسترة النجاة ورأسها مائل نحو السماء، تبدو كجثة هامدة. عينان مغلقتان. شفتان زرقاوان. بشرة جليدية. أربط أحزمة السترة السفلية لأحكم إغلاقها، وألصق راحة يدي على صدرها.

لا أثر لنبض قلب.

تبًا.

أود أن أصرخ طلبًا للنجدة مجددًا، لكن أنفاسي متقطعة تعجز عن إطلاق الكلمات. حتى أمهر السباحين لديهم طاقة استيعاب، وقد بلغتُ ذروة طاقتي. يجرني الإرهاق كتيار جارف، وأعلم أن التجديف لدقائق إضافية في مكاني وأنا أتشبث بامرأة ربما – أو على الأرجح – ميتة، قد يجعلني ألقى المصير ذاته.

أطوق خصرها بذراع واحدة وأستخدم الأخرى للسباحة عائدة نحو القارب.

ليس لدي أدنى فكرة عما سأفعله حين أبلغه. سأتشبث بحافته، على ما أظن.

سأتشبث بقوة وأنا أحتضن هذه المرأة التي تبدو ميتة يقينًا، على أمل أن أستعيد قدرة رئتيّ لأصرخ مجددًا.

وعلى أمل أن يسمعني أحد هذه المرة.

لكن شغلي الشاغل في هذه اللحظة هو بلوغ القارب أساسًا. لم يخطر ببالي أن أجلب سترة نجاة لنفسي، وها هي ضرباتي تتباطأ، وقلبي يقرع بجنون، ولم أعد أشعر بركلات ساقيّ، رغم أنني أظن أنهما ما زالتا تتحركان. الماء شديد البرودة وأنا منهكة حد الموت. إرهاق مفزع ولا يُحتمل، لدرجة أنني أفكر للحظة في تجريد المرأة من سترتها لأرتديها أنا وأتركها تغوص في الأعماق.

غريزة البقاء تفرض سطوتها.

لا أستطيع إنقاذها دون أن أنقذ نفسي أولًا، وربما تكون قد تعدت مرحلة الإنقاذ أصلًا. لكنني أتذكر لين ثانية؛ ميتًا منذ أكثر من عام، وجسده ملقى متكومًا على ضفة هذه البحيرة بالذات. لا يمكنني ترك المصير ذاته يلحق بهذه المرأة.

لذا أواصل التجديف بذراع واحدة، والركل بساقين خدرتين، وسحب ما أوقن الآن أنه جثة هامدة. أثابر حتى بات القارب على بُعد عشر أقدام.

ثم تسع.

ثم ثمانٍ.

بجواري، تنتفض جثة المرأة فجأة. صدمة مباغتة. هذه المرة، أُفلتها بالفعل، وترتد ذراعي من هول المفاجأة.

تنفتح عينا المرأة بحدة.

تسعل – سلسلة من السعلات العميقة، الصاخبة، المروعة والمصحوبة بغرغرة. يندفع تيار من الماء من فمها ليسيل على ذقنها، بينما ينساب خيط من المخاط من فتحة أنفها اليسرى نحو خدها. تمسح كل ذلك وتحدق بي، في حالة من الضياع، واللهاث، والرعب.

سألت:

– «ماذا حدث للتو؟»

قلتُ مستحضرةً شفتيها الزرقاوين، وبشرتها الجليدية، وسكونها التام والمفزع:

– «لا تفزعي، لكني أظنك كدتِ تغرقين.»

****

لم تتفوه أي منا بكلمة أخرى حتى أصبحنا كلتانا في مأمن داخل القارب. لم يكن ثمة متسع للكلمات وأنا أتشبث، وأركل، وأتسلق جانب القارب حتى تمكنت من السقوط على أرضيته كسمكة اصطيدت للتو. كان إدخال المرأة إلى القارب أشد وطأة، بالنظر إلى أن تجربة اقترابها من الموت قد استنزفت كل طاقتها. تطلب الأمر مني الكثير من السحب والرفع حتى انهرتُ من الإعياء بمجرد استقرارها في القارب، عاجزة عن الحركة، فضلًا عن الكلام.

لكن الآن، وبعد بضع دقائق من اللهاث المتواصل، سحبنا أنفسنا لنجلس على المقاعد. نجلس متقابلتين، مذهولتين من وطأة المشهد، وممتنتين لأخذ قسط من الراحة لدقائق ريثما نستجمع شتات أنفسنا.

قالت المرأة:

– «قلتِ إنني كدتُ أغرق.»

كانت تتدثر ببطانية صوفية مربعة النقوش وجدتها مخبأة تحت أحد مقاعد القارب، ما أضفى عليها مظهر هرة أُنقذت من بالوعة عاصفة. هشة، ومجروحة، ومفعمة بالامتنان.

أجبتُ وأنا أعصر الماء من قميصي القطني الفلانيل. ونظرًا لعدم وجود سوى بطانية واحدة على متن القارب، فقد بقيت مبللة وأرتجف. لم أبالِ؛ لست أنا من احتاج إلى الإنقاذ:

– «أجل.»

سألت:

– «وماذا تقصدين بـ (كدتِ)؟»

أجبتُها:

– «بصراحة؟ ظننتكِ ميتة.»

ارتجفت المرأة تحت البطانية وتمتمت:

– «يا إلهي!»

أضفتُ محاولة التخفيف من وقع الصدمة البادية عليها:

– «لكنني أخطأت التقدير. من الواضح أنكِ عدتِ إلى الحياة بمفردك. أنا لم أفعل شيئًا.»

تتحرك المرأة في مقعدها، لتكشف عن ومضة من ثوب سباحة زاهٍ يختبئ عميقًا تحت البطانية. لونه أزرق مائل للأخضر. ذو طابع استوائي بامتياز. وغير لائق البتة بخريف فيرمونت، مما جعلني أتساءل كيف انتهى بها المطاف هنا. لو أخبرتني أن كائنات فضائية اختطفتها بأشعة ناقلة من شاطئ رملي أبيض في جزر «السيشل» لترميها في بحيرة جرين، لصدقتها على الأرجح.

قالت:

– «ومع ذلك، أنا على يقين من أنني كنت سأموت لو لم تريني. لذا، شكرًا لكِ على إنقاذي. كان يجدر بي قول هذا في وقت أبكر. أعني، على الفور.»

هززت كتفي بتواضع مجيبة:

– «لن أضمر لكِ ضغينة.»

تضحك المرأة، وفي غمرة ضحكتها تدب فيها الحياة بطريقة تمحو كل أثر لتلك الجثة التي وجدتها تطفو في الماء. عاد اللون إلى وجهها – حُمرة خوخية تبرز وجنتيها المرتفعتين، وشفتيها المكتنزتين، وحاجبيها المرسومين كخط قلم رصاص. عيناها الرماديتان المائلتان للخضرة واسعتان ومعبرتان، وأنفها معوج قليلًا، وهو عيب

يضفي عليها سحرًا وسط كل هذا الكمال. إنها فاتنة، حتى وهي متكورة تحت بطانية وتقطر بماء البحيرة.

تلمحني وأنا أحدق فيها فتقول:

– «بالمناسبة، أنا كاثرين.»

حينها فقط أدرك أنني أعرف هذه المرأة. ليس بصفة شخصية؛ فلم نلتقِ قط على حد علمي. لكنني أميزها على أي حال.

كاثرين رويس.

عارضة الأزياء السابقة.

فاعلة الخير الحالية.

وصاحبة المنزل المطل مباشرة على الضفة المقابلة للبحيرة مناصفة مع زوجها. كان المنزل شاغرًا في آخر زيارة لي، معروضًا للبيع بأكثر من خمسة ملايين دولار. وقد تصدر خبر بيعه عناوين الصحف في الشتاء الماضي، ليس فقط لهوية مشتريه، بل لموقعه.

بحيرة جرين.

الملاذ الشتوي لأيقونة المسرح الموسيقي المحبوبة، لولي فليتشر.

والمكان الذي لقي فيه زوج الممثلة المضطربة، كيسي فليتشر، مصرعه المأساوي غرقًا.

ليست هذه المرة الأولى التي تُستخدم فيها هذه النعوت لوصفي أنا وأمي. لقد استُخدمت مرارًا وتكرارًا حتى كادت تحل محل أسمائنا الأولى. لولي فليتشر «المحبوبة»، وكيسي فليتشر «المضطربة». ثنائي الأم والابنة المخلد في ذاكرة الزمن.

قلتُ:

– «أنا كيسي.»

أجابت كاثرين:

– «أوه، أنا أعرفك. لقد قصدنا، أنا وزوجي توم، المجيء لإلقاء التحية حين وصلنا ليلة أمس. كلانا من أشد معجبيكِ.»

سألتها:

– «كيف عرفتِ بوجودي هنا؟»

أشارت نحو منزل البحيرة الذي توارثته عائلتي لأجيال متعاقبة قائلة:

– «كانت أضواؤك مشتعلة.»

لا يُعد المنزل الأكبر على ضفاف بحيرة جرين – فهذا الشرف يحظى به منزل كاثرين الجديد – لكنه الأقدم. شيده جد جدي في عام 1878، وخضع للتجديد والتوسعة كل خمسين عامًا تقريبًا. من ناحية الماء، يبدو منزل البحيرة آسرًا. يجثم بالقرب من الضفة، شامخًا وصلبًا خلف جدار ساند من الحجارة الجبلية، ويكاد يكون محاكاة ساخرة للدفء الكلاسيكي لمنطقة «نيو إنغلاند». طابقان ناصعا البياض من الجملونات، والشبابيك الخشبية المتقاطعة، والزخارف الخشبية المنحوتة بعناية. يمتد نصف المنزل بموازاة حافة الماء، قريبًا جدًا لدرجة أن الشرفة المحيطة به تتدلى فعليًا فوق البحيرة ذاتها.

هناك كنت أجلس بعد ظهر اليوم حين لمحتُ كاثرين تتخبط في الماء لأول مرة.

وهناك كنت أجلس ليلة أمس حين كنت ثملة حد العجز عن ملاحظة وصول الزوجين الشهيرين اللذين يمتلكان الآن المنزل المطل مباشرة على الضفة المقابلة.

يتراجع النصف الآخر من منزل عائلتي الصيفي نحو عشر ياردات للخلف، ليُشكل فناءً صغيرًا. وفي الأعلى، في الطابق الأخير، يقدم صف من النوافذ الطويلة إطلالة ساحرة من غرفة النوم الرئيسية. في هذه اللحظة، في منتصف الظهيرة، تتوارى النوافذ في ظلال أشجار الصنوبر الشاهقة. لكني أظن أن الوهج المنبعث من غرفة النوم الرئيسية في الليل يسطع بقوة منارة.

قالت كاثرين:

– «كان المكان غارقًا في الظلام طوال الصيف. وحين لاحظنا، أنا وتوم، الأضواء ليلة أمس، افترضنا أنها أنتِ.»

تتجنب بلباقة ذكر السبب الذي دفعها هي وزوجها لافتراض أنها أنا، وليس أمي على سبيل المثال.

أعلم أنهما يعرفان قصتي.

فالجميع يعرفها.

التلميح الوحيد الذي أشارت به كاثرين إلى أزماتي الأخيرة كان سؤالًا لطيفًا ينم عن اهتمام:

– «بالمناسبة، كيف حالك؟ ما تمرين به قاسٍ جدًا. أن تضطري للتعامل مع كل ذلك.»

انحنت إلى الأمام وربتت على ركبتي – وهي لفتة حميمية مفاجئة من شخص التقيته للتو، حتى لو أخذنا في الاعتبار حقيقة أنني أنقذت حياتها على الأرجح.

أجبتُها، لأن البوح بالحقيقة سيفتح الباب للحديث عن (كل ذلك)، على حد تعبيرها:

– «أنا في أفضل حال.»

لست مستعدة لذلك بعد، رغم انقضاء أكثر من عام. جزء مني يوقن أنني لن أكون مستعدة أبدًا.

قالت كاثرين بابتسامة ساطعة كشعاع شمس:

– «هذا رائع. أشعر بالذنب لأنني كدت أفسد ذلك من خلال، كما تعلمين، الغرق.»

رددتُ عليها:

– «إذا كان هذا يواسيكِ، فقد ترك ذلك الانطباع الأول أثرًا لا يُنسى.»

ضحكت. حمدًا لله. فالبعض يصف حس الدعابة لدي بأنه جاف، ويصفه آخرون بالقسوة. أما أنا فأفضل اعتباره ذوقًا مكتسبًا، أشبه بحبة الزيتون القابعة في قاع كأس المارتيني؛ إما أن تستسيغها أو تنفر منها.

يبدو أن كاثرين قد استساغتها. قالت ولا تزال الابتسامة تعلو ثغرها:

– «المشكلة أنني لا أعرف حتى كيف حدث ذلك. أنا سباحة ممتازة. أعلم أن مظهري الحالي لا يوحي بذلك، لكنها الحقيقة، أقسم لكِ. أظن أن الماء كان أشد برودة مما توقعت، فأصبت بشد عضلي.»

قلتُ:

– «نحن في منتصف أكتوبر. مياه البحيرة جليدية في مثل هذا الوقت من العام.»

أجابت:

– «أوه، أنا أعشق السباحة في المياه الباردة. في كل يوم من أيام رأس السنة، أمارس (الغطس القطبي).»

أومئ برأسي. بالطبع تفعل.

أضافت كاثرين:

– «إنها من أجل الأعمال الخيرية.»

أومئ برأسي مجددًا. بالطبع هي كذلك.

لابد أن تعبيرًا استنكاريًا قد ارتسم على وجهي، لأن كاثرين بادرت قائلة:

– «أنا آسفة. بدا الأمر برمته كاستعراض للتباهي، أليس كذلك؟»

اعترفتُ:

– «قليلًا.»

قالت:

– «أوف. لم أقصد ذلك. إنه يحدث بعفوية. إنه النقيض لـ (التواضع الزائف). يجب أن يكون هناك مصطلح يصف اللحظة التي تجعل فيها نفسك تبدو أفضل مما أنت عليه حقًا عن غير قصد.»

اقترحتُ:

– «التباهي الأخرق؟»

هتفت كاثرين بإعجاب:

– «أوه، راقني هذا الوصف. هذا ما أنا عليه يا كيسي. متباهية خرقاء ميئوس منها.»

تدفعني غريزتي الأولى إلى النفور من كاثرين رويس. إنها من طراز النساء اللواتي يبدو أن وجودهن مقتصر على إشعار بقيتنا بالدونية. ومع ذلك، فقد سحرتني. لربما يعود فضل ذلك إلى غرابة الموقف الذي جمعنا؛ المنقِذ والمنقَذ، جالستين في قارب في ظهيرة خريفية فاتنة. ثمة طابع سريالي يُذكر بقصة حورية البحر الصغيرة يظلل المشهد، كأنني أمير فُتن بحورية بحر انتشلها للتو من أمواج المحيط.

لا يبدو أن هناك أي تصنع في شخصية كاثرين. هي فاتنة، نعم، ولكن بطريقة واقعية بسيطة. أقرب إلى فتاة الجيران اللطيفة منها إلى قنبلة إغراء مروعة. مزيج من براءة «بيتي» ودهاء «فيرونيكا» تتوجها ابتسامة تفيض بالتواضع الذاتي. لقد خدمها هذا المزيج جيدًا في أيام عملها كعارضة أزياء؛ ففي عالم تكسوه ملامح الغرور الباردة، برزت كاثرين كاستثناء.

انتبهتُ لوجودها للمرة الأولى قبل سبع سنوات، حين كنت أؤدي دورًا في مسرحية في إحدى مسارح برودواي في شارع 46. وعلى مقربة من هناك، في قلب (تايمز سكوير)، اعتلت لوحة إعلانية عملاقة لـ كاثرين وهي ترتدي فستان زفاف. ورغم الفستان، والزهور، والبشرة التي لثمتها الشمس، لم تكن عروسًا خجولًا؛ بل كانت هاربة – تركل حذاءها ذي الكعب العالي، وتركض بأقصى سرعة عبر عشب

زمردي، في حين تسمّر خطيبها المصدوم وحاشية الزفاف في الخلفية يراقبونها بعجز تام.

لم أعرف إن كان الإعلان يروج لعطر، أم لفساتين زفاف، أم لمشروب فودكا، ولم أكترث للأمر حقًا. كل ما كان يأسرني في كل مرة تقع فيها عيناي على اللوحة، هو نظرة تلك المرأة. بعينيها المبتسمتين وابتسامتها العريضة، بدت منتشية، ومتحررة، ومندهشة. امرأة غمرتها النشوة وهي تنسف وجودها بأكمله بضربة واحدة قاضية.

لطالما تماهيت مع تلك النظرة.

وما زلت.

وبعد إسدال الستار على المسرحية، وحين استمرت صورتها في ملاحقتي في كل زاوية، ربطتُ الاسم بالوجه.

كاثرين دانيلز.

دعتها المجلات «كاتي»، ولقبها المصممون الذين اتخذوها ملهمة لهم بـ «كات». تبخترت على منصات عروض «إيف سان لوران»، ومرحت على شواطئ «كالفن كلاين»، وتقلبت على ملاءات «فيكتوريا سيكريت» الحريرية.

ثم تزوجت من توماس رويس، المؤسس والمدير التنفيذي لشركة تواصل اجتماعي، واعتزلت عرض الأزياء. أذكر رؤية صورة زفافهما في مجلة «بيبول»، وأذكر كم تفاجأت بها. توقعت أن تبدو كاثرين كما بدت على تلك اللوحة الإعلانية؛ تجسيدًا حيًا للحرية. وبدلًا من ذلك، ظهرت محاصرة في فستان من تصميم «فيرا وانغ»، تتشبث بذراع زوجها، تعلو وجهها ابتسامة متصلبة بالكاد مكنتني من التعرف عليها.

وها هي الآن هنا، في قاربي، تبتسم بطلاقة، ويغمرني شعور غريب بالارتياح؛ إذ يبدو أن تلك المرأة التي أطلت من اللوحة الإعلانية لم تتلاشَ تمامًا.

سألتُ:

– «هل يمكنني طرح سؤال شخصي، وفضولي جدًا؟»

أجابت كاثرين:

– «لقد أنقذتِ حياتي للتو. سأكون وغدة بحق إن رفضت الآن، ألا تظنين ذلك؟»

قلتُ:

– «إنه يخص أيام عملك كعارضة أزياء.»

قاطعتني كاثرين رافعةً يدها وقالت:

– «تريدين معرفة سبب اعتزالي.»

أومأتُ بكتفيَّ في حركة اعتذارية وقلت:

– «نوعًا ما.»

شعرت بالذنب لكوني مكشوفة وسطحية إلى هذا الحد. كان بوسعي سؤالها عن ألف شيء آخر، لكنني اخترت السؤال الذي لا تنفك تُسأل عنه دائمًا.

قالت:

– «القصة الطويلة هي أن الأمر أقل بريقًا بكثير مما يبدو عليه. الساعات كانت لا تنتهي، والنظام الغذائي كان ضربًا من التعذيب. تخيلي ألا يُسمح لكِ بتناول قطعة خبز واحدة طوال عام كامل.»

رددتُ:

– «بصراحة، لا أستطيع التخيل.»

تابعت كاثرين:

– «كان هذا وحده سببًا كافيًا للاعتزال. وأحيانًا أكتفي بإخبار الناس بذلك؛ أنظر في أعينهم وأقول: لقد استقلتُ لأنني أردت تناول البيتزا. لكن الأسوأ، بصراحة، كان تسليط الضوء كله على مظهري. كل ذلك الاهتمام المهووس بالتجميل وتسليع الجسد. لم يكترث أحد لما أقول، أو أفكر، أو أشعر. سرعان ما بات الأمر مملًا

ومبتذلًا. لا تفهميني خطأ، فالمال كان وفيراً، بل وفيراً حد الجنون. والأزياء كانت ساحرة، فاتنة بحق؛ قطع فنية لا تضاهى. لكنني شعرت بخلل ما. الناس يعانون، والأطفال يتضورون جوعًا، والنساء يقعن ضحايا، وأنا أتبختر على منصة العرض بفساتين يفوق ثمنها ما تجنيه معظم العائلات في عام كامل. كان أمرًا مريعًا.»

قلتُ:

– «يبدو الأمر مشابهًا جدًا للتمثيل.»

توقفتُ قليلًا ثم أضفت:

– «أو كونك حصان استعراض.»

أطلقت كاثرين ضحكة شخيرية، وقررتُ في تلك اللحظة بالذات أنني أحبها بالفعل. نحن نتشابه في أمور كثيرة. مشهورتان لأسباب لا تريحنا تمامًا. محظيتان بامتيازات مفرطة، لكننا نملك من الوعي الذاتي ما يكفي لإدراك ذلك. توّاقتان لأن يُنظر إلينا ككيان يتجاوز ما يسقطه الناس علينا.

قالت:

– «على أي حال، هذه هي القصة الطويلة. ولا تُروى إلا لمن ينقذني من الغرق.»

سألتُها:

– «وما هي القصة القصيرة؟»

أشاحت كاثرين بوجهها نحو الضفة المقابلة للبحيرة، حيث يهيمن منزلها على المشهد، وقالت:

– «أرادني توم أن أتوقف.»

غشت وجهها نظرة قاتمة. كانت عابرة – كظل غيمة على سطح الماء. توقعتُ أن تضيف شيئًا عن زوجها وعن سبب فرضه مطلبًا كهذا. وبدلًا من ذلك، انفتح فمها وشرعت في السعال.

بقوة.

بأشد مما كانت عليه سابقًا.

سعلات خشنة، عميقة، ومدوية بما يكفي ليتردد صداها عبر الماء. سقطت البطانية، فعانقت كاثرين نفسها حتى تجاوزت نوبة السعال. بدت مذعورة حين انتهت. مر ظل غيمة آخر على وجهها، ولثانية واحدة، بدت وكأنها لا تعي ما حدث للتو. لكن الظل تبدد سريعًا، وأطلقت ابتسامة مطمئنة.

قالت:

– «حسنًا، لم يكن هذا تصرفًا أنثويًا البتة.»

سألتُها:

– «هل أنتِ بخير؟»

ارتجفت يدا كاثرين وهي تسحب البطانية مجددًا لتدثر كتفيها المقشعرين، وقالت:

– «أظن ذلك. لكن ربما حان وقت العودة إلى المنزل الآن.»

قلتُ:

– «بالطبع، لا بد أنكِ تتجمدين.»

وأنا كذلك بكل تأكيد. فبعد أن تبدد إكسير الأدرينالين الذي بثته محاولتي البطولية السابقة، اجتاحتني برودة قاسية. ارتجف جسدي وأنا أسحب المرساة من قاع البحيرة. كان الحبل بأكمله – الذي يبلغ طوله خمسين قدمًا – مشبعًا بالماء جراء تمدده في الأعماق. وبحلول الوقت الذي فرغت فيه من سحب المرساة، كانت ذراعاي قد استُنزفتا تمامًا لدرجة أن تشغيل المحرك تطلب مني محاولات عدة.

بدأتُ بتوجيه القارب نحو منزل كاثرين. يعد منزلها شذوذًا معماريًا على ضفاف البحيرة، إذ إنه البناء الوحيد المشيد بعد السبعينيات. كان يقع مكانه كوخ

خشبي كلاسيكي من الثلاثينيات، تحيط به أشجار الصنوبر الشاهقة، قبل أن يُزال الكوخ وتُقتلع الأشجار منذ عشرين عامًا.

وليحل مكانه الآن مسخ هندسي حاد الزوايا يبرز من الأرض ككتلة صخرية. تُغطي واجهته المطلة على البحيرة ألواح زجاجية بالكامل، بدءًا من الطابق الأرضي الواسع الممتد، وصولًا إلى قمة السقف المدبب. في وضح النهار، يبدو البناء مهيبًا، وإن كان يبعث على الملل قليلًا؛ فهو المعادل العقاري لواجهة متجر زجاجية لا تُعرض فيها أي بضاعة.

أما في الليل، حين تشتعل الأضواء في غرفه كافة، فإنه يتخذ هيئة بيت دمى. كل غرفة مكشوفة للعيان؛ مطبخ لامع، غرفة طعام متلألئة، وغرفة معيشة فسيحة تمتد بطول الفناء الحجري الخلفي الذي ينحدر حتى حافة البحيرة.

لم تطأ قدماي داخله سوى مرة واحدة، حين دُعينا، لين وأنا، لتناول العشاء من قبل المالكين السابقين. كان الجلوس خلف كل ذلك الزجاج مريبًا؛ كعينة فحص تحت المجهر.

لا يعني هذا أن هناك الكثير من الأعين المتربصة في الجوار. فبحيرة جرين صغيرة بالمقاييس المتعارف عليها؛ إذ يبلغ طولها ميلًا واحدًا، ولا يتجاوز عرضها ربع ميل في بعض النقاط، وتغفو وحيدة وسط رقعة غابات كثيفة في شرق فيرمونت.
تشكلت في أواخر العصر الجليدي، حين شق نهر جليدي طريقه عبر الأرض وقرر أن يترك قطعة من نفسه خلفه. ذاب ذلك الجليد، حافرًا في الأرض تجويفًا استقرت فيه مياهه في النهاية. مما يجعلها في جوهرها مجرد بركة؛ بركة شاسعة وعميقة وآسرة الجمال، لكنها تظل بركة رغم ذلك.

وتتميز بخصوصيتها الفائقة، وهو سر جاذبيتها الأول. لا يمكن الوصول إلى مياهها إلا عبر أرصفة المنازل الخاصة، وهي قليلة العدد. خمسة منازل فقط تتوسد ضفاف البحيرة، بفضل مساحات الأراضي الشاسعة وندرة الأراضي الإضافية الصالحة

للبناء. يطوق الطرف الشمالي للبحيرة غابة محمية، بينما ينتهي الطرف الجنوبي بمنحدر صخري وعر. وفي المنتصف، تتوزع المنازل؛ منزلان على ضفة، وثلاثة على الضفة الأخرى.

على هذه الضفة الأخيرة تقيم كاثرين. ينتصب منزلها شامخًا ومهيبًا بين بنائين أقدم وأكثر تواضعًا. إلى اليسار، وعلى بُعد نحو مائة ياردة أسفل الضفة، يقع منزل عائلة فيتزجيرالد. هو يعمل في مجال الصيرفة، وهي تهوى جمع التحف. يحلّان في كوخهما الساحر في عطلة «يوم الذكرى»، ويغادرانه في «عيد العمال»، ليُترك المكان خاويًا بقية العام.

وإلى يمين منزل رويس، يستقر مسكن إيلي ويليامز المتهالك، وهو روائي حقق شهرة واسعة في الثمانينيات، وانحسرت أضواؤه الآن. يشبه منزله شاليهًا سويسريًا – ثلاثة طوابق من الخشب الخشن، بشرفات صغيرة في الطوابق العليا ونوافذ مزدانة بمصاريع حمراء. وعلى غرار عائلتي، كان إيلي وزوجته يمضيان صيفهما في بحيرة جرين. وعقب وفاتها، باع منزلهما في «نيوجيرسي» واستقر هنا بصفة دائمة. وباعتباره الساكن الدائم الوحيد على ضفاف البحيرة، أخذ على عاتقه مهمة حراسة المنازل الأخرى حين يغادر الجميع.

لا أضواء تومض في منزل كاثرين، ما يجعل واجهته الزجاجية تعكس البحيرة كمرآة صافية. ألمح انعكاسًا مشوهًا لنا في القارب، صورتانا تتأرجحان، وكأننا نحن أيضًا جُبلنا من ماء.

حين أرسيتُ القارب عند رصيف المنزل، انحنت كاثرين للأمام وأمسكت بيديّ الباردتين بين يديها وقالت:

– «شكرًا لكِ مجددًا. لقد أنقذتِ حياتي حقًا.»

أجبتُها:

– «لا شكر على واجب. فضلًا عن أنني سأكون إنسانة مريعة إن تجاهلت عارضة أزياء خارقة في محنة.»

صححت لي:

– «عارضة أزياء سابقة.»

ثم سعلت مجددًا. سعلة واحدة، حادة كنباح.

سألتُها:

– «هل ستكونين بخير؟ هل تحتاجين لزيارة طبيب أو ما شابه؟»

أجابت:

– «سأكون بخير. سيعود توم قريبًا. وحتى ذلك الحين، أظن أنني سآخذ حمامًا ساخنًا وقيلولة طويلة.»

خطت على الرصيف الخشبي وأدركت أن بطانيتي لا تزال تلتف حول كتفيها.

– «يا إلهي، لقد نسيت أمر هذه تمامًا.»

قلتُ:

– «احتفظي بها الآن، فأنتِ بحاجة إليها أكثر مني.»

أومأت كاثرين برأسها شاكرةً، وشرعت في طريقها نحو المنزل. ورغم أنني لا أظن الأمر مقصودًا، إلا أنها كانت تخطو على الرصيف الخشبي وكأنها تتهادى على منصة عرض. خطواتها طويلة، وانسيابية، وأنيقة. ربما سئمت كاثرين عالم عرض الأزياء، ولها كل الحق في ذلك، غير أن طريقتها في التحرك موهبة فطرية. تمتلك رشاقة شبح يتنقل بلا جهد.

وما إن بلغت المنزل، حتى التفتت إليّ ولوّحت بيدها اليسرى.

حينها فقط لاحظت شيئًا غريبًا.

لقد ذكرت كاثرين زوجها مرارًا، لكنها – في الوقت الحالي على الأقل – لا ترتدي خاتم زواج.

كان هاتفي يرن حين عدت إلى منزل البحيرة، وتناهت زقزقته المزعجة كطائر غاضب إلى مسامعي وأنا أصعد درجات الشرفة. ولأنني كنت مبللة، ومرهقة، والبرد ينخر عظامي، كانت غريزتي الأولى هي تجاهله. لكنني لمحت اسم المتصل.

مارني.

مارني الرائعة، واللاذعة، والصابرة بما يفوق سنها.

الشخص الوحيد الذي لم يسأم بعد من حماقاتي بالكامل، ولعل مردَّ ذلك كونها ابنة عمي. وصديقتي المقربة. ومديرة أعمالي، رغم أنها اليوم تتقمص دور الصديقة بامتياز.

بادرتني بمجرد إجابتي:

– «هذه ليست مكالمة عمل.»

قلتُ، لعلمي التام بانعدام أي أعمال تستدعي الاتصال من أجلها، لا الآن، وربما ليس للأبد:

– «افترضت ذلك.»

قالت:

– «أردت فقط الاطمئنان على حال المستنقع العجوز.»

سألتُها:

– «هل تقصدينني أنا أم البحيرة؟»

أجابت:

– «كليكما.»

تتظاهر مارني بأنها تكنّ مشاعر مختلطة لبحيرة جرين، رغم يقيني بأنه حب خالص. أيام الطفولة، أمضينا كل فصول الصيف هنا معًا؛ نسبح، ونجدف بالقوارب، ونسهر شطرًا من الليل بينما تقص علينا مارني حكايات الأشباح.

– «أنتِ تدركين أن البحيرة مسكونة، أليس كذلك؟»

هكذا كانت تستهل دائمًا حكاياتها، متكورة عند أسفل السرير في الغرفة التي تشاركناها، ساقاها السمراوان ممددتان، وقدماها الحافيتان ملتصقتان بالسقف المائل.

قلتُ وأنا أهوي بجسدي على كرسي هزاز:

– «العودة إلى هنا تبدو غريبة.. وحزينة.»

ردت:

– «أمر طبيعي.»

أضفتُ:

– «وموحشة.»

هذا المكان أوسع من أن يحتويه شخص بمفرده. بدأ صغيرًا – مجرد كوخ على بحيرة نائية. ومع توالي السنين والإضافات، تضخم ليغدو مأوى لعائلة بأكملها. يبدو خاويًا الآن بعد أن أصبحت وحدي. ليلة أمس، حين جافاني النوم في الثانية صباحًا، درت من غرفة إلى أخرى، مستوحشة من كل هذا الفراغ الموحش.

الطابق الثالث. أجنحة النوم. خمس غرف نوم في المجمل، تتفاوت أحجامها بين الجناح الرئيسي الفسيح بحمامه الخاص، وتلك الغرفة الصغيرة ذات السريرين والسقف المائل حيث نمنا، مارني وأنا، في طفولتنا.

الطابق الثاني. منطقة المعيشة الرئيسية، وهي متاهة من الغرف الدافئة التي تفضي إلى بعضها البعض. غرفة المعيشة، بمدفأتها الحجرية الضخمة وركن القراءة الوثير تحت الدرج. وغرفة المكتب، الملعونة برأس موظ مُعلق على الحائط، كان يرعبني وأنا طفلة، ولا يزال يفعل وأنا بالغة. وهي تضم التلفاز الوحيد في منزل البحيرة،

ولذا لا أشاهد التلفاز كثيرًا حين أكون هنا؛ إذ ينتابني دائمًا شعور بأن الموظ يراقب كل حركاتي.

بجوار غرفة المكتب تقع المكتبة، وهي بقعة ساحرة تُهمل عادة لأن نوافذها لا تطل إلا على الأشجار، وتحرم من رؤية البحيرة. ويليها صف طويل من المرافق المتراصة – غرفة غسيل، حمام ضيوف، مطبخ، وغرفة طعام.

ويطوق ذلك كله، كشريطة على هدية، الشرفة؛ بكراسيها الخيزرانية في الأمام، والهزازة الخشبية في الخلف.

الطابق الأول. القبو المفتوح على الخارج. المكان الوحيد الذي أرفض دخوله. أكثر من أي جزء آخر في المنزل، يذكرني بـ لين.

قالت مارني:

– «من الطبيعي أن تشعري بالوحدة. ستعتادين الأمر. هل هناك أحد غير إيلي عند البحيرة؟»

أجبتُها:

– «في الواقع، نعم. كاثرين رويس.»

سألت:

– «عارضة الأزياء؟»

قلتُ متذكرة ما أخبرتني به كاثرين وهي تنزل من القارب:

– «عارضة أزياء سابقة. لقد اشترت هي وزوجها المنزل الواقع على الضفة المقابلة.»

هتفت مارني متقمصة نبرة مروجة إعلانات تلفزيونية:

– «عطلة مع النجوم في بحيرة جرين بـ فيرمونت! هل كانت لئيمة؟ العارضات يوحين لي دائمًا باللؤم.»

قلتُ:

– «كانت في غاية اللطف في الواقع. رغم أن ذلك قد يعود لكوني أنقذتها من الغرق.»

سألت بذهول:

– «بحقك؟»

أجبتُ:

– «حقًا.»

قالت مارني:

– «لو كان صيادو الصور الفضائحية حاضرين لتوثيق ذلك، لاختلفت آفاق مسيرتك المهنية تمامًا الآن.»

قلتُ:

– «ظننت أن هذه ليست مكالمة عمل.»

أصرت:

– «إنها ليست كذلك. إنها مكالمة (أرجوكِ-اعتني-بنفسك). سنتعامل مع شؤون العمل حين يُسمح لكِ بالمغادرة.»

تنهدتُ وقلت:

– «وهذا رهن بقرار أمي. ما يعني أنني لن أغادر أبدًا. لقد حُكم عليّ بالسجن المؤبد.»

قالت مارني:

– «سأتحدث إلى عمتي لولي بشأن منحك إفراجًا مشروطًا. وفي غضون ذلك، لديك صديقتك العارضة الجديدة لتؤنس وحدتك. هل التقيتِ زوجها؟»

أجبتُ:

– «لم أحظَ بهذا الشرف بعد.»

قالت مارني:

– «سمعت أنه غريب الأطوار.»

سألتُ:

– «غريب كيف؟»

توقفت لبرهة، منتقية كلماتها بعناية:

– «متوتر بحدة.»

سألتُ:

– «هل نتحدث عن حدة (توم كروز) وهو يقفز على الأريكة؟ أم حدته وهو يتدلى من طائرة؟»

قالت مارني:

– «الأريكة. لا، الطائرة. هل ثمة فرق؟»

أجبتُ:

– «ليس حقًا.»

قالت:

– «توم رويس أشبه بذلك الرجل الذي يعقد اجتماعاته أثناء تمارين الكروس فيت ولا يكف عن العمل قط. أنتِ لا تستخدمين تطبيقه، أليس كذلك؟»

– «لا.»

أنا أتجنب كافة أشكال التواصل الاجتماعي، التي أعتبرها بمثابة مكبات نفايات سامة تتفاوت في مستويات سميتها. لدي ما يكفيني من الأزمات، ولست بحاجة للضغط النفسي الإضافي الناجم عن رؤية غرباء تمامًا يخبرونني بمدى كراهيتهم لي على تويتر. كما أنني لا أثق بقدرتي على ضبط تصرفاتي. لا يسعني تخيل حجم الهراء الذي قد أنشره بعد ست كؤوس. من الأفضل الابتعاد تمامًا.

مشروع توم رويس هو في الأساس مزيج بين «لينكد إن» و«فيسبوك». أطلق عليه اسم (ميكسر)، ويتيح للمحترفين التواصل عبر مشاركة حاناتهم، ومطاعمهم،

وملاعب الغولف، ووجهات عطلاتهم المفضلة. شعار التطبيق هو: (العمل واللعب يمتزجان حتمًا).

ليس في مجال عملي. ويعلم الله أنني حاولت.

قالت مارني:

– «جيد. لن يكون ذلك مظهرًا لائقًا بكِ.»

رددتُ:

– «حقًا؟ أظنه يتماشى مع هويتي تمامًا.»

انخفض صوت مارني طبقة كاملة. إنها نبرتها القلقة التي طالما سمعتها في العام الماضي:

– «أرجوكِ لا تمزحي يا كيسي. ليس في هذا الأمر. أنا قلقة عليكِ. ليس بصفتي مديرة أعمالك، بل كصديقتك وفرد من عائلتك. لا يسعني تخيل ما تمرين به، لكنك لستِ مضطرة لمواجهته بمفردك.»

قلتُ وأنا أرمق كأس البوربون الذي هجرته لإنقاذ كاثرين. يجتاحني رغبة عارمة في أخذ رشفة، لكني أعلم أن مارني ستسمعني إن فعلت:

– «أنا أحاول. أحتاج لبعض الوقت فقط.»

قالت مارني:

– «خذي وقتك إذن. وضعك المالي ممتاز، وهذا الجنون سيهدأ في النهاية. كرّسي الأسابيع القليلة القادمة للتركيز على نفسك وحسب.»

– «سأفعل.»

– «جيد. واتصلي بي إن احتجت لأي شيء. أي شيء على الإطلاق.»

كررتُ:

– «سأفعل.»

وكما في المرة الأولى، لم أكن أعنيها. لا يوجد ما يمكن لـ مارني فعله لتغيير الوضع. الشخص الوحيد القادر على انتشالي من هذه الفوضى التي صنعتها هو أنا.

وهو ما لا أملك أي رغبة في فعله حاليًا.

أتلقى مكالمة أخرى بعد دقيقتين من إنهاء مكالمتي مع مارني. إنها أمي في تفقّدها اليومي المعتاد في الرابعة عصرًا.

وبدلًا من هاتفي المحمول، تتصل دائمًا بالهاتف القرصي العتيق في غرفة المكتب؛ لعلمها أن رنينه المزعج يرجح كفة ردي عليه. وهي محقة. في الأيام الثلاثة التي انقضت منذ عودتي، حاولت تجاهل تلك الخشخشة الملحة، لكنني كنت أستسلم دائمًا قبل الرنة الخامسة.

اليوم، صمدت حتى الرنة السابعة قبل أن أدلف للداخل وأرفع السماعة. لو لم أجب الآن، لواصلت الاتصال حتى أفعل.

قالت أمي:

– «أردت فقط معرفة كيف تستقرين.»

وهو ذاته ما قالته لي أمس.

وأول أمس.

أجبتُها:

– «كل شيء على ما يرام.»

وهو ذاته ما قلته لها أمس.

وأول أمس.

سألت:

– «والمنزل؟»

أجبتُ:

– «على ما يرام أيضًا. لهذا استخدمت عبارة (كل شيء).»

تجاهلت سخريتي اللاذعة. إن كان هناك شخص على وجه الأرض لا يهتز لسخريتي، فهي لولي فليتشر. فقد مارست ذلك لست وثلاثين عامًا.

سألتني، وهو الغرض الحقيقي من مكالمتها اليومية:

– «وهل كنتِ تشربين؟»

– «بالطبع لا.»

أسترق النظر إلى رأس الموظ، الذي يرمقني بنظرة زجاجية باهتة من مقعده على الجدار. ورغم أنه فارق الحياة منذ قرابة قرن، إلا أنني لا أستطيع التخلص من الشعور بأنه يحاكمني على كذبتي.

قالت أمي:

– «آمل بصدق أن يكون هذا صحيحًا. وإن كان كذلك، فأرجو أن تبقي على هذا النحو. أما إن لم يكن، حسنًا، فلن يكون أمامي خيار سوى إرسالك إلى مكان أكثر فاعلية.»

مراكز التأهيل.

هذا ما تعنيه. شحني إلى إحدى منشآت «ماليبو» التي تحمل اسم (الوعد) أو (السكينة) أو (الأمل). لقد زرت أماكن كهذه من قبل ومقتها. ولهذا تُلمح أمي دائمًا إلى الفكرة حين ترغب في تقويمي. إنه التهديد المبطن الذي لا تتجرأ على إشهاره صراحة أبدًا.

أضافت:

– «أنتِ تعلمين أنني لا أرغب في ذلك. سيثير الأمر موجة جديدة من الدعاية السيئة. ولا أحتمل فكرة تعرضك للإساءة من قبل قناصي الفضائح الصحفية أكثر مما تعرضتِ له بالفعل.»

هذا من بين الأمور القليلة التي نتفق عليها أنا وأمي. قناصو الفضائح مقيتون بالفعل. ورغم أن وصف ما يفعلونه بـ (الإساءة) قد يكون مبالغة، إلا أنهم مزعجون

حتمًا. السبب الذي دفعني للعزلة في بحيرة جرين بدلًا من شقتي في (أبر ويست سايد) هو الهرب من عدسات المصورين المتلصصة. لقد كانوا بلا رحمة. يتربصون بي خارج مبناي، يتعقبونني داخل حديقة (سنترال بارك)، يغطون كل تحركاتي، ويحاولون اصطيادي وكأس الخمر في يدي.

سئمت من تلك المراقبة أخيرًا، فقصدت أقرب حانة، وجلست في الخارج محتضنة كأسًا مزدوجًا من الخمر الكلاسيكي، وتجرعته دفعة واحدة بينما كانت عشرات الكاميرات تلتقط المشهد. وفي صباح اليوم التالي، تصدرت تلك اللقطة غلاف صحيفة «نيويورك بوست».

(نوبة شرب كيسي) كان العنوان العريض.

في ظهيرة ذلك اليوم، ظهرت أمي على عتبة بابي يرافقها سائقها، ريكاردو. قالت:

– «أظن أن عليكِ الذهاب إلى البحيرة لشهر، ألا ترين ذلك؟»

ورغم صياغتها الجملة كسؤال، إلا أنني لم أمتلك حق الرد. أوضحت نبرتها أنني ذاهبة شئت أم أبيت، وأن ريكاردو سيقود السيارة، وأنه لا ينبغي لي حتى التفكير في التوقف عند أي متجر خمور في الطريق.

وها أنا هنا، في حبس انفرادي. تقسم أمي أن هذا لمصلحتي، لكنني أفهم اللعبة جيدًا. إنني أعاقب. لأنه وإن كان نصف ما حدث لم يكن بسببي، فإن النصف الآخر كان من صنعي بالكامل.

قبل أسابيع قليلة، اقترحت عليّ إحدى المعارف، وهي محررة مذكرات للمشاهير، فكرة كتابة مذكراتي الخاصة. قالت: «يجد معظم النجوم في ذلك تنفيسًا كبيرًا».

أجبتها بالموافقة، شريطة أن أسميها (كيف تصبح وجبة دسمة للصحافة الصفراء في سبع خطوات سهلة). ظنت أنني أمزح، وربما كنت كذلك، لكنني ما

زلت متمسكة بالعنوان. أعتقد أن الناس سيفهمونني بشكل أفضل لو بسطت حياتي أمامهم كإرشادات تجميع قطع الأثاث.

الخطوة الأولى، بطبيعة الحال، هي أن تولدي ابنة وحيدة لأيقونة برودواي المحبوبة لولي فليتشر، والمنتج بالغ الرتابة، غاريث جرين.

سجلت أمي أول ظهور لها في مسرح برودواي في التاسعة عشرة. ومنذ ذلك الحين لم تتوقف عن العمل قط. غالبًا على خشبة المسرح، ولكن أيضًا في السينما والتلفزيون. يزخر موقع يوتيوب بمقاطع مشاركاتها في برنامج (لورانس ويلك)، وبرنامج (مايك دوغلاس)، ولعبة المطابقة، وعشرات حفلات توزيع الجوائز. هي امرأة ضئيلة الحجم، بالكاد تبلغ خمسة أقدام وهي تنتعل كعبًا عاليًا. وبدلًا من أن تبتسم، هي تتألق. بريق يكسو جسدها بالكامل، يبدأ من شفتيها المرسومتين كقوس كيوبيد، ويزحف صعودًا نحو عينيها العسليتين، ثم يشع للخارج نحو الجمهور، ليغمرهم في هالة ساحرة من الموهبة.

وأمي موهوبة بحق، لا ريب في ذلك. لقد كانت – وما زالت – نجمة من الطراز الرفيع القديم. في أوج عطائها، كانت لولي فليتشر تجيد الرقص، والتمثيل، وإلقاء النكات ببراعة تتفوق على أعتى المحترفين. وكانت تملك صوتًا غنائيًا جبارًا يبعث على الرهبة، لكونه يصدر من امرأة بهذا الضآلة.

لكن إليكم سرًا صغيرًا عن أمي: خلف ذلك التألق، وداخل جسدها الضئيل ذاك، يختبئ عمود فقري من فولاذ. نشأت لولي فليتشر فقيرة في بلدة تعدين فحم في «بنسلفانيا»، وعقدت العزم في سن مبكرة على أن تصبح مشهورة، وأن صوتها سيكون هو الجسر لذلك. كافحت، فنظفت الاستوديوهات مقابل دروس الرقص، وشغلت ثلاث وظائف بعد المدرسة لتدفع أجر مدرب الصوت، وتدربت لساعات طوال. في المقابلات، تدعي أمي أنها لم تدخن أو تشرب الكحول قط في حياتها، وأنا أصدقها. لم تكن لتسمح لشيء بأن يقف عقبة في طريق نجاحها.

وحين بلغت القمة، أهلكت نفسها لتبقى هناك. لا توجد عروض مفوتة في قاموس لولي فليتشر. كان الشعار غير المعلن في منزلنا هو: «لماذا تكلف نفسك عناء القيام بشيء إن لم تكن ستعطيه كل ما تملك؟»

ولا تزال أمي تعطي كل ما تملك، كل يوم اللعنة.

أُنتج أول عرضين لها بواسطة (الأخوان جرين)، وكانا من أبرز المنتجين في ذلك الوقت. كان ستيوارت جرين هو رجل العلاقات العامة المفرط في حماسه وجرأته. أما غاريث جرين فكان المحاسب الشاحب الرزين. كلاهما أُسرا على الفور بسحر لولي الشابة، وظن الجميع أنها ستختار خبير العلاقات العامة، لكنها فضّلت المحاسب الذي يكبرها بعشرين عامًا.

وبعد سنوات طويلة، تزوج ستيوارت من فتاة كورس ورُزقا بـ مارني. وبعد ذلك بثلاث سنوات، رُزق والداي بي.

كنت طفلة جاءت متأخرة في الحياة. كانت أمي في الحادية والأربعين، ما جعلني أشك دائمًا في أن ولادتي لم تكن سوى وسيلة إلهاء. شيء يبقيها مشغولة خلال فترة ركود مهني، حيث باتت أكبر من أن تلعب دور (إليزا دوليتل) أو (ماريا فون تراب)، لكنها لا تزال أصغر بسنوات من أداء أدوار (السيدة لوفيت) و(ماما روز).

غير أن الأمومة كانت أقل إثارة بالنسبة لها من الوقوف على خشبة المسرح. ففي غضون ستة أشهر، عادت للعمل في إعادة إحياء مسرحية (الملك وأنا)، في حين صرت أنا، وبكل ما تحمله الكلمة من معنى، طفلة برودواي. كان مهدي في غرفة تبديل ملابسها، وخطوت أولى خطواتي على خشبة المسرح، متآلفة تمامًا مع وهج إضاءة المسرح الليلية الخافتة.

ولهذا السبب، افترضت أمي أنني سأسير على خطاها. بل فرضت ذلك فرضًا. سجلت ظهوري الأول على المسرح بدور (كوزيت) الصغيرة حين لعبت هي دور البطولة في مسرحية (البؤساء) لستة أشهر في لندن. لم أحصل على الدور لأنني أتقن

الغناء أو الرقص أو أمتلك أي ذرة موهبة، بل لأن عقد لولي فليتشر اشترط ذلك. استُبدلت بعد أسبوعين لأنني واصلت الإصرار على أنني أشد مرضًا من أن أقف على المسرح. استشاطت أمي غضبًا.

وهذا يقودنا إلى الخطوة الثانية: التمرد.

بعد كارثة (البؤساء)، تولى والدي الرزين حمايتي من مخططات أمي لصناعة النجوم. ثم توفي حين كنت في الرابعة عشرة، فتمردت؛ وهو ما يعني لفتاة ثرية تعيش في «مانهاتن» تعاطي المخدرات. وارتياد النوادي حيث تُتعاطى. ثم حفلات ما بعد السهر، حيث يُتعاطى المزيد.

دخنت.

استنشقت.

وضعت حبوبًا بألوان الحلوى على لساني وتركتها تذوب حتى لم أعد أشعر ببطانة فمي.

وقد أفلح الأمر. لبضع ساعات من النعيم، لم أبالِ بأن والدي قد مات، وبأن أمي تكترث لمسيرتها أكثر من اكتراثها لي، وبأن كل من حولي لم يكونوا هناك إلا لأنني أدفع ثمن المخدرات، وبأنني لا أملك أصدقاء حقيقيين سوى مارني. لكنني كنت أُنتزع للعودة إلى الواقع حين أستيقظ في شقة شخص غريب لا أذكر حتى كيف دخلتها. أو في المقعد الخلفي لسيارة أجرة، وخيوط الفجر تتسلل بين المباني المطلة على (إيست ريفر). أو في عربة قطار أنفاق، قبالة رجل متشرد يغط في نوم عميق، وآثار القيء تلطخ تنورتي القصيرة جدًا.

بذلت أمي قصارى جهدها للتعامل معي. أعترف لها بذلك. المشكلة أن قصارى جهدها اقتصر على رمي الأموال لحل المشكلة. فعلت كل ما يفعله الآباء الأثرياء مع الفتيات المضطربات؛ مدارس داخلية، ومراكز تأهيل، وجلسات علاج نفسي كنت أمضيها في قضم أظافري بدلًا من التحدث عن مشاعري.

ثم حدثت المعجزة.

تحسنت حالتي.

أو بالأحرى، تسلل إليّ الملل، ما قادني إلى التحسن. بحلول عامي التاسع عشر، كنت قد عثت في الأرض فسادًا لفترة طويلة حتى سئمت الأمر. أردت تجربة شيء جديد. أردت تجربة ألا أكون كارثة تمشي على قدمين. أقلعت عن المخدرات، والنوادي، والـ (أصدقاء) الذين جمعتهم على طول الطريق. بل والتحقت بجامعة نيويورك لفصل دراسي واحد.

وهناك، حدثت الخطوة الثالثة – معجزة أخرى.

دخلت عالم التمثيل.

لم أخطط قط لاقتفاء أثر أمي. فبعد نشأتي في كواليس عالم الاستعراض، لم أرد أي صلة به. لكن المشكلة كانت أنه العالم الوحيد الذي أعرفه. لذا، حين قدمتني زميلة جامعية لوالدها المخرج السينمائي، وسألني بدوره إن كنت أرغب في لعب دور صغير في فيلمه القادم، أجبت: «ولمَ لا؟»

كان الفيلم رائعًا. حصد أرباحًا طائلة، وصنعت لنفسي اسمًا. ليس كيسي جرين، وهو اسمي الحقيقي. بل أصررت على أن يُكتب اسمي كيسي فليتشر، لأنه – بصراحة – إن كنت تنحدر من سلالة فنية كهذه، فمن الحماقة ألا تتباهى بها.

حصلت على دور آخر في فيلم آخر. ثم توالت الأدوار. ومما أسعد أمي وأدهشني في آنٍ واحد، أصبحتُ أسوأ كوابيسي: ممثلة عاملة.

لكن إليكم أمرًا آخر: أنا بارعة حقًا في هذا المجال.

لست أسطورية كأمي بالتأكيد، فهي عظيمة في حرفتها بصدق. لكنني أتقبل التوجيهات بسلاسة، وأمتلك حضورًا لا بأس به، وبمقدوري إضفاء طابع متجدد حتى على أكثر الحوارات رتابة. ولأنني لا أتمتع بالجمال الكلاسيكي المألوف لبطلات الشاشة، غالبًا ما ألعب دور الصديقة المقربة الداعمة، أو الأخت الحازمة، أو الزميلة

المتعاطفة. لن أصبح قط النجمة التي آلت إليها أمي، وهذا ليس هدفي. لكنني أملك اسمًا معترَفًا به. يعرفني الناس. ويستلطفني المخرجون. ويسند إليّ مديرو اختيار الممثلين أدوارًا رئيسية في أفلام صغيرة، وأدوارًا صغيرة في أفلام كبيرة، ودور البطولة في مسلسل كوميدي لم يصمد سوى لثلاث عشرة حلقة.

لا أكترث لحجم الدور. بل للشخصية ذاتها. أبحث عن أدوار معقدة ومثيرة تتيح لي التواري خلفها.

حين أمثل، أريد أن أنسلخ لأصبح شخصًا آخر تمامًا.

لهذا السبب، يظل المسرح عشقي الأول. مفارقة، أعلم. أظن أن نشأتي في الكواليس قد تركت بصمتها عليّ حقًا. الأدوار المسرحية أعظم شأنًا، هذا أمر مؤكد. آخر عرض سينمائي تلقيته كان للعب دور والدة ممثل يصغرني بست سنوات فقط في نسخة جديدة من فيلم (المتحولون)، ولم تتجاوز حوارات الشخصية أربعة عشر سطرًا. بينما كان آخر عرض مسرحي هو دور البطولة في مسرحية إثارة على خشبة برودواي، مع حوارات تملأ كل صفحة.

رفضت الفيلم، وقبلت المسرحية. أفضل تلك الشرارة الملموسة بين المؤدي والجمهور، والتي لا تتوهج إلا في المسرح. أشعر بها في كل مرة أطأ فيها الخشبة. نتشارك الحيز ذاته، نتنفس الهواء ذاته، ونخوض الرحلة العاطفية ذاتها.

ثم تتلاشى. التجربة برمتها عابرة كالدخان.

أشبه بمسيرتي المهنية، التي كادت أن تلفظ أنفاسها الأخيرة، مهما حاولت مارني إقناعي بعكس ذلك.

وبالحديث عن الأشياء التي لا تدوم، مرحبًا بكم في الخطوة الرابعة: الزواج من كاتب سيناريو يمتلك اسمًا معروفًا، لكنه ليس لامعًا بما يكفي ليطمس اسمك.

في حالتي، كان لين. المعروف مهنيًا بـ ليونارد برادلي، الذي أسهم في كتابة بعض الأفلام التي شاهدتموها حتمًا، والكثير من الأفلام التي لم تشاهدوها. التقينا في

حفلة أولًا، ثم في موقع تصوير فيلم كان يضع فيه لمساته غير المنسوبة إليه على السيناريو. في كلتا المرتين، رأيته وسيمًا ومرحًا، وربما مفعمًا بجاذبية خفية تحت سترته الرمادية المزودة بقبعة وقبعته التي تحمل شعار فريق (نيكس). لم أره كمشروع حبيب حتى لقائنا الثالث، حين وجدنا أنفسنا نصعد متن الرحلة ذاتها العائدة إلى نيويورك.

قال:

– «يجب أن نكف عن الالتقاء بهذه الطريقة.»

أجبته:

– «أنت محق. أنت تعلم كيف تلوك هذه المدينة الأخبار.»

تحايلنا لنحصل على مقعدين متجاورين، وأمضينا الرحلة بأكملها غارقين في حديث عميق. وبحلول وقت هبوط الطائرة، كنا قد خططنا للقاء على العشاء. وقوفًا في منطقة استلام الأمتعة بمطار جون إف كينيدي، وكلانا متورد من سيل الغزل ومتردد في الفراق، قلتُ:

– «سيارتي تنتظر في الخارج. يجب أن أذهب.»

توقف لين قليلًا، وقد خيّم عليه خجل مفاجئ:

– «بالطبع. هل يمكنني أن أحظى بقبلة أولًا؟»

استجبت لطلبه، ورأسي يدور كإحدى دوامات استلام الأمتعة المكدسة بحقائب (سامسونايت).

وبعد ستة أشهر، تزوجنا في قاعة البلدية، بشهادة مارني وأمي. لم يكن لـ لين عائلة تخصه، أو على الأقل، لم يكن لديه من يرغب في دعوته إلى زفافه المرتجل. كانت والدته تصغر والده بثلاثين عامًا، حاملاً في الثامنة عشرة حين تزوجا، وفي الثالثة والعشرين حين هجرتهما. فصبّ والده جام غضبه على لين. وفي وقت مبكر من علاقتنا، أخبرني لين كيف كسر والده ذراعه حين كان في السادسة. وأمضى الاثني

عشر عامًا التالية في دور الرعاية البديلة. وآخر مرة تحدث فيها لين إلى والده، الذي فارق الحياة منذ زمن، كانت قبل مغادرته للالتحاق بجامعة كاليفورنيا بمنحة دراسية كاملة.

بسبب ماضيه، صمم لين ألا يكرر أخطاء والديه. لم يكن يغضب أبدًا، ونادرًا ما يزوره الحزن. وحين يضحك، كان يضحك بكامل جسده، وكأن داخله من السعادة ما يفيض عن قدرته على الاحتواء. كان طاهيًا ماهرًا، ومستمعًا أروع، ويعشق الحمامات الطويلة الساخنة، ويفضل أن أشاركه إياها. كان زواجنا مزيجًا من اللفتات الكبيرة – كاستئجاره لدار سينما بأكملها في عيد ميلادي لنحظى بعرض خاص لفيلم (النافذة الخلفية) – واللفتات الصغيرة؛ فقد كان يفتح لي الباب دائمًا، ويطلب البيتزا بجبن مضاعف دون أن يسألني لأنه يعلم أنها مفضلة لدي، ويقدر الصمت الهادئ حين نكون معًا في غرفة واحدة، منشغلين بأشياء مختلفة.

ونتيجة لذلك، كان زواجنا فترة تمتد لخمس سنوات، عشت فيها سعادة تكاد تلامس حد الهذيان.

وجزئية السعادة هنا جوهرية.

فبدونها، لن تجد ما تفتقده حين يستحيل كل شيء إلى خراب محتوم.

وهذا يقودنا إلى الخطوة الخامسة: إمضاء صيف في بحيرة جرين.

لطالما كان منزل البحيرة ملاذًا استثنائيًا لعائلتي. شيده جد جدي ليكون مهربًا من صيف نيويورك الخانق والملتهب، وكان في يوم من الأيام المسكن الوحيد على هذا المسطح المائي المتواضع. ومن هنا استمدت البحيرة اسمها. فبعد أن كان اسمها الأصلي بحيرة أوتشي، تيمنًا بالقبيلة الأصلية التي قطنت المنطقة، أُعيد تسميتها إلى بحيرة جرين تكريمًا لأول رجل أبيض امتلك من الجرأة ما يكفي للبناء هناك؛ ببساطة، لأننا في أمريكا.

أمضى والدي كل فصول الصيف عند البحيرة التي تحمل اسم عائلته. وكذا فعل والده من قبله. وأنا كذلك. في صباي، عشقت الحياة على البحيرة؛ كانت متنفساً ضرورياً بعيدًا عن دراما أمي المسرحية. ومن أروع ذكرياتي فيها تلك الأيام الممتدة التي أمضيناها في اصطياد اليراعات، وشواء حلوى الخطمي، والسباحة تحت أشعة الشمس حتى اكتسبت بشرتي سمرة داكنة كجلد عتيق.

كانت فكرة قضاء الصيف في البحيرة اقتراحًا من لين، جاء بعد شتاء قارس ومثلج بالكاد رأينا فيه بعضنا البعض. كنت منشغلة بمسرحية الإثارة التي فضلتها على فيلم (المتحولون)، وكان هو يضطر للسفر مرارًا إلى لوس أنجلوس لصياغة مسودة تلو أخرى لسيناريو فيلم أبطال خارقين وافق عليه ظنًا منه أنه سيكسب منه مالًا سهلاً.

قال لي في غداء عيد الفصح:

– «نحن بحاجة إلى استراحة. لنتفرغ هذا الصيف ونمضيه في بحيرة جرين.»

– «الصيف بأكمله؟»

ابتسم لين وهو يرشف من كأسه:

– «أجل. أظن أن هذا سيكون مفيدًا لنا. أنا عن نفسي أحتاج بشدة إلى استراحة.»

وأنا كذلك كنت بحاجة إليها. لذا، أخذنا تلك الاستراحة. تركت المسرحية لأربعة أشهر، وأنهى لين السيناريو أخيرًا، وانطلقنا نحو فيرمونت لقضاء الصيف. كان وقتًا ساحرًا. في النهار، كنا نهدر الساعات بين القراءة، والقيلولة، وممارسة الحب. وفي المساء، كنا نعد عشاءً طويلاً، ونجلس على الشرفة نحتسي الكوكتيلات القوية ونصغي لنداءات طيور الغواص الشبحية التي تتردد عبر البحيرة.

في إحدى ظهيرات أواخر يوليو، ملأنا سلة نزهة بالنبيذ، والجبن، والفاكهة الطازجة التي ابتعناها صباحًا من سوق مزارعين قريب. انطلقنا سيرًا نحو الطرف الجنوبي للبحيرة، حيث تنحسر الغابة مفسحة المجال لمنحدر صخري وعر. وبعد أن

تعثرنا في طريقنا نحو القمة، بسطنا الطعام على بطانية مربعة النقوش، وأمضينا الظهيرة في تناول الوجبات الخفيفة، واحتساء النبيذ، وتأمل المياه العميقة في الأسفل.

وفي لحظة ما، التفت لين إليّ وقال:

– «لنبقَ هنا للأبد يا سي.»

سي.

كان هذا لقبه الخاص لي، ابتكره بعد أن وجد أن اسم كيس يبدو قاسيًا ولا يصلح كلقب للتدليل.

قال حينها:

– «إنه يذكرني بمحقق خاص. أو أسوأ، بمحامٍ.»

قلت له:

– «أو ربما لست بحاجة إلى لقب أصلًا. ليس وكأن اسمي معقد إلى هذا الحد.»

أجاب:

– «لا يمكن أن أكون الوحيد بيننا الذي يملك لقبًا. سيجعلني ذلك أنانيًا للغاية، ألا تظنين؟»

كنا نتواعد رسميًا منذ أسبوعين فقط، وكلانا يدرك أن الأمور تتخذ منحى جديًا وسريعًا، غير أن أيًا منا لم يكن مستعدًا للاعتراف بذلك. لهذا السبب كان لين يبذل جهدًا مبالغًا فيه تلك الليلة. أراد إبهاري بخفة ظله. ورغم أن دعاباته ربما كانت متكلفة، إلا أنني انبهرت بالفعل.

وبقيت كذلك معظم سنوات زواجنا.

في ظهيرة ذلك اليوم من شهر يوليو، وأنا منوّمة بسحر انعكاس الشمس على البحيرة ونسيم الصيف يداعب شعري، سألته:

– «وماذا تقصد بالأبد؟»

أجاب:

– «ألا نغادر أبدًا. تمامًا مثل (العنيد العجوز) هناك.»

أشار لين إلى جذع شجرة متحجر يبرز من الماء على بُعد خمسين ياردة تقريبًا من الضفة السفلية. كان هذا الجذع يحمل مكانة أسطورية في بحيرة جرين، ويرجع ذلك أساسًا إلى أن أحدًا لم يكن يعلم كيف برزت هذه القطعة الخشبية التي بيضتها الشمس بعشرين قدمًا فوق الماء، أو كم يمتد منها أسفل السطح وصولًا إلى القاع. كنا نطلق عليه جميعًا اسم (العنيد العجوز)، لأن إيلي، المهتم بالبحث في هذه الأمور، زعم أنه قابع هناك منذ مئات السنين، وأنه سيبقى طويلًا بعد رحيلنا جميعًا.

سألتُ:

– «وهل هذا ممكن أساسًا؟»

قال:

– «بالتأكيد، سيتحتم علينا الذهاب إلى المدينة وإلى لوس أنجلوس كثيرًا من أجل العمل، لكن لا يوجد قانون يلزمنا بالعيش في (مانهاتن). يمكننا العيش هنا بصفة دائمة. ونجعل من هذا المكان مقرنا الرئيسي.»

مقرنا.

راقني وقع الكلمة.

لم يكن يهم أن منزل البحيرة، من الناحية القانونية، ملك لخالتي وأمي. أو أن شرق فيرمونت يبعد مسافة طويلة عن (مانهاتن)، ناهيك عن أنه عالم آخر مقارنة بلوس أنجلوس، حيث كان لين يمضي جل وقته. الفكرة في حد ذاتها كانت مغرية. ومثل لين، كنت أتشوق لحياة بعيدة عن طاحونة الساحلين.

قلتُ:

– «دعني أفكر في الأمر.»

لكنني لم أحظَ بالفرصة قط. فبعد أسبوع واحد، كان لين في عداد الموتى.

بالمناسبة، هذه هي الخطوة السادسة.

أن يموت زوجك أثناء قضاء عطلة.

في الصباح الذي وقعت فيه الفاجعة، انتُزعت من سريري على وقع طرقات إيلي على الباب الأمامي. قبل أن أفتح، استرقت النظر إلى الساعة في البهو. السابعة صباحًا. وقت مبكر جدًا ليقوم بزيارة ودية.

ثمة خطب ما.

أعلن إيلي:

– «قاربكم أفلت من مرساه. استيقظت ورأيته ينجرف في البحيرة. أظن أنكم لم تربطوه جيدًا.»

سألتُ:

– «هل لا يزال هناك؟»

أجاب إيلي وهو يرمق قميص نومي، وروبي الذي ارتديته على عجل، وشعري الفوضوي:

– «لا، سحبته إلى رصيفي. يمكنني اصطحابك لإحضاره. أو يمكنني اصطحاب لين.»

لين.

لم يكن في السرير حين استيقظت. ولا في أي مكان آخر في المنزل. بحثنا أنا وإيلي في المنزل من السقف إلى القبو، ونادينا باسمه. لم يكن له أثر. لقد اختفى.

سألتُ:

– «هل تظن أنه خرج لممارسة الجري الصباحي أو شيء من هذا القبيل؟»

قلتُ:

– «لين لا يركض. إنه يسبح.»

التفت كلانا نحو البحيرة المتلألئة خلف النوافذ الطويلة في غرفة المعيشة. كانت المياه هادئة. وخاوية. ولم يسعني سوى تخيل قاربنا هناك، مفكوك القيد، ينجرف بلا وجهة. وخاويًا أيضًا.

يبدو أن إيلي تخيل المشهد ذاته، لأن سؤاله التالي كان:

– «هل تعرفين إن كان لـ لين أي سبب لأخذ القارب هذا الصباح؟»

ابتلعت غصة القلق التي سدت حلقي فجأة، وأجبت:

– «في بعض الصباحات.. يخرج للصيد.»

كان إيلي يعلم ذلك. فقد رأى لين وهو يطفو على الماء، معتمرًا قبعة الصيد السخيفة وتاركًا سحب الدخان من سيجاره المقزز، الذي يزعم أنه يبعد البعوض. وفي بعض الأحيان، كانا يخرجان للصيد معًا.

ألقى إيلي نظرة أخرى على ملابس نومي وعينيّ المتورمتين، واستنتج محقًا أنه سبب نهوضي من السرير:

– «هل رأيته يخرج هذا الصباح؟ أو سمعته؟»

أجبته بهزة رأس خائفة وقصيرة.

– «ألم يخبرك ليلة أمس أنه يفكر في الخروج للصيد؟»

قلتُ:

– «لا. لكنه لا يخبرني دائمًا. خاصة إن ظن أنني لن أستيقظ قبل بضع ساعات. أحيانًا يخرج وحسب.»

عادت نظرات إيلي لتسرح في البحيرة الخاوية. وحين نطق مجددًا، كان صوته متقطعًا وحذرًا:

– «حين سحبت قاربكم، رأيت صنارة وصندوق أدوات صيد بداخله. لين لا يتركهما هناك دائمًا، أليس كذلك؟»

قلتُ:

– «لا. إنه يحتفظ بهما في...»

القبو. هذا ما كنت أعتزم قوله. وبدلًا من ذلك، توجهت إلى هناك، نزولًا عبر الدرجات الخشبية المتهالكة إلى ما يُعد تقنيًا الطابق الأول من منزل البحيرة، لكننا نتعامل معه كقبو لأنه مشيد داخل التلة شديدة الانحدار التي تميل نحو الماء. لحق بي إيلي. مررنا بالغرفة التي تحوي الفرن وسخان المياه. وبطاولة تنس الطاولة التي لم تُستخدم منذ التسعينيات. وبزلاجات الجليد المعلقة على الجدار، وأحذية التزلج المركونة في الزاوية. ولم أتوقف حتى توقفت.

غرفة الطين.

المكان الذي ندخله ونخرج منه، لين وأنا، بعد السباحة وركوب القوارب، عبر الباب الأزرق العتيق الذي لازم المنزل منذ نشأته. هناك حوض قديم، ورف خشبي طويل كانت تتدلى منه السترات، والقلنسوات، والقبعات.

باستثناء واحدة.

قبعة صيد لين – المرنة، ذات الرائحة الكريهة، وبلون أخضر عسكري – كانت مفقودة.

كما أن الرف الذي كان ينبغي أن يحوي صندوق أدواته وصنارته كان فارغًا، والباب الأزرق الذي يئن عند فتحه والمؤدي إلى الخارج، كان مواربًا قليلًا.

أطلقتُ شهقة مخنوقة، فدفعني إيلي بعيدًا عن الباب، وكأنه جثة مشوهة. أمسك بكتفيّ، ونظر في عينيّ مباشرة، وقال:

– «أظن أنه من الأفضل أن نتصل بالشرطة.»

تولى إيلي مهمة الاتصال. وتولى كل شيء، بصراحة. حشد عائلة فيتزجيرالد من ضفته، وعائلة ميتشل من ضفتي، لتشكيل فريق بحث.

وهو من عثر في النهاية على لين، بعد العاشرة صباحًا بقليل.

اكتشف إيلي قبعته أولًا، تطفو كأوراق زنبق الماء على بُعد ياردات قليلة من الضفة. خاض في الماء لانتشالها، وحين استدار ليعود إلى اليابسة، لمح لين على بُعد مائة ياردة، جرفته الأمواج إلى الضفة كضحية سفينة غارقة.

لا أعرف تفاصيل أخرى. لم يخبرني إيلي ولا الشرطة عن المكان الدقيق الذي عُثر فيه على زوجي، ولم أسأل. كان من الأفضل لي ألا أعرف. وبصرف النظر عن أي شيء، لم يعد الأمر مهمًا. فقد مات لين.

وبعد توجيه بضعة أسئلة لي، تمكنت الشرطة من تجميع أجزاء القصة بسرعة. لين، الذي كان يستيقظ باكرًا دائمًا حين نكون في البحيرة، نهض من فراشه، وأعد القهوة، وقرر الخروج للصيد.

وفي لحظة ما، سقط من القارب، رغم أن السلطات لم تستطع الجزم بكيفية أو سبب أو وقت حدوث ذلك. وكشف تشريح الجثة عن وجود كحول في دمه – فقد كنا نشرب في الليلة السابقة – وكمية كبيرة من مضادات الهيستامين التي يتناولها لردود فعله التحسسية، ما يشير إلى أنه تناول جرعة مضاعفة قبل الخروج في ذلك الصباح. كل ما عرفه الطبيب الشرعي هو أنه سقط في الماء وغرق، تاركًا خلفه قاربًا، وصندوق أدوات صيد، وصنارة، وترمس قهوة لا يزال دافئًا.

وأنا أيضًا تُرِكتُ خلفه.

في الخامسة والثلاثين من عمري، أصبحت أرملة.

وبعد وقوع ذلك، لا يتبقى سوى خطوة أخيرة.

الرقم سبعة المشؤوم.

الانهيار التام.

حدث انهياري ببطء شديد، بفضل العديد من الأشخاص الذين اعتنوا بي. لازم إيلي جانبي حتى تمكن ريكاردو من القدوم بسيارته من (مانهاتن)، مصطحبًا أمي ومارني. أمضينا ليلة بلا نوم في حزم أمتعتي، وغادرنا في الصباح الباكر التالي.

طوال الأشهر الستة التالية، تدبرت أمري بأفضل ما يمكن لشخص في مثل هذه الظروف. نعيتُه علنًا وفي قرارة نفسي. حضرت التزامًا حفلين تأبينيين؛ أحدهما في نيويورك والآخر في لوس أنجلوس، قبل أن أعود إلى بحيرة جرين ذات ظهيرة، وتحت أنظار تجمع صغير من الأصدقاء والعائلة، نثُرت رماد لين في الماء.

ولم يبدأ الانحدار إلا في الأشهر الستة الثانية.

قبل ذلك، كنت محاطة بالناس. كانت أمي تزورني يوميًا أو ترسل ريكاردو حين تكون منشغلة بالعمل. حرصت مارني وأصدقاء وزملاء آخرون على الاتصال، والزيارة، والاطمئنان على كيفية تعاملي مع الفاجعة. لكن فيضانات اللطف هذه لا تدوم إلى الأبد. فالناس يواصلون حياتهم. وعليهم ذلك. في النهاية، وجدت نفسي وحدي، غارقة في ألف شعور، وبلا وسيلة لتخفيف وطأتها دون الاستعانة بنوع من المساعدة.

حين كنت في الرابعة عشرة ورثيت والدي، لجأت إلى المخدرات. ولتجنب تكرار السيناريو ذاته، قررت هذه المرة أن الخمر هو الحل.

البوربون، في الغالب. ولكن أيضًا الجن. والفودكا. والنبيذ بألوانه كافة. وذات مرة، حين نسيت التزود قبل عاصفة ثلجية، تجرعت براندي الكمثرى مباشرة من الزجاجة. لم يمحُ الخمر الألم تمامًا، لكنه خفف من وطأته حتمًا. جعلني الشرب أشعر بأن تفاصيل ترملي بعيدة، وكأنها كابوس غامض استيقظت منه منذ زمن بعيد.

وكنت مصممة على الاستمرار في الشرب حتى لا تتبقى أي ذكرى من هذا الكابوس بالذات.

في شهر مايو، طُلب مني العودة إلى مسرحية برودواي التي تركتها قبل الذهاب إلى فيرمونت. (ذرة شك)، هذا كان اسمها. تدور أحداثها حول امرأة تشتبه في أن زوجها يسعى لقتلها. حرق للأحداث: إنه يسعى لذلك بالفعل.

نصحتني مارني بالرفض، مرجحة أن المنتجين يرغبون ببساطة في زيادة مبيعات التذاكر باستغلال مأساتي. بينما نصحتني أمي بالقبول، معتبرة أن الانخراط في العمل هو العلاج الأمثل لي.

وافقت.

الأم أعلم، أليس كذلك؟

المفارقة أن أدائي قد تحسن بشكل ملحوظ. أخبرني المخرج: «الصدمة حررت شيئًا ما بداخلك»، وكأن موت زوجي كان خيارًا فنيًا اتخذته بملء إرادتي. شكرته على الإطراء، وتوجهت مباشرة إلى الحانة الواقعة في الجهة المقابلة من الشارع.

بحلول ذلك الوقت، كنت أدرك أنني أشرب بإفراط. لكني كنت أتدبر أمري. كنت أحتسي كأسين في غرفة تبديل الملابس قبل بدء العرض، لمجرد الحفاظ على استرخائي، يتبعهما أي عدد أشاء من الكؤوس بعد انتهاء العرض المسائي.

وفي غضون بضعة أشهر، استحالت كأسا ما قبل الرفع الستار إلى ثلاث، واستمرت جلسات الشرب بعد العرض أحيانًا حتى الصباح. لكني كنت أمارس الأمر بتكتم. لم أدعه يؤثر على عملي.

إلى أن ظهرت في المسرح مخمورة بالفعل.

لعرض مسائي يوم الأربعاء.

واجهتني مديرة المسرح في غرفة تبديل الملابس، حيث كنت أضع مكياجي بيدين ترتجفان بجنون.

قالت:

– «لا يمكنني السماح لكِ بالصعود إلى المسرح بهذا الحال.»

قلتُ متصنعة الإهانة، وكان هذا أفضل أداء سأقدمه طوال اليوم:

– «بأي حال؟»

– «ثملة حد الثمالة.»

قلتُ:

– «لقد لعبت هذا الدور حرفيًا مئات المرات. أستطيع أن ألعبه، تباً لك.»

لكنني لم أستطع تباً لي.

تجلى ذلك بوضوح في اللحظة التي صعدت فيها إلى المسرح. حسنًا، صعدت ليست الكلمة الدقيقة. ترنحت إلى المسرح، أتأرجح وكأن رياح إعصار تضربني. ثم تبخرت جملة دخولي من ذاكرتي. ثم تعثرت في أقرب كرسي. ثم انزلقت منه لانهار على الأرض في كومة ثملة، وهو الوضع الذي بقيت عليه حتى سحبني اثنان من زملائي في العرض إلى الكواليس.

توقف العرض، واسْتُدْعِيَتْ الممثلة البديلة، وطُردت من مسرحية (ذرة شك) بمجرد أن رأى المنتجون أنني أصبحت واعية بما يكفي لاستيعاب ما يخبرونني به.

ومن هنا جاءت الصحافة الصفراء، وقناصو الفضائح، واقتيادي بعيدًا إلى بحيرة نائية حيث لا يمكنني التسبب في فضيحة علنية، وحيث يمكن لأمي تفقد حالي يوميًا.

قالت أمي:

– «أنتِ حقًا لا تشربين، أليس كذلك؟»

– «أنا حقًا لا أشرب.»

ألتفت نحو الموظ المعلق على الحائط، وأضع إصبعي على شفتي، وكأننا نتشارك سرًا.

– «لكن هل تلومينني إن فعلت؟»

صمت من جانب أمي. تعرفني جيدًا بما يكفي لتدرك أن هذا أقرب ما يمكنها الحصول عليه كإجابة بـ(نعم).

سألت أخيرًا:

– «من أين حصلتِ عليه؟ من ريكاردو؟ لقد أخبرته صراحة بألا...»

قاطعتها متجاهلة حقيقة أنني، خلال الرحلة من (مانهاتن)، قد توسلت لـ ريكاردو بالفعل ليتوقف عند متجر خمور. من أجل السجائر، كما أخبرته، رغم أنني لا أدخن. ولم ينطلِ الأمر عليه:

– «لم يكن ريكاردو. كان هنا بالفعل. لقد خزنا، لين وأنا، الكثير منه في الصيف الماضي.»

إنها الحقيقة. نوعًا ما. لقد أحضرنا بالفعل كميات كبيرة من الكحول معنا، رغم أن معظم تلك الزجاجات كانت قد أُفرغت منذ زمن بعيد قبل وفاة لين. لكنني بالتأكيد لن أخبر أمي عن الطريقة الحقيقية التي حصلت بها على الكحول.

تتنهد أمي. تتبدد كل آمالها وأحلامها لي في زفرة واحدة طويلة ومثقلة.

قالت:

– «لا أفهم لماذا تواصلين تدمير نفسك بهذا الشكل. أعلم أنكِ تفتقدين لين. جميعنا نفتقده. لقد أحببناه أيضًا، كما تعلمين.»

أعلم ذلك. كان لين ساحرًا بلا حدود، وتمكن من جعل لولي فليتشر تذوب إعجابًا به بعد خمس دقائق فقط من لقائهما. وكانت مارني بالمثل. كانا متيمين به، ورغم يقيني بأن وفاته قد دمرتهما أيضًا، إلا أن حزنهما لا يقارن بحزني.

قلتُ:

– «الأمر ليس سيان. أنتم لا تُعاقبون لكونكم حزانى.»

– «كنتِ خارجة عن السيطرة لدرجة أنني اضطررت للتدخل.»

– «فأرسلتني إلى هنا. إلى المكان الذي حدث فيه كل شيء. ألم تفكري قط أن هذا ربما سيدمرني أكثر؟»

قالت أمي:

– «ظننت أن ذلك سيساعدك.»

– «كيف؟»

– «بإجبارك على مواجهة ما حدث أخيرًا. لأنه ما لم تفعلي ذلك، فلن تتمكني من المضي قدمًا.»

قلتُ:

– «اسمعي يا أمي، أنا لا أريد المضي قدمًا.»

أغلق الهاتف بعنف في مكانه وأنزع السلك من مقبس الحائط. لا مزيد من خطوط الهاتف الأرضية بالنسبة لها. بعد حشر الهاتف في درج خزانة جانبية مهملة، ألمح طيفي في المرآة ذات الإطار المذهب المعلقة فوقها. ملابسي مبللة، وشعري يتدلى كخيوط بالية، وقطرات الماء لا تزال ملتصقة بوجهي كبثور نافرة. رؤية نفسي على هذه الهيئة – حطام بكل ما تحمله الكلمة من معنى – تدفعني للعودة إلى الشرفة وكأس البوربون الذي ينتظرني هناك. ذاب الثلج، تاركًا خلفه بوصتين من السائل الكهرماني الذي يدور في قاع الكأس.

أرفع الكأس، وأبتلع كل قطرة.

****

بحلول الخامسة والنصف، كنت قد اغتسلت، وارتديت ثيابًا جافة، وعدت أدراجي إلى الشرفة أراقب قرص الشمس وهو ينزوي خلف الجبال النائية على الضفة المقابلة للبحيرة. وإلى جواري كأس جديدة من مشروب البوربون.

كأسي الرابعة لهذا اليوم.

أو لعلها الخامسة.

أرتشف منها قطرة وأسرح ببصري نحو البحيرة. في الجهة المقابلة لي تمامًا، يتلألأ منزل عائلة رويس وكأنه خشبة مسرح، حيث تفيض كل غرفة فيه بالنور. وفي الداخل، يتنقل طيفان، رغم أنني أعجز عن تبين ملامحهما بوضوح. يبلغ عرض البحيرة هنا ربع ميل تقريبًا؛ مسافة قريبة بما يكفي لإدراك جوهر ما يدور بالداخل، لكنها بعيدة جدًا عن التقاط أي تفاصيل دقيقة.

وأنا أراقب حركتهما الباهتة والبعيدة، أتساءل: هل يشعر توم وكاثرين بأنهما مكشوفان للعيان كما شعرتُ حين كنت داخل ذلك المنزل؟ ربما لا يزعجهما الأمر. فبصفتها عارضة أزياء سابقة، لعل كاثرين قد اعتادت أن تكون محط الأنظار. وقد يجادل المرء بأن من يشتري منزلًا نصفه من الزجاج يدرك تمامًا أن التلصص جزء من الصفقة. بل ربما كان هذا هو الدافع وراء شرائهما له.

هراء، وأنا أدرك ذلك. فالإطلالة التي يحظى بها قاطنو بحيرة جرين هي أحد أسباب الغلاء الفاحش لمنازلها. والسبب الآخر هو الخصوصية. والأرجح أن هذا هو الدافع الحقيقي الذي حدا بـ توم وكاثرين رويس لشراء المنزل القابع على الضفة المقابلة.

لكن حين تقع عيناي على المنظار الملقى على بُعد أقدام قليلة، في البقعة ذاتها التي أسقطته فيها آنفًا، لا أملك سوى أن ألتقطه. أوهم نفسي بأنني أفعل ذلك لمسح الغبار عنه. لكني أوقن أنها مجرد مسألة وقت قبل أن أرفعه إلى عينيّ وأحدق في الضفة المقابلة، بفضول يعجز عن مقاومة استراق النظر إلى الحياة الخفية لعارضة أزياء خارقة سابقة وزوجها عملاق التكنولوجيا.

كان هذا المنظار ملكًا لـ لين، ابتاعه إبان مرحلة عابرة هوى فيها مراقبة الطيور، مهدرًا ثروة صغيرة في سبيله. وفي خطبته العصماء التي تلت الشراء لتبرير نفقته، أسهب في الحديث عن قدرة تكبيره المذهلة، ومجال رؤيته الواسع، وخاصية تثبيت الصورة، ونقائه منقطع النظير.

قال:

– «هذا المنظار مذهل بحق. من فرط دقته، لو وجهته نحو البدر لرأيت فوهاته.»

أجبتُه:

– «لكنه مخصص للطيور. مَن ذا الذي يود رؤية الطيور عن هذا القرب؟»

وحين أرفعه أخيرًا إلى عينيّ – كما هو متوقع – لا يثير إعجابي. بؤرة الرؤية مشتتة، ولثوانٍ قليلة مزعجة، يبدو كل شيء مشوهًا؛ مجرد مناظر ضبابية للماء وقمم الأشجار. أواصل ضبط العدسات حتى تتضح الصورة. فتنتصب الأشجار في البؤرة بدقة، وتصفو صفحة البحيرة بوضوح تام.

الآن أدرك سر حماس لين.

هذا المنظار مذهل بحق.

الصورة ليست قريبة جدًا. ليست لقطة مقربة بالغة الوضوح بالتأكيد. لكن التفاصيل المتاحة من هذه المسافة مذهلة. يخيل إليّ أنني أقف على الجانب الآخر

من الشارع وليس على الضفة المقابلة للبحيرة. فما كان ضبابيًا للعين المجردة غدا الآن نقيًا كالبلور.

بما في ذلك أحشاء منزل توم وكاثرين رويس الزجاجي.

أجول ببصري في الطابق الأول، حيث تتجلى تفاصيل غرفة المعيشة عبر النوافذ العملاقة. جدران بلون أبيض مائل للصفرة. أثاث حديث من منتصف القرن بألوان محايدة. ورشات من الألوان تضفيها لوحات تجريدية ضخمة. إنه حلم أي مصمم ديكور، ومناقض تمامًا لمنزل عائلتي الريفي المطل على البحيرة. فهنا، الأرضيات الخشبية الصلبة مخدوشة، والأثاث بالٍ. وتتزين الجدران بلوحات للمناظر الطبيعية، وأحذية ثلج متقاطعة، وإعلانات قديمة لشراب القيقب. ورأس الموظ القابع في غرفة المكتب، بالطبع.

وفي غرفة معيشة عائلة رويس البالغة الأناقة، ألمح كاثرين مستلقية على أريكة بيضاء، تقلب صفحات إحدى المجلات. تبدو الآن – وقد جفت ملابسها وارتدت ثيابها كاملة – مألوفة أكثر بكثير مما كانت عليه في القارب. تتجسد فيها العارضة التي كانت عليها بكل تفاصيلها. شعرها يلمع، وبشرتها تتوهج. حتى ملابسها – قميص حريري أصفر وسروال كابري داكن – تفيض بريقًا.

أتفحص يدها اليسرى. لقد عاد خاتم زواجها إلى مكانه، ترافقه دبلة خطوبة تتوجها ألماسة تبدو ضخمة حد العبث حتى عبر عدسات المنظار. مشهد يدفع بنصر يدي للانقباض لا إراديًا. يقبع خاتماي اللذان أهداني إياهما لين في صندوق مجوهرات في (مانهاتن). كففت عن ارتدائهما بعد ثلاثة أيام من وفاته؛ فقد كان إبقاؤهما في إصبعي ألمًا يفوق الاحتمال.

أميل بالمنظار نحو الطابق الثاني وغرفة النوم الرئيسية. إنها أشد عتمة من بقية المنزل – لا يضيئها سوى مصباح بجوار السرير. لكنني أتبين مساحة شاسعة بأسقف مقببة وديكور يبدو وكأنه نُزِع من جناح فندقي فاخر. مشهد يفضح بؤس غرفة نومي

الرئيسية، بإطار سريرها الذي يئن، وخزانة أدراجها العتيقة التي تعصى على الفتح في أغلب الأحيان.

وإلى يسار غرفة النوم، تقع مساحة تبدو كغرفة رياضة. ألمح تلفازًا بشاشة مسطحة معلقًا على الجدار، ومقود دراجة ثابتة من ماركة (بيلوتون) أمامه، والجزء العلوي من رف يحمل أوزانًا حرة. تليها غرفة تعج بأرفف الكتب، ومكتب، ومصباح، وطابعة. مكتب منزلي على الأرجح، يجلس في رحابه توم رويس. يقبع خلف المكتب، مقطب الحاجبين وهو يحدق في شاشة حاسوب محمول مفتوح أمامه.

يغلق الحاسوب وينهض، مانحًا إياي أخيرًا فرصة لتأمله بالكامل. انطباعي الأول عن توم أنه يبدو كرجل يليق بالزواج من عارضة أزياء خارقة. من المنطقي أن تنجذب كاثرين إليه. هو وسيم بالطبع، لكنها وسامة نضجت مع الأيام، تذكرني بـ (هاريسون فورد) بعد عام واحد من تجاوزه ذروة شبابه. يكبر كاثرين بنحو عشر سنوات، ويفيض ثقة حتى في عزلته. يقف منتصب القامة كرمح، مرتديًا أزياء تبدو وكأنها قفزت للتو من صفحات كتالوج للأناقة؛ سروال جينز داكن، وقميص قطني رمادي أسفل سترة صوفية بلون القشدة، وكلها تعانق جسده بتفصيل متقن. شعره بني داكن يميل إلى الطول. ولا يسعني سوى تخيل كمية المستحضرات اللازمة لجعله ينسدل إلى الخلف بتلك الانسيابية.

يغادر توم المكتب ليظهر بعد ثوانٍ في غرفة النوم. وبعد ثوانٍ أخرى، يتوارى خلف باب آخر في الغرفة. الحمام الرئيسي، على ما يبدو. ألمح ومضة من جدار أبيض، وحافة مرآة، والوهج الملائكي لإضاءة حمام مثالية.

يُغلق الباب.

وفي الأسفل مباشرة، تواصل كاثرين قراءتها.

ولأنني أأبى أن أعترف لنفسي بأنني التقطت المنظار لمجرد التلصص على عائلة رويس، أديره شطر منزل إيلي، فتمر كومة الصخور والأشجار دائمة الخضرة الفاصلة بين المنزلين كطيف ضبابي.

ألمح إيلي متلبسًا بالعودة إلى منزله بعد قضاء بعض الحوائج – وهي مهمة تستنزف اليوم بأسره في هذه البقعة من فيرمونت. تقبع بحيرة جرين على مسافة خمس عشرة دقيقة من أقرب بلدة، ولا تُبلغ إلا عبر طريق سريع يشق الغابة نحو الجنوب الغربي. الطريق السريع ذاته يبعد ميلًا، ولا يُسلك إليه إلا عبر طريق حصوي وعر يطوق البحيرة. هناك لمحته، ينعطف بشاحنته الحمراء الموثوقة من الطريق ليدلف إلى ممر منزله.

أراقبه وهو يترجل من الشاحنة ويحمل البقالة صعودًا عبر الشرفة الجانبية ليلج من الباب المفضي إلى المطبخ. في الداخل، يومض ضوء في إحدى النوافذ الخلفية. وعبر الزجاج، أستطيع النفاذ بنظري إلى غرفة الطعام، بثريتها النحاسية وخزانتها الخشبية القديمة العملاقة. بل ويسعني تبين مجموعة الخزف المنقوش والنادرة الاستخدام، والمصطفة على الرف العلوي للخزانة.

في الخارج، يعود إيلي إلى الشاحنة، لينتزع هذه المرة صندوقًا كرتونيًا من صندوقها الخلفي. مؤن تخصني، وأفترض أنه سيجلبها إليّ عاجلًا وليس آجلًا.

أوجه المنظار عائدة نحو منزل عائلة رويس. تقف كاثرين الآن عند نافذة غرفة المعيشة. مفاجأة. يضربني حضورها المباغت خلف الزجاج بصعقة من الشعور بالذنب، وللحظة، أتساءل إن كانت تراني.

الإجابة هي لا.

ليس وهي بالداخل هكذا، والأضواء مشتعلة. ربما، لو ضيقت عينيها، قد تلمح النقوش الحمراء المربعة لقميصي الفلانيل وأنا أجلس منزوية في ظلال الشرفة. لكن يستحيل عليها أن تدرك أنني أراقبها.

تقف على بُعد بوصات من الزجاج، محدقة في البحيرة، ووجهها صفحة بيضاء فاتنة الخلو من التعابير. وبعد ثوانٍ إضافية عند النافذة، تتوغل كاثرين أعمق في غرفة المعيشة، قاصدة طاولة المشروبات الجانبية المجاورة للمدفأة. تُسقط بضع قطع من الثلج في كأس، وتملأ نصفه بمشروب تصبه من دورق بلوري.

أرفع كأسي في نخب صامت، وأوقت رشفاتي مع رشفاتها.

وفوقها، يخرج توم رويس من الحمام. يجلس على حافة السرير، متفحصًا أظافره.

ممل.

أعود ببصري إلى كاثرين، التي عادت إلى النافذة، مشروبها في يد، وهاتفها في الأخرى. وقبل أن تشرع في الاتصال، تميل برأسها نحو السقف، وكأنها تصيخ السمع لتتأكد من عدم قدوم زوجها.

لكنه لا يأتي. رفعة سريعة للمنظار تكشف أنه لا يزال منشغلًا بأظافره، مستخدمًا أحدها لنبش ذرة غبار من تحت آخر.

وفي الأسفل، تفترض كاثرين محقة أن الساحة خالية، فتنقر على هاتفها وترفعه إلى أذنها.

أترك نظراتي تنسل عائدة إلى غرفة النوم، حيث يقف توم الآن في منتصف الغرفة، مصيخًا السمع لزوجته في الطابق السفلي.

المشكلة أن كاثرين لا تتحدث. تقف ممسكة بهاتفها وتنقر بإحدى قدميها، في انتظار أن يجيب من اتصلت به للتو.

وفي الأعلى، يتسلل توم على أطراف أصابعه عبر غرفة النوم ويسترق النظر من الباب المفتوح، الذي لا ألمح منه سوى شق رفيع. يتوارى عبره، مخلفًا غرفة النوم خاوية، ومجبرًا إياي على تحريك المنظار علّني أقتنص ظهوره في مكان آخر من الطابق الثاني. أرجح العدسات متجاوزة غرفة الرياضة وصولًا إلى المكتب.

توم ليس في أي منهما.

أرد بصري نحو غرفة المعيشة، حيث تتحدث كاثرين الآن عبر الهاتف. لكنه ليس حوارًا؛ فهي لا تتوقف لتمنح الطرف الآخر فرصة للرد، ما يحملني على الظن بأنها تترك رسالة صوتية. رسالة ملحة، على ما يبدو. تقف كاثرين منحنية قليلًا، مقوسة يدها حول فمها وهي تتحدث، بينما تتقافز عيناها جيئة وذهابًا.

في الجانب الآخر من المنزل، تجذب حركة ما انتباهي.

توم.

إنه الآن في الطابق الأول.

ينسل من المطبخ إلى غرفة الطعام.

ببطء.

بحذر.

توحي لي خطواته الطويلة والصامتة بأنه يستميت كي لا يُسمع. شَفَتَاه مزمومتان، وذقنه مندفع للأمام، وتعبيراته عصية على القراءة. قد يكون مدفوعًا بالفضول. وقد يكون مسكونًا بالقلق.

يشق توم طريقه إلى الجانب الآخر من غرفة الطعام، ليظهرا أخيرًا، هو وكاثرين، معًا في عدسات المنظار. لا تزال تتحدث، غافلة تمامًا – على ما يبدو – عن زوجها الذي يراقبها من الغرفة المجاورة. ولم تدرك كاثرين وجوده إلا حين اتخذ خطوة أخرى للأمام. نقرت على الهاتف، وخبأته خلف ظهرها، واستدارت بحدة لتواجهه.

وعلى النقيض من زوجها، كانت تعبيرات كاثرين سهلة القراءة.

لقد كانت مذعورة.

خاصة مع تقدم توم نحوها. ليس غاضبًا تمامًا. الأمر يختلف عن الغضب. إنه يبدو – باقتباس وصف مارني – متوترًا بحدة.

يقول شيئًا لـ كاثرين. فترد عليه بشيء ما. تدس الهاتف في جيبها الخلفي قبل أن ترفع يديها – في إيماءة تدل على البراءة.

– «هل تستمتعين بالمشهد؟»

يُفزعني صوت شخص آخر – في هذه الساعة، وفي هذا المكان – لدرجة أنني كدت أسقط المنظار للمرة الثانية في هذا اليوم. أنجح في التشبث به وأنا أنتزعه بعيدًا عن وجهي، وأتلفت، ولا أزال مرتجفة، باحثة عن مصدر الصوت.

رجل لا أعرفه.

رجل شديد الوسامة.

في منتصف الثلاثينيات من عمره، يقف إلى يمين الشرفة في رقعة من العشب البري التي تعمل كحاجز بين المنزل والغابة المترامية الأطراف بجواره. مشهد ملائم، بالنظر إلى ارتدائه ملابس حطاب. لكنها نسخة عارضي الأزياء على أغلفة المجلات؛ سروال جينز ضيق، وحذاء عمل متين، وقميص فلانيل معقود حول خصره النحيل، وصدر عريض يكاد يمزق قميصه القطني الأبيض. يضفي ضوء (الساعة الذهبية) المنعكس من البحيرة توهجًا ذهبيًا على بشرته. إطلالة مثيرة ومبالغ فيها بالقدر ذاته.

وما يزيد الموقف غرابة هو أنني أرتدي ملابس مطابقة تقريبًا. حذاء رياضي من ماركة (أديداس) بدلًا من حذاء العمل، وسروال جينز لا يبدو وكأنه مطلي على جسدي. لكنه كافٍ لأدرك مدى رثاثة مظهري الدائم حين أكون عند البحيرة.

قلتُ:

– «عفوًا؟»

أجاب مشيرًا إلى المنظار الذي لا يزال مقبوضًا بين يدي:

– «المشهد. هل رأيتِ شيئًا مثيرًا؟»

اجتاحني فجأة – وعن جدارة – شعور بالذنب، فوضعت المنظار على الطاولة المهتزة بجوار الكرسي الهزاز وقلت:

– «مجرد أشجار.»

أومأ الرجل برأسه قائلًا:

– «أوراق الشجر فاتنة في هذا الوقت من العام.»

أنهض، وأشق طريقي إلى حافة الشرفة، وأرمقه من الأعلى. لقد اقترب من المنزل وصار الآن يحدق فيّ ببريق في عينيه، وكأنه يدرك تمامًا ما كنت أفعله.

قلتُ:

– «لا أريد أن أبدو فظة، لكن من أنت ومن أين ظهرت؟»

تراجع الرجل نصف خطوة للوراء وقال:

– «هل أنتِ واثقة من أنكِ لم تقصدي أن تبدي فظة؟»

قلتُ:

– «ربما قصدت ذلك. ولا تزال لم تجب عن سؤالي.»

– «أنا بون. بون كونراد.»

بالكاد أمنع نفسي من قلب عيني. يستحيل أن يكون هذا اسمه الحقيقي.

تابع قائلًا:

– «وقد جئت من هناك.»

أومأ برأسه جهة الغابة والمنزل الذي بالكاد يُرى على بُعد مائتي ياردة خلف الأشجار المتناثرة. منزل عائلة ميتشل. كوخ خشبي مثلث السقف شُيد في السبعينيات، يقبع مطويًا داخل انحناءة صغيرة على ضفاف البحيرة. في فصل الصيف، لا يبدو منه لمنزل عائلتي سوى رصيفه الخشبي الطويل الممتد داخل مياه البحيرة.

سألتُ:

– «أأنت ضيف عند عائلة ميتشل؟»

أجاب بون:

– «أقرب ما أكون إلى عامل صيانة مؤقت. أخبرني السيد والسيدة ميتشل أنه بوسعي البقاء لشهرين إن أنجزت بعض الإصلاحات في المكان أثناء إقامتي. وبما أننا جيران، فكرت في المرور لتقديم نفسي. كنت سأفعل ذلك أبكر، لكنني كنت عالقًا بالداخل ومنهمكًا في إعادة طلاء أرضية غرفة طعامهم.»

قلتُ:

– «سررت بلقائك يا بون. شكرًا على مرورك.»

صمت لبرهة وقال:

– «ألن تقدمي نفسك يا كيسي فليتشر؟»

لم يفاجئني أنه يعرف هويتي. فالأغلبية تعرفني، رغم أنهم في بعض الأحيان لا يدركون كيف.

أجبتُ:

– «لقد تبرعت بذلك نيابة عني.»

قال بون:

– «المعذرة. لقد أخبرتني عائلة ميتشل أن عائلتك تملك المنزل المجاور. لم أظن فقط أنكِ ستكونين هنا.»

– «ولا أنا أيضًا.»

– «إلى متى تنوين البقاء؟»

أجبتُ:

– «هذا رهن بقرار أمي.»

تراقصت ابتسامة ماكرة على شفتي بون وقال:

– «هل تنفذين كل ما تمليه عليكِ أمك؟»

قلتُ وأنا أرفع كأسي:

– «كل شيء باستثناء التوقف عن هذا. وإلى متى ستبقى أنت؟»

– «بضعة أسابيع أخرى، على ما أظن. أنا هنا منذ أغسطس.»

– «لم أكنِ أعلم أن منزل عائلة ميتشل يحتاج إلى هذا الكم من الإصلاحات.»

قال بون:

– «بصراحة، إنه لا يحتاج. هم فقط يسدون لي صنيعًا بعدما وجدت نفسي في مأزق ضيق.»

رد يثير الفضول. يدفعني للتساؤل عن حكايته. لا ألمح خاتم زواج – يبدو أن هذا هوسي الجديد – إذن هو غير متزوج. ليس الآن على الأقل. أرجح أنه مطلق حديثًا. الزوجة ظفرت بالمنزل. وهو احتاج لمأوى. وهنا يتدخل ديفيد وهوب ميتشل، وهما زوجان متقاعدان لطيفان لكنهما يبعثان على الرتابة، جمعا ثروتهما من تجارة الأدوية.

سألتُ:

– «ما رأيك في الحياة عند البحيرة؟»

أجاب بون بعد أن تدبر الأمر لثوانٍ معدودة:

– «هادئة. لا تفهميني خطأ، أنا أستسيغ الهدوء. لكن يبدو أن لا شيء يُذكر يحدث هنا.»

حديث رجل لم يُعثر على شريك حياته ميتًا على ضفاف هذه البحيرة قبل أربعة عشر شهرًا.

قلتُ:

– «يتطلب الأمر بعض الوقت للاعتياد.»

سأل:

– «هل أنتِ هنا بمفردك أيضًا؟»

– «أجل.»

– «ألا تشعرين بالوحدة؟»

– «أحيانًا.»

– «حسنًا، إن داهمك الملل أو احتجتِ إلى أنيس، فأنتِ تعرفين أين تجدينني.»

ألاحظ نبرته المتأرجحة بين الود والمغازلة. سماعها يثير دهشتي، لكنها ليست غير مرحب بها لامرأة مثلي شاهدت فائضًا من أفلام عيد الميلاد على قناة (هولمارك). هكذا تبدأ القصص دائمًا هناك. امرأة عاملة منهكة من صخب المدينة الكبيرة تلتقي برجل محلي خشن الملامح. تتطاير شرارات الإعجاب. تذوب القلوب. ويعيشان معًا في سعادة أبدية.

الفوارق الوحيدة هنا هي أن بون ليس محليًا، وقلبي أشد تهشمًا من أن يذوب، ولا وجود لأسطورة السعادة الأبدية. هناك فقط سعادة تدوم لبرهة قصيرة قبل أن ينهار كل شيء.

وعلاوة على ذلك، فإن بون أشد جاذبية من أولئك الرجال ذوي الوسامة الباهتة في أفلام (هولمارك). وسامته فطرية وغير متصنعة في أبهى صورها. شعر ذقنه الخفيف فوضوي بعض الشيء، وعضلاته البارزة تحت ثيابه أضخم قليلًا من المعتاد. وحين أتبع عرضه للمؤانسة بابتسامة نعسة ومثيرة، أدركت أن بون قد يكون مشروع ورطة.

أو ربما أنا من تبحث ببساطة عن ورطة. من النوع الذي لا يورث القيود. تبًا، أظنني أستحق ذلك. لم أقم علاقة حميمة سوى مع رجل واحد منذ وفاة لين؛ عامل مسرح ملتحٍ يُدعى موريس، عمل معي في مسرحية (ذرة شك). كنا رفيقي شراب بعد العروض لفترة، إلى أن تطور الأمر فجأة لما هو أبعد. لم تكن قصة غرامية. لم يكن أي منا معنيًا بالآخر على هذا النحو. كان، ببساطة شديدة، وسيلة أخرى لطرد العتمة. وكنت أنا بالنسبة له الشيء ذاته. لم أسمع خبرًا عن موريس منذ طردي من العمل. وأشك أنني سأسمع.

وها هو بون كونراد – ترقية كبرى مقارنة بـ موريس وجسده المترهل.

أشرت إلى زوج الكراسي الهزازة خلفي وقلت:

– «يسعدني أن تشاركني كأسًا الآن.»

أجاب بون:

– «أود ذلك حقًا، لكني لا أظن أن مشرف تعافيي سيسعد بذلك.»

– «أوه.» هوى قلبي إلى ما دون معدتي. «أأنت...»

قاطعني بون بإيماءة رصينة:

– «أجل.»

– «منذ متى وأنت متعافٍ؟»

– «منذ عام.»

تمتمتُ بصعوبة:

– «هنيئًا لك.»

أشعر وكأنني شخص مريع لعرضي كأس خمر على مدمن كحول، رغم أنه استحال عليّ معرفة مشكلته. لكن بون يدرك مشكلتي يقينًا. أقرأ ذلك في نظرة القلق التي يرمقني بها بعينين مضيقتين.

قال:

– «الأمر شاق. كل يوم هو تحدٍ بحد ذاته. لكني دليل حي على إمكانية المضي في الحياة دون الإمساك بكأس خمر.»

أحكمت قبضتي على كأس البوربون وقلت:

– «ليس في حياتي أنا.»

لم يتبق بعد ذلك الكثير ليُقال. أسدى لي بون موعظته المقتضبة عن خطوات التعافي الاثنتي عشرة، والتي أشك في أنها السبب الحقيقي لمروره. فأعربت عن انعدام اهتمامي التام. ولم يعد أمامنا سوى أن يمضي كلٌ منا في حال سبيله.

– «أظن أن عليّ الانصراف إذن.»

لوح بون بيده بخفة واستدار عائدًا صوب الغابة. وقبل أن يتوارى فيها، رمقني بنظرة من فوق كتفه وأضاف:

– «عرضي لا يزال قائمًا بالمناسبة. إن شعرتِ يومًا بالوحدة، فمري بي. ربما يخلو المنزل من الخمر، لكنني أعد كوب شوكولاتة ساخنة لا يُعلى عليه، والمكان يعج بألعاب الطاولة. وجب عليّ تحذيرك مع ذلك؛ أنا لا أرحم في لعبة المونوبولي.»

قلتُ:

– «سأضع ذلك في اعتباري.»

وأعني بها شكرًا للرفض. فرغم وسامة بون، لا يبدو هذا كخطة ممتعة. أنا فاشلة في المونوبولي، وأفضل مشروباتي أشد لذعًا من مشروب الشوكولاتة الساخنة (سويس ميس).

يلوح بون مجددًا ويجرجر قدميه عبر الأشجار عائدًا إلى منزل عائلة ميتشل. وأنا أراقبه يبتعد، لم يساورني أدنى شعور بالندم. صحيح أنني قد أُفوت بضع ليالٍ في الفراش مع رجل يتجاوز سقف طموحاتي بكثير – إن كانت هذه نيته أساسًا – لكنني لست مستعدة لتقبل التبعات المرافقة لذلك؛ وأهمها تذكيري المستمر بأنني أسرف في الشرب.

أنا أفعل ذلك حقًا.

لكن لمبررات قوية.

قرأت ذات مرة سيرة ذاتية لـ (جوان كراوفورد) نُقل عنها فيها قولها: *«إدمان الكحول هو ضريبة مهنية لكونك ممثلة، ولكونك أرملة، ولكونك وحيدة. وأنا أجمع الثلاثة».*

أشاطرك الرأي يا (جوان).

لكنني لست مدمنة كحول. يسعني الإقلاع في أي لحظة. أنا فقط لا أرغب في ذلك.

ولأثبت ذلك لنفسي، أضع البوربون جانبًا، مبقية يدي قريبة من الكأس دون أن تلامسه. ثم أنتظر، لأرى كم سأصمد قبل ارتشاف قطرة.

تنصرم الثواني دقة تلو أخرى، وأنا أعدها في عقلي بالطريقة ذاتها التي كنت أعد بها وأنا فتاة صغيرة حين كانت مارني تطلب مني حساب المدة التي تستطيع خلالها البقاء تحت الماء قبل أن تطفو لالتقاط أنفاسها.

ميسيسيبي واحدة. اثنتا ميسيسيبي. ثلاث ميسيسيبي.

وصلت إلى العدة السادسة والأربعين تحديدًا قبل أن أتنهد، وأختطف الكأس، وأعب منها. ومع الابتلاع، تباغتني فكرة؛ إحدى تلك البصائر التي أشرب عادة لأتجنبها.

ربما لست أبحث عن الورطة.

ربما الورطة هي أنا.

***

انزلقت الشمس دون الأفق بحلول الوقت الذي شق فيه إيلي طريقه إليّ. وعبر المنظار – الذي التقطته ثانية بعد مغادرة بون بقليل – أراقبه وهو يعود إلى شاحنته حاملًا كيس بقالة قبل أن يقصد منزله مجددًا لجلب الصندوق الكرتوني. وحين صعد إلى الشاحنة، تتبعت توهج المصابيح الأمامية وهو يقود عبر الطريق المطوق للبحيرة.

أضع المنظار جانبًا حين تقتحم المصابيح الأمامية قطاع الطريق المحجوب عن الشرفة الخلفية، وأسير نحو واجهة المنزل. أصل هناك في اللحظة المواتية لأرى إيلي ينعطف نحو الممر ويترجل من شاحنته.

إبان تربعه على قوائم الكتب الأكثر مبيعًا، كان إيلي يتمتع بطلة ساحرة بسترات التويد وسراويل الجينز الداكنة. لكنه، طوال العقود الثلاثة الماضية، تقمص شخصية (همنغواي)؛ سترات صوفية محبوكة بالغرز المجدولة، وسراويل مخملية مضلعة، ولحية بيضاء كثة. وبانتزاعه الصندوق الكرتوني من خلف الشاحنة، بدا وكأنه (بابا نويل) ريفي يحمل الهدايا.

قال وهو يضع الصندوق بين ذراعي:

– «كما طلبتِ.»

وفي الداخل، تقرع دستة زجاجات بألوان شتى بعضها البعض كأجراس رياح متشابكة. القرمزي الداكن لنبيذ (بينو نوار). والبني العسلي للبوربون. والصفاء البكر لمشروب الجن الجاف.

قال إيلي:

– «تريثي في استهلاكها. لن أجري رحلة أخرى قبل الأسبوع المقبل. وإن تفوهتِ بكلمة عن هذا لأمك، سأقطع الإمدادات. آخر ما أحتاجه هو مكالمة هاتفية غاضبة من لولي فليتشر تخبرني فيها أنني ذات تأثير سيئ.»

قلتُ:

– «لكنك ذات تأثير سيئ بالفعل.»

ابتسم إيلي رغمًا عنه وقال:

– «الطيور على أشكالها تقع.»

وهو يعرف طينتي جيدًا. إبان طفولتي، كان إيلي بمثابة عم صيفي غير رسمي، حاضرًا في حياتي دائمًا بين (يوم الذكرى) و(عيد العمال)، ومنسيًا في أغلب الأحيان لبقية العام. ولم يتغير ذلك كثيرًا في سن الرشد، حين تراجعت وتيرة زياراتي لبحيرة جرين. أحيانًا، كانت تمضي سنوات بين الزيارة والأخرى، لكن كلما عدت، كان إيلي هنا دائمًا، سبّاقًا بابتسامة دافئة، وعناق وثيق، وأي صنيع أطلبه. في الماضي، كان يعلمني كيف أوقد نار المخيم وأشوي حلوى الخطمي باتقان. والآن، باتت المهام رحلات سرية إلى متجر الخمور.

ننزوي داخل المنزل؛ أنا أرزح تحت عبء صندوق الزجاجات، وإيلي يحمل كيس البقالة. في المطبخ، نفرغ كل شيء ونشرع في إعداد العشاء. إنه جزء من الاتفاق الذي أبرمناه في ليلتي الأولى هنا: أنا أطبخ العشاء في كل مرة يجلب لي فيها الخمر.

يروق لي هذا الترتيب، وليس من أجل الكحول فحسب. إيلي رفيق ممتع، ومن الجميل أن تطهو لشخص آخر. حين أكون وحدي، أكتفي بأي شيء سريع التحضير. أما عشاء الليلة فيتألف من السلمون، وقرع البلوط المشوي، والأرز البري. وبمجرد تفريغ كل شيء وصب كأسين من النبيذ، أشعلت الفرن مسبقًا وبدأت في الطهي.

قلتُ وأنا أسحب أضخم وأحدّ سكين من حامل السكاكين الخشبي على الرخامة وأشرع في تقطيع القرع:

– «التقيت بالجار القاطن بجوارنا. لمَ لم تخبرني أن ثمة من ينزل في منزل عائلة ميتشل؟»

– «لم أظن أنكِ ستكترثين.»

– «بالطبع أكترث. ليس ثمة سوى منزلين على هذه الضفة من البحيرة. وإن كان أحدهما مشغولًا بشخص آخر – ولا سيما إن كان غريبًا – فأود أن أكون على علم بذلك. هل من أحد ينزل في منزل فيتزجيرالد ويجدر بي معرفته؟»

أجاب إيلي:

– «منزل فيتزجيرالد خاوٍ، على حد علمي. أما بخصوص بون، فقد ارتأيت أنه من الأفضل ألا تلتقيا.»

– «ولمَ؟»

أظنني أعرف الإجابة سلفًا. التقى إيلي بـ بون، وعلم أنه مدمن كحول يتعافى، وقرر من باب الحكمة إبقائي بعيدة عنه.

لكن إيلي قال عوضًا عن ذلك:

– «لأن زوجته توفيت.»

جمدت المفاجأة السكين، عالقة في جوف القرع:

– «متى؟»

– «قبل عام ونصف.»

ولأن بون أخبرني أنه متعافٍ منذ عام، أفترض أن الأشهر الستة التي تلت وفاة زوجته كانت ضبابًا من التدمير الذاتي. ليس الوضع مطابقًا لوضعي تمامًا، لكنه قريب بما يكفي ليجعلني أشعر بالحقارة لسلوكي السابق.

سألتُ:

– «كيف ماتت؟»

أجاب إيلي:

– «لم أسأل، وهو لم يتبرع بالمعلومة. لكني، على ما أظن، رأيت من الأصلح ألا تتقاطع طرقكما. خشيت أن ينبش ذلك ذكريات أليمة. لكلاكما.»

قلتُ:

– «الذكريات الأليمة حاضرة بالفعل. إنها تتربص بي أينما وليت وجهي.»

– «إذن ربما...» صمت إيلي. لبرهة قصيرة. كالتوقف المتردد لماشٍ على النار قبل أن يطأ جمرًا متوهجًا. «ربما ظننت أنك لن تكوني أفضل تأثير عليه.»

وها هي تخرج أخيرًا. الحقيقة البشعة. ورغم أنني ارتبت في الأمر، فهذا لا يعني أن سماعه يروق لي.

قلتُ:

– «يقولها الرجل الذي جلب لي للتو صندوق خمور.»

انتفض إيلي مجيبًا:

– «لأنكِ طلبتِ ذلك. أنا لا أنصب نفسي حكمًا عليكِ يا كيسي. أنتِ امرأة ناضجة. وخياراتك ليست من شأني. لكن بون كونراد متعافٍ منذ عام. بينما أنتِ...»

قاطعته، في الغالب لأعفيه من قولها:

– «لست كذلك.»

أومأ برأسه موافقًا وشاكرًا في آن معًا:

– «بالضبط. لذا ربما من الأسلم أن يبقى كل منكما بعيدًا عن الآخر. لصالحكما معًا.»

ورغم استيائي مما تفوه به، أميل إلى مشاطرة إيلي الرأي. لدي مبرراتي للشرب، ولدى بون مبرراته للامتناع. وأيًا كانت هذه المبررات، فأنا على يقين من عدم توافقها مع مبرراتي.

قلتُ:

– «اتفقنا. مد لي يد العون الآن، فالعشاء لن يطهو نفسه بنفسه.»

انقضى ما تبقى من الأمسية في طيف باهت من الأحاديث العابرة ومشاعر الجرح المكتومة.

فرغنا من الطهي.

سألتُ وأنا أضع السمك في الأطباق:

– «كيف مضى الصيف؟»

أجاب إيلي:

– «هادئًا. لا يوجد ما يُذكر. سواء هنا أو في أرجاء المنطقة. رغم أنهم لم يعثروا بعد على تلك الفتاة التي غرقت في بحيرة (موري) في الصيف الماضي. ولا أثر لتلك التي فُقدت قبل عامين أيضًا.»

أفرغت كأسي من النبيذ وسكبت آخر.

قال إيلي ونحن نأكل:

– «الراجح أن تلك العاصفة تتجه نحونا.»

– «أية عاصفة؟»

– «ذلك الإعصار الذي ضرب (نورث كارولينا). ألا تتابعين الأخبار؟»

لا أفعل. ليس في الآونة الأخيرة.

سألتُ:

– «إعصار؟ هنا؟»

كانت آخر مرة شهدنا فيها أمرًا كهذا حين زحف إعصار (ساندي) الثقيل والبطيء عبر الشمال الشرقي. غرقت بحيرة جرين في العتمة لانقطاع التيار الكهربائي لأسبوعين.

قال إيلي:

– «(تريش). هكذا أسموه.»

– «اسم مرح جدًا لإعصار.»

– «لقد تراجع إلى عاصفة استوائية الآن، لكنه لا يزال بالغ العنف. يبدو أنه سيصلنا بحلول نهاية الأسبوع.»

تجرع إيلي كأسًا أخرى من النبيذ.

أما أنا فتجرعت كأسين.

بعد العشاء، ننسحب إلى الشرفة ونلقي بأجسادنا على الكراسي الهزازة ونحن نرتشف من أكواب قهوة يتصاعد منها البخار. هبط الليل بكلكله على البحيرة، محيلًا مياهها إلى مسطح أسود مشوب بزرقة يتلألأ بضياء النجوم.

قلت بصوت حالم يعتريه سكر خفيف:

– «يا إلهي، ما أبهى هذا!»

أنا على بُعد خطوة واحدة من النشوة. تلك البقعة المثالية الفاصلة بين الخدر والقدرة على أداء المهام.

بلوغ هذه المرحلة يسير. لكن الحفاظ عليها يتطلب تخطيطًا وعزيمة.

يبدأ الأمر قرابة الظهيرة، مع كأسي الحقيقية الأولى في اليوم. أما الصباحات فمكرسة للقهوة التي تكنس خيوط عنكبوت الليلة السابقة، وللماء؛ فترطيب الجسد أمر حيوي.

في كأس افتتاحية اليوم، أميل إلى جرعتين كبيرتين من الفودكا، أبتلعهما سريعًا. ضربة مزدوجة وقوية لتبليد الحواس.

ويُخصص بقية فترة ما بعد الظهيرة للبوربون، أرتشفه مع الثلج بجرعة منتظمة. ومع حلول موعد العشاء يأتي دور النبيذ. كأس، أو اثنتان، أو ثلاث. يغمرني بشعور من الاسترخاء والضبابية – على حافة السكر التام. حينها، يتدخل فنجان القهوة مجددًا.

كوب قوي منه ينتشلني من حافة الهاوية دون أن يطمس نشوتي بالكامل. وأخيرًا، قبل الخلود إلى النوم، جرعة عنيفة أخرى مما يشتهيه مزاجي.

جرعتان، إن جافاني النوم من فوري.

ثلاث، إن عجزت عن النوم تمامًا.

وحتى وإيلي جالس إلى جواري، ينشغل تفكيري بما سأشربه فور انصرافه.

عبر البحيرة، أُضيء مصباح عند الباب الخلفي لمنزل عائلة رويس، ليغمر الفناء بوهج أبيض دافئ. أنحني للأمام وأضيق عينيّ، لألمح شخصين يبرزان من المنزل ويشقان طريقهما نحو رصيف الملكية الخشبي. وسرعان ما أعقبه ضوء آخر، تجلى هذه المرة في هيئة كشاف مثبت في مقدمة قاربهما. ويتردد صدى الهدير الخفيض لمحرك القارب الخارجي بين الأشجار.

قال إيلي:

– «أظن أنكِ على موعد مع مزيد من الضيوف.»

ربما كان محقًا. فاتساع رقعة الكشاف يزداد كلما شق القارب عباب الماء متوجهًا بخط مستقيم نحو ضفتنا من البحيرة.

وضعت كوب القهوة جانبًا وقلت:

– «كلما زاد العدد زادت البهجة.»

وصل آل رويس على متن قارب آلي عتيق مكسو بألواح الماهوجني، يجمع بين الطابع الرياضي والأناقة البالغة. الطراز ذاته الذي أوقن أن (جورج كلوني) يتنقل به حين ينزل في قصره ببحيرة (كومو). ومراقبته وهو يقترب من قارب عائلتي الآلي، المتهالك والباهت، تبدو كالوقوف عند إشارة مرور بينما تتوقف بجوار سيارتك (فورد بينتو) سيارة (بنتلي كونتيننتال).

وهي سيارة يمتلكها آل رويس أيضًا. أعني (البنتلي)، لا الـ (بينتو). فقد سرد لي إيلي كل شيء عنها على العشاء.

أستقبلهم عند الرصيف، وأنا أشد سكرًا مما ظننت في البداية. ولأمنع جسدي من الترنح، أغرس قدميّ في الرصيف وأنتصب بقامتي. وحين لوحت لهم، كانت تلويحة حماسية أكثر من اللازم.

هتفت ما إن أطفأ توم محرك القارب وجعله ينزلق نحو الرصيف:

– «يا لها من مفاجأة سارة!»

ردت كاثرين بصوت عالٍ:

– «لقد جلبت بطانيتك!»

رفع زوجها زجاجتي نبيذ وقال:

– «وأنا جلبت نبيذ بوردو (بوياك) الفاخر من إنتاج عام 2005!»

لم يعنِ لي هذا الاسم شيئًا سوى وقعه كاسم باهظ الثمن، وأنني قطعًا لن أنتظر انصراف إيلي لأشرب المزيد.

قفزت كاثرين من القارب بينما راح زوجها يربطه إلى الرصيف. مدت البطانية وكأنها وسادة من الساتان يعتليها تاج ملكي. وقالت وهي تضعها بين يديّ:

– «مغسولة ومجففة. شكرًا لسماحك لي بالاحتفاظ بها آنفًا.»

حشرت البطانية تحت ذراعي، وحاولت مصافحة كاثرين بالذراع الأخرى. فاجأتني بعناق، وتوجته بقبلة على كل وجنة، وكأننا صديقتان قديمتان ولسنا غريبتين التقيتا في منتصف البحيرة قبل بضع ساعات فحسب.

وهذا الترحيب الحار أيقظ في نفسي وخزة من الشعور بالذنب لتلصصي عليهما.

وحين تقدم توم نحوي، لم أستطع كبح تفكيري في هيئته حين كان يتجسس على زوجته.

وهذا ما كان يفعله تحديدًا.

التنصت. استراق السمع. التلصص عليها بصفاقة تضاهي تلصصي عليه. وكل ذلك وتلك التعبيرات العصية على القراءة تعلو وجهه.

قال بنبرة لا تشي بأي أسف:

– «عذرًا لمرورنا دون سابق إنذار.»

وعلى النقيض من زوجته، اكتفى بالمصافحة. كانت قبضته أشد من اللازم، وأكثر تلهفًا. وحين هز يدي، كاد يُفقدني توازني. الآن أدرك ما عنته مارني بكلمة (متوتر بحدة). فبدلًا من أن تبدو المصافحة ودية، جاءت كاستعراض مجاني للقوة. راح يحدق فيّ وهو يفعل ذلك، بعينين داكنتين حد السواد.

أتساءل كيف أبدو في عينيه في حالتي المترنحة هذه. عيناي زجاجيتان، على الأرجح. وجهي محتقن. وقطرات عرق تتشكل عند منبت شعري.

– «شكرًا لإنقاذك كاثرين اليوم.» كان صوت توم جهوريًا وعميقًا، وربما كان هذا سر افتقار كلماته للصدق. فنبرة (الباريتون) لا تترك مجالًا كبيرًا للفروق الدقيقة. «لا أطيق تخيل ما كان ليحدث لو لم تكوني هناك لإنقاذها.»

رفعت نظري إلى الشرفة، حيث يقف إيلي متكئًا على السياج. عقد حاجبيه، موبخًا إياي بصمت على إغفالي ذكر ذلك وقت العشاء.

قلتُ:

– «لم يكن شيئًا يُذكر. لقد أنقذت كاثرين نفسها فعليًا. ولم أقدم سوى القارب الذي أعادها لمنزلها.»

– «كاذبة.»

لفت كاثرين ذراعها حول خصري ومشت بي صعودًا على الرصيف الخشبي، وكأنني أنا الضيفة المباغتة في هذا الموقف. وقالت لزوجها من فوق كتفها:

– «كيسي تتواضع فحسب. لقد تكفلت بكل جهود الإنقاذ.»

قال توم:

– «لقد حذرتها من السباحة في البحيرة. إنها بالغة الخطورة. لقد غرق أناس فيها.»

رمقتني كاثرين بنظرة يكسوها الخزي التام، وقالت لي:

– «أنا في غاية الأسف.»

ثم التفتت إلى زوجها متمتمة:

– «يا إلهي يا توم، ألا بد دائمًا أن تتفوه بالشيء الخطأ؟»

استغرق الأمر منه ثانية أخرى ليستوعب مقصدها. وحين أدرك الأمر، فر اللون من وجهه وقال:

– «تبًا! أنا أحمق يا كيسي. صدقيني. لم أزن كلماتي.»

قلتُ متصنعة الابتسام:

– «لا بأس. لم تتفوه بشيء يجافي الحقيقة.»

قالت كاثرين:

– «شكرًا لتفهمك. كان توم ليُسحق إن غضبتِ منه. إنه من أشد المعجبين بكِ.»

أكد قائلًا:

– «أنا كذلك بالفعل. شاهدناكِ في مسرحية (ذرة شك). كنتِ مذهلة. رائعة بكل ما للكلمة من معنى.»

نصل إلى درجات الشرفة، فأصعدها أنا وكاثرين جنبًا إلى جنب، بينما يتبعنا توم. اقترب مني كثيرًا حتى لامست أنفاسه مؤخرة عنقي. تذكرت مجددًا صورته وهو يتسلل عبر الطابق الأول في منزلهما. استرقت نظرة إلى كاثرين، مسترجعة ملامحها حين باغتت زوجها وهو يتربص على حافة غرفة الطعام.

مذعورة، ثم خائفة.

لا يبدو عليها الخوف الآن، ما يدفعني للشك في أنها كانت خائفة حينها حقًا. والأرجح أنها فوجئت فحسب، وأنني أسأت قراءة الموقف برمته. ولن تكون هذه هي المرة الأولى.

في الشرفة، حيا إيلي عائلة رويس بألفة جيران أمضوا صيفًا كاملًا متجاورين.

قال:

– «لم أظن أنني سأراكم مجددًا قبل الصيف القادم.»

أجابه توم:

– «كانت رحلة مرتجلة. اشتاقت (كاتي) للبحيرة وأردت أنا رؤية أوراق الخريف.»

– «إلى متى تنويان البقاء؟»

– «كانت الخطة أن نترك الأمر للظروف. أسبوعًا. ربما أسبوعين. لكن ذلك كان قبل أن تقرر العاصفة (تريش) أن تقصد وجهتنا.»

قالت كاثرين:

– «ما زلت أرى ضرورة بقائنا. ما مدى السوء الذي قد تبلغه الأمور حقًا؟»

مرر إيلي يده في لحيته الثلجية وقال:

– «أسوأ مما تظنين. تبدو البحيرة وادعة الآن، لكن المظاهر قد تكون خادعة. خاصة في أوقات العواصف.»

تشعرني أحاديثهم العابرة بأنني دخيلة، رغم أن عائلتي هي أقدم رواد بحيرة جرين. أسرح بفكري في ما كان ليؤول إليه الحال لو لم يرحل لين وانتهى بنا المطاف بالعيش هنا بصفة دائمة.

ربما كنا لنحظى بالكثير من اللقاءات المرتجلة كهذه.

وربما لم أكن لأرمق زجاجتي النبيذ في يد توم بكل هذا الظمأ.

قلتُ:

– «سأجلب كؤوسًا ومفتاح قناني.»

دلفت إلى المنزل، ووجدت المفتاح لا يزال قابعًا على طاولة الطعام. ثم توجهت إلى خزانة المشروبات واختطفت أربع كؤوس نبيذ نظيفة.

وفي الخارج، تواصلت الأحاديث العابرة، فسألهم إيلي:

– «كيف حال المنزل معكم؟»

أجاب توم:

– «نحن نعشقه. إنه مثالي. أمضينا فصول الصيف القليلة الماضية في المنطقة؛ في منزل مستأجر مختلف على بحيرة مختلفة كل عام. وحين قررنا الشراء أخيرًا، لم نكذّب حظنا حين أخبرنا وكيلنا العقاري بوجود عقار معروض للبيع على بحيرة جرين.»

عدت إلى الشرفة حاملة مفتاح القناني والكؤوس. وزعت الكؤوس على الجميع باستثناء إيلي، الذي اعتذر بهزة من رأسه ونظرة ذات مغزى تلمح إلى أنه لا ينبغي لي الشرب أنا أيضًا.

تظاهرت بأنني لم ألحظ شيئًا.

سألتُ كاثرين:

– «لديكما مكان في المدينة أيضًا، أليس كذلك؟»

– «شقة في (أبر ويست سايد).»

أضاف توم، مما أثار امتعاض زوجة ودفعها لقلب عينيها:

– «عند تقاطع شارع سنترال بارك ويست والشارع الثالث والثمانين.»

قالت وهي تلمح المنظار القابع بجوار الكرسي:

– «توم مهووس بالمكانة الاجتماعية. أوه، يا للروعة! كنت أمتلك منظارًا مطابقًا لهذا.»

سألها توم وقد ارتسم أخدودان على جبهته الملساء:

– «حقًا؟ ومتى كان ذلك؟»

أجابت:

– «منذ زمن.»

ثم التفتت إليّ سائلة:

– «هل تهوين مراقبة الطيور؟»

سأل توم زوجته:

– «أأنتِ تهوين ذلك؟»

– «كنت كذلك. قبل أن نلتقي. منذ عمر مضى.»

قال توم:

– «لم تخبريني قط أنكِ مولعة بالطيور.»

التفتت كاثرين لتواجه مياه البحيرة وقالت:

– «لطالما كنت مولعة بها. أنت فقط من لم يلاحظ ذلك قط.»

من الجانب الآخر للشرفة، رمقني إيلي بنظرة أخرى. لقد التقط هو أيضًا شرارة التوتر بينهما. كان تفويتها من المستحيلات. بدا التنافر بين توم وكاثرين جليًا لدرجة أنه امتص كل طاقة المكان، محيلًا الشرفة إلى حيز خانق ومزدحم. أو ربما كان ذلك إحساسي أنا وحدي، وقد رفع السكر حرارة جسدي. وسواء كان هذا أو ذاك، شعرت بحاجة ماسة للخروج إلى الهواء الطلق.

قلتُ:

– «لدي فكرة. لنتناول نبيذنا حول النار.»

فرك إيلي كفيه ببعضهما البعض وقال:

– «اقتراح ممتاز.»

غادرنا الشرفة، نهبط الدرجات إلى مستوى الأرض نحو الفناء الصغير المحتضن بين ضفة البحيرة والزاوية الداخلية للمنزل. في وسطه حفرة نار تطوقها

كراسي (أديروندك) الخشبية، حيث أمضيت ليالي صيفية لا حصر لها في طفولتي. ولم يكن إيلي غريبًا على هذا المكان، فجمع بضعة جذوع من كومة الحطب المرصوصة على جدار المنزل وشرع في إضرام النار.

مسلحة بمفتاح القناني، امتدت يدي نحو زجاجات النبيذ التي لا تزال في قبضة توم.

قال:

– «اسمحي لي، من فضلك.»

قالت كاثرين:

– «أظن أن كيسي تجيد فتح زجاجة نبيذ.»

– «لكن ليس زجاجة بخمسة آلاف دولار.»

هزت كاثرين رأسها، ورمقتني بنظرة اعتذارية أخرى، وقالت:

– «أرأيتِ؟ المكانة الاجتماعية.»

قلت، وقد تلاشت رغبتي في لمس الزجاجات بعد أن أدركت سعرها الجنوني:

– «لا مانع لدي. أو بوسعنا فتح إحدى زجاجاتي. يجدر بكما الاحتفاظ بهذه لمناسبة خاصة.»

قال توم:

– «لقد أنقذتِ حياة زوجتي. وهذا في نظري مناسبة خاصة جدًا.»

تحرك نحو درجات الشرفة، متخذًا منها حانة مرتجلة. وولى ظهره لنا قائلًا:

– «يجب سكبها هكذا تحديدًا. لتسمحي لها بالتنفس.»

خلفنا، كان إيلي قد نجح في إذكاء النار. زحفت ألسنة اللهب الصغيرة عبر الجذوع قبل أن تتأجج متوهجة. وسرعان ما أخذ الخشب يُصدر طقطقة نار المخيم المريحة، والشرر يتطاير راقصًا نحو سماء الليل. جرفني هذا المشهد في تيار من

الذكريات. أنا ولين في الليلة التي سبقت وفاته. نحتسي النبيذ حول النار ونتحدث عن المستقبل، غير مدركين أن لا مستقبل ينتظرنا.

لا مستقبل لنا معًا.

ولا مستقبل لـ لين قطعًا.

– «كيسي؟»

كان هذا توم، وهو يناولني كأسًا من نبيذ الخمسة آلاف دولار. في الظروف العادية، لساورني التوتر قبل ارتشاف قطرة واحدة منه. لكن تحت سطوة الذكرى الأليمة، تجرعت نصف الكأس دفعة واحدة.

قال توم بنبرة يمتزج فيها الانزعاج بالإهانة:

– «يجب أن تستنشقيه أولًا. دعيه يدور في الكأس، وقربي أنفك منه، ثم استنشقي أريجه. إن شمه يهيئ عقلك لما أنتِ مقبلة على تذوقه.»

أذعنت لما قاله، وقربت الكأس من أنفي واستنشقت بعمق.

كانت رائحته تطابق أي كأس نبيذ آخر شربته من قبل. لا شيء استثنائي.

ناول توم كأسًا لـ كاثرين، وأمرنا نحن الاثنتين بأخذ رشفة صغيرة وتذوقها بروية. جربت الأمر، مفترضة أن المذاق سيرقى لمستوى السعر الباهظ. كان جيدًا، لكنه لا يساوي خمسة آلاف دولار بحال من الأحوال.

وعوضًا عن الاستنشاق والتذوق، رفعت كاثرين الكأس إلى شفتيها وأفرغتها في بلعة واحدة.

وقالت:

– «أوه. أظن أنني بحاجة للبدء من جديد.»

أوشك توم على التفوه بشيء، لكنه تراجع وتناول كأسها. تمتم من بين أسنان مطبقة:

– «بالطبع يا عزيزتي.»

عاد أدراجه نحو درجات السلم، موليا ظهره لنا، وثنى مرفقه ليميل الزجاجة، بينما غاصت يده الأخرى في جيبه. عاد لـ كاثرين بجرعة سخية، مدارًا النبيذ في الكأس ليعفيها من تلك المهمة.

قال لها:

– «تذوقيه، لا تنسي. أو بعبارة أخرى، تريثي.»

– «أنا بخير.»

– «ترنحك يفضح عكس ذلك.»

نظرت إلى كاثرين، التي كانت تميل فعلًا قليلًا نحو اليسار.

قال إيلي:

– «أخبريني المزيد عما جرى اليوم في البحيرة.»

تنهدت كاثرين وهوت بجسدها على كرسي (أديروندك)، وتكورت ساقاها تحتها.

– «لست واثقة حتى الآن. أعلم أن المياه جليدية في هذا الوقت من العام، لكنني قادرة على احتمالها. وأوقن بقدرتي على السباحة عبر البحيرة والعودة لأنني واظبت على ذلك طوال الصيف. غير أن اليوم، وفي منتصف المسافة، تجمد كل شيء ببساطة. بدا الأمر وكأن جسدي بأسره توقف عن العمل.»

– «هل كان شدًا عضليًا؟»

– «ربما؟ كل ما أدركه هو أنني كنت سأغرق هناك لولا أن ألمحتني كيسي. كتلك الفتاة التي تلاشت في بحيرة (موري) في الصيف الماضي. ماذا كان اسمها ثانية؟»

أجاب إيلي بوقار:

– «(سو إلين). (سو إلين سترايكر).»

قالت كاثرين:

– «كنا نستأجر مكانًا هناك، أنا وتوم، في ذلك الصيف. كان الأمر برمته مروعًا. هل عثروا عليها قط؟»

هز إيلي رأسه:

– «لا.»

ارتشفت من النبيذ وأغمضت عينيّ وهو ينساب عبر حلقي، مصيخة السمع لـ كاثرين وهي تردد مجددًا:

– «مروع بحق.»

نطق إيلي بتنغيم خفيض:

– «اقتصر على السباحة ليلًا. هذا ما نصحتني به أمي.»

وهو ما ردده إيلي على مسامعنا، أنا ومارني، كل صيف إبان طفولتنا. نصيحة ضربنا بها عرض الحائط ونحن نتقافز ونسبح لساعات تحت وطأة شمس الظهيرة. ولم تكن البحيرة تبث الرعب في نفوسنا إلا بعد الغروب، حين يزداد سواد أعماقها حلكة تحت ستار الليل.

واصل إيلي حديثه:

– «وقد سمعتها هي بدورها من أمها. كانت جدتي امرأة تسيطر عليها الخرافات. نشأت في أوروبا الشرقية، وآمنت بالأشباح واللعنات. وكان الموتى يلقون الرعب في قلبها.»

انزلقت إلى الكرسي المجاور له، شاعرة بدوار خفيف بتأثير النبيذ وموضوع الحديث على حد سواء:

– «أرجوك يا إيلي. بعد ما كابدته كاثرين اليوم، لست واثقة من رغبة أحد في سماع مثل هذا الكلام الآن.»

قالت كاثرين:

– «لا مانع لدي. أنا أستهوي في الواقع سرد قصص الأشباح حول النار. يذكرني ذلك بالمخيمات الصيفية. كنت إحدى فتيات مخيم العندليب.»

وقال توم:

– «وأنا يثير فضولي معرفة السبب وراء تفضيل السباحة ليلًا على النهار.»

أومأ إيلي برأسه نحو البحيرة وقال:

– «في الليل، يعجز المرء عن رؤية انعكاسه على سطح الماء. ومنذ قرون خلت، وقبل أن يدرك الناس الحقيقة، شاع الاعتقاد بأن الأسطح العاكسة قادرة على احتجاز أرواح الموتى.»

حدقت في كأسي لأدرك خطأ إيلي. فرغم جنوح الليل، كان انعكاسي جليًا، يتأرجح على سطح النبيذ. ولأمحوه، أفرغت الكأس. فليذهب التذوق إلى الجحيم.

لم يلحظ توم ذلك، فقد كان أسير فضوله لما أورده إيلي للتو:

– «قرأت عن هذا الأمر. في العصر الفيكتوري، اعتاد الناس تغطية كافة المرايا عقب وفاة أحدهم.»

– «فعلوا ذلك حقًا. لكن هواجسهم لم تقتصر على المرايا. فأي سطح عاكس كان كفيلًا باقتناص روح.»

سألت كاثرين وابتسامة تتسلل إلى نبرتها:

– «كالبحيرة؟»

لمس إيلي طرف أنفه قائلًا:

– «بالضبط.»

خطرت ذكرى لين ببالي فسرى ارتجاف في جسدي بأسره. اجتاحني تململ مفاجئ، فنهضت وقصدت زجاجة النبيذ على درجات الشرفة، وسكبت لنفسي كأسًا أخرى.

أفرغتها في ثلاث رشفات متلاحقة.

واصل إيلي:

– «ولم يقتصر هذا المعتقد على الفيكتوريين وأقاربهم المنساقين وراء الخرافات في أوروبا الشرقية.»

مددت يدي للزجاجة ثانية. كانت خاوية، وسقطت الحثالة الأخيرة من النبيذ في كأسي كقطرات دم.

وخلفي، استرسل إيلي في حديثه:

– «فالقبائل التي استوطنت هذه البقاع قبل وصول أي مستوطن أوروبي بزمن طويل...»

اختطفت زجاجة النبيذ الثانية، وكانت ما تزال مسدودة بالفلين، وهو ما أثار حنقي بقدر ما أثاره حديث إيلي.

– «... كانت تعتقد أن تلك الأرواح الحبيسة قادرة على الاستيلاء على أرواح الأحياء...»

وبدلًا من أن أطلب من توم فعل ذلك، التقطت مفتاح القناني، متأهبة لغرسه في زجاجة نبيذ بخمسة آلاف دولار لا شأن لي بلمسها.

– «... وأنك إن رأيت انعكاسك في هذه البحيرة بالذات بعد وفاة أحدهم فيها بوقت قصير...»

أفلت المفتاح من قبضتي، لينزلق بين الدرجات ويستقر في رقعة من الأعشاب الضارة خلف السلم.

– «... فذلك يعني أنك تفتح الباب لاختراق روحك.»

هبدت الزجاجة بعنف فارتجت درجات الشرفة وصحت:

– «هل لك أن تخرس بحق الجحيم عن الحديث عن البحيرة؟»

لم أقصد أن أبدو بهذا القدر من الغضب. وفي الواقع، لم أقصد التحدث من الأساس. انطلقت الكلمات مني كهدير، يغذيها مزيج ملتهب من الكحول

والاضطراب. وفي أعقابها، لاذ الجميع بالصمت. لم يعد يطرق سمعي سوى الطقطقة المنتظمة للنار ونعيب بومة بين الأشجار في مكان ما على ضفاف البحيرة.

قال إيلي بلطف، مدركًا زلته النادرة وافتقاره للكياسة:

– «أنا آسف. كنتِ محقة. لا أحد يكترث لهذا الهراء.»

– «ليس الأمر كذلك. كل ما في الأمر أنني...»

توقفت عن الكلام، تائهة عما أحاول البوح به.

تجلى لي أنني مخمورة. مخمورة حد الثمالة. ولقد أمست حالة النشوة الخفيفة مجرد ذكرى. بدأت أترنح كـ كاثرين، وبدت البحيرة وكأنها تميل جانبيًا. حاولت كبح هذا الميلان بتشبث أخرق بدرجات الشرفة.

– «لا أشعر أنني بخير.»

في البداية، ظننت أنني من تفوهت بذلك. انفجار تلقائي آخر، رغم عدم إدراكي لانفراج فمي، أو حركة شفتي، أو التواء لساني.

لكن مزيدًا من الكلمات تلتها: «لست بخير على الإطلاق.» فأدركت أنها لم تصدر عني، بل عن كاثرين.

سأل توم:

– «ما الخطب؟»

– «أشعر بدوار.»

نهضت كاثرين، تترنح كشجرة صنوبر تعصف بها الرياح.

– «دوار شديد.»

تعثرت مبتعدة عن حفرة النار، شطر البحيرة.

أفلتت كأس النبيذ من يدها وارتطمت بالأرض لتتهشم.

قالت بشرود:

– «أوه.»

ثم، وفجأة بلا سابق إنذار، انهارت على العشب.

***

منتصف الليل.

أنا وحيدة في الشرفة، أتدثر بالبطانية ذاتها التي أعادتها كاثرين آنفًا. استعدت وعيي بنسبة كبيرة، ولهذا أقبض على زجاجة جعة بيدي. أحتاج شيئًا يمهد لي طريق النوم، وإلا جافاني كليًا. فحتى مع بضعة كؤوس، نادرًا ما أنعم بنوم ليلة كاملة.

ليس هنا.

وليس منذ رحيل لين.

صدق بون حين وصف البحيرة بالهدوء المفرط. إنها كذلك بالفعل. ولا سيما في هذه الساعة، حيث لا يكسر صمت الليل الرتيب سوى نداء متقطع لطائر غواص، أو حيوان ليلي يهرول عبر الشجيرات على طول الضفة.

وأسيرة لهذا الهدوء، أحدق في البحيرة.

آخذ رشفة من الجعة.

أحاول ألا أستحضر ذكرى زوجي الميت، رغم مشقة ذلك بعد ما ألمّ بنا آنفًا.

مرت ساعات منذ انصراف الجميع، وانفضاض الجمع فجأة إثر سقوط كاثرين مغشيًا عليها فوق العشب. كان آل رويس أول المغادرين؛ غمغم توم باعتذارات مبهمة وهو يقود كاثرين المترنحة عبر الرصيف الخشبي. ورغم استعادتها لوعيها بعد ثوانٍ معدودة، ظل القلق ينهشني. اقترحتُ إبقاءها لترتاح وتناول بعض القهوة، لكن توم أصر على اصطحابها للمنزل من فوره.

هسس لها قبل تشغيل القارب وانطلاقه مسرعًا:

– «لقد جلبتِ لنفسك العار حقًا هذه المرة.»

سماع هذا التعليق الجانبي أثار شفقتي على كاثرين، التي كانت قطعًا أشد ثمالة مما تخيلت. ثم انتابني ذنب جراء هذه الشفقة، فهي تعني أنني أرثي لحالها، وهو أثر جانبي لإصدار الأحكام على الآخرين. ولا حق لي في إدانة كاثرين رويس لإفراطها الطفيف في الشرب.

لكن الجانب المشرق، أن توم غادر على عجل فنسي زجاجة النبيذ الأخرى ذات الخمسة آلاف دولار. وجدتها على درجات الشرفة وأودعتها خزانة المشروبات. الغنيمة لمن يعثر عليها، على ما أظن.

تلكأ إيلي قليلًا، ليخمد النار وينتشل شظايا زجاج الكأس المحطمة من العشب.

قلتُ له:

– «دعها فحسب. سأجمع ما تبقى غدًا في وضح النهار.»

سألني إيلي وأنا أرافقه حول المنزل صوب شاحنته:

– «هل ستكونين بخير؟»

أجبتُ:

– «سأكون على ما يرام. حالي أفضل بكثير من حال كاثرين الآن.»

– «قصدت بشأن الأمور الأخرى.» توقف لبرهة، محدقًا في الممر الحصوي تحت قدميه. «أنا آسف لخوضي في حديث البحيرة هكذا. كنت أسعى لتسليتهم فقط. ولم أقصد إيلامك.»

عانقت إيلي وقلت:

– «لقد فعلت، لكنه ألم عابر.»

صدقت ذلك حينها. ولكن ليس الآن تمامًا، حيث تنساب ذكريات لين في رأسي بانسيابية طيور الغواص على سطح البحيرة.

حين نفتني أمي إلى هنا، لم أبدِ أي اعتراض. كانت محقة. فأنا بحاجة ماسة للتواري عن الأنظار لأسابيع معدودة. علاوة على ذلك، ظننت أنني سأقوى على الاحتمال. فقد قضيت أكثر من عام قاطنة في الشقة التي جمعتني بـ لين. ولم أظن أن منزل البحيرة قد يكون أسوأ حالًا.

لكنه كذلك.

لأن هذا هو المكان الذي لفظ فيه لين أنفاسه الأخيرة.

هنا ترملت، وكل تفصيلة فيه – المنزل، البحيرة، رأس الموظ اللعين في غرفة المكتب – تجلدني بهذه الحقيقة. وستظل تفعل ذلك ما دمت على قيد الحياة.

أو واعية.

أتجرع رشفة أخرى من الجعة وأمسح بنظري الشريط الساحلي على الضفة المقابلة. بدءًا من منزل فيتزجيرالد، مرورًا بمنزل آل رويس، وصولًا إلى منزل إيلي؛ السواد يخيم على كل شيء. ويتصاعد ضباب كثيف من قلب البحيرة ذاتها، يزحف متثاقلًا نحو اليابسة في أمواج متموجة. يلامس كل منها الضفة ليطوق الدعامات الساندة أسفل الشرفة في دوامة ضبابية، كزبد البحر يتكسر على أعمدة رصيف الميناء.

كنت أراقب الضباب كمنومة مغناطيسيًا، حين شق صوتٌ سكون الليل.

أزيز باب يُفتح، تلته وقع خطوات على الخشب.

كانت تنبعث من يميني، ما يعني منزل عائلة ميتشل.

وبعد ثوانٍ إضافية، ظهر بون كونراد – طيفًا ممشوقًا يشق طريقه صوب حافة رصيف عائلة ميتشل.

كان المنظار لا يزال قابعًا على الطاولة بجوار كرسيي. رفعته إلى عيني لأحظى بنظرة أقرب لـ بون. لقد بلغ حافة الرصيف ووقف هناك لا يستر جسده سوى منشفة، ما أكد انطباعي الأول عنه.

بون كونراد ممتلئ باللياقة حد الجحيم.

ورغم أن إيلي أوصاني بتجنب بون، وهو ما أتفهمه تمامًا، إلا أنه لم يشر إلى تحريم النظر إليه. وهو ما أفعله الآن، غير شاعرة سوى بوخزة ضئيلة من الذنب وأنا أواصل تأمله عبر المنظار.

استحالت تلك الوخزة إلى طعنة – وشيء أعمق – حين أرخى بون المنشفة وتركها تسقط على الرصيف، كاشفًا عن عريه التام تحتها.

أنزلت المنظار.

ثم رفعته ثانية.

تأملت البعد الأخلاقي لمراقبة شخص دون علمه أو رضاه. لا سيما إن كان عاريًا.

هذا خطأ، حدثت نفسي وأنا أواصل التحديق. خطأ فادح.

تسمر بون على الرصيف، مستحمًا بضوء القمر الذي أضفى على جسده الشاحب توهجًا ساحرًا. ثم رمق من فوق كتفه، وكأنه يختبر إن كنت أراقبه. كنت كذلك بالفعل، لكن يستحيل عليه الجزم بذلك. فهو أبعد ما يكون، وكل الأضواء هنا مطفأة، تاركة إياي متوارية في دثار الظلام. ومع ذلك، لاحت على شفتي بون ابتسامة متكلفة، تثير النشوة والخزي بالقدر ذاته.

ثم، وبقناعة تامة بأن المتربص – أيا كان – قد حظي بعرض ممتع، غاص في الماء. فرغم جليدية البحيرة، إلا أنها قد تبدو كمياه استحمام دافئة مقارنة بهواء الليل الزمهرير. وحتى إن لم تكن كذلك، فلم يأبه بون. برز رأسه من الماء على بُعد عشر أقدام من الرصيف. نفضه بقوة لتتطاير قطرات الماء من شعره الأشعث، وشرع في السباحة.

ليس سباحة غرضية كتيار السباحة الذي أتخيل كاثرين كانت تمارسه حين خارت قواها في منتصف البحيرة. بل يسبح بون بالطريقة ذاتها التي مارستها في

طفولتي. مرحًا. يتخبط في الماء بعشوائية. غاص ثانية وطفو مستلقيًا على ظهره، شاخصًا بصره نحو سماء مرصعة بالنجوم.

بدا إن لم يكن سعيدًا، فمتصالحًا مع نفسه على الأقل.

يا ليتني مكانه، فكرت وأنا أرفع زجاجة الجعة إلى شفتي وأتجرع بلعة كبيرة.

وفي خضم الماء، التقط شيء انتباه بون. فاستدار برأسه بحدة نحو الضفة المقابلة، حيث أُومض ضوء في منزل عائلة رويس.

الطابق الأول.

المطبخ.

أدرت المنظار بعيدًا عن بون في الوقت المناسب لألمح كاثرين مرتدية منامة من الساتان وتترنح داخل المطبخ وكأنها فقدت بوصلة المكان.

أنا خبيرة بهذا الشعور.

أيدٍ تتلمس الجدران، وأرضيات تدور، وأيادٍ تُمَد نحو كراسي لا تبعد سوى قدمين لكنها تبدو كأنها على بُعد عشرين.

ومراقبة كاثرين تشرع أبواب خزائن المطبخ باحثة عن غايتها، غمرني شعور عميق بالألفة. هذا هو طيفي في ليالٍ لا تُحصى. شخص مختلف. ومطبخ مختلف. لكنه الترنح الثمل ذاته.

عثرت كاثرين على مبتغاها – كوب زجاجي – وانسلت نحو الحوض. أومأت برأسي، راضية بأنها هي الأخرى تدرك حيوية ترطيب الجسد إثر ليلة من معاقرة الخمر.

ملأت الكوب، وبالكاد ارتشفت منه قطرة قبل أن ينسحب انتباهها نحو النافذة فوق الحوض. حدقت كاثرين في الفراغ أمامها، ولجزء من الثانية، خيل إليّ أنها تحدق فيّ مباشرة، رغم استحالة ذلك. فكحال بون، يستحيل عليها رؤيتي. وليس من الضفة الأخرى للبحيرة.

ومع ذلك أسمرت كاثرين نظراتها في اتجاهي. ولم أدرك حقيقة الأمر إلا حين لامست وجهها، ممررة أصابعها من وجنتها حتى ذقنها.

لم تكن تنظر إليّ.

بل كانت تتفحص انعكاسها في النافذة.

تسمرت كاثرين على تلك الحال لبرهة، مفتونة بثمالة بما تراه، قبل أن تعود إلى كوب الماء. أمالته للخلف، وأفرغته، ثم أعادت ملئه. وبعد بضع رشفات أخرى متلهفة، وضعت الكوب وانصرفت من المطبخ بخطوات أكثر يقينًا بشكل ملحوظ.

انطفأ ضوء المطبخ.

استدرت ثانية صوب رصيف عائلة ميتشل، طامعة في لمحة أخرى لـ بون. ولخيبة أملي، كان قد تلاشى. فبينما كنت مستغرقة في مراقبة كاثرين، خرج من الماء، والتقط منشفته، وعاد أدراجه إلى الداخل.

خيبة أمل.

لم يتبق الآن سواي والظلام والأفكار السوداء التي تزحف كضباب البحيرة.

أحكمت إغلاق البطانية حول كتفيّ، وأجهزت على زجاجة جعتي، ونهضت لأجلب أخرى.

***

أسوأ ما في الإفراط في الشرب – بخلاف الإفراط بحد ذاته، كما تعلمون – هو صباح اليوم التالي، حين يرتد كل ما تجرعته في الليلة السابقة كأشباح تطاردك.

قرع طبول الصداع الذي لا يهدأ.

المعدة التي تموج بالغثيان.

والمثانة التي توشك على الانفجار.

أستيقظ على وقع هذه اللعنات الثلاث، تضاف إليها حساسية مفرطة لضوء الشمس تقارب حساسية مصاصي الدماء. ولا يشفع لي أن صف نوافذ غرفة النوم الطويل يطل على الغرب، حيث تتجاهله الشمس حتى مطلع الظهيرة؛ فالضياء المنهمر عبرها كفيل بأن يجعلني أتقلص ألمًا في اللحظة التي أفتح فيها عيني.

أتقلب في فراشي، وأُضيّق عينيّ محملقةً في المنبه القابع على المنضدة المجاورة. إنها التاسعة صباحًا. وقت متأخر بالنسبة لإيقاع الحياة عند البحيرة، ولكنه مبكر جدًا بالنسبة لي.

أود معاودة النوم، غير أن الصداع، وغليان معدتي، والرغبة العارمة في إفراغ مثانتي، عوامل تتضافر لانتزاعي من الفراش نحو الحمام، ثم نزولًا إلى المطبخ. وبينما تغلي القهوة، أبتلع قرص مسكن مع كوب من ماء الصنبور وأتفقد هاتفي. أجد رسالة نصية مازحة من مارني – تحمل ذلك الملصق المبتذل لهرة تتدلى من غصن شجرة، ومرفق بعبارة: «تماسكي!».

أرد عليها برمز تعبيري لوجه يتقيأ.

وثمة رسالة نصية أخرى من رقم مجهول. أفتحها، لتباغتني الدهشة حين أكتشف أنها من كاثرين رويس.

«آسفة بشأن الليلة الماضية. – ك.»

إذن هي تتذكر ما وقع بجوار النار. أتساءل إن كانت تذكر أيضًا ترنحها في المطبخ عند منتصف الليل. الأرجح أنها لا تذكر.

أرد عليها بـ: «لا تقلقي. مَن منا لم يفقد وعيه يومًا في باحة منزل شخص غريب؟»

يأتيني ردها على الفور: «لقد كانت مرتي الأولى.»

«مرحبًا بكِ في النادي.»

تومض ثلاث نقاط على شاشة هاتفي، ثم تتلاشى، لتعاود الظهور مجددًا؛ العلامة الفاضحة لشخص يتردد حيال ما سيكتبه تاليًا. وحين وصل رد كاثرين أخيرًا، كان مقتضبًا: «أشعر أنني في حالة مريعة». ولتأكيد المعنى، أرفقت رسالتها برمز تعبيري لفضلات.

كتبتُ لها: «هل تحتاجين إلى بعض القهوة؟»

حصد الاقتراح رمزًا تعبيريًا بوجه تملأه القلوب، وردًا بحروف كبيرة: «أجـــل!!!!!».

«تفضلي بالمجيء إذن.»

تصل كاثرين على متن القارب الآلي المكسو بالخشب، وبدت وهي ترسو عند الرصيف وكأنها نجمة سينمائية من حقبة الخمسينيات تحضر مهرجان (البندقية) السينمائي. ترتدي فستانًا صيفيًا بلون زهرة القنطريون الزرقاء، ونظارة شمسية حمراء، ووشاحًا من الحرير الأصفر معقودًا أسفل ذقنها. وخزتني غيرة خفية وأنا أمد يدي لأساعدها على الترجل من القارب إلى الرصيف. فكاثرين رويس، حتى وهي في أسوأ حالاتها، تبدو أبهى مني في أزهى أيامي.

غير أنه قبل أن يستبد بي الحسد، خلعت نظارتها الشمسية، فكابدت لأمنع نفسي من الجفول. كانت تبدو منهكة تمامًا؛ عيناها محتقنتان بالدماء، وتتدلى أسفلهما هالات أرجوانية داكنة كأكاليل الجنازات.

قالت:

– «أعلم ذلك. لقد كانت ليلة عصيبة.»

قلتُ:

– «لقد مررت بذلك، وفعلته، ونُشرت صوري في صحف الفضائح لتشهد عليه.»

تأبطت ذراعي، وتمشينا صعودًا عبر الرصيف الخشبي، متجاوزتين حفرة النار، ثم ارتقينا الدرجات نحو الشرفة الخلفية. أسندت كاثرين جسدها إلى كرسي هزاز، في حين دلفت أنا إلى الداخل لأجلب لنا كوبين من القهوة.

سألتها عبر الأبواب الزجاجية المزدوجة والمفتوحة:

– «كيف تفضلين قهوتك؟»

نادت كاثرين مجيبة:

– «بالقشدة والسكر عادة، لكني أظنني سأشربها سادة اليوم. وكلما كانت أثقل، كان ذلك أفضل.»

خرجت حاملة القهوة وجلست على الكرسي الهزاز المجاور لكرسيها.

قالت كاثرين قبل أن ترتشف قطرة جعلتها تتقلص من مرارتها:

– «بوركتِ.»

سألتُ:

– «أثقيلة جدًا؟»

أجابت وهي ترتشف قطرة أخرى وتتلمظ بشفتيها:

– «مثالية. على أي حال، أجدد اعتذاري عما جرى الليلة الماضية.»

قلتُ:

– «عن أي جزء تحديدًا؟»

أجابت:

– «عن كل شيء؟ أعني، توم هو توم. لا ينفك يوقع نفسه في الزلات. المشكلة أنه لا يقصد ذلك قط؛ هو يفتقر فحسب إلى تلك المصفاة التي نمتلكها جميعًا. يتفوه بما يجول في خاطره، حتى وإن جعل ذلك الموقف حرجًا. أما أنا...»

أشارت كاثرين برأسها نحو الأرض بالأسفل، حيث هوت ككيس طحين قبل اثنتي عشرة ساعة، وتابعت قائلة:

– «لا أدري ما الذي أصابني.»

قلتُ:

– «أظن أن هذا يُسمى الإفراط في الشرب بسرعة زائدة. وأنا خبيرة في ذلك.»

قالت:

– «لم يكن السبب هو الشرب، مهما ظن توم. بل لعله هو من يسرف في الشرب.»

صمتت لبرهة ووجهت بصرها عبر البحيرة نحو منزلها، الذي استحالت جدرانه الزجاجية إلى سطح معتم بفعل انعكاس سماء الصباح، ثم أردفت:

– «لست على طبيعتي مؤخرًا. مضت أيام وأنا لا أشعر بأنني بخير. ينتابني شعور غريب؛ وهن ينهشني. هل تذكرين ذلك الإعياء الذي هاجمني أثناء السباحة أمس؟ لم تكن تلك المرة الأولى. دائمًا ما يبدأ الأمر كما حدث الليلة الماضية؛ تتسارع خفقات قلبي بجنون، كأنني تعاطيت حبوب حمية محظورة. يغمرني الشعور بالكامل، وقبل أن أستوعب ما يجري، أجدني فاقدة للوعي على العشب.»

سألتُها:

– «هل تذكرين كيف عدتِ إلى المنزل؟»

أجابت:

– «بشكل ضبابي. أذكر شعوري بالغثيان في القارب، ثم إيواء توم لي في الفراش، وبعدها استيقاظي على أريكة غرفة المعيشة.»

لم تأتِ على ذكر تعثرها في المطبخ. يبدو أنني كنت محقة في تخميني بأن ذاكرتها قد خذلتها في هذا الشأن.

قلتُ:

– «لم تتسببي في إحراج نفسكِ، إن كان هذا ما يقلقك. ولست مستاءة من توم أيضًا. لقد عنيت ما قلته الليلة الماضية؛ مات زوجي في هذه البحيرة. إنها حقيقة وقعت، ولا أرى جدوى من التظاهر بخلاف ذلك.»

أسقطتُ من حديثي الحقيقة الأخرى؛ أنني أمضي جل أيامي أمارس التظاهر ذاته. فقد غدت محاولة النسيان وظيفتي بدوام كامل.

لم تنبس كاثرين ببنت شفة بعد ذلك، ولم أكن بحاجة لأن تفعل. كنت قانعة بمجرد رفقتها؛ كلتانا ترتشف القهوة ونتأرجح جيئة وذهابًا، بينما تئن الكراسي بصرير جاف تحت وطأتنا. وما زاد الطين بلة – بل حلاوة – أنه كان صباحًا خريفيًا ساحرًا، تفيض فيه الشمس بأشعتها، وتشتعل أوراق الشجر بألوان نارية. كانت نسمة باردة تلسع الهواء، ولم تكن ثقيلة الظل؛ بل أعادت التوازن إلى المشهد بأسره، كلسعة منعشة تكسر حدة الضوء الذهبي.

كان لـ لين وصف خاص لأيام كهذه؛ كان يسميها: كمال فيرمونت. تلك الأيام التي تتآمر فيها الأرض والماء والسماء لتسلب لبك.

قاطعت كاثرين الصمت أخيرًا قائلة:

– «لا بد أن رؤية هذه البحيرة دومًا أمر شاق. هل أنتِ بخير بإقامتك هنا بمفردك؟»

باغتني السؤال، ويرجع ذلك في الغالب إلى أن أحدًا لم يفكر في طرحه من قبل. لم يخطر هذا ببال أمي قط حين نفتني إلى منزل البحيرة. وحقيقة أن هذا الهاجس راود كاثرين، التي بالكاد تعرفني، تفصح بالكثير عن طينة كلتا المرأتين.

قلتُ:

– «أنا بخير. في الغالب.»

سألت:

– «لكن ألا يزعجك الوجود هنا؟»

أجابتُ:

– «ليس بالقدر الذي تخيلته.»

كانت تلك أصدق إجابة يمكنني تقديمها. فأول ما فعلته بعد أن انطلق ريكاردو بسيارته مبتعدًا، تاركًا إياي شبه عالقة هنا، هو الخروج إلى هذه الشرفة وتأمل البحيرة. ظننت حينها أن سيولًا من المشاعر ستجتاحني؛ مزيجًا من الحزن والخوف والغضب. لكن بدلًا من ذلك، لم أشعر سوى باستسلام كئيب.

لقد وقع أمر مريع في تلك المياه.

ولا طاقة لي بتغييره، مهما أوتيت من رغبة.

وكل ما أملكه هو محاولة طيه في النسيان.

ومن هنا جاء إهداري لكل وقتي في التحديق عبر الماء. نظريتي هي أنني إن أمعنت النظر طويلًا بما يكفي، فإن الذكريات البشعة المرتبطة بـ بحيرة جرين ستفقد حدتها وتتلاشى في النهاية.

اقترحت كاثرين:

– «ربما لأنها بالغة الجمال. كانت فكرة توم أن نشتري هنا. كنت قانعة باستئجار مكان مختلف كل صيف، لكنه أصر بشدة على التملك. إن لم تكوني قد لاحظتِ بعد، فزوجي يهوى الاستحواذ على الأشياء. لكنه محق في هذه الحالة؛

فالبحيرة فاتنة، وكذلك المنزل. من المضحك أنني حين أكون غائبة، لا أشتاق للمكان كثيرًا. لكن ما إن أطأ أرضه، حتى أأبى المغادرة. أظن أن كل منازل العطلات تشترك في هذا السحر.»

طافت بذهني ذكرى لين ونزهتنا في أواخر يوليو. «لنبقَ هنا للأبد يا سي.»

قلتُ:

– «هل يجدر بي إذن توقع بقائكما هنا لأكثر من مجرد أسبوع أو أسبوعين؟»

هزت كاثرين كتفيها وقالت:

– «ربما. سنرى ما سيحدث. بدأ القلق يساور توم بشأن الطقس، لكنني أرى أن البقاء هنا أثناء العاصفة قد يكون ممتعًا. بل ورومانسيًا أيضًا.»

قلتُ:

– «انتظري حتى يومك السادس بلا كهرباء؛ وستكون الرومانسية آخر ما يخطر ببالك.»

قالت:

– «لا أمانع العيش بخشونة.»

وحين لاحظت نظرة الاندهاش التي اعتلت وجهي، أضافت كاثرين:

– «أنا لا أمانع حقًا! أنا أصلب مما أبدو عليه. ذات مرة، قضيت مع ثلاث صديقات من عارضات الأزياء أسبوعًا في التجديف في الـ غراند كانيون. بلا كهرباء. وقطعًا بلا شبكة هواتف. كنا نصارع المنحدرات المائية نهارًا، وننام في الخيام ليلًا، ونطهو طعامنا على نار مكشوفة، ونتبول بين الأعشاب. لقد كان أسبوعًا من النعيم الخالص.»

قلتُ:

– «لم أكن أدرك أن عارضات الأزياء قريبات من بعضهن إلى هذا الحد.»

أجابت:

– «فكرة اللؤم والمشاحنات النسائية خلف الكواليس ليست في الغالب سوى خرافة. فحين تتشارك اثنتا عشرة فتاة غرفة تبديل ملابس واحدة، تجدين نفسكِ مضطرة نوعًا ما للتآلف.»

سألتُها:

– «هل ما زلتِ تحتفظين بصداقة أي منهن؟»

هزت كاثرين رأسها ببطء وحزن وقالت:

– «كلهن لا يزلن في المعترك، بينما انسحبت أنا. هذا يجعل التواصل شاقًا. أغلب صديقاتي لا أحدثهن إلا عبر تطبيق (إنستغرام). هذا هو الجانب الموحش في الشهرة؛ الجميع يعرف من تكونين...»

أكملتُ نيابة عنها:

– «لكنكِ أحيانًا تشعرين بعزلة تامة.»

قالت كاثرين:

– «أجل. هذا بالضبط.»

أشاحت بنظرها بعيدًا، وكأنها خجلت من أن تُفهم بهذه الدقة العارية. استقرت نظراتها على المنظار القابع على الطاولة الصغيرة بين كرسيينا. طرقت بأصابعها عليه وسألت:

– «هل رأيتِ شيئًا مثيرًا للاهتمام بهذا من قبل؟»

كذبتُ قائلة:

– «ليس حقًا.»

كافحت لأكبح حمرة الخجل النابعة من شعوري بالذنب، بينما تسللت إلى رأسي صورة بون الليلة الماضية؛ كيف بدا فائق الوسامة عاريًا تحت ضوء القمر، وكيف كان يمكن لنسخة أكثر جرأة وثقة مني أن تشاركه السباحة في البحيرة.

سألت:

– «إذن، لم تراقبي منزلي؟»

قلتُ:

– «أبدًا.»

كذبة أخرى. ولأن كاثرين هي من أكذب عليها – وفي وجهها مباشرة، لا أقل – فقد كان الشعور بالذنب المرافق لها أشد مضاضة.

قالت كاثرين:

– «أوه، لو كنت مكانك لراقبت منزلي بكل تأكيد. تلك النوافذ العملاقة؟ كيف لأحد أن يقاوم؟»

التقطت المنظار ونظرت عبره نحو منزلها على الضفة المقابلة.

– «يا إلهي، إنه مستفز في تفاخره. أعني، من ذا الذي يحتاج منزلًا بهذا الحجم؟ كمنزل عطلات، لا أقل.»

قلتُ:

– «إن كنتِ تملكين ثمنه، فلا مانع يمنعك من الاستمتاع به.»

قالت كاثرين وهي تخفض المنظار:

– «هنا تكمن المشكلة. نحن لا نملك ثمنه. حسنًا، توم لا يملك ثمنه. أنا من تتكفل بكل شيء. المنزل. الشقة. نبيذ الخمسة آلاف دولار وسيارة الـ (بنتلي)، وهي فاتنة بالمناسبة. يجب أن نأخذها في جولة يومًا ما، أنا وأنتِ فقط.»

سألتُ:

– «ألا يملك توم مالًا خاصًا به؟»

أجابت:

– «كل أموال توم محتجزة في تطبيق (ميكسر)، الذي لم يدر ربحًا بعد، والأرجح أنه لن يفعل أبدًا. هذه هي مباهج الزواج ممن يُدعى بعملاق تكنولوجيا. إنه يتقمص الدور شكلًا ومضمونًا ببراعة استثنائية، لكن في الواقع...»

بترت كاثرين سيل تذمرها برشفة من القهوة، وأتبعتها باعتذار قائلة:

– «لا بد أنكِ تريننني لا أُطاق. هأنذا أتذمر من زوجي، في حين أنكِ...»

قاطعتها مبتسرة باقي الجملة قبل أن تتفوه بها:

– «لا بأس. معظم الزيجات تمر بصعوبات.»

سألت:

– «معظمها؟ هل كان زواجك مثاليًا دائمًا؟»

قلتُ وأنا أشيح بنظري نحو البحيرة، متأملة كيف يتراقص ضوء الصباح على صفحة مياهها:

– «لم يكن كذلك. لكنني شعرت أنه كذلك. حتى اللحظة الأخيرة.»

ساد صمت لبرهة.

استطردتُ قائلة:

– «ومن جهة أخرى، لم يستمر زواجنا طويلًا بما يكفي ليسأم لين مني ويبادر بطلب طلاقنا الذي كان محتومًا.»

التفتت كاثرين نحوي، وعيناها الواسعتان تتفحصان وجهي لترى إن كنت جادة في ما أقول. وسألت:

– «هل تفعلين هذا دائمًا؟»

قلتُ:

– «أفعل ماذا؟»

أجابت:

– «تلقين نكتة لتتجنبي الحديث عن مشاعرك الحقيقية؟»

قلتُ:

– «في تسعين بالمائة من الحالات فقط.»

قالت:

– «لقد فعلتها ثانية للتو.»

تململتُ في مقعدي بحرج. كانت كاثرين محقة بالطبع. لقد وضعت إصبعها على واحدة من أسوأ خصالي. وهي الشخص الوحيد، بخلاف مارني وأمي، الذي فطن لذلك. فحتى لين، الذي تحمل العبء الأكبر من هذه الخصلة، لم يواجهني بها قط.

قلتُ:

– «أنا أمزح لأن التظاهر بعدم الإحساس بما أشعر به أيسر بكثير من أن أكابده حقًا.»

أومأت كاثرين برأسها، وأشاحت بوجهها، لتعاود النظر نحو منزلها الزجاجي على حافة الماء. كانت الواجهة المطلة على البحيرة لا تزال تعكس صفحة السماء، غير أن الشمس قد اقتحمت المشهد الآن. فرسمت دائرة متوهجة في الموقع الدقيق لغرفة نومها؛ توهج بالغ السطوع يكاد يخطف البصر لو أطلت التحديق فيه.

قالت:

– «ربما يجدر بي تجربة ذلك. هل يجدي نفعًا حقًا؟»

قلتُ:

– «أجل. وخاصة إن شربتِ ما يكفي.»

ردت كاثرين بضحكة مكتومة وجافة:

– «هذا جربته بالفعل.»

حملقت في عمق كوب القهوة، نادمة على عدم إضافة قطرة من البوربون إليه. راودتني فكرة النهوض لإضافة القليل. وراودتني فكرة سؤال كاثرين إن كانت ترغب في بعضه هي الأخرى. وكنت على وشك الإقدام على ذلك حين لمحت طيفًا يكتسي بالرمادي يخطو نحو الفناء خارج منزلها.

لمحته هي الأخرى، فقالت:

– «هذا توم، لا بد أنه يتساءل عن مكان وجودي.»

سألتُها:

– «ألم تخبريه أنكِ قادمة إلى هنا؟»

أجابت:

– «يروق لي أن أتركه في حيرة من أمره.»

نهضت، وتمطت قليلًا، ثم بادرتني بعناقها المفاجئ الثاني خلال يومين، وقالت:

– «شكرًا على القهوة. يجب أن نعيد الكرة غدًا.»

قلت محاولة تقمص شخصية ماي ويست لكن نبرتي خرجت أشبه بـ بي آرثر:

– «عندي أم عندكِ؟»

أجابت:

– «هنا قطعًا. لا يوجد سوى قهوة خالية من الكافيين في منزلنا. يزعم توم أن الكافيين يثبط الطاقة الطبيعية للجسد. وهذا بحد ذاته مبرر كافٍ للطلاق.»

توقفت لبرهة، ولا شك أنها استوعبت نظرة الدهشة المرتسمة على وجهي، فاستدركت:

– «لقد كانت مزحة يا كيسي. لأواري بها حقيقة ما أشعر به.»

سألتُ:

– «وهل أجدَت نفعًا معكِ؟»

تدبرت كاثرين الأمر وقالت:

– «ربما. لكني لا أزال أفضل الصراحة. وفي هذه الحالة، الحقيقة هي أن توم يحتاجني بشدة تمنعه من الموافقة على الطلاق. سيقتلني قبل أن يدعني أرحل.»

لوحت لي بأصابعها بخفة، ونزلت الدرجات بقفزات رشيقة. تسمرت عند سياج الشرفة، أراقبها وهي تعبر الرصيف، وتقفز إلى القارب، لتبدأ رحلة العبور القصيرة نحو الضفة المقابلة من البحيرة.

وحين بلغت منتصف المسافة تقريبًا، لفت انتباهي شيء على الأرض بالأسفل. بقعة لامعة وسط بقعة من العشب الطويل بالقرب من الجدار الحجري الممتد على طول الشريط الساحلي.

زجاج.

يعكس ضوء الشمس ببريق يضاهي بريق منزل كاثرين.

هبطت الدرجات والتقطته، لأكتشف أنها شظية من كأس النبيذ الذي حطمته الليلة الماضية. وحين رفعتها نحو الضوء، أمكنني تبين قطرات نبيذ جافة على سطحها، إلى جانب غشاء رقيق يشبه الملح الجاف.

تفحصت الأرض باحثة عن قطع زجاج مشابهة. وحين لم أعثر على شيء، عدت للداخل وألقيت الشظية في سلة مهملات المطبخ. وبحلول الوقت الذي أصدرت فيه رنينًا عند ارتطامها بقاع السلة، باغتتني فكرة.

ليس عن كأس النبيذ المحطمة.

بل عن كاثرين.

لقد راسلتني هذا الصباح، لكني لا أملك أدنى فكرة عن كيف حصلت على رقمي.

***

مضى باقي اليوم على جدوله المعتاد.

فودكا. صرفة.

فودكا أخرى. صرفة أيضًا.

بكاء تحت الدش.

شطيرة جبن مشوي للغداء.

بوربون.

بوربون.

بوربون.

اتصلت أمي في موعدها المعتاد، على هاتفي المحمول لا على الخط الأرضي الذي لا يزال محشورًا في درج غرفة المكتب. تركت المكالمة تُحال إلى البريد الصوتي، وحذفت رسالتها دون الاستماع إليها.

ثم تجرعت كأس بوربون أخرى.

كان العشاء شريحة لحم مع طبق سلطة جانبي، لأتمكن من إيهام نفسي بأن جسدي ليس قاحلًا غذائيًا بالكامل.

ونبيذ.

قهوة لأستفيق قليلًا.

مثلجات، بلا سبب.

إنها الآن دقائق معدودة بعد منتصف الليل، وأنا أرتشف ويسكي رخيصًا صببته من زجاجة لم تُمَس وجدتها محشورة في عمق خزانة المشروبات. الأرجح أنها قبعت

هناك لعقود. لكنها أوفت بالغرض، مهدئة من تذبذبات الثمالة التي كابدتها على مدار اليوم. وأنا الآن مغلفة بسكينة حالمة تجعل كل هذا يستحق العناء.

أجلس في الشرفة، متدثرة بسترة ثقيلة، وبطانية القارب تلتف مرة أخرى حول كتفيّ. لم يكن الضباب كثيفًا كالليلة الماضية. بل كانت بحيرة جرين وما حولها ترقد مغلفة بصفاء فضي يتيح رؤية واضحة عبر الماء.

تأملت كل منزل هناك.

منزل عائلة فيتزجيرالد. مظلم وخاوٍ.

منزل آل رويس. ليس خاويًا، لكنه مظلم بالقدر ذاته.

منزل إيلي. ضوء يتيم يتوهج في الطابق الثالث.

التفت نحو ضفتي من البحيرة. منزل عائلة ميتشل، مظلم هو الآخر، وبالكاد يُلمح من بين الأشجار. وافترضت أن هذا يعني ألا سباحة منتصف الليل لـ بون.

يا للأسف.

كنت أفكر في الخلود إلى النوم أنا الأخرى حين انبعث ضوء في منزل آل رويس. مرآه دفعني تلقائيًا لمد يدي نحو المنظار، لكنني كبحت نفسي قبل أن تطبق عليه أصابعي.

لا يجدر بي فعل هذا.

لست بحاجة لفعل هذا.

ما ينبغي لي فعله هو شرب بعض الماء، والذهاب إلى الفراش، وتجاهل ما يفعله جيراني. ليست بالمهمة الشاقة. ومع ذلك، كان ذلك المستطيل المضيء على الضفة المقابلة يجذبني كحبل معقود حول خصري.

حاولت المقاومة، محومة بيدي فوق المنظار بينما أعد (ميسيسيبي) تمامًا كما فعلت أمس مع البوربون. هذه المرة، سقطت قبل بلوغ السادسة والأربعين بكثير قبل أن ألتقطه. في الواقع، بالكاد بلغت الحادية عشرة.

فالمقاومة لها مساوئها أيضًا. إنها تعزز رغبتي في الشيء – سواء أكان مراقبة آل رويس أم تجرع كأس من الخمر – بأضعاف مضاعفة. أنا أعي تمامًا كيف يعمل الحرمان. تحرم نفسك وتحرمها وتحرمها حتى ينهار ذلك السد الذهني، وتتدفق كل تلك النزوات المريعة، مسببة الأذى في أغلب الأحيان.

ليس وكأن سلوكي هذا يؤذي أحدًا. لن يعلم به أحد سواي.

والمنظار في يدي، ركزت عدساته على النافذة المتوهجة وسط عتمة الليل. إنها في الطابق الثاني، منبعثة من المكتب المنزلي الذي لمحت فيه توم البارحة. لكن الآن، تجلس كاثرين عند المكتب بمحاذاة النافذة، محدقة في الحاسوب المحمول.

متدثرة بروب أبيض، بدت أسوأ مما كانت عليه هذا الصباح. مجرد نسخة شاحبة من هيئتها المعتادة. وما زاد الطين بلة هو التوهج المنبعث من الحاسوب، والذي كسا وجهها بمسحة زرقاء سقيمة.

راقبت كاثرين وهي تطبع شيئًا، ثم تضيق عينيها محدقة في الشاشة. ازداد تضييق عينيها وضوحًا وهي تنحني للأمام، مستغرقة بالكامل في ما تراه.

ثم باغتها شيء ما.

كان ذلك جليًا حتى من هذه المسافة.

تدلى فكها السفلي وطارت يدها لتكتم شفتها السفلى. واتسعت عيناها بعد أن كانتا مضيقتين. وراحت كاثرين ترمش. بسرعة. ثانيتان كاملتان من ارتعاش الجفون.

توقفت.

زفرت أنفاسها.

أدارت رأسها ببطء شطر باب المكتب المفتوح على مصراعيه.

أصاخت السمع، ورأسها مائل، في حالة تأهب.

ثم، وبقناعة تامة على ما يبدو بأن أحدًا لن يقاطعها، عادت كاثرين إلى الحاسوب المحمول في نوبة من النشاط المحموم. نقرات على المفاتيح. تحريك للمؤشر. وكل هذا وهي لا تنفك تسترق النظرات الخاطفة نحو الباب المفتوح.

فعلت المثل، وأدرت المنظار بحدة نحو اليمين، حيث تقع غرفة النوم الرئيسية.

كانت غارقة في عتمة تامة.

أعدت نظري نحو المكتب، حيث أمضت كاثرين الدقيقة التالية في الطباعة، ثم القراءة، ثم المزيد من الطباعة. تلاشت دهشة وجهها قليلًا، لتتحول إلى ما بدا لعينيّ كأنه عزم وتصميم.

إنها تبحث عن شيء ما. لا أعلم كيف أدركت ذلك، لكنني موقنة به. ليست هذه تعبيرات شخص يقلب رسائل البريد الإلكتروني بلامبالاة في منتصف الليل. إنها نظرة شخص في مهمة محددة.

وفي الجانب الآخر من المنزل، تجلى ضوء آخر.

غرفة النوم.

تسدل ستائر بيضاء شفافة على النوافذ الطويلة. ومن خلالها، ألمح الوهج المشتت لمصباح السرير، وطيف توم رويس معتدلًا في فراشه. انسل من تحت الأغطية، ولا يرتدي سوى سروال منامة، وخطا بضع خطوات متصلبة عبر الغرفة.

وعند شق الباب المرئي، توقف توم، تمامًا كما فعل في غرفة الطعام حين راقبتهما البارحة.

كان يصيخ السمع مجددًا، متسائلًا عما تفعله زوجته.

وعلى بُعد غرفتين، واصلت كاثرين الطباعة، فالقراءة، فالطباعة. أخذت أتنقل ببصري بينهما ذهابًا وإيابًا، كمن يتابع مباراة تنس.

توم لا يزال متسمرًا عند باب غرفة النوم منصتًا.

ووجه كاثرين يُضاء بوهج الحاسوب المحمول.

توم ينسل خارج الغرفة.

كاثرين تنحني للأمام قليلًا، لتحظى بنظرة أوضح لشاشة الحاسوب.

توم يظهر مجددًا عند عتبة الباب خلفها.

تفوه بشيء، منبهًا كاثرين لوجوده.

جفلت لسماع صوته، وأطبقت شاشة الحاسوب بعنف، واستدارت لتواجهه. ورغم أنني لم أتمكن من رؤية سوى مؤخرة رأسها، كان جليًا أنها تتحدث. كانت إيماءاتها واسعة وتعبيرية. مسرحية صامتة لادعاء البراءة.

رد عليها توم بشيء ما، وضحك بخفوت، وحك مؤخرة عنقه. لم تبدُ عليه إمارات الغضب أو حتى الارتياب، ما يعني أن كاثرين قد تفوهت بالشيء الصائب حتمًا.

نهضت وقبلت توم تمامًا كزوجات المسلسلات الكوميدية. وقفت على أطراف أصابعها لتطبع قبلة خاطفة، وثنت إحدى ساقيها للخلف في حركة غزلية. ضغط توم على مفتاح الإضاءة بجوار الباب، فاستحال المكتب إلى مستطيل من العتمة.

وبعد ثانيتين، عادا إلى غرفة النوم. تسلق توم السرير وتدحرج على جانبه، موليًا ظهره للنافذة. وتوارت كاثرين داخل الحمام. وميض آخر من الإضاءة المثالية، أعقبه انغلاق الباب.

في السرير، تدحرج توم. وكان آخر ما لمحته هو يده تمتد نحو مصباح السرير. أطفأه، فغرق المنزل في ظلام دامس.

خفضت المنظار، وقد ساورني القلق مما رأيته للتو، رغم عجزي عن صياغة السبب. أود إيهام نفسي بأن ذلك نابع من اختطافي لمحة أخرى غير مصفاة من حياة شخص آخر. أو لعل الأمر ببساطة هو شعوري بالذنب لإقناع نفسي بجواز مراقبة شيء

لم يكن ليحق لي رؤيته قط مرة أخرى. ونتيجة لذلك، أضخم ما رأيته ليغدو أكبر من حقيقته؛ كالذي يصنع من الحبة قبة، كما يقول المثل.

ومع ذلك، لم أستطع التخلص من صورة رد فعل كاثرين لحظة إدراكها لدخول توم إلى الغرفة.

انتفاضتها من كرسيها.

والهلع المرتسم بوضوح على وجهها.

وكلما أمعنت التفكير في الأمر، ازددت يقينًا بأنها ضُبطت متلبسة بالنظر إلى شيء أبت أن يراه توم. فالطريقة التي أطبقت بها الحاسوب بعنف جعلت ذلك جليًا بما لا يدع مجالًا للشك، ناهيك عن القبلة المفرطة في تصنع اللطافة التي أتبعت بها فعلتها.

كل هذا يقودني إلى استنتاج واحد.

توم رويس يخفي سرًا.

وأظن أن كاثرين قد اكتشفت لتوها ماهيته.

***

الواحدة صباحا.

الشرفة، الكرسي الهزاز، الخمر، إلى آخره.

أنا نصف نائمة على الكرسي، أمارس تلك العادة المتمثلة في الغفوة حتى يتدلى رأسك ليوقظك؛ تمامًا كما كان يفعل والدي في طفولتي. كنت أراقبه وهو يفعل ذلك ونحن جالسان أمام التلفاز، بانتظار عودة أمي من عرضها المسرحي. بادئ الأمر، تنسدل جفونه ببطء. ثم يحل السكون، وربما يتسلل شخير أشبه بالهدر. وأخيرًا يميل رأسه للأمام، فيوقظه فزعًا. كنت لأضحك بخفوت، فيدمدم هو بشيء غير مفهوم، لتبدأ الدورة برمتها من جديد.

وها أنا الآن أفعلها؛ صفات الأب تتوارثها الابنة. وبعد إيماءة رأس وإفاقة أخرى، حدثت نفسي بأن وقت الخلود إلى النوم قد حان.

لكن ضوءًا ومض فجأة في منزل آل رويس على الضفة المقابلة.

المطبخ.

طار النوم من عيني فجأة، وتخبطت يدي باحثة عن المنظار، دون أن تراودني حتى فكرة المقاومة هذه المرة. التقطته وحسب، ورفعته إلى عينيّ، لأرى كاثرين تقتحم المطبخ غاضبة. اختفى الروب الذي كانت ترتديه آنفًا، وحل محله سروال جينز وسترة بيضاء فضفاضة.

وكان توم يسير خلفها مباشرة، ولا يزال بسروال منامته، يتحدث.

لا.

يصرخ.

فمه مفتوح على آخره، شكل بيضاوي غاضب يتسع ويضيق وهو يواصل الصراخ في وجه زوجته وسط المطبخ. استدارت بحدة، وصرخت بشيء في وجهه.

انحنيت للأمام بطريقة مثيرة للسخرية، وكأن اقترابي قليلًا سيمكنني من سماع ما يقولانه. لكن منزل عائلة رويس كان كفيلم صامت يُعرض لي وحدي. بلا أصوات. بلا موسيقى. بلا أدنى ضجة، سوى الحفيف المحيط بالرياح في أوراق الشجر وارتطام أمواج الماء الخافتة على الضفة.

دلفت كاثرين إلى غرفة الطعام المظلمة، ولم تكن سوى طيف باهت يمر عبر النوافذ الممتدة من الأرض إلى السقف. وتخلف توم عنها بخطوات معدودة، متتبعًا إياها حتى توارت في غرفة المعيشة.

لبرهة، لم يكن هناك شيء. سوى الوهج المستقر لضوء المطبخ الذي يضيء غرفة خاوية. ثم أُشعل مصباح في غرفة المعيشة. بفعل توم. رأيته على الأريكة البيضاء، ويده تنسحب من المصباح المضاء للتو. وقفت كاثرين عند النافذة، مولية ظهرها لزوجها، وتحدق عبر البحيرة نحو منزلي مباشرة.

وكأنها توقن أنني أراقب.

وكأنها متأكدة من ذلك تمامًا.

انزلقت بجسدي أعمق داخل الكرسي الهزاز. مجددًا، أمر يثير السخرية.

يستحيل أن تراني.

بالطبع لا يسعها ذلك.

والأرجح أنني أظنها تراقب انعكاس زوجها على الزجاج. على حافة الأريكة، انهار متقوسًا للأمام، دافنًا رأسه بين يديه. رفع رأسه، وبدا وكأنه يتوسل إليها. كانت إيماءاته يائسة، وتكاد تكون هيستيرية. وبالتركيز على حركتي شفتيه، أمكنني تقريبًا تخمين ما يتفوه به.

كيف؟ أو ربما مَن؟

لم تجب كاثرين. على الأقل، ليس بما يسعني رؤيته. فبابتعادها عن الأريكة مع إضاءة المصباح خلفها، غرق الجزء الأمامي منها في العتمة. لكنها لم تكن تتحرك؛ هذا ما يسعني الجزم به. وقفت كتمثال عرض أمام النافذة، وذراعاها تتدليان إلى جانبيها.

خلفها، نهض توم من الأريكة. واستحال التوسل إلى صراخ مجددًا وهو يخطو نحوها خطوة مترددة. وحين امتنعت كاثرين عن الرد، أمسك بذراعها وجذبها بقسوة بعيدًا عن الزجاج.

ولثانية واحدة، بقيت نظراتها مسمرة على النافذة، حتى بينما كان جسدها يُنتزع بعيدًا عنها.

حينها تلاقت أعيننا.

بطريقة ما.

فرغم أنها لا تراني، وعيناي تختبئان خلف عدسات المنظار، وتفصل بيننا مسافة ربع ميل، إلا أن نظراتنا وجدت طريقها لبعضها البعض.

للحظة عابرة فحسب.

لكن في ذلك الوميض الضئيل من الزمن، تمكنت من رؤية الرعب والتخبط في عينيها.

وفي أقل من ثانية، استدار رأس كاثرين مع بقية جسدها. استدارت بحدة لتواجه زوجها، الذي استمر في سحبها نحو الأريكة. ارتفعت ذراعها الحرة، وتكورت أصابعها لتشكل قبضة، وما إن اكتملت، حتى هوت بقوة على فك توم.

كانت ضربة عنيفة.

عنيفة لدرجة خيل إليّ أنني سمعت دويها من الضفة المقابلة للبحيرة، وإن كان الأرجح أن ذلك الصوت لم يكن سوى شهقة صدمة مكتومة أفلتت مني.

أفلت توم، الذي بدا مصدومًا أكثر منه متألمًا، ذراع كاثرين وتعثر متراجعًا نحو الأريكة. بدت وكأنها تقول شيئًا. أخيرًا. لا صراخ منها. ولا توسل. مجرد جملة نُطقت بما يبدو كهدوء آمر.

غادرت الغرفة. وبقي توم.

وجهت المنظار صعودًا نحو الطابق الثاني، الذي ظل غارقًا في العتمة. فإن كانت كاثرين قد صعدت إلى هناك، فلم أتمكن من رؤيتها.

أعدت نظري إلى غرفة المعيشة، حيث سحب توم نفسه ليعود إلى الأريكة. ومراقبته وهو مقوس الظهر دافنًا رأسه بين يديه، دفعتني للتفكير في الاتصال بالشرطة والإبلاغ عن نزاع عائلي.

ورغم جهلي التام بسياق ما شهدته للتو، إلا أنه لا مجال للشك في وقوع شكل من أشكال العنف الزوجي.

فرغم أن كاثرين هي من بادرت بالضرب، إلا أن ذلك لم يحدث إلا بعد أن أحكم توم قبضته عليها. وحين تلاقت أعيننا لبرهة، لم يكن الخبث أو الانتقام هو ما لمحته.

بل كان الخوف.

خوف واضح ومميت يبتلع كل شيء.

في قرارة نفسي، كان توم يستحق ما ناله.

هذا يدفعني للتساؤل عن عدد المرات التي تكرر فيها مثل هذا السيناريو من قبل.

ويثير مخاوفي من أن يتكرر ثانية.

الشيء الوحيد الذي أوقنه هو ندمي الشديد على التقاط هذا المنظار ومراقبة آل رويس. كنت أعلم أن ذلك خطأ. تمامًا كما كنت أعلم أن استمراري في المراقبة سيقودني حتمًا لرؤية ما لا أرغب في رؤيته.

لأنني لم أكن أتلصص على شخص واحد فقط.

كنت أراقب زوجين، وهو أمر يفوق ذلك تعقيدًا وعصيانًا على الترويض.

«وما الزواج إلا سلسلة من الخديعة المتبادلة؟»

تلك كانت جملة من مسرحية (ذرة شك). قبل أن أُطرد، كنت ألقيها ثماني مرات أسبوعيًا، منتزعة في كل مرة ضحكة قلقة من الجمهور الذي أدرك الحقيقة القابعة خلفها. لا يوجد زواج تحفه الصراحة المطلقة. فكل زواج مبني على نوع من الخديعة، حتى وإن كانت صغيرة وغير مؤذية. كالزوج الذي يتصاهر بإعجابه بالأريكة التي اختارتها زوجته. أو الزوجة التي تتابع برنامج زوجها المفضل رغم مقتها الشديد له في صمت.

وأحيانًا، تكون الخديعة أكبر.

كخيانات. إدمان. أسرار.

وهذه لا يمكن أن تبقى طي الكتمان للأبد. ففي لحظة ما، تنكشف الحقيقة وتتهاوى كل تلك الأكاذيب المرتبة بعناية كأحجار الدومينو. فهل هذا ما شهدته للتو في منزل آل رويس؟ زواج يرزح تحت وطأة الضغوط لينفجر أخيرًا من الداخل؟

في غرفة المعيشة، نهض توم وعبر نحو طاولة المشروبات الجانبية. تناول زجاجة تحوي سائلًا عسلي اللون وسكب بعضًا منه في كأس.

وفوقه، اشتعل الضوء في غرفة النوم الرئيسية، كاشفًا عن كاثرين وهي تتحرك خلف الستائر الشفافة. اختطفت هاتفي حين رأيتها، دون التفكير فيما سأتفوه به. ببساطة، اتصلت.

أجابت كاثرين بصوت خافت وأجش:

– «مرحبًا؟»

قلتُ:

– «أنا كيسي. هل كل شيء على ما يرام هناك؟»

لم يصدر أي شيء من جهة كاثرين. لا أنفاس. ولا حفيف. مجرد ومضة من الصمت قبل أن تقول:

– «ولمَ قد لا يكون كل شيء على ما يرام؟»

قلتُ:

– «ظننت أنني قد...»

كابدت بالكاد لأوقف الكلمة التي أوشكت أن تنزلق من على لساني.

رأيت.

تداركت قائلة:

– «ظننت أنني سمعت صوتًا قادمًا من منزلكما، وأردت فقط الاطمئنان على أنكِ بخير.»

– «أنا بخير. انظري.»

خدر أصاب جسدي بالكامل.

إذن كاثرين تعلم أنني أراقب.

أظن أنه لا ينبغي لي الاندهاش إلى هذا الحد. فقد جلست على هذا الكرسي الهزاز عينه، وتطلعت إلى منزلها عبر نفس زوج المنظار القابع الآن بجواري.

«لو كنت مكانك لراقبت منزلي بكل تأكيد»، هذا ما قالته، ملمحة بدهاء إلى درايتها بأنني كنت أراقبها أيضًا.

لكن لا شيء يحمل طابع الدهاء في هذا. الآن، تطلب مني صراحة أن أنظر.

انفرجت الستائر الشفافة في غرفة النوم الرئيسية، فتخبطت يدي ألتقط المنظار. عند النافذة، لوحت كاثرين. ولأنها كانت تتشح بظلال كثيفة، لم أتمكن من استبيان وجهها.

أو ما إن كانت تبتسم.

أو ما إن كان الخوف الذي لمحته آنفًا لا يزال يتربص في عينيها.

كل ما استطعت رؤيته كان طيفها الذي استمر في التلويح حتى توقف ذلك أيضًا.

تدلت يد كاثرين إلى جانبها، وبعد وقوفها عند النافذة لثانية أخرى، تراجعت وغادرت الغرفة، ضاغطة على مفتاح النور في طريق خروجها.

وفي الأسفل مباشرة، كان توم قد أجهز على كأسه. وقف هناك لبرهة، محدقًا في الكأس الفارغة، وكأنه يزن فكرة تناول واحدة أخرى.

ثم ارتدت ذراعه للخلف، وقذف الكأس بعنف.

ارتطمت بالجدار وتهشمت.

اقتحم توم الغرفة عائدًا إلى الأريكة، ومد يده نحو المصباح، وبحركة خاطفة من أصابعه، عادت عتمة قلقة لتخيم على المنزل الواقع على الضفة المقابلة من البحيرة.

***

أيقظني فزعًا صوت مزق سكون البحيرة. وعيناي لا تزالان مغلقتين، لم ألتقط سوى أنفاسه الأخيرة. صدى لصدى يتلاشى بسرعة وهو يعوي متوغلًا أعمق في الغابة خلف منزلي.

بقيت متصلبة في مكاني لنصف دقيقة، منتظرة عودة الصوت. لكنه ولى الآن، أيًا كان ماهيته. خيم على البحيرة صمت كثيف كبطانية صوفية، ومفرط في خنقه كحالها.

فتحت عينيّ بالكامل على سماء وردية مائلة للرمادي، وبحيرة بدأت للتو تتلألأ بتباشير ضوء النهار.

لقد أمضيت الليلة بأكملها في الشرفة.

يا إلهي.

رأسي يطرق ألمًا وجسدي يئن به. وحين اعتدلت في جلستي، أصدرت مفاصلي صريرًا يفوق صرير الكرسي الهزاز تحتي. وما إن استقمت واقفة، حتى ضربني الدوار. دوران شيطاني يجعل العالم يبدو وكأنه ينحرف عن محوره، ويجبرني على التشبث بمسندي الكرسي لأحفظ توازني.

نظرت للأسفل، راجية أن يثبت ذلك من روعي. عند قدميّ، وعلى أرضية الشرفة تترنح زجاجة الويسكي بخفة، وقد أوشكت الآن على الانتهاء.

يا إلهي.

رؤيتها أيقظت في داخلي موجة غثيان عاتية لدرجة أنها طغت على ألمي وتخبطي ودوراني. نهضت – بطريقة ما – واندفعت للداخل، قاصدة الحمام الصغير المجاور للبهو مباشرة.

بلغت الحمام، لكنني لم أبلغ المرحاض. كل ذلك السم الذي يعتمل في معدتي اندفع كالسيل فوق الحوض. أدرت الصنبور بأقصى طاقته لأجرفه، وتعثرت خارجة من الغرفة، نحو الدرج في الجانب الآخر من غرفة المعيشة. لم أتمكن من بلوغ الطابق العلوي إلا زحفًا على الدرجات. وما إن وصلت، واصلت الزحف عبر الممر على يدي وركبتي حتى بلغت غرفة النوم الرئيسية، حيث أفلحت في سحب جسدي إلى الفراش.

هويت على ظهري، وانغلقت عيناي من تلقاء نفسيهما. لم يكن لي خيار في الأمر. كانت آخر فكرة راودتني قبل أن أهوي في دوامة الغيبوبة هي ذكرى ذلك الصوت الذي أيقظني. ومعه جاء اليقين.

أنا الآن أعلم ما سمعته يقينًا.

لقد كان صرخة.

الوقت الحاضر

قلتُ مجددًا، وأنا ألوي المنشفة التي أخرجتها لتوّي من فمه:

– «أخبرني، ماذا فعلتَ بـ كاثرين؟»

كانت المنشفة مبللة باللعاب. بلل دافئ ومقزز دفعني لإسقاطها على الأرض، ثم تابعت:

– «أخبرني، وسينتهي كل هذا.»

لم يفعل بالطبع.

فما من سبب يدفعه لذلك.

ليس لي على الأقل.

ليس بعد كل ما اقترفته. وما لا أزال أقترفه.

احتجازه رهينة.

كذبي على ويلما.

سيكون عليّ تقديم الكثير من التبريرات لاحقًا. غير أن هدفي الأوحد في هذه اللحظة هو إنقاذ كاثرين. إن كان ذلك ممكنًا من الأساس. ولا سبيل لي لمعرفة ذلك حتى يُقر هو بلسانه.

سألتُ بعد انقضاء دقيقة لم يتخللها سوى صوت المطر وهو يجلد السقف:

– «ماذا حل بها؟»

أمال رأسه إلى الجانب، بصلف لا يُحتمل، وأجاب:

– «أنتِ تفترضين أنني أعلم.»

عكست تعبيرات وجهه، وصولًا إلى تلك الابتسامة الشاحبة التي توحي بكل شيء عدا الود، وقلت:

– «إنه ليس افتراضًا. أخبرني الآن ماذا فعلت بها.»

– «لا.»

– «لكنك فعلت شيئًا حقًا؟»

قال:

– «أود أن أطرح عليكِ سؤالًا. ما سر هذا الاهتمام البالغ بكاثرين؟ أنتِ بالكاد عرفتِها.»

استخدامه لصيغة الماضي بعث قشعريرة رعب سرت في عمودي الفقري. وأنا على يقين من أن هذا كان مقصده.

قلتُ:

– «هذا لا يهم. أخبرني أين هي.»

– «في مكان لن تعثري عليها فيه أبدًا.»

ظل الخوف متشبثًا بي. وانضم إليه شعور جديد: الغضب. راح يعتمل في صدري، حارًا ومضطربًا كالماء المغلي. غادرت الغرفة وهبطت الدرج بخطى غاضبة، بينما أدت الأضواء ومضة أخرى مثيرة للأعصاب.

في المطبخ، توجهت إلى حامل السكاكين على الرخامة وانتزعت النصل الأكبر. ثم عدت أدراجي إلى الطابق العلوي، وإلى الغرفة، وإلى السرير الذي طالما نمت عليه في طفولتي. من العسير استيعاب أن تلك الطفلة الصغيرة هي ذاتها الشخص الذي يتأرجح الآن تحت تأثير البوربون ملوحًا بسكين. ولولا أنني عشت شخصيًا السنوات الفاصلة بين هاتين النقطتين، لما صدقت ذلك بنفسي.

وبيدين ترتجفان، لامست بطرف السكين جنبه. وخزة تحذير.

– «أخبرني أين هي.»

وبدلًا من أن ينكمش رعبًا، ضحك. ضحكة حقيقية، أقسم بالله. وما أثار رعبي أكثر هو استمتاعه البالغ بهذا الموقف.

قال:

– «أنتِ لا تملكين أدنى فكرة عما تفعلينه.»

لم أنبس بكلمة.

لأنه كان محقًا.

لست أملك أي فكرة.

لكن ذلك لن يثنيني عن المضي قدمًا بأي حال من الأحوال.

قـبـل ذلـك..

أستيقظ مجددًا بعد التاسعة بقليل، ورأسي لا يزال يطرق ألمًا، لكن لحسن الحظ تلاشت الدوخة والغثيان. ومع ذلك، أشعر وكأنني جثة هامدة. وأفوح برائحة الموت أيضًا. وأنا على يقين من أن مظهري لا يقل بؤسًا.

لو رأتني أمي لأصابها الهلع.

أنا نفسي أشعر بالهلع.

وبينما أعتدل في جلستي وسط تشابك الأغطية، كان أول ما لفت انتباهي هو خرير الماء المكتوم المنبعث من الطابق السفلي.

حوض الحمام الصغير.

لم أغلقه قط.

أقفز من السرير، وأهرول متعثرة عبر الدرج، لأجد الصنبور لا يزال يتدفق بأقصى طاقته. ثلثا الحوض ممتلئ بالماء، وأظن أن جودة السباكة هي وحدها ما حال دون فيضانه. أغلق الماء، في حين تومض ذكريات الليلة الماضية في عقلي بوضوح قاسٍ.

الويسكي.

المنظار.

الشجار، والمكالمة الهاتفية، وتلويحة كاثرين عند النافذة.

والصرخة.

تلك الصرخة هي آخر ما أذكره، لكنها الأهم. والأكثر إثارة للريبة. هل سمعت حقًا صرخة عند انبلاج الفجر؟ أم كانت مجرد جزء من حلم ثمل راودني أثناء فقداني الوعي في الشرفة؟

فرغم أملي بأن يكون الاحتمال الثاني هو الأصح، إلا أن شكوكي تميل نحو الأول. أفترض أنني في الحلم كنت لأسمع الصرخة بوضوح أكبر؛ صرخة حية تتردد في جنبات جمجمتي. لكن ما سمعته هذا الصباح كان شيئًا آخر.

بقايا صرخة.

صوت باهت وعصي على الإمساك.

لكن إن كانت الصرخة قد حدثت بالفعل – وهي النظرية التي تتخمر في عقلي المثقل بآثار الثمالة – فقد بدت كصرخة كاثرين. حسنًا، بدت كصرخة امرأة. وعلى حد علمي، هي المرأة الوحيدة الأخرى التي تقيم عند البحيرة في الوقت الحالي.

أمضي الدقائق القليلة التالية في رحلة بحث عن هاتفي، لأعثر عليه أخيرًا حيث تركته في الشرفة، قابعًا على الطاولة بجوار المنظار. وبعد ليلة كاملة في العراء، لم يتبق من عمر البطارية سوى رمق أخير. وقبل أن آخذه للداخل لشحنه، أتفقد إن كنت قد تلقيت أي مكالمات أو رسائل من كاثرين.

لم أتلقَ شيئًا.

أقرر مراسلتها، وأنتقي كلماتي بعناية بينما يعيدني كوب من القهوة الثقيلة إلى الحياة، في حين يتولى الشاحن مهمة مماثلة لهاتفي.

«لقد أعددت قهوة للتو. تعالي إن أردتِ بعضًا منها. أظن أنه يجدر بنا التحدث عما حدث الليلة الماضية.»

أضغط على زر الإرسال قبل أن تراودني حتى فكرة مسحها.

وبينما أنتظر ردها، أرتشف قهوتي وأستغرق في التفكير في تلك الصرخة.

إن كانت صرخة حقًا.

لقد أمضيت نصف عمري على ضفاف هذه البحيرة. وأدرك تمامًا أن الصوت قد يكون لشيء آخر. فكثير من الحيوانات تتسلل ليلًا للتجول على الشاطئ أو حتى في المياه ذاتها. بوم يصدر نداءات حادة، وطيور مائية صاخبة. وذات مرة، حين كنا، مارني وأنا، طفلتين، صرخ ثعلب متحصن في بقعة ما على طول الشاطئ ليدافع عن منطقته ضد حيوان آخر، واستمر في صراخه لشطر كبير من الليل. صرخ بكل ما للكلمة من معنى. وكان صدى صرخاته المتردد عبر الماء يبعث قشعريرة في العظام، حتى بعد أن تولى إيلي شرح ما كان يجري لنا بالتفصيل.

لكنني اعتدت تلك الأصوات، وبات بإمكاني النوم وسطها دون اكتراث. لا سيما بعد ليلة غارقة في الشرب. أما هذا الصوت، فكان مختلفًا بما يكفي ليوقظني فزعًا، رغم تجرعي لجل زجاجة الويسكي.

في هذه اللحظة، أنا شبه موقنة – بنسبة خمسة وسبعين بالمائة – أن ما سمعته كان صرخة امرأة. ورغم أن هذا أبعد ما يكون عن اليقين، إلا أنه كافٍ لإبقاء طنين القلق يعتمل في داخلي وأنا أتفقد هاتفي مجددًا.

لا يزال صمت كاثرين مطبقًا.

وبدلًا من الاستمرار في انتظار رسالة نصية، أقرر الاتصال بها. يرن الهاتف ثلاث مرات قبل أن يُحال إلى البريد الصوتي.

«مرحبًا، لقد وصلت إلى كاثرين. أنا غير متاحة للرد على مكالمتك حاليًا. أو ربما أتعمد تجاهلك فحسب. اتركي اسمك ورقمك، وستكتشفين الحقيقة إن عاودت الاتصال بك.»

أنتظر سماع الصافرة وأترك رسالة.

– «مرحبًا، أنا كيسي.» توقفت لبرهة، أتدبر كيف أصوغ كلماتي. «أردت فقط الاطمئنان عليكِ. أعلم أنكِ قلتِ إنكِ بخير الليلة الماضية، لكن في ساعة مبكرة من هذا الصباح، خُيل إليّ أنني سمعت...»

توقفت مجددًا، مترددة في البوح صراحة بما أظن أنني سمعته. لا أود أن أبدو مفرطة في الدراما، أو أسوأ من ذلك، مصابة بهلاوس.

– «على أي حال، عاودي الاتصال بي. أو لا تترددي في المجيء فحسب. سيكون من الجميل أن نتجاذب أطراف الحديث.»

أنهي المكالمة، وأدس هاتفي في جيبي، وأمضي في يومي.

فودكا. صرفة.

فودكا أخرى. صرفة أيضًا.

حمام، خالٍ من الدموع لكنه محمل بقلق جديد وغير مرحب به.

شطيرة جبن مشوي للغداء.

وحين دقت ساعة الحائط الكبيرة في غرفة المعيشة الواحدة ظهرًا ولم ترد كاثرين بعد، عاودت الاتصال، لأُحال مجددًا إلى بريدها الصوتي.

«مرحبًا، لقد وصلت إلى كاثرين.»

أغلق الخط دون ترك رسالة، وأصب كأسًا من البوربون وأحمله إلى الشرفة. زجاجة الويسكي من الليلة الماضية لا تزال هناك، وبداخلها جرعة أخيرة تتأرجح. أركلها لتتوارى عن طريقي، وأهوي في كرسي هزاز، وأتفقد هاتفي عشر مرات في غضون ثلاث دقائق.

لا شيء بعد.

ألتقط المنظار وأتفرس في منزل عائلة رويس، آملة في لمحة لـ كاثرين، لكنني لا أرى شيئًا. إنها تلك الساعة التي تبدأ فيها الشمس بالانعكاس على الجدران الزجاجية، فيخفي انعكاس السماء ما وراءها وكأنه جفنان مغلقان.

وأنا أراقب المنزل، أتأمل الطبيعة غير المألوفة لما شهدته الليلة الماضية. أمر جلل وقع داخل ذلك المنزل. أمر لا يخصني، ومع ذلك، وبشكل غريب، يثير قلقي. فرغم قصر معرفتي بها، إلا أنني أعتبر كاثرين صديقة. أو على الأقل، شخصًا قد يغدو صديقًا. والأصدقاء الجدد عملة نادرة حين تبلغين الثلاثينيات.

في عمق البحيرة، يطفو قارب مألوف في الأفق. أوجه المنظار نحوه لألمح إيلي جالسًا في المقدمة، وفي يده صنارة صيد. إن كان ثمة شخص آخر على البحيرة قد سمع الصوت الذي سمعته، فهو حتمًا هو. أعلم ولعه بالاستيقاظ مع شروق الشمس، لذا فاحتمال كونه مستيقظًا حينها وارد بقوة. وإن كان قد سمع الصوت، فقد يكون قادرًا على استجلاء ماهيته وإخماد قلقي المتأجج.

أتصل بهاتفه المحمول، مفترضة أنه يحمله معه.

وبينما يرن الهاتف، أواصل مراقبته عبر المنظار. تعبر وجهه مسحة انزعاج وهو يربت على الجيب الأمامي لسترة الصيد – علامة مؤكدة على أنه يحمل هاتفه بالفعل. وبعد أن يسند صنارته إلى جانب القارب، يطالع هاتفه، ثم ينظر نحو منزل البحيرة. وحين يراني في الشرفة، وهاتفي في يدي، يلوح لي ويجيب.

– «إن كنتِ تتصلين لمعرفة ما إذا كنت قد اصطدت شيئًا، فالإجابة هي لا.»

قلتُ، مردفة إياها بتحذير:

– «لدي سؤال مختلف. سؤال غير مألوف. هل صدف أن سمعت ضجة غريبة بالخارج هذا الصباح؟»

– «في أي وقت؟»

– «عند الفجر.»

قال إيلي:

– «لم أكن مستيقظًا حينها. قررت الاستسلام للنوم قليلًا. أفترض أنكِ سمعتِ شيئًا؟»

– «أظن ذلك. لست متأكدة. كنت آمل أن تساندني في ذلك.»

لم يسألني إيلي عن سبب استيقاظي عند الفجر. وأظن أنه يعلم السبب سلفًا.

– «عن أي نوع من الضجيج تتحدثين؟»

– «صرخة.»

وحين نطقت الكلمة بصوت عالٍ، أدركت مدى استبعادها. فاحتمال صراخ شخص ما، ناهيك عن كاثرين رويس، عند انبلاج الفجر ضئيل، وإن لم يكن مستحيلًا.

فالأمور المروعة قد تقع على هذه البحيرة.

وأنا أدرك ذلك من واقع تجربتي.

قال إيلي:

– «صرخة؟ هل أنتِ واثقة من أنه لم يكن ثعلبًا أو ما شابه؟»

هل أنا واثقة؟ ليس تمامًا. فحتى خلال هذه المحادثة، تراجع مستوى يقيني من خمسة وسبعين بالمائة إلى حوالي خمسين.

قلتُ:

– «بدا لي وكأنه صوت بشري.»

– «ولمَ قد يصرخ أحدهم في تلك الساعة؟»

– «ولمَ يصرخ أي شخص يا إيلي؟ لأنها كانت في خطر.»

– «هي؟ هل تظنين أنكِ سمعتِ كاثرين رويس؟»

قلتُ:

– «لا يخطر ببالي أحد غيرها. هل رأيت أي أثر لها اليوم؟»

أجاب إيلي:

– «لا. ومن جهة أخرى، لم أكن أبحث عنها تحديدًا. هل تخشين أن مكروهًا قد أصابها؟»

أجبته بالنفي، رغم أن العكس هو الصحيح. فصمت كاثرين وتجاهلها لرسالتي ومكالماتي يبعث في نفسي الاضطراب، رغم وجود مبرر منطقي لذلك على الأرجح. فقد تكون لا تزال غارقة في النوم، وهاتفها صامت أو في غرفة أخرى.

قلتُ، محاولة إقناع نفسي أكثر من إقناع إيلي:

– «أنا واثقة أن كل شيء على ما يرام.»

– «هل تودين أن أمر هناك لأطمئن؟»

لأنه يقوم بدور لجان الحراسة بمفرده على البحيرة، أعلم أن إيلي سيسعد بفعل ذلك. لكن هذا قلقي أنا، لا قلقه. حان الوقت لأقوم بزيارة لآل رويس، وعلى أمل أن تتبدد كل مخاوفي.

قلتُ:

– «سأذهب أنا. سيكون من الجيد أن أخرج من المنزل قليلًا.»

***

كان توم رويس يقف على الرصيف بحلول الوقت الذي بلغته فيه. من الواضح أنه لمح قدومي، إذ وقف وقفة شخص يتوقع ضيوفًا. بل وكان يرتدي ملابس تليق باستقبال زوار غير رسميين؛ سروال جينز أسود، وحذاء رياضي أبيض، وسترة من الكشمير بلون يطابق لون النبيذ الباهظ الذي أحضره قبل ليلتين. لوح بيده بتودد مبالغ فيه وأنا أربط القارب وألحق به على الرصيف.

– «أهلًا بالجار. ما الذي جاء بكِ في هذه الظهيرة؟»

– «أتيت لأرى إن كانت كاثرين تود المجيء لتجاذب أطراف الحديث واحتساء كوكتيل مسائي في الشرفة.»

أعددت هذا العذر خلال المسافة من رصيفي إلى رصيفه، آملة أن يبعد عني شبهة المبالغة في ردة الفعل. وهو ما أظنني أفعله تمامًا. كاثرين بخير، وأنا قلقة فحسب بسبب شيء رأيته، وشيء سمعته، وشيء أصاب زوجي قبل أكثر من عام. وكلها أمور لا يربط بينها رابط.

قال توم:

– «أخشى أنها ليست هنا.»

– «ومتى ستعود؟»

– «الأرجح ليس قبل الصيف القادم.»

كانت الإجابة مفاجئة كباب يُصفع في وجهي.

– «لقد رحلت؟»

قال توم:

– «لقد عادت إلى شقتنا في المدينة. غادرت في وقت مبكر من هذا الصباح.»

أخطو بضع خطوات إضافية مقتربة منه، لألمح بقعة حمراء على خده الأيسر، إثر اللكمة التي سددتها له كاثرين. وبالتفكير في ذلك، ربما لا يجدر برحيلها أن يبدو مفاجئًا بعد كل شيء. يمكنني حتى تخيل تسلسل الأحداث الذي أفضى إلى قرارها.

أولًا الشجار، الذي انتهى بلكمة قاضية استقرت في وجه توم.

ثم مكالمتي الهاتفية، التي تمت على الأرجح بعد أن كانت قد اتخذت قرار الرحيل. وبالتفكير في ظهورها الخاطف عند نافذة غرفة النوم، أرى الآن تلك التلويحة الغريبة بمنظور مختلف. فمن الوارد جدًا أنها كانت تلويحة وداع.

وبعد ذلك، ربما كان هناك حزم محموم للأمتعة في عتمة غرفة نومهما.

وأخيرًا، في اللحظة التي تأهبت فيها للرحيل، اشتعل الشجار مجددًا. كلاهما يحاول تسديد الضربة الأخيرة. وخلال تلك المواجهة الختامية، صرخت كاثرين. ربما من فرط الإحباط. أو الغضب. أو ببساطة كمتنفس لكل تلك المشاعر التي كبتتها بداخلها.

أو ربما، أفكر وأنا أرتجف، ربما أقدم توم على فعل شيء دفعها للصراخ.

سألتُ وأنا أرمقه بعين الريبة:

– «في أي وقت من هذا الصباح؟»

– «مبكرًا. لقد اتصلت بي قبل قليل لتخبرني بوصولها سالمة.»

حتى الآن، يتماشى هذا مع نظريتي حول وقت مغادرة كاثرين. لكن ما لا يتماشى معها هو سيارة توم الـ (بنتلي)، القابعة تحت الرواق الممتد من جانب المنزل. بلونها الرمادي الداكن، انسيابية ولامعة كفقمة مبللة.

– «وكيف وصلت إلى هناك؟»

– «عبر خدمة سيارات الأجرة، بالطبع.»

لا يفسر هذا سبب عدم اتصال كاثرين أو ردها على رسائلي. فبعد أحداث الليلة الماضية – وعقب اتفاقنا العابر على اللقاء لاحتساء القهوة هذا الصباح – يبدو من المستغرب ألا تخبرني بنفسها بعودتها إلى نيويورك.

قلتُ:

– «لقد حاولت التواصل معها مرارًا اليوم. لكنها لا ترد على هاتفها.»

– «إنها لا تتفقد هاتفها أثناء السفر. بل تحتفظ به صامتًا في حقيبتها.»

إجابة توم، ككل إجاباته حتى الآن، تبدو منطقية تمامًا، ولكن إن أمعنت التفكير فيها، تجدها مجردة من أي منطق. فقبل ستة أيام، وحين كان ريكاردو يقودني إلى منزل البحيرة، دفعني الملل المطلق للتسمر أمام هاتفي. رغم أن جل ذلك الوقت انقضى في البحث عبر (جوجل) لمعرفة ما إذا كانت هناك متاجر خمور في المنطقة توفر خدمة التوصيل.

– «لكنك قلت للتو إنها اتصلت بك من الشقة.»

قال توم:

– «أظن أنها ترغب في البقاء بمفردها.»

أفهم من ذلك أنه هو من يرغب في البقاء بمفرده. لكني لست مستعدة لمنحه ذلك بعد. فكلما ازداد حديثه، تعمق شكي. ركزت نظري على البقعة الحمراء على خده، مستحضرة اللحظة الدقيقة التي ارتسمت فيها.

هو ينتزع كاثرين بعنف بعيدًا عن النافذة.

وهي تنتفض، وترد بلكمة.

هل كانت تلك المرة الأولى التي يقع فيها أمر كهذا؟ أم أنها تكررت مرارًا من قبل؟ إن كان الأمر كذلك، فربما من الوارد أن توم قد تمادى خطوة أبعد مع بزوغ فجر اليوم على البحيرة.

سألتُ بفضول متعمد، آملة أن يبوح بأكثر مما صرح به حتى الآن:

– «لمَ رحلت كاثرين؟»

ضيق توم عينيه، وحك مؤخرة عنقه، ثم عقد ذراعيه بقوة على صدره:

– «قالت إنها لا تود البقاء هنا حين يمر إعصار (تريش). كانت قلقة. منزل ضخم. رياح عاتية. وكل هذا الزجاج.»

هذا يناقض تمامًا ما أسرّت لي به كاثرين بالأمس. فوفقًا لروايتها، كان توم هو من يساوره القلق بشأن العاصفة. ومع ذلك، من الوارد قطعًا أن حديثي عن انقطاع الكهرباء لأيام قد دفعها للعدول عن رأيها. كما أنه من الوارد أيضًا ألا تكون مغرمة بالعيش الخشن كما ادعت.

لكن لمَ رحلت هي في حين بقي توم؟

سألتُ:

– «لمَ لم ترافقها؟»

قال توم:

– «لأن العاصفة لا تثير قلقي. فضلًا عن أنني ارتأيت من الأفضل البقاء هنا تحسبًا لأي طارئ قد يلحق بالمكان.»

إجابة عقلانية. إجابة تكاد تلامس حدود الحقيقة. وكنت لأميل إلى تصديقها لولا أمرين.

الأول: نشب شجار بين توم وكاثرين الليلة الماضية. وهو أمر له صلة وثيقة، على الأرجح، برحيلها المباغت.

الثاني: هذا لا يفسر ما تناهى إلى مسمعي هذا الصباح. وبما أن توم لن يتطرق للأمر، فالمبادرة تقع على عاتقي.

قلتُ:

– «خُيل إليّ أنني سمعت ضوضاء هذا الصباح. قادمة من هذه الضفة من البحيرة.»

– «ضوضاء؟»

– «أجل. صرخة.»

توقفت لبرهة، مترقبة رد فعل توم. لكنه لم يُبدِ أي ردة فعل. ظل وجهه جامدًا كقناع حتى سأل:

– «في أي وقت؟»

– «قبيل الفجر بقليل.»

قال توم:

– «كنت أغط في النوم حتى ما بعد الفجر بوقت طويل.»

– «لكنني ظننت أن هذا هو وقت مغادرة كاثرين؟»

تسمر في مكانه لثانية، وللوهلة الأولى ظننت أنني قد أوقعته في كذبة. لكنه استعاد رباطة جأشه سريعًا وقال:

– «لقد قلت إنها غادرت مبكرًا. وليس عند الفجر. ولا أستسيغ تلميحك بأنني أكذب.»

– «ولم أكن لأضطر للتلميح لو تفضلت بتحديد الوقت.»

– «الثامنة.»

ورغم أن توم ألقى بالرقم وكأنه ارتجله للتو، إلا أن التسلسل الزمني يبدو متسقًا. تستغرق الرحلة من هنا إلى (مانهاتن) أقل من خمس ساعات بقليل، مما يجعل من المنطقي جدًا أن تكون كاثرين قد بلغتها الآن، حتى مع احتساب وقفة استراحة طويلة.

رفع توم يده إلى خده، يفرك الموضع الذي اصطدمت به قبضة زوجته:

– «لا أستوعب سر فضولك البالغ تجاه كاثرين. لم أكن أعلم أنكما صديقتان.»

قلتُ:

– «كنا نتصرف بود.»

– «أنا أتصرف بود مع الكثيرين. وهذا لا يمنحني الحق في استجواب أزواجهم إن هم غادروا إلى وجهة ما دون إخباري.»

آه، الحيلة القديمة المتمثلة في تسفيه قلق امرأة بإيهامها أنها مهووسة ومصابة بمس من الهستيريا. لقد توقعت حيلة أكثر ابتكارًا من توم.

قلتُ:

– «أنا فقط قلقة.»

أدرك توم أنه لا يزال يفرك خده، فأنزل يده وقال:

– «لا ينبغي لكِ ذلك. لأن كاثرين لا تلقي لكِ بالًا. وهذا ما يتوجب عليكِ إدراكه بشأن زوجتي. إنها تسأم بسرعة البرق. في لحظة، تراودها الرغبة في مغادرة المدينة والقيادة إلى هنا لقضاء أسبوعين عند البحيرة. وبعد بضعة أيام، تقرر العودة إلى المدينة. وينسحب الأمر ذاته على البشر؛ فهم بالنسبة لها كالملابس. شيء ترتديه وتتأنق به لفترة قبل أن تتخلى عنه لتجرب إطلالة أحدث.»

لم تبث كاثرين قط هذا الانطباع. بدت هي – وكذلك الرابط الوجيز الذي جمعنا – حقيقية وصادقة، مما يعمق يقيني بأن توم يختلق الأكاذيب.

وليس في هذا الشأن فحسب.

بل في كل شيء.

وأقرر أن أواجه خداعه.

قلتُ:

– «لقد تحدثت إلى كاثرين الليلة الماضية. كان ذلك بعد الواحدة صباحًا. أخبرتني أنكما تشاجرتما.»

كذبة من نسجي أنا. كذبة صغيرة. لكن توم لا يحتاج لمعرفة ذلك. في البداية، حسبت أنه سيرد بكذبة أخرى. ثمة خطب يدور خلف عينيه. عجلات تدور، تنقب عن عذر. وحين لم يعثر على مبتغاه، قال أخيرًا:

– «أجل، تشاجرنا. واحتدم النقاش. وكِلانا فعل وتفوه بما لا يجدر به. وحين استيقظت هذا الصباح، كانت كاثرين قد رحلت. لهذا السبب كنت أراوغ في إجاباتي. هل أنتِ راضية الآن؟ أم أن في جعبتك المزيد من الأسئلة الشخصية حول زواجنا؟»

أخيرًا، يبدو أن توم ينطق بالحقيقة. وبالطبع هذا ما وقع على الأرجح. تشاجرا، فرحلت كاثرين، وهي الآن في نيويورك، والأغلب أنها تهاتف أغلى محامي طلاق يأتمر بأمر المال.

وهو أمر لا يخصني البتة، وهي حقيقة لم أتوقف عندها بجدية إلا في هذه اللحظة. والآن، أجدني ممزقة بين الشعور بالانتصار والشعور بالخزي. أخطأ توم حين ألمح إلى أنني مهووسة وهستيرية. لكنني كنت أسوأ من ذلك: جارة حشرية. دور لم أتقمصه من قبل، لا على خشبة المسرح ولا أمام عدسات الكاميرا. وفي الحياة الواقعية، لا يبدو دورًا ملائمًا لي. بل هو نفاق صريح. فأنا، أكثر من أي شخص آخر، أدرك قسوة أن تُسحب مشاكلك الخاصة إلى العلن ليمزقها التدقيق والفضول. ومجرد تعرضي لذلك لا يبيح لي ممارسته على توم رويس.

قلتُ:

– «لا، وأنا أعتذر حقًا لإزعاجك.»

أنسل متراجعة عبر الرصيف الخشبي وأطأ القارب، وقد بدأت بالفعل في صياغة قائمة مهام لما بعد العودة إلى منزل البحيرة.

أولًا، إلقاء منظار لين في سلة المهملات.

ثانيًا، البحث عن طريقة لأشغل بها نفسي بعيدًا عن التلصص على الجيران.

ثالثًا، ترك توم وشأنه وطرد كاثرين رويس من تفكيري.

لكن التنفيذ أثبت أنه أشق من التخطيط. فبينما كنت أدفع القارب مبتعدة عن الرصيف، اختلست لمحة لـ توم وهو يراقب رحيلي. كان يقف في بقعة من ضوء الشمس زادت من وضوح العلامة المرتسمة على وجهه. لمسها مجددًا، وأصابعه ترسم دوائر على ذلك التذكار الأحمر الغاضب بأن كاثرين كانت هنا يومًا، لكنها الآن رحلت.

مشهد أيقظ في ذاكرتي ما أسرّت به كاثرين عنه بالأمس.

«توم يحتاجني بشدة تمنعه من الموافقة على الطلاق. سيقتلني قبل أن يدعني أرحل.»

***

راسلت كاثرين مجددًا فور عودتي إلى منزل البحيرة.

«سمعت أنكِ عدتِ إلى التفاحة الكبيرة (نيويورك). لو علمت أنكِ تدبرين لهروب، لكنت طلبت مرافقتك.»

ثم ألقيت بجسدي في الشرفة ورحلت أطالع هاتفي، وكأن التحديق فيه طويلًا بما يكفي سيكفل استحضار الرد. لكن حتى اللحظة، لا نتيجة تُذكر. المكالمة اليتيمة التي تلقيتها كانت تفقد أمي اليومي، والذي تركته يُحال مباشرة إلى البريد الصوتي قبل أن أتوجه للداخل لأصب كأسًا من البوربون.

كأسي الثانية لهذا اليوم.

أو لعلها الثالثة.

تجرعت رشفة عميقة، وعدت إلى الشرفة، وتفقدت الرسائل السابقة التي بعثتها لـ كاثرين. لم يُقرأ أي منها.

أمر يثير القلق.

فلو كانت كاثرين قد اتصلت بـ توم عقب وصولها إلى نيويورك، لكانت حتمًا قد رأت مكالماتي ورسائلي.

إلا إذا كان توم يكذب في هذا الشأن.

صحيح أنه أقر بنشوب شجار بينهما، لكن ذلك لم يأتِ إلا بعد أن حاصرته بأسئلتي. وفيما يتعلق بالصرخة – التي ما زلت شبه متيقنة من سماعها – ظل يراوغ بطريقة تثير الحنق. اكتفى بالقول إنه كان يغط في النوم حتى ما بعد الفجر بوقت طويل. ولم ينفِ قط سماعه للصرخة.

وهناك أيضًا تلكما العبارتان – اللتان كان من السهل تجاهلهما حينها، لكنهما تكتسيان بظلال نذير شؤم في استرجاع الذكريات – واللتان تفوهت بهما كاثرين وهي تجلس على نفس الكرسي الهزاز الذي أحتله الآن. تأبيان مبارحة عقلي، تترددان في مؤخرة رأسي كسطور مسرحية أمضيت وقتًا طويلًا في التدرب عليها.

«توم يحتاجني بشدة تمنعه من الموافقة على الطلاق. سيقتلني قبل أن يدعني أرحل.»

في الظروف العادية، لافترضت أنها مزحة. فذلك هو سلاحي الدفاعي المفضل بعد كل شيء. اتخاذ السخرية درعًا، والادعاء بأن ألمي لا يوجعني بتاتًا. ولهذا أرجح أن هناك مسحة من الحقيقة فيما تفوهت به. لا سيما بعدما أسرّت لي به البارحة عن احتجاز كل أموال توم في (ميكسر) وتكفلها هي بجميع النفقات.

ثم هناك الشجار ذاته، الذي كان من الممكن أن يشتعل بسبب المال، لكن حدسي ينبئني بأنه أعمق من ذلك. محفورة في ذاكرتي الطريقة التي توسل بها توم لـ كاثرين، مرددًا تلك الكلمة التي عجزت عن التقاطها من شفتيه. كيف؟ أم مَن؟ وبلغت الأمور ذروتها حين انتزعها بعنف من أمام النافذة فردت بضربه.

لكن قبل ذلك، حانت تلك اللحظة السريالية التي تلاقت فيها نظراتي مع نظرات كاثرين. وأنا أعلم من مكالمتها اللاحقة أنها أدركت بطريقة ما أنني كنت أراقب. والآن أتساءل إن كانت كاثرين، في تلك اللمحة الخاطفة، تحاول إيصال رسالة لي.

ربما كانت تتوسل طلبًا للنجدة.

ورغم عزمي على إلقاء المنظار في سلة المهملات، هأنذا أراه قابعًا بجوار كأس البوربون تمامًا. التقطته ووجهت نظري عبر البحيرة صوب منزل عائلة رويس. ورغم خلو الساحة من توم، إلا أن حضور الـ (بنتلي) يؤكد أنه لا يزال بالداخل.

جل ما قاله يبدو متسقًا، ما يوحي بضرورة تصديقه. لكن تلك الخيوط القليلة المتشابكة تعوقني عن ذلك. ولن أتمكن من الثقة التامة بـ توم حتى تعاود كاثرين الاتصال بي – أو أحصل على دليل قاطع من جهة أخرى.

خطر لي أن توم ذكر بالتحديد موقع شقتهما في المدينة. مبنى فاخر لا يبعد كثيرًا عن شقتي، رغم إطلالته على (سنترال بارك). وأنا أعرفه جيدًا. في (أبر ويست ساید). على بُعد بضعة مجمعات سكنية شمالًا من حيث كان يقع فندق (بارثولوميو).

وبما أنني لا أستطيع الذهاب إلى هناك بنفسي، فقد استعنت بالشخص الأنسب لهذه المهمة.

سألتني مارني حين اتصلت بها لأطلب منها ذلك:

– «تريدين مني فعل ماذا؟»

– «الذهاب إلى البناية التي يقطنان فيها والسؤال عن كاثرين رويس.»

– «كاثرين؟ ظننت أنها في بحيرة جرين.»

– «ليس بعد الآن.»

سردت لها موجزًا لأحداث الأيام القليلة الماضية. تعاسة كاثرين. تصرفات توم المريبة. ومراقبتي للأمور برمتها عبر المنظار. الشجار، والصرخة، ورحيل كاثرين المباغت.

ويحسب لـ مارني أنها انتظرت حتى أنهيت حديثي قبل أن تسأل:

– «ولمَ كنتِ تتجسسين عليهما؟»

لم أملك إجابة مقنعة. كنت مدفوعة بالفضول، والملل، والتطفل، وكل ما سبق.

أردفت مارني:

– «أظن أن السبب هو شعورك بالحزن والوحدة. وهو أمر مبرر تمامًا، بالنظر إلى كل ما مررتِ به. وأنتِ ترغبين في استراحة من كل هذه المشاعر.»

– «وهل تلومينني؟»

– «لا. لكن هذه ليست الطريقة المثلى لتشتيت ذهنك عن الأمور. لقد أصبحتِ الآن مهووسة بعارضة الأزياء الخارقة التي تقطن على الضفة المقابلة للبحيرة.»

– «أنا لست مهووسة.»

– «إذن ماذا تكونين؟»

– «قلقة،» قلت. «من الطبيعي أن أقلق على شخص أنقذت حياته للتو. أنتِ تعرفين المقولة: (أنقذ حياة شخص، وستصبح مسؤولًا عنه للأبد).»

– «أولًا، لم أسمع بهذه المقولة قط. ثانيًا، هذا هو التعريف الحرفي للهوس.»

قلتُ:

– «ربما، لكن هذا ليس المهم الآن.»

– «اسمحي لي أن أختلف معكِ. هذا ليس سلوكًا سويًا يا كيسي. وليس سلوكًا أخلاقيًا.»

أطلقت زفرة حنق مدوية حتى بدت كأنها حفيف رياح يضرب الهاتف، وقلت:

– «لو كنت أبتغي موعظة، لاتصلت بأمي.»

قالت مارني:

– «اتصلي بها أرجوكِ. لقد أزعجتني أنا بدلًا من ذلك، مدعية أنكِ تتجاهلينها.»

– «وهذا صحيح. إن ذهبتِ لتتفقدي ما إذا كانت كاثرين هناك، فسأتصل بأمي وأبعدها عنكِ.»

تتظاهر مارني بالتفكير في الأمر، رغم إدراكي التام بأن الصفقة قد حُسمت.

– «حسنًا،» وافقت أخيرًا. «لكن قبل أن أذهب، لدي سؤال أخير. هل تفقدتِ وسائل التواصل الاجتماعي؟»

– «أنا لا أستخدم وسائل التواصل الاجتماعي.»

قالت مارني:

– «ونشكر الله على ذلك. لكني أفترض أن كاثرين تفعل. ابحثي عن بعض حساباتها. (تويتر). (إنستغرام). أو التطبيق الذي ابتكره زوجها ويمتلكه. لا بد أنها تمتلك حسابًا عليه. ربما سيعطيكِ ذلك فكرة عن مكان تواجدها وما تفعل.»

كانت فكرة عبقرية لدرجة أنني استشطت غضبًا من نفسي لأنها لم تخطر ببالي. فمتابعة شخص ما على وسائل التواصل الاجتماعي ليست سوى نسخة أكثر تقبلًا للتجسس.

– «سأفعل ذلك. بينما تذهبين أنتِ للتحقق من وجود كاثرين في المنزل. الآن.»

وبعد بضع تمتمات بكلمات نابية ووعد بأنها في طريقها في التو واللحظة، أنهت مارني المكالمة. وبينما كنت أنتظر ردها، فعلت ما نصحتني به وتفقدت وسائل التواصل الاجتماعي الخاصة بـ كاثرين.

بدأت بـ (إنستغرام)، حيث تحظى كاثرين بأكثر من أربعة ملايين متابع.

بالطبع تحظى بذلك.

الصور التي نشرتها كانت مزيجًا يسر الناظرين من ديكورات داخلية تغمرها الشمس، وذكريات من أيام عرضها للأزياء، وصور شخصية عفوية لها وهي تضع كريم الوجه أو تلتهم قطع الحلوى. وتتخلل هذه الصور دعوات لطيفة وصادقة لدعم الجمعيات الخيرية التي تتعاون معها.

ورغم أن كل شيء مُنتقى بعناية، إلا أن كاثرين تبدو كامرأة حادة الذكاء تأبى أن تُعرف فقط كوجه جميل. تمثيل دقيق لـ كاثرين التي عرفتها. بل إن هناك صورة حديثة التُقطت في بحيرة جرين، تظهرها مستلقية على حافة رصيفهم الخشبي بثوب

السباحة ذي اللون الأزرق المائل للأخضر، والماء من خلفها، ووراء ذلك، الشرفة ذاتها التي أجلس عليها الآن.

نظرت إلى تاريخ النشر ووجدت أنه يعود ليومين مضيا.

مباشرة قبل أن تشرف على الغرق في البحيرة.

أحدث صورها هي إطلالة لمطبخ ناصع البياض وخالٍ من الشوائب، وغلاية شاي من الفولاذ المقاوم للصدأ على الموقد، وتقويم لـ (بيت موندريان) على الحائط، وزنابق في مزهرية بجوار النافذة. وفي الخارج، يمتد (سنترال بارك) ببهائه الرعوي في الأسفل. التعليق كان مقتضبًا ولطيفًا: (لا مكان يضاهي المنزل).

تفقدت وقت النشر.

قبل ساعة.

إذن لم يكن توم يكذب بعد كل شيء. لقد عادت كاثرين حقًا إلى شقتهما، وهو أمر يبدو أنه فاجأ أصدقاءها المشاهير الذين تركوا تعليقات.

كتب أحدهم: *(أعدتِ إلى المدينة؟! يا للروعة!!)*

ورد آخر: *(كان هذا سريعًا!)*

وحتى توم نفسه شارك برأيه: *(أبقي نار المنزل متقدة يا حبيبتي!)*

زفرت، مطلقة كل التوتر الذي لم أدرك أنني كنت أحبسه.

كاثرين بخير.

جيد.

غير أن شعوري بالارتياح شابته وخزة طفيفة من الرفض. ربما كانت تلك حقيقة أخرى من حقائق توم – أن كاثرين تسأم بسرعة. والآن بعد أن تيقنت من استخدامها لهاتفها، بات جليًا أنها لم تفوت مكالماتي أو رسائلي. بل هي تتجنبني، تمامًا كما أتجنب أنا أمي. أدركت أنني من فئة الأشخاص الذين وبختهم كاثرين بلطف في رسالتها الصوتية. أولئك الذين يتم تجاهلهم.

وبعد أحداث الليلة الماضية، لا أستطيع إلقاء اللوم عليها حقًا. فهي تعلم أنني كنت أراقب منزلها. وكانت مارني محقة حين قالت إن هذا ليس سلوكًا سويًا. بل هو في الواقع يثير الأعصاب. من ذا الذي يقضي كل هذا الوقت يتجسس على جيرانه؟ الفاشلون، هذا من. الفاشلون الوحيدون الذين يفرطون في الشرب ولا يجدون ما يشغلون به أنفسهم.

حسنًا، ربما كانت مارني محقة وأنا مهووسة قليلًا بـ كاثرين. أجل، جزء من هذا الهوس مبرر. فبما أنني أنقذت حياتها، فمن الطبيعي أن أشعر بالقلق على سلامتها. لكن الحقيقة أشد قسوة من ذلك. لقد أصبحت مهووسة بـ كاثرين لأتجنب مواجهة مشاكلي الخاصة، وما أكثرها.

وبشعور من الحنق – على كاثرين، وعلى مارني، وعلى نفسي – التقطت المنظار، وحملته للداخل، وألقيت به في سلة المهملات. وهو ما كان ينبغي لي فعله منذ أيام.

عدت إلى الشرفة وإلى بطانية الأمان التي ألتجئ إليها، البوربون، أرتشفه حتى عاودت مارني الاتصال بعد نصف ساعة، مصحوبة بالأصوات المألوفة لضجيج زحام نيويورك في الخلفية.

– «أعلم سلفًا ما ستقولينه،» بادرتها. «كاثرين هناك. كنتِ محقة وكنت أنا حمقاء.»

ردت مارني:

– «ليس هذا ما أخبرني به البواب للتو.»

– «تحدثتِ إليه؟»

– «أخبرته أنني صديقة قديمة لـ كاثرين وتصادف تواجدي في الحي وتساءلت إن كانت ترغب في تناول الغداء معًا. لا أظنه ابتلع كذبتي، لكن ذلك لا يهم لأنه أخبرني رغم ذلك أن آل رويس يقضون عطلتهم حاليًا في منزلهم بـ فيرمونت.»

سألتُ:

– «وهل كانت تلك كلماته الدقيقة؟ آل رويس. وليس السيد رويس وحده.»

– «بصيغة الجمع. بل ولعبت دور المندهشة قائلة: (أوه، لقد خُيل إليّ أنني رأيت كاثرين تعبر الشارع بالأمس). فأخبرني أنني مخطئة وأن السيدة رويس لم تطأ قدمها الشقة منذ أيام.»

تولاني برد قارس. شعرت وكأنني أُلقيت للتو في البحيرة وأنا الآن تائهة في ظلمة مياهها الجليدية.

لقد كنت محقة.

كان توم يكذب.

قلتُ:

– «الآن أنا قلقة حقًا. لمَ قد يكذب توم عليّ هكذا؟»

قالت مارني:

– «لأن أيًا كان ما يجري فهو لا يعنيكِ. لقد قلتِ بنفسك إن كاثرين بدت تعيسة. ربما هي كذلك. ولذا هجرته. ومن يدري، ربما تقبع الآن رسالة وداع على رخامة المطبخ.»

– «لا يزال الأمر غير منطقي. لقد فعلت ما اقترحته وتفقدت حسابها على (إنستغرام). لقد نشرت للتو صورة من داخل شقتها.»

تأملت مارني في ذلك لبرهة.

– «وكيف لكِ أن تجزمي بأنها شقتها؟»

– «لا أستطيع،» قلت. افترضت ذلك فقط لأن كاثرين أشارت إلى ذلك في التعليق، ولأن الصورة كانت تطل على (سنترال بارك) وبدت متوافقة تقريبًا مع موقع شقتهم.

قالت مارني:

– «أرأيتِ؟ ربما أخبرت كاثرين توم أنها ذاهبة إلى الشقة لكنها توجهت للإقامة مع صديقة أو أحد أفراد العائلة. قد لا يكون لديه أدنى فكرة عن مكانها وشعر بالحرج من الاعتراف بذلك.»

كانت لتكون نظرية وجيهة لولا أنني رأيت تعليق توم على الصورة.

(أبقي نار المنزل متقدة يا حبيبتي!)

قلت لـ مارني بعد أن أوضحت لها ما رأيت:

– «هذا يقطع الشك باليقين بأنها شقتهما.»

أجابت مارني:

– «حسنًا. لنفترض أنها شقتهم. هذا يعني إما أن كاثرين هناك والبواب قد كذب، أو أنها نشرت صورة محفوظة على هاتفها لتخفي عن زوجها حقيقة عدم تواجدها في الشقة. وفي كلتا الحالتين، لا شيء من هذا يشير إلى أن كاثرين في خطر.»

قلتُ:

– «لكنني سمعت كاثرين تصرخ في ساعة مبكرة من هذا الصباح.»

– «هل أنتِ واثقة من أن هذا ما سمعته؟»

– «لم يكن حيوانًا.»

قالت مارني:

– «أنا لا ألمح لذلك. أنا أقول فحسب أنك ربما لم تسمعي شيئًا على الإطلاق.»

– «هل تظنين أنني تخيلت الأمر؟»

الصمت الرقيق الذي أعقب سؤالي كان بمنزلة نذير بأن مارني على وشك تفجير قنبلة حقيقة.

قنبلة ضخمة.

نووية.

سألتني:

– «كم شربتِ الليلة الماضية؟»

انسحب نظري نحو زجاجة الويسكي شبه الفارغة التي لا تزال مقلوبة على أرضية الشرفة.

– «الكثير.»

– «وكم يبلغ هذا الكثير؟»

أعدت حسابها في ذهني، أحصي الكؤوس على أصابعي. الكؤوس التي أستطيع تذكرها، على الأقل.

– «سبعة. أو ربما ثمانية.»

أطلقت مارني سعلة خفيفة لتخفي اندهاشها.

– «وألا تظنين أن هذا إفراط؟»

امتعضت من نبرتها المفرطة في الجدية. لقد بدت وكأنها تتحدث بصوت أمي.

– «المسألة هنا لا تتعلق بشربي. عليكِ أن تصدقيني. ثمة خلل في هذا الموقف برمته.»

– «ربما يكون ذلك صحيحًا.» حافظت مارني على نبرتها الهادئة بشكل يثير الحنق. كمن يخاطب طفلًا في روضة يعاني من نوبة غضب. «لكن هذا لا يعني أن توم رويس قد أزهق روح زوجته.»

– «لم أقل إنه فعل.»

– «لكن هذا ما تظنينه، أليس كذلك؟»

ليس تمامًا، لكنه قريب من ذلك. فبينما خطر ببالي قطعًا أن توم قد آذى كاثرين بشيء ما، لست مستعدة بعد للقفز إلى استنتاج القتل.

قالت مارني:

– «كوني صريحة. ماذا تظنين أنه حل بها؟»

– «لست واثقة من أنه قد حدث لها شيء،» أجبت. «لكن هناك شيء غير طبيعي في الموقف. لقد كانت كاثرين هنا، وفجأة اختفت. ولست واثقة من أن زوجها يروي الحقيقة.»

– «أو أنه أخبرك بما يظن أنه الحقيقة.»

– «لا أبتلع هذا التبرير. حين تحدثت إليه، قدم لي تفسيرًا مبسطًا للغاية لشيء بدا، على الأقل من واقع ما رأيته، كموقف معقد.»

– «ما رأيته؟» رددت مارني، فبدت كلماتي بلا ريب كاعتراف متلصص. «هل هذا كيف تمضين كل وقتكِ؟ تراقبينهم؟»

– «فقط لأنني استشعرت الخطر منذ اللحظة الأولى التي بدأت فيها المراقبة.»

– «أتمنى لو تسمعين نفسك الآن،» قالت مارني، وقد حل محل نبرتها الهادئة شيء أسوأ بكثير. الحزن. «الاعتراف بأنك تتجسسين على جيرانك وتتحدثين عن إخفاء توم رويس لشيء ما...»

– «كنتِ لتظنين ذلك أيضًا لو رأيتِ ما رأيته.»

– «هذا هو بيت القصيد. لم يكن ينبغي لك رؤية شيء. لا شيء مما يجري في ذلك المنزل يخصك.»

لا يسعني مجادلة مارني في هذه النقطة. من الصحيح أنه لم يكن يحق لي مراقبتهم بالطريقة التي اتبعتها. ومع ذلك، وبفعلي هذا، إن صادفت موقفًا ينطوي على خطر محتمل، أليس من واجبي محاولة اتخاذ إجراء حيال ذلك؟

قلتُ:

– «جل ما أريده هو مساعدة كاثرين.»

أجابت مارني:

– «أعلم أن هذا هو مبتغاكِ. لكن لو كانت كاثرين رويس تنشد مساعدتك، لكانت طلبتها.»

– «أظن أنها فعلت. في ساعة متأخرة من الليلة الماضية، حين رأيتهما يتشاجران.»

أفلتت من مارني تنهيدة صغيرة حزينة. فتجاهلتها.

– «لقد تلاقت أعيننا. لثانية واحدة فقط. كانت تنظر إليّ وأنا أنظر إليها. وأظن، في تلك اللحظة، أنها كانت تحاول إخباري بشيء ما.»

تنهدت مارني ثانية، بصوت أطول وأشد حزنًا.

– «أعلم أنكِ تمرين بفترة عصيبة الآن. وأعلم أنك تكافحين. لكن أرجوكِ لا تجري أشخاصًا آخرين إلى هذا المستنقع.»

صوبت نحوها ردي:

– «أتقصدينكِ أنتِ؟»

– «أجل، كحالي. وكحال توم وكاثرين رويس. وكحال أي شخص آخر في البحيرة الآن.»

رغم أن نبرة مارني لم تكن سوى متعاطفة، إلا أنني أفهم فحوى حديثها. فقد سئمت هي الأخرى، وبشكل رسمي، من ترهاتي. المفاجأة الوحيدة، حقًا، هي أنها استغرقت كل هذا الوقت لتصل إلى هذه المرحلة. وما لم أكن أرغب في خسارتها بالكامل – وهو ما لا أريده قطعًا – فلا يمكنني التمادي أكثر.

قلتُ بنبرة حاولت أن تبدو نادمة:

– «أنتِ محقة. أنا آسفة.»

قالت:

– «لست بحاجة لأسفكِ. أنا بحاجة لأن تصبحي أفضل.»

أنهت مارني المكالمة قبل أن أتمكن من التفوه بكلمة أخرى – في تحذير صامت بأن كل شيء قد غُفر، لكنه قطعًا لم يُنسَ. وفيما يخص كاثرين وتوم رويس، سيتوجب عليّ إبقاؤها خارج الصورة.

وهو أمر لا بأس به. ربما هي محقة ولا شيء يجري حقًا سوى انهيار زواج آل رويس. وأنا آمل بصدق أن يكون هذا هو أقصى ما في الأمر. لسوء الحظ، يخبرني حدسي بأن الأمور ليست بهذه البساطة.

أعود إلى حساب كاثرين على (إنستغرام) وأتفحص تلك الصورة لشقتها، مفكرة في نظرية مارني بأنها نشرت صورة قديمة لخداع زوجها. الفكرة تبدو منطقية، خاصة حين ألقي نظرة أخرى على الإطلالة على (سنترال بارك) خارج نافذة الشقة. الأوراق هناك لا تزال خضراء – وهو مشهد يتناقض تمامًا مع الألوان الحمراء والبرتقالية المشتعلة للأشجار المحيطة بـ بحيرة جرين.

أقوم بتكبير الصورة حتى تملأ شاشة هاتفي. وأنا أمسح المشهد الضبابي والمحبب، أركز على تقويم (موندريان) المعلق على الحائط. هناك، مطبوعًا أسفل صورة لأشهر أعمال الفنان – (تكوين بالأحمر والأزرق والأصفر) – يظهر الشهر الذي يمثله.

سبتمبر.

كانت مارني محقة. لقد نشرت كاثرين صورة قديمة بالفعل. وفي مواجهة الدليل القاطع على أنها تمارس الخداع، وعلى الأرجح لتضليل زوجها، أدرك أنه يمكنني التوقف عن القلق – وأجل، الهوس – بشأن مكان كاثرين أو ما حدث لها.

الأمر لا يخصني.

حان الوقت لتقبل ذلك.

أمرر إصبعي على الشاشة، مصغرة الصورة إلى حجمها الأصلي.

حينها، لمحتها.

غلاية الشاي على الموقد، المصقولة حتى باتت تلمع كالمرآة. كانت تلمع لدرجة أنه أمكن رؤية المصور ينعكس على سطحها.

وبدافع الفضول، قمت بتكبير الصورة مجددًا، جاعلة الغلاية أكبر قدر ممكن دون طمس الصورة بالكامل. ورغم أن انعكاس المصور كان ضبابيًا بسبب التكبير ومشوهًا بانحناء الغلاية، إلا أنه كان لا يزال بوسعي تبين هويته.

توم رويس.

لا مجال للخطأ. شعر داكن، مائل للطول من الخلف، ومثقل بمستحضرات التصفيف من الأمام.

لم تلتقط كاثرين هذه الصورة قط.

مما يعني أنها لم تكن محفوظة على هاتفها بل على هاتف زوجها.

التفسير الوحيد الذي يحضرني هو أن مارني كانت محقة بشأن الخداع، لكنها أخطأت في تحديد من يقوم به ولماذا.

لقد نشر توم هذه الصورة على حساب (إنستغرام) الخاص بزوجته.

والشخص الذي يقع ضحية هذا الخداع هو أنا.

***

أصعب جزء في أداء دوري في مسرحية (ذرة شك) ثماني مرات أسبوعيًا كان الفصل الأول، والذي تعين فيه على شخصيتي أن توازن على خيط رفيع بين القلق المفرط وانعدام الشك الكافي. قضيت أسابيع من التدريبات ألهث وراء التوازن المثالي بين الاثنين، ولم أنجح قط في بلوغه تمامًا.

حتى الآن.

الآن أقف تمامًا في منتصف تلك المسافة، حائرة في أي جانب أميل إليه. والأمر أيسر الآن لأنني أعيشه حقًا. لا حاجة للتمثيل.

تراودني رغبة في الاتصال بـ مارني لطلب مشورتها، لكنني أعلم يقينًا ما ستقوله. إن كاثرين بخير. وإنه يجدر بي طي الصفحة. وإن هذا لا يعنيني.

قد يكون كل ذلك صحيحًا. وقد يكون خاطئًا تمامًا. لن يسعني التأكد حتى أحيط بالوضع بشكل أفضل. لذا أعود أدراجي إلى وسائل التواصل الاجتماعي، تاركة (إنستغرام) خلفي لأغوص في بنات أفكار توم رويس، (ميكسر).

أولًا، يتوجب عليّ تحميل التطبيق على هاتفي وإنشاء ملف شخصي. إنها عملية تتسم باقتحام سافر للخصوصية، إذ تتطلب اسمي الكامل، وتاريخ ميلادي، ورقم هاتفي، وموقعي، الذي يُحدد عبر تتبع المواقع. أُجري محاولات عدة للالتفاف حول ذلك، مدخلة (مانهاتن) كموقعي المختار، لكن التطبيق يعيده إلى (بحيرة جرين) في كل مرة.

وأنا التي كنت أظن نفسي متطفلة.

لم يُسمح لي بدخول (ميكسر) إلا بعد اكتمال ملفي الشخصي. ويجب أن أقر لـ توم وفريق تطويره ببراعتهم. التطبيق مصمم بإتقان. أنيق، جذاب، وسهل الاستخدام. وفي غضون ثوانٍ، أكتشف أن هناك طرقًا عدة للعثور على جهات الاتصال، تشمل البحث بالشركة، أو بالموقع، أو بإدخال حاناتك ومطاعمك المفضلة لترى من يشاركك الشغف ذاته.

أختار البحث بالموقع، وهو ما يتيح لي رؤية كل مستخدم ضمن دائرة نصف قطرها ميل واحد. في هذه اللحظة، يتواجد أربعة مستخدمين آخرين عند (بحيرة جرين)، وكل منهم مُعلم بمثلث أحمر على منظر قمر صناعي للمنطقة.

الأول هو توم رويس.

لا مفاجأة في ذلك.

كما يمتلك إيلي وبون كونراد ملفات شخصية، وهو ما كان ليعد مفاجأة لولا أنني أظن أن كلاهما انضم مجاملة لجارهما. ومثلي، لم يُكمل أي منهما ملفه الشخصي أبعد من المعلومات الإلزامية. لم يدرج إيلي أي مفضلات أو مواقع زارها مؤخرًا، والمكان الوحيد في ملف بون هو حانة عصائر تبعد بلدتين.

أما المفاجأة الحقيقية فهي الشخص الرابع المُدرج كمتواجد حاليًا عند بحيرة جرين.

كاثرين رويس.

أُحدق في المثلث الذي يحدد موقعها.

على الضفة المقابلة من البحيرة تمامًا.

في مواجهة مثلثي الأحمر مباشرة.

رؤية ذلك تبعث في قلبي خفقانًا مضطربًا. ورغم جهلي بمدى دقة التطبيق، إلا أنني أفترض أنها جيدة. وبما أنني لم أفلح في تغيير موقعي رغم المحاولات المتكررة، فالأرجح أن كاثرين تعجز عن ذلك أيضًا.

وإن صح ذلك، فهذا يعني إما أنها غادرت بحيرة جرين دون هاتفها—أو أنها لم تغادر قط.

أنهض، وأدس هاتفي في جيبي، وأدلف للداخل، متجهة مباشرة نحو المطبخ. هناك، أنتزع المنظار من سلة المهملات، وأنفخ فتات غدائي عن عدساته، وأحمله معي إلى الشرفة. أقف عند السياج، متفرسة في منزل آل رويس الزجاجي، متسائلة إن كانت كاثرين هناك فعلًا. يستحيل الجزم بذلك. فرغم أن الشمس توشك على الانزواء خلف الجبال في ذلك الجانب من البحيرة، إلا أن الانعكاس المتلألئ للماء يخفي أي حراك بالداخل.

ومع ذلك، أمسح ببصري المناطق التي أعرف أن الغرف تقع فيها، آملة أن يجلو ضوء مشتعل في الداخل الرؤية. لا شيء. كل ما يقع خلف النوافذ المعتمة محتجب عن الأنظار.

بعد ذلك، أتفحص محيط المنزل، بادئة بالجانب المواجه لمنزل إيلي قبل أن أجر نظري عبر الفناء الخلفي، نزولًا نحو الرصيف، ثم إلى الجانب المواجه لمنزل فيتزجيرالد. لا شيء يُرى هناك أيضًا. ولا حتى سيارة توم ٦ـ (بنتلي) الانسيابية.

مجددًا، أدرك أنني أراقب منزل عائلة رويس حاليًا بمنظار بالغ الدقة يكفي لرصد فوهات القمر. هذا تطرف.

وهوس.

وغريب بكل بساطة.

أُخفض المنظار، ووجهي يحمر خجلًا لأنني ربما أبالغ في ردة فعلي حيال كل هذا. وكانت مارني لتجزم بأن لا مجال للشك في ذلك. وكنت لأشاطرها الرأي لولا الشيء الوحيد الذي أثار حفيظتي في المقام الأول.

الصرخة.

لولاها لما تملكني كل هذا القلق.

وحتى لو كانت مجرد نسج من خيالي، لا يسعني التوقف عن التفكير فيها.

أنهار في الكرسي الهزاز، محاكية الحالة المسببة للألم التي استيقظت عليها. أغلق عينيّ بإحكام، وأحاول استرجاع الصوت الدقيق الذي سمعته، آملة أن يوقظ ذلك شرارة ذكرى. ورغم أنني امتعضت حين أتت على ذكره، إلا أن مارني كانت محقة حين قالت إنني أفرطت في الشرب الليلة الماضية. لقد فعلت ذلك حقًا، وربما بمبرر وجيه، ككل ليلة. لكن في غيبوبتي الثملة، من الوارد جدًا أنني تخيلت تلك الصرخة. ففي النهاية، إن لم يسمعها إيلي ولم يسمعها توم، فمن المنطقي أنني لم أسمعها أنا أيضًا.

ومن جهة أخرى، مجرد عدم ادعاء أحد آخر بسماعها لا ينفي حدوثها. فحين تسقط شجرة في الغابة، على حد تعبير ذلك المثل المبتذل، فإنها تصدر صوتًا بلا ريب. وكما يذكرني (ميكسر) حين أتفقد هاتفي للمرة الألف، ثمة شخص آخر على هذه البحيرة لم أسأله بعد. يسعني رؤية مثلثه الأحمر الصغير على شاشتي الآن، يقع على بُعد بضع مئات من الياردات من مثلثي.

أجل، أعلم أنني وعدت إيلي بالابتعاد عنه. لكن في بعض الأحيان، كما هو الحال الآن، يتحتم نكث الوعود. خاصة حين يكون بون كونراد هو من يملك الإجابة على سؤالي الأكثر إلحاحًا في هذه اللحظة.

أنهض، وأدس هاتفي، وأقفز من درجات الشرفة. وعوضًا عن الذهاب إلى واجهة المنزل وقطع المسافة من ممر إلى ممر، أختار المسار ذاته الذي سلكه بون في ذلك اليوم وأشق طريقي عبر الغابة التي تفصل بيننا.

إنه مسار جميل، لا سيما مع أشعة الشمس الغاربة التي تلقي بتوهجها الذهبي على هذا الجانب من البحيرة. إنه ساطع لدرجة تضطرني لتضييق عينيّ وأنا أمشي. شعور مرحب به يذكرني بالوقوف على خشبة المسرح، محاصرة في دائرة الضوء، وتغمرني دفئها.

لقد عشقت ذلك الشعور.

وأفتقده بشدة.

لو كانت مارني هنا، لأخبرتني أنها مسألة وقت فقط قبل أن أعود لخشبة المسرح. لكنني أشك في ذلك بصدق.

في الأمام، يتجلى من بين الأشجار المتفرقة الهيكل الضخم لمنزل عائلة ميتشل. وكحال منزل آل رويس، يمتاز بنوافذ واسعة تطل على البحيرة، التي تعكس الآن الألوان النارية للغروب. هذا المشهد، مقترنًا بشكل المنزل، يعيد إلى ذاكرتي رسم طفل لنار المخيم. مثلث برتقالي يستقر فوق كومة من الحطب.

وما إن اخترقت خط الأشجار إلى فناء منزل ميتشل الصغير المكسو بأوراق الشجر، حتى لمحت بون على الشرفة الخلفية. كان يرتدي سروال جينز وقميصًا قطنيًا أبيض، ويقف مواجهًا للبحيرة، واضعًا يدًا ليحجب عينيه عن الشمس الغاربة. وفي التو، أدركت أنه هو الآخر يراقب منزل عائلة رويس.

بدا أن بون يعلم سبب قدومي، لأنه حين رآني أعبر الحديقة، ارتسمت على وجهه نظرة غريبة. مزيج من الحيرة، والقلق، مع رشة من الارتياح.

بادرني قبل أن أنبس بكلمة:

– «لقد سمعتِها أنتِ أيضًا، أليس كذلك؟»

– «سمعت ماذا؟»

– «الصرخة.» أدار رأسه حتى صار مواجهًا لمنزل آل رويس مجددًا. «من هناك.»

***

سأل بون:

– «هل رأيتِ أي شيء آخر؟»

– «فقط ما أخبرتك به.»

كنا نقف معًا على الشرفة الخلفية لمنزل عائلتي، وأنا أراقب بون وهو يراقب منزل عائلة رويس عبر المنظار. كان متكئًا على سياج الشرفة، منحنيًا للأمام لدرجة أخشى معها أن يحطمه ويهوي إلى الأرض بالأسفل. إنه ضخم البنية حقًا، وهو أمر لم أدركه إلا حين وقفنا وجهًا لوجه. ولأنني كنت أقف في مستوى أعلى منه في لقائنا الأول، لم أستطع تقدير طوله الفارع. الآن أدرك ذلك. فهو طويل لدرجة أنه يطغى عليّ بحضوره حين أقف بجواره.

قلتُ:

– «أخبرتني أنك هنا منذ أغسطس. هل التقيت بـ توم وكاثرين يومًا؟»

– «مرة أو مرتين. لا أعرفهما جيدًا.»

– «هل لاحظت أي شيء غريب بشأنهما؟»

قال بون:

– «لا. ومن جهة أخرى، لم أكن أراقبهما عبر هذه.»

أبعد المنظار عن عينيه لبرهة كافية ليمنحني ابتسامة تخبرني أنه يمزح. لكنني التقطت نبرة إدانة خفية في تعليقه، توحي بأنه لا يستسيغ تمامًا ما كنت أفعله.

ولا أنا أيضًا أستسيغه، الآن وأنا أقف على بُعد قدم من الرجل الذي تلصصت عليه وهو يسبح عاريًا. لم يبدِ بون أي اشتباه في أنني راقبته وهو يسبح عاريًا في تلك

الليلة. وبدوري، لم أعطِ أي تلميحات بأنني كنت أراقب بالفعل. مما يخلق صمتًا محرجًا أتساءل فيه عما إذا كان يفكر في أنني أفكر في الأمر.

على الضفة المقابلة من البحيرة، لا يزال منزل عائلة رويس غارقًا في الظلام، رغم هبوط الغسق الرمادي القطني. لم يعد توم بعد، كما يتبين من المساحة الخاوية تحت الرواق حيث يفترض أن تقف الـ (بنتلي).

سألتُ:

– «أتظن أنه سيعود؟ أم أنه ولى الأدبار؟»

عاد بون إلى المنظار.

– «أظن أنه سيعود. الأثاث لا يزال على الفناء. لو كان يعتزم المغادرة لفصل الشتاء، لأدخله بأكمله.»

– «إلا إذا اضطر للمغادرة على عجل.»

ناولني بون المنظار وهبط بجسده على كرسي هزاز، والذي أصدر صريرًا تحت وزنه.

– «لست مستعدًا لتخيل الأسوأ بعد.»

كنت أشاطره الرأي ذاته قبل ساعة، حين لم أكن متيقنة من حقيقة الصرخة وكان ثمة تفسيرات منطقية لعدم تواجد كاثرين في المكان الذي ادعى توم تواجدها فيه. أما الآن، وبعد أن أكد بون ما سمعته، وظلت علامة موقع كاثرين على (ميكسر) ثابتة في منزلها بينما اختفت علامة زوجها منذ فترة طويلة، فأنا مستعدة لإطلاق العنان لشكوكي.

سألت بون:

– «أين كنت حين سمعت الصرخة؟»

– «في المطبخ، أعد القهوة.»

– «هل أنتَ دائمًا مبكر الاستيقاظ هكذا؟»

– «أقرب ما أكون إلى شخص نومه خفيف جدًا.» هز بون كتفيه، وفي تلك الرفعة الحزينة لكتفيه العريضين، أستشعر تسليمًا مرهقًا مألوفًا بين الأشخاص الذين تطاردهم الأشباح. وكأن لسان حاله يقول: إن الأمر مقيت، لكن ما باليد حيلة؟ «كان باب الشرفة مفتوحًا. يروق لي الاستماع إلى الطيور على البحيرة.»

– «لأن المكان يكون هادئًا جدًا بخلاف ذلك.»

– «بالضبط،» قال بون، سعيدًا بتذكري تفصيلة من حديثنا الأول. «كنت على وشك صب القهوة حين سمعتها. بدا لي أن الصوت قادم من الضفة المقابلة للبحيرة.»

– «كيف أمكنك الجزم بذلك؟»

– «لأنه كان سيبدو مختلفًا لو كان على هذه الضفة. أعلى. أدركت فور سماعي له أنه قادم من هناك.»

أشار بون إلى الضفة المقابلة، واستقرت إصبعه بين منزل إيلي ومنزل آل رويس. «كانت المسافة كافية تمامًا لألتقط الصدى.»

سألتُ:

– «هل رأيت أي شيء؟»

هز بون رأسه نافيًا.

– «خرجت لأستطلع الأمر، لكن لم يكن ثمة ما يُرى. كانت البحيرة ساكنة. والضفة المقابلة بدت خاوية. كان يبدو كأي صباح معتاد هنا.»

– «لكن تخللته صرخة،» قلت. «أنت تشاطرني الرأي بأن الصوت بدا وكأنه لامرأة، أليس كذلك؟»

– «وأكثر من ذلك، أشاطرك الرأي بأنه بدا كصوت كاثرين رويس.»

تركت السياج وألقيت بجسدي في الكرسي الهزاز المجاور لـ بون.

– «هل تظن أنه ينبغي لنا الاتصال بالشرطة؟»

– «ونخبرهم بماذا؟»

– «بأن جارتنا مفقودة ونحن قلقون بشأنها.»

على الطاولة بيننا يقبع كوبان من شراب الزنجبيل. ليس خياري المفضل للمشروبات، لكنني كنت سأشعر بالخزي لو رتشفت بوربون أمام بون. شراب الزنجبيل، القابع في الثلاجة منذ آخر مرة أقمت فيها هنا، فاتر كخريطة. لا يبدو أن بون يمانع وهو يرتشف منه ويقول:

– «لا نريد الإقدام على ذلك بعد. أولًا وقبل كل شيء، نحن لسنا متأكدين تمامًا من اختفاء كاثرين. إن لجأنا إلى الشرطة، فأول ما سيفعلونه هو استجواب توم...»

– «الذي قد يكون السبب وراء اختفائها.»

– «ربما،» قال بون. «وربما لا. لكن حين تستجوبه الشرطة، سيخبرهم على الأرجح بالقصة ذاتها التي رواها لكِ ويشير إلى منشور (إنستغرام) الذي أريتني إياه كدليل. وهذا سيدفع الشرطة للتراجع. ليس للأبد. لا سيما إن تقدم المزيد من معارف كاثرين للإبلاغ عن انقطاع أخبارها. لكنه سيمنح توم وقتًا كافيًا للهرب.»

رمقت الضفة المقابلة من البحيرة والمكان الخاوي حيث كانت سيارة توم متوقفة.

– «إن لم يكن قد بدأ الهرب بالفعل.»

أصدر بون همهمة موافقة.

– «وهذا هو اللغز الأكبر الآن. أظن أنه ينبغي لنا التريث لنرى إن كان سيعود.»

– «وإن لم يفعل؟»

– «أعرف شخصًا يمكننا الاتصال به. إنها محققة في شرطة الولاية، وهي الجهة التي ستتولى التحقيق في الأمر على أي حال. هذا إن كان هناك ما يستدعي التحقيق أصلًا. سنطلعها على مجريات الأمور ونستأنس برأيها. في الوقت الحالي، من الحكمة أن نلتزم بأقصى درجات التكتم. صدقيني يا كيسي، لا نود توجيه اتهام،

وتوريط الشرطة وفرق الإنقاذ، لنكتشف في النهاية أننا كنا مخطئين طوال الوقت. الشرطة تمقت هذا النوع من الأمور.»

– «كيف لك أن تعرف الكثير عن الشرطة هكذا؟»

– «كنت شرطيًا سابقًا.»

باغتتني المفاجأة، رغم أنه لم يكن يجدر بي ذلك. يمتلك بون تلك الصرامة المألوفة لشرطي طيب لكنه منهك. وعضلات. الكثير من العضلات. لم أسأله عن سبب تركه للشرطة ولم يتطرق هو للأمر. وبمعرفتي بانضمامه الآن لمجموعة (مدمني الكحول المجهولين)، يمكنني ربط الخيوط بنفسي.

– «إذن سننتظر،» قلت.

وهو ما فعلناه، جالسين في صمت نسبي بينما كان الليل يرخي سدوله على الوادي.

قال بون حين دقت الساعة السابعة:

– «ألا تتمنين لو أنني أحضرت لوحة (مونوبولي) معي؟»

– «هل من الفظاظة أن أقول لا؟»

أطلق بون ضحكة خافتة وحزينة.

– «فظاظة بالغة. لكن صراحتك منعشة.»

في السابعة والنصف، وبعد سماع قرقرة معدة بون لمرات عديدة، دخلت المنزل لأعد لنا بعض الشطائر. كانت يداي ترتجفان وأنا أدهن المايونيز على الخبز. ارتعاشات الانسحاب. كان جسدي يشتهي ارتشاف النبيذ في هذه اللحظة وليس شراب الزنجبيل الفاتر. استرقت نظرة إلى خزانة المشروبات في غرفة الطعام المجاورة، فتصلب جسدي من فرط التوق. تشكلت عقدة ضيقة في صدري – حكة داخلية تدفعني للجنون لأنني أعجز عن حكها. أخذت نفسًا عميقًا، وأنهيت إعداد الشطائر، وحملتها إلى الخارج.

في الشرفة، كان بون ممسكًا بالمنظار مجددًا، رغم انعدام أي أضواء داخل منزل توم وكاثرين. لولا ضوء القمر المتلألئ على البحيرة لما أمكن رؤية المنزل على الإطلاق.

سألتُ:

– «هل عاد؟»

– «ليس بعد.» وضع بون المنظار جانبًا وتناول الطبق الورقي المليء بشطيرة ديك رومي بخبز أبيض مع رقائق بطاطس. ليست هذه أزهى لحظاتي في الطهي. «كنت أتأمل مدى جودة هذه الأشياء.»

– «ابتاعها زوجي. لمراقبة الطيور.»

انخفض صوت بون.

– «بالمناسبة، أنا آسف لما حدث له. كان يجدر بي إخبارك بذلك في اليوم الآخر.»

– «وأنا سمعت عن زوجتك.»

– «أظن أن إيلي أخبرك.»

– «أجل. يؤسفني أنك اضطررت لتجاوز ذلك.»

– «وأنا كذلك.» توقف لبرهة قبل أن يضيف: «أنا هنا، إن أردتِ يومًا التحدث عن الأمر.»

– «لا أريد.»

أومأ بون متفهمًا.

– «أتفهم ذلك. أنا أيضًا لم أرغب. ليس لفترة طويلة. لكن أحد الأشياء التي أدركتها في العام الماضي هو أن التحدث عن الأمور يساعد. يسهل من وطأة التعامل معها.»

– «سأبقي ذلك في الحسبان.»

– «لقد سقطت من على الدرج.» توقف بون، متيحًا للمعلومة أن تستقر. «هكذا ماتت زوجتي. في حال كنتِ تتساءلين.»

كنت أتساءل بالفعل، لكنني لم أملك الشجاعة لسؤاله صراحة. فرغم عادتي الحالية في التلصص على الجيران، ما زلت في الغالب أحترم خصوصية الآخرين. لكن بون بدا في مزاج يسمح بالبوح، فأومأت وتركت له المجال ليتابع.

– «لا أحد يعلم يقينًا كيف حدث ذلك. كنت في العمل. عدت من نوبتي، ودخلت من الباب، لأجدها متكورة في أسفل الدرج. فعلت كل ما يُفترض بي فعله. الاتصال بالطوارئ. محاولة الإنعاش القلبي الرئوي. لكني أيقنت بمجرد رؤيتها أنها قد رحلت. أفاد الطبيب الشرعي بأنها فارقت الحياة منذ شطر كبير من اليوم. لا بد أن ذلك حدث فور مغادرتي للعمل. إما أنها تعثرت أو فقدت توازنها. حادثة غريبة.» توقف بون ليتأمل الطعام في طبقه، والذي لم يمسه بعد. «أحيانًا أظن أن فجاءة الأمر هي ما يجعل تقبله عسيرًا. كانت هنا في لحظة، ثم تلاشت في التي تليها. ولم أحظَ قط بفرصة لوداعها. لقد تلاشت ببساطة. كما في ذلك المسلسل التلفزيوني.»

– «(الباقون)،» قلت، متجاهلة ذكر أنني تلقيت عرضًا لدور في المسلسل لكنني رفضته لأنني وجدت موضوعه كئيبًا للغاية.

– «بالضبط. هذا هو. حين يحدث الأمر بهذه الفجاءة، يجعلك تندمين على كل تلك اللحظات التي اعتبرتها من المسلمات. لا أستطيع تذكر آخر ما قلته لها، وهذا ينهشني. أحيانًا، حتى الآن، أظل مستيقظًا في الليل محاولًا تذكر ما كان، آملًا أن يكون شيئًا لطيفًا.» نظر بون إليّ. «هل تذكرين آخر ما قلتِه لزوجك؟»

قلتُ:

– «لا.»

وضعت طبقي، واستأذنت، ودخلت المنزل. وبعد ثوانٍ، كنت في غرفة الطعام، راكعة أمام خزانة المشروبات، أقبض على زجاجة بوربون بيدي. وبينما كانت

كلماتي الأخيرة لـ لين تعصف في رأسي – عصية على النسيان مهما حاولت – أملت الزجاجة وتجرعت عدة رشفات مباركة.

هكذا أفضل.

أفضل بكثير.

وبعودتي للخارج، لاحظت أن بون قد تناول بضع قضمات من شطيرته. وهذا يجعل منه الشخص الوحيد بيننا الذي يشتهي الأكل.

قلتُ، متسائلة عما إذا كان بإمكانه شم رائحة البوربون في أنفاسي:

– «لست جائعة حقًا. إن أردت، يمكنك أخذ ما تبقى من شطيرتي.»

همّ بون بالرد لكنه توقف حين لفت انتباهه شيء على الضفة المقابلة. تتبعت نظره ولمحت أضواء سيارة تنعطف نحو ممر منزل رويس.

لقد عاد توم.

التقطت المنظار وراقبته وهو يوقف سيارة الـ (بنتلي) تحت الرواق الجانبي للمنزل قبل أن يطفئ المصابيح الأمامية. ترجل من السيارة، حاملًا كيسًا بلاستيكيًا ضخمًا من متجر الأدوات الصلبة الوحيد في محيط خمسة عشر ميلًا.

ربت بون على كتفي.

– «دعيني أرى.»

ناولته المنظار، وتطلع عبره بينما ولج توم المنزل. في الطابق الأول، أُضيئت مصابيح المطبخ. وتلتها سريعًا مصابيح غرفة الطعام بينما توغل توم أعمق في المنزل.

سألت بون:

– «ماذا يفعل؟»

– «يفتح الكيس.»

– «وماذا بداخله؟»

تنهد بون بانزعاج.

– «لا أعلم بعد.»

لم يدم هذا الجهل سوى ثانية أخرى قبل أن يطلق بون تصفيرة خافتة. وناولني المنظار قائلًا:

– «عليكِ رؤية هذا.»

رفعت المنظار إلى عينيّ ورأيت توم رويس واقفًا عند طاولة غرفة الطعام. منبسطة أمامه كل المشتريات التي جلبها من متجر الأدوات الصلبة.

غطاء بلاستيكي مطوي في مستطيل أنيق.

ولفة حبل.

ومنشار معادن بأسنان بالغة الحدة تتألق تحت إضاءة غرفة الطعام.

قال بون:

– «أظن أنه قد حان الوقت للاتصال بصديقتي المحققة.»

***

لم تكن المحققة ويلما آنسون تمت بصلة لما تخيلته. في مخيلتي، رسمت صورة لشخصية تضاهي المحققة التي جسدتها في ثلاث حلقات من مسلسل (القانون والنظام: الوحدة الخاصة للضحايا). صارمة. حازمة. ترتدي ذات البدلة النسائية العملية التي طغى عليها الجانب الوظيفي على حساب الأناقة والتي ارتدتها شخصيتي. غير أن المرأة الماثلة على بابي كانت ترتدي سروال يوجا أرجوانيًا، وسترة رياضية فضفاضة، وعصابة رأس وردية تروض خصلات شعرها السوداء المجعدة. وتطوق معصمها الأيمن ربطة شعر صفراء. لمحتني ويلما وأنا أختلس النظر إليها أثناء مصافحتي لها فقالت:

– «إنها لابنتي. هي في حصة الكاراتيه الآن. ولدي عشرون دقيقة بالضبط قبل أن أضطر لاصطحابها.»

على الأقل، كان الجانب الحازم يطابق توقعاتي.

كانت نبرة ويلما أرق تجاه بون، لكن بفرق ضئيل. فقد بادرته بعناق سريع قبل أن تلمح خزانة المشروبات على بُعد غرفتين.

سألته:

– «أنت بخير مع وجود ذلك بالجوار؟»

– «أنا بخير يا ويلما.»

– «أواثق؟»

– «أكيد.»

قالت ويلما:

– «أصدقك. لكن الويل لك إن لم تتصل بي لو راودتك مجرد فكرة لمس إحدى تلك الزجاجات.»

في تلك اللحظة، استرقت لمحة عن طبيعة علاقتهما. زميلان سابقان، على الأرجح، يدركان نقاط قوة وضعف بعضهما البعض. هو مدمن كحول. وهي سنده. وأنا مجرد التأثير السيئ الذي أُقحم في المعادلة بسبب أمر مريب يقع على الضفة المقابلة.

قالت ويلما:

– «أرني المنزل.»

اقتدناها أنا وبون إلى الشرفة، حيث وقفت عند السياج وتأملت السماء الداكنة والبحيرة الأشد ظلمة بنظرة تقييمية فضولية. وفي مواجهتنا مباشرة، كان منزل عائلة رويس مضاءً في المطبخ وغرفة النوم الرئيسية، لكن من هذه المسافة وبدون المنظار، استحال تحديد موقع توم بالداخل.

أشارت ويلما نحو المنزل وقالت:

– «هناك تقطن صديقتكِ؟»

قلتُ:

– «أجل. توم وكاثرين رويس.»

قالت ويلما:

– «أنا أعرف آل رويس. تمامًا كما أعرف من تكونين أنتِ.»

من نبرتها، استشفيت أن ويلما قد طالعت عناوين الصحف الفضائحية المروعة – والحقيقية – عني. وبدا جليًا أيضًا امتعاضها منها.

– «أخبريني لِمَ تظنين أن السيدة رويس في خطر.»

توقفت، حائرة من أين أبدأ، رغم أنه كان يجدر بي توقع السؤال. فمن البديهي أن تسألني محققة شرطة عن مبررات ظني بأن جاري قد ألحق أذى بزوجته المفقودة.

أدركت تحديق ويلما آنسون فيّ. غيوم من الانزعاج تلبدت على ملامحها، وخشيت أن ترحل هكذا إن لم أنبس بكلمة في الثانيتين التاليتين.

هب بون لنجدتي قائلًا:

– «سمعنا صرخة هذا الصباح. صرخة امرأة. قادمة من ضفتهم من البحيرة.»

أضفتُ:

– «ورأيت أشياء. أشياء تثير القلق.»

– «في منزلهما؟»

– «أجل.»

– «كم مرة تذهبين إلى هناك؟»

– «لم تطأ قدماي الداخل منذ أن ابتاعا المكان.»

عادت ويلما لتواجه البحيرة. وضيقت عينيها قائلة:

– «ولاحظتِ أشياء تثير القلق من كل هذه المسافة؟»

أومأت نحو المنظار القابع على الطاولة بين الكراسي الهزازة، كما هو الحال منذ أيام. نظرت ويلما ذهابًا وإيابًا بيني وبين الطاولة، وقالت:

– «أرى. هل لي أن أستعير هذا؟»

– «خذي راحتكِ.»

رفعت المحققة المنظار إلى عينيها، وعبثت بضبط البؤرة، ومسحت الضفة المقابلة. وحين خفضت المنظار، رمقتني بنظرة صارمة.

– «هناك قوانين تجرم التلصص على الناس، كما تعلمين.»

قلتُ:

– «لم أكن أتلصص. كنت أراقب. بشكل عابر.»

قالت ويلما، دون حتى أن تتكلف عناء التظاهر بتصديقي:

– «بالطبع. إلى أي مدى يعرف كل منكما هذين الزوجين؟»

قال بون:

– «ليس جيدًا. التقيتهما بضع مرات عابرة عند البحيرة.»

قلتُ:

– «لم ألتقِ توم رويس سوى مرتين. لكن طريق كاثرين وطريقي تقاطعا بضع مرات. زارتني هنا مرتين، وتحدثنا بعد أن أنقذتها من الغرق في البحيرة.»

أعلم أنه خطأ، لكنني سررت بأن الجزء الأخير من جملتي بدا وكأنه فاجأ ويلما آنسون التي لا تفارقها رباطة جأشها.

سألت:

– «متى كان هذا؟»

قلتُ:

– «أول أمس،» رغم أنني أشعر وكأن دهرًا قد انقضى. بدا الوقت يتمدد منذ عودتي إلى البحيرة، يغذيه نهار غارق في الثمالة وليالٍ طويلة جافاها النوم.

– «هذه الحادثة في البحيرة—هل لديك أي سبب للاعتقاد بأن لزوجها يدًا فيها؟»

– «لا سبب البتة. أخبرتني كاثرين أنها كانت تسبح، والمياه كانت شديدة البرودة، فأصيبت بتقلص عضلي.»

– «حين تحدثتِ إليها، هل أبدت كاثرين أي إشارة إلى أنها تظن زوجها يسعى لإيذائها؟ هل قالت إنها خائفة؟»

– «لقد ألمحت إلى أنها غير سعيدة.»

أوقفتني ويلما بإشارة يد.

– «هذا يختلف عن الخوف.»

– «كما أنها أفصحت لي عن وجود أزمات مالية. قالت إنها تتكفل بكل شيء وأن توم لن يوافق قط على الطلاق لحاجته الماسة لمالها. وقالت لي إنه على الأرجح سيقتلها قبل أن يدعها ترحل.»

سألت ويلما:

– «هل تظنين أنها كانت جادة؟»

– «ليس حقًا. في حينها، ظننتها مزحة.»

– «هل كنت لتمزحي بشأن أمر كهذا؟»

قال بون:

– «لا.»

قلتُ:

– «أجل.»

رفعت ويلما المنظار إلى عينيها مجددًا، وأدركت أنها تركز على النوافذ المضاءة في منزل آل رويس.

– «هل رأيتِ أي شيء مريب بالداخل؟ تعلمين، أثناء (مراقبتك العابرة)؟»

– «رأيتهما يتشاجران. في وقت متأخر من الليلة الماضية. أمسكها من ذراعها فضربته.»

قالت ويلما:

– «إذن ربما من الأفضل أن يكونا منفصلين في الوقت الحالي.»

قلتُ:

– «أوافقك الرأي. لكن اللغز الأكبر هو أين اختفت كاثرين. يزعم زوجها أنها عادت إلى شقتهما. فاتصلت بصديقة في المدينة، والتي ذهبت إلى هناك وتحققت. وأخبرها البواب أنها لم تطأ الشقة منذ أيام. أحدهما يكذب، ولا أظنه البواب.»

قالت ويلما:

– «أو ربما صديقتكِ هي من كذبت. ربما لم تتحدث إلى البواب من الأساس.»

هززت رأسي نافية. مارني لن تفعل ذلك، مهما بلغت درجة سأمها مني.

– «وهناك هذا أيضًا.» عرضت هاتفي على ويلما، حيث كان تطبيق (إنستغرام) مفتوحًا. «يُزعم أن كاثرين نشرت هذه الصورة من شقتهما اليوم. لكنها لم تُلتقط اليوم. انظري إلى أوراق الأشجار والتقويم على الحائط. الأرجح أنها التقطت منذ أسابيع.»

قالت ويلما:

– «مجرد نشر أحدهم لصورة قديمة لا ينفي تواجده في المكان الذي يدعيه.»

– «أنتِ محقة. لكن كاثرين لم تلتقط تلك الصورة حتى. بل زوجها. لو أمعنتِ النظر، يمكنكِ رؤية انعكاسه في غلاية الشاي.»

منحت ويلما لحظة لتتفرس في الصورة قبل التبديل من (إنستغرام) إلى (ميكسر). وأشرت إلى مثلث كاثرين الأحمر، القابع بجوار مثلث زوجها تمامًا.

– «لمَ قد تنشر كاثرين صورة قديمة لم تلتقطها بنفسها؟ لا سيما وأن هاتفها لا يزال داخل ذلك المنزل، وفقًا لبرنامج تتبع المواقع في تطبيق زوجها.»

أخذت ويلما هاتفي ودرست الخريطة المرصعة بالمثلثات الحمراء.

– «هذا بمثابة ألف انتهاك للخصوصية في تطبيق واحد.»

قلتُ:

– «ربما. لكن ألا ترين من الغريب أن تغادر كاثرين وتترك هاتفها؟»

– «غريب، أجل. ومستحيل، لا. وهذا لا يثبت أن توم رويس قد ألحق أذى بزوجته.»

– «لكنه يخفي مكانها!» أدركت أن صوتي ارتفع قليلًا، وبدا حازمًا أكثر من اللازم. في مواجهة تشكيك ويلما، صرت أنا نفدة الصبر. كما لم يساعدني أنني

اختلست رشتفين إضافيتين من البوربون بينما استخدم بون الحمام قبل وصول ويلما.

«إن لم تكن كاثرين هنا، لكن هاتفها موجود، فهذا يعني أن توم هو من نشر تلك الصورة، والأرجح أنه يحاول إيهام الناس بأن كاثرين في مكان غير مكانها الحقيقي.»

أضاف بون:

– «كما أنه اشترى حبلًا، وغطاءً بلاستيكيًا، ومنشار معادن.»

قالت ويلما:

– «هذا ليس أمرًا غير قانوني.»

قلتُ:

– «لكنه يثير الريبة حين تتوارى زوجتك فجأة.»

– «ليس إن كانت قد رحلت بملء إرادتها إثر شجار محتدم مع زوجها.»

رمقت ويلما بنظرة فضولية.

– «هل أنتِ متزوجة أيتها المحققة؟»

– «منذ سبعة عشر عامًا.»

– «وهل سبق أن خضتِ شجارًا محتدمًا مع زوجكِ؟»

أجابت:

– «أكثر من أن تحصى. فهو عنيد كالبغل.»

– «وعقب تلك الشجارات، هل سبق لكِ أن خرجتِ لتبتاعي أدوات يمكنكِ توظيفها لإخفاء جثته؟»

دفعت ويلما نفسها عن السياج وتوجهت نحو الكراسي الهزازة، مناولة إياي المنظار في طريقها. جلست، تداعب ربطة الشعر حول معصمها بعبثية قهرية توحي لي بأنها لا تخص ابنتها على الإطلاق.

سألتني:

– «أتظنين حقًا أن توم رويس يقبع هناك الآن يقطع أوصال زوجته؟»

قلتُ:

– «ربما،» شاعرة برعب خفي ليس لكوني أفكر في الأمر فحسب، بل لأنني بت أعتبره سيناريو أكثر واقعية من هرب كاثرين بعد شجار مع زوجها.

تنهدت ويلما.

– «لست واثقة مما تبتغين مني فعله هنا.»

قلتُ:

– «التثبت من كذب توم رويس.»

– «الأمر ليس بهذه البساطة.»

– «أنتِ في شرطة الولاية. ألا يمكنكِ تتبع هاتف كاثرين للتحقق مما إذا كانت قد هاتفت أحدًا اليوم؟ أو الاطلاع على سجلاتها البنكية وبطاقاتها الائتمانية؟»

رقق نفاد الصبر نبرة ويلما وهي تقول:

– «يسعنا فعل كل ذلك—إن أُبلغت السلطات المحلية باختفاء كاثرين. لكنني سأكون صريحة معكِ، إن أقدمتِ على الإبلاغ، فلن يصدقوكِ. فبلاغات المفقودين تصدر عادة عن شخص أقرب إليهم. كالزوج. إلا إن كان لـ كاثرين أفراد عائلة آخرين تعلمين عنهم ويشاطرونك القلق.»

التفت بون إليّ وهز رأسه، مؤكدًا جهل كلينا بأقارب كاثرين.

قالت ويلما:

– «هذا ما ظننته.»

قلتُ:

– «أفترض أن تفتيش المنزل أمر مستبعد تمامًا.»

قالت ويلما:

– «مستبعد يقينًا. سنحتاج إلى مذكرة تفتيش، وللحصول عليها نحتاج إلى دلالة واضحة على وجود شبهة جنائية، وهو ما تفتقرين إليه. فابتياع توم رويس حبلًا ومنشار معادن ليس الدليل الدامغ الذي تظنينه.»

قال بون:

– «لكن ماذا عن الصرخة؟ كلانا سمعها.»

نظرت ويلما إليّ.

– «هل راودتك فكرة أن كاثرين ربما تعرضت لحادث؟ أخبرتني أنها كادت تغرق في اليوم الآخر. ربما تكرر الأمر.»

قلتُ:

– «إذن لِمَ لم يبلغ توم عن الأمر بعد؟»

– «حين فُقد زوجكِ، لِمَ لم تبلغي أنتِ؟»

كنت أفترض أن ويلما ملمة بكل تفاصيل ذلك. بل لعلها كانت إحدى ضباط الشرطة الذين استجوبوني حينها، رغم أنني لا أحتفظ بأي ذكرى لها. ما أوقنه هو أن إثارتها لهذا الموضوع الآن يثبت قدرتها على أن تكون قاسية كالجليد متى شاءت.

قلتُ، والكلمات تتسرب من بين فك مطبق لدرجة آلمت أسناني:

– «عُثر على جثته قبل أن تتسنى لي الفرصة. لأن الناس بادروا بالبحث عنه فورًا. على عكس توم رويس. مما يرجح عدم قلقه على كاثرين لعلمه بمكانها وما ألمّ بها.»

التقت نظرات ويلما بنظراتي، وكانت النظرة في عينيها العسليتين الواسعتين مزيجًا من الاعتذار والإعجاب. أظنني انتزعت احترامها. وربما، ثقتها، لأنها قطعت الاتصال البصري وقالت:

– «هذه نقطة وجيهة.»

قلتُ:

– «إنها كذلك وبحق.»

أكسبني هذا نظرة أخرى من ويلما، وإن بدا أن عينيها هذه المرة تقولان: (لنبقِ غرورنا قيد السيطرة).

– «إليكِ ما سأفعله.» نهضت، وتمطت، ومنحت ربطة الشعر على معصمها لفة أخيرة. «سأنبش قليلًا لأرى إن كان أي شخص آخر قد سمع خبرًا عن كاثرين. لعل أحدهم قد فعل ويكون هذا مجرد سوء فهم كبير.»

سألتُ:

– «وماذا يجدر بنا أن نفعل؟»

– «لا شيء. هذا ما يجدر بكما فعله. تريثا وانتظرا تواصلي.» همت ويلما بمغادرة الشرفة، وأشارت إلى المنظار في طريقها. «وبحق السماء، كفا عن التلصص على جيرانكما. اذهبا لمشاهدة التلفاز أو أي شيء آخر.»

***

بعد انصراف ويلما، مصطحبة بون معها، حاولت امتثال نصيحة المحققة بمشاهدة التلفاز. وفي غرفة المكتب، رابضة في ظلال رأس الموظ على الجدار، تابعت خريطة قناة الطقس وهي ترصد تقدم العاصفة. ورغم أن (تريش) لم تعد تصنف كإعصار، إلا أنها ما زالت تعيث فسادًا في الشمال الشرقي. هي الآن فوق (بنسلفانيا)، وتوشك أن تلقي برياحها العاتية وأمطارها القياسية على نيويورك.

و(فيرمونت) هي الوجهة التالية.

بعد غد.

عبء آخر يضاف إلى كاهل القلق.

قلبت القناة، فباغتني مشهد غير متوقع.

أنا.

قبل سبعة عشر عامًا.

أتبختر عبر حرم جامعي تتناثر فيه أوراق الخريف، وأرمق الشاب الفائق الوسامة بجانبي بنظرات ماكرة.

ظهوري السينمائي الأول.

كان الفيلم دراما كوميدية ذات طابع سير ذاتية غامض، يتمحور حول طالب في سنته الأخيرة في هارفارد يتخبط بحثًا عن مسار لحياته. جسدت شخصية طالبة جامعية وقحة تدفعه للتفكير في التخلي عن حبيبته الطويلة الأمد. كان الدور صغيرًا لكنه دسم، ومتحررًا بشكل منعش من أي كليشيهات للفتاة السيئة المتآمرة. قُدمت شخصيتي ببساطة كبديل جذاب يمكن للبطل أن يختاره.

وبمشاهدتي للفيلم للمرة الأولى منذ أكثر من عقد، انهالت عليّ ذكريات تصويره بوضوح يثير الدوار. كم كنت مروعة من لوجستيات التصوير في المواقع. كم كنت متوترة بشأن الوقوف في علاماتي، واسترجاع حواراتي، وتجنب النظر المباشر بالخطأ نحو الكاميرا. وكيف أنني، حين صاح المخرج بكلمة «أكشن» للمرة الأولى، تجمدت في مكاني تمامًا، مما اضطره لسحبي جانبًا وقوله بلطف – بلطف بالغ – : *«تلقائيًا كوني أنتِ»*.

وهذا ما فعلته.

أو ما توهمت أنني فعلته. فبمراقبة أدائي الآن، أوقن أنني كنت أمثل حتمًا، حتى وإن لم يخيل إليّ ذلك حينها. ففي الحياة الواقعية، لم أكن قط بتلك الجاذبية، أو الجرأة، أو الحيوية.

عجزت عن تحمل مشاهدة نسختي الأصغر لثانية إضافية، فأطفأت التلفاز. ليتجلى انعكاسي الحالي على الشاشة المظلمة – تحول يبعث على التنافر. مبتعدة كل البعد عن تلك الشابة النابضة بالحياة التي كنت أراقبها للتو، حتى لكأننا غريبتان.

كوني أنتِ.

لم أعد أدرك حتى من تكون هي.

ولست واثقة من أنني سأستسيغها إن فعلت.

هجرت غرفة المكتب متجهة نحو المطبخ حيث صببت لنفسي كأسًا من البوربون. كأسًا مزدوجة، لتعويض ما فاتني في وجود بون. خرجت بها إلى الشرفة، حيث أميل بكرسيي الهزاز وأرتشف الخمر، مراقبة المنزل على الضفة المقابلة كأنني (جاي غاتسبي) يتلوع شوقًا لـ (ديزي بوكانان). لكن في حالتي، لا يلوح ضوء أخضر في نهاية الرصيف. بل في الواقع، لا ضوء البتة. كانت النوافذ قد استسلمت للعتمة بحلول وقت عودتي إلى الشرفة، وإن أكدت لي نظرة سريعة عبر المنظار على سيارة توم (البنتلي) تواجده هناك.

أواصل المراقبة، آملة أن يُشعل ضوءًا في زاوية ما ليجلو الغموض عما قد يكون بصدد فعله. فهذا هو ما تبتغيه ويلما بعد كل شيء. دليل ملموس نعلق عليه شكوكنا. ورغم أن هذا ما أنشده أيضًا، إلا أن معدتي تموج بالغثيان حين أتفكر في ماهية هذا الدليل الملموس تحديدًا.

دماء تقطر من منشار المعادن الذي ابتاعه توم للتو؟

أم جثة كاثرين تلفظها الأمواج إلى الشاطئ كحال لين؟

هأنذا أعود لنقطة البداية، مسكونة بفكرة أن كاثرين في عداد الموتى. أمقت انزلاق أفكاري المستمر في هذا المنزلق المظلم. ليتني كنت كـ ويلما، موقنة بوجود تفسير منطقي يبرر كل هذا، وبأن الأمور ستؤول إلى نهاية سعيدة. لكن عقلي لا يستوعب الأمور بهذا الشكل. فإذا كانت مأساة لين قد علمتني شيئًا، فهو توقع الأسوأ دائمًا.

أرتشف جرعة أخرى من البوربون وأرفع المنظار إلى عينيّ. وعوضًا عن التحديق في منزل آل رويس الغارق في الظلام المثير للإحباط، أمسح المنطقة المحيطة، متأملة الغابات الكثيفة، والمنحدرات الجبلية الصخرية خلفها، والشريط الساحلي المتعرج عند الأطراف النائية للبحيرة.

يا لكثرة الأماكن التي تصلح لدفن الأشياء غير المرغوب فيها.

يا لكثرة الأماكن التي تصلح للاختفاء.

ولا تفتحوا عليّ باب الحديث عن البحيرة. إبان طفولتنا، كانت مارني تمازحني بشأن عمق بحيرة جرين، وعادة ما تفعل ذلك ونحن غارقتان في الماء حتى أعناقنا، وأنا أمط أصابع قدميّ بأقصى ما أوتيت من جهد لأحتفظ بأوهى احتكاك بقاع البحيرة.

كانت تقول:

– «البحيرة أشد حلكة من تابوت أُحكم غطاؤه. وعميقة كالمحيط. لو غصتِ فيها، فلن تطفوي مجددًا. ستبقين سجينة للأبد.»

ورغم أن ذلك ليس دقيقًا من الناحية التقنية – وهو ما أثبته مصير لين – إلا أنه من السهل تخيل أجزاء من بحيرة جرين شديدة العمق لدرجة أن شيئًا ما قد يُفقد فيها للأبد.

حتى وإن كان بشرًا.

هذه الفكرة استلزمت أكثر من جرعة من البوربون لطرده من عقلي. تطلبت الكأس بأكمله، والذي تجرعته في بضع بلعات ثقيلة. نهضت وترنحت نحو المطبخ، حيث صببت لنفسي كأسًا مزدوجة أخرى قبل أن أعود إلى موقعي في الشرفة. ورغم النشوة القوية التي تسري في عروقي الآن، لا يسعني التوقف عن التساؤل: إن كانت كاثرين ميتة حقًا، فما الذي قد يدفع توم لاقتراف ذلك؟

أرجح أن الدافع هو المال.

لقد كان هو الدافع في (ذرة شك). الشخصية التي أديتها ورثت ثروة طائلة، وزوجها نشأ في فقر مدقع – وكان يطمع في ما تملكه. تطفو أجزاء من أحاديث كاثرين في ذهني المشبع بالبوربون.

(أنا من تتكفل بكل شيء.)

(توم يحتاجني بشدة تمنعه من الموافقة على الطلاق.)

(سيقتلني قبل أن يدعني أرحل.)

توجهت للداخل، وتناولت حاسوبي المحمول من محطة الشحن في غرفة المكتب، وألقيت التحية على رأس الموظ، وصعدت الدرج. متدثرة تحت لحاف في سريري، فتحت الحاسوب المحمول وكتبت اسم توم رويس في (جوجل)، على أمل أن أسفر عن معلومات تدينه بما يكفي لإقناع ويلما بوجود خطب ما.

من أولى النتائج التي طالعتني مقال من (بلومبيرج بيزنس ويك) نُشر الشهر الماضي، يفيد بأن (ميكسر) يستميل شركات رأس المال الاستثماري، ساعيًا لضخ نقدي بقيمة ثلاثين مليون دولار للبقاء واقفًا على قدميه. وبناءً على ما أخبرتني به كاثرين عن افتقار التطبيق للربحية، لم أفاجأ.

«لسنا يائسين،» نقل المقال عن توم. «يواصل (ميكسر) أداءه متجاوزًا حتى أقصى طموحاتنا. للارتقاء به إلى المستوى التالي بأسرع وأكفأ طريقة ممكنة، نحتاج إلى شريك يشاطرنا الرؤية.»

الترجمة: إنه يائس تمامًا.

انعدام أي مقال لاحق يوحي بأن توم لم يفلح بعد في استمالة أي مستثمر ذي جيوب عميقة. ربما يرجع ذلك إلى ما قرأته في مقال منفصل من (فوربس) حول التطبيقات الرائجة، حيث أشير إلى أن (ميكسر) يخسر أعضاءه بينما يحقق معظم الآخرين مكاسب مطردة.

تتسلل المزيد من كلمات كاثرين إلى أفكاري.

(كل أموال توم محتجزة في (ميكسر)، الذي لم يدر ربحًا بعد، والأرجح أنه لن يفعل أبدًا.)

قررت تغيير مساري. فعوضًا عن البحث عن معلومات تخص توم، أجريت بحثًا عن صافي ثروة كاثرين رويس.

تبين أن الأمر مدهش في سهولته. فهناك مواقع إلكترونية بأكملها مكرسة لسرد ثروات المشاهير. ووفقًا لأحدها، يبلغ صافي ثروة كاثرين خمسة وثلاثين مليون دولار. أكثر من كافٍ لتلبية احتياجات (ميكسر).

استقرت تلك الكلمة في ذهني.

نحتاج.

على عكس ما صرح به توم، فإن الكلمة تفوح برائحة اليأس. ف (نريد) توحي برغبة، إن لم تتحقق، فلن تبدل الأمور كثيرًا على المدى الطويل. أما (نحتاج) فتلمح لشيء حيوي للبقاء.

(نحتاج إلى شريك يشاطرنا الرؤية.)

(توم يحتاجني بشدة تمنعه من الموافقة على الطلاق.)

(سيقتلني قبل أن يدعني أرحل.)

ربما كانت كاثرين جادة تمامًا حين قالت ذلك. بل لعلها كانت تلمح لشيء ما.

بأن توم كان يحيك أمرًا ما.

بأنها كانت تعي احتمالية الخطر المحدق بها.

وبأنها رغبت في أن يشاركها أحد هذا العلم. من باب الاحتياط لا أكثر.

أطبقت حاسوبي المحمول، يتنازعني الغثيان بين القلق وبين إفراطي في تجرع البوربون بسرعة مبالغ فيها. وحين أخذت الغرفة في الدوران، ألقيت باللوم على أي منهما. وربما على كليهما معًا.

استمرت الغرفة في الدوران، كدوامة خيل تكتسب تسارعًا مطردًا. أغمضت عينيّ محاولة كبحها وانهارت على وسادتي. تدثرت بخدر معتم، عاجزة عن تمييز ما إذا كنت أنزلق إلى النوم أم أغط في غيبوبة. وفي هوة اللاشعور تلك، لاقاني حلم تجلت فيه كاثرين رويس. وعوضًا عن كاثرين التي عرفتها في الواقع، اتخذت (كاثرين الحلم) ذات الهيئة التي ظهرت بها على تلك اللوحة الإعلانية في (تايمز سكوير) منذ سنوات خلت.

متسربلة بثوبها الموشى بالبهرج.

حافية القدمين.

تركض عبر العشب المندى، في سعي مستميت للفرار من الرجل الذي كانت على وشك الزواج به.

***

كانت كاثرين لا تزال تركض في أحلامي حين استيقظت بعد الثالثة فجرًا، يعتريني تشوش من... حسنًا، من كل شيء. كانت أضواء غرفة النوم مضاءة بأكملها، وأنا لا أزال بكامل ثيابي، حذائي الرياضي وسترتي لم تفارقني. كان الحاسوب المحمول مستقرًا في الشطر الذي كان يخص لين من الفراش، تذكيرًا بتسكعي المخمور على شبكة الإنترنت قبل ساعات.

انسللت من الفراش وبدلت ملابسي بملابس النوم قبل التوجه إلى الحمام. هناك قضيت حاجتي، وفرشت أسناني التي كستها طبقة لزجة، وتغرغرت بغسول الفم لأطرد رائحة البوربون العالقة بأنفاسي. وعدت إلى غرفة النوم، وأنا أطفئ كل المصابيح التي تركتها مشتعلة، حين لمحت شيئًا عبر النوافذ الطويلة المطلة على البحيرة.

ضوء على الضفة المقابلة.

ليس في منزل عائلة رويس، بل في مجموعة الأشجار الواقعة إلى يساره، بالقرب من حافة الماء.

من موقعي هذا، لا أحتاج للمنظار لأدرك أنه شعاع مصباح يدوي يتهادى بين الأشجار. اللغز الأكبر هو هوية من يحمل هذا المصباح وسر تجواله على ضفاف البحيرة في هذه الساعة.

هرعت خارجة من غرفة النوم وعبرت الردهة، مجتازة غرف النوم الخاوية التي تركت أبوابها مشرعة وأسرتها مرتبة بعناية، وكأنها تترقب قادمين. غير أنه لم يكن هناك سواي، وحيدة في هذا المنزل الضخم المظلم، أهبط الدرج الآن نحو الطابق الرئيسي وأتجه إلى الشرفة حيث أمضي جل وقتي. وبمجرد خروجي، تناولت المنظار.

اتضح أنني تأخرت.

تلاشى الضوء.

وخيم الظلام على كل شيء مجددًا.

لكن وأنا أعود أدراجي إلى الداخل وأرتقي الدرج، ساورني اليقين بأنني أعرف هوية ذلك الطيف وسر تواجده بالخارج في هذه الساعة المتأخرة.

توم رويس.

يستغل الحبل، والغطاء البلاستيكي، والمنشار الذي ابتاعه في وقت سابق من اليوم على أكمل وجه.

****

أستيقظ مجددًا في الثامنة صباحًا، وفمي كأنه محشو بالقطن، وغثيان يقلب معدتي. لا جديد في ذلك. الجديد هو تلك اللكمة من القلق على مصير كاثرين التي سددت إلى بطني، وتتجسد في الأفكار التي دهمتني بمجرد استعادتي للوعي.

إنها ميتة.

قتلها توم.

وهي الآن إما مدفونة في مكان ما على الضفة المقابلة للبحيرة، أو غارقة في أعماق المياه، لتغوص عميقًا حيث قد لا يُعثر عليها أبدًا.

تركني هذا في حالة من الذعر جعلت ساقيّ ترتعدان وأنا أنزل أدراجي إلى المطبخ، ويداي ترتجفان وأنا أصب كوبًا من القهوة. وأثناء شربها، استعنت بهاتفي لأتأكد من أن كاثرين، لا، لم تنشر أي صورة أخرى على (إنستغرام) منذ الأمس، وأجل، موقعها على تطبيق (ميكسر) لا يزال راسخًا على الضفة المقابلة تمامًا لمنزلي.

كلاهما نذير شؤم.

لاحقًا، وبعد أن أجبرت نفسي على ابتلاع وعاء من دقيق الشوفان والاستحمام، عدت أدراجي إلى الشرفة برفقة هاتفي، تحسبًا لاتصال ويلما آنسون، والمنظار، في حال ظهور توم رويس. مضت ساعة دون أن يُستخدم أي منهما. وحين رن هاتفي أخيرًا، خاب أملي إذ لم أسمع صوت ويلما، بل صوت أمي.

– «لقد تحدثت إلى مارني وأنا قلقة،» هكذا بادرتني قاطعةً كل المقدمات.

– «قلقة من أنني أتحدث إليها أكثر مما أتحدث إليكِ؟»

– «قلقة من أنك تتلصصين على جيرانك، ويبدو الآن أنكِ تتوهمين أن صديقتك العارضة الجديدة قد قُتلت على يد زوجها.»

سحقًا لـ مارني. شعرت بخيانتها حادة ومؤلمة كلسعة نحلة. وما زاد الطين بلة هو إدراكي بأن الأمر سيزداد إزعاجًا الآن بعد تدخل أمي.

قلتُ لها:

– «هذا لا يخصكِ. ولا يخص مارني أيضًا. أرجوكِ دعيني وشأني فحسب.»

أطلقت أمي شخرة متعالية:

– «بما أنكِ لم تنفي الأمر بعد، فأنا أفترض صحته.»

هناك طريقان للتعامل مع هذا الموقف. الأول هو تقديم النفي الذي تتوق إليه أمي بشدة. وكما هو الحال مع إدماني على الشرب، ستشكك في الأمر في البداية، لكنها ستوهم نفسها بصحته في النهاية لأنه المسار الأيسر. والثاني هو الاعتراف بالأمر ببساطة، آملة أن يعتريها اليأس كما حدث مع مارني وتدعني وشأني.

أخترت المسار الثاني.

– «أجل، أنا قلقة من أن يكون الرجل الذي يقطن عبر البحيرة قد قتل زوجته.»

– «يا إلهي يا كيسي. ما الذي أصابكِ؟»

لا ينبغي لها أن تبدو مصدومة إلى هذا الحد. فكرة نفيي إلى منزل البحيرة كانت فكرتها هي. من بين كل الناس، كان يجدر بأمي أن تدرك أنني سأثير المتاعب بعد أن تتركني وحيدة هنا لأتدبر أمري. رغم أنني، في قرارة نفسي، أرى أن تقصي ما حل بـ كاثرين هو مسعى نبيل.

– «إنها مفقودة وأنا أود مساعدتها.»

– «أنا متيقنة من أن كل شيء على ما يرام.»

انفجرت قائلة:

– «ليس كذلك. ثمة خطب جسيم يقع هنا.»

– «إن كان لهذا صلة بـ لين...»

– «لا علاقة له بهذا الأمر،» قلت، رغم أن الأمر برمته يدور حول لين. فما حل به هو الدافع الوحيد الذي يجعلني أتقبل فكرة أن مكروهًا مشابهًا قد ألمّ بـ كاثرين. فإذا حدث ذلك مرة، فمن السهل أن يتكرر.

قالت أمي:

– «ومع ذلك، من الأسلم أن تبقي نفسكِ خارج الصورة.»

– «هذا الخيار لم يعد مطروحًا. هناك شخص يقيم في منزل عائلة ميتشل يشاطرني الرأي ذاته. وقد أبلغنا بالفعل صديقة له تعمل كمحققة.»

– «أدخلتِ الشرطة في الأمر؟» بدا صوت أمي وكأنها على وشك الإصابة بنوبة إغماء، أو إسقاط الهاتف، أو الانهيار من هول الصدمة. وربما الثلاثة معًا. «هذا... هذا لا يبشر بخير يا كيسي. لقد بعثتكِ إلى هناك لتتوارى عن أنظار العامة.»

– «وهو ما أفعله.»

انخفض صوت أمي إلى همس متوسل:

– «ليس حين تحوم الشرطة بالجوار. أرجوكِ، لا تنخرطي أكثر من ذلك. انأى بنفسكِ وحسب.»

لكنني أعجز عن تلبية طلبها، حتى لو أردت ذلك. فبينما كانت أمي تتحدث، لفت انتباهي شيء على الضفة المقابلة.

توم رويس.

بينما كان يخطو عبر الفناء قاصدًا سيارة الـ (بنتلي)، رفعت المنظار وتلاشى صوت أمي ليصبح مجرد ضوضاء خلفية. انصب تركيزي بالكامل على توم، متفحصة إياه بحثًا عن أي تصرف قد يثير الريبة. هل مشيته البطيئة والمسترخية نحو السيارة مجرد مسرحية لأنه يدرك أنه تحت المراقبة؟ هل النظرة القاتمة التي تكسو وجهه مردها لرحيل زوجته؟ أم لأنه يتفكر في كيف رفض السماح لها بالرحيل؟

واصلت أمي حديثها، وصوتها يبدو وكأنه يأتي من على بُعد ألف ميل:

– «كيسي؟ هل تصغين إليّ؟»

استمررت في التحديق عبر الماء بينما انزلق توم خلف مقود الـ (بنتلي) وأخرجها من تحت الرواق. وحين انعطفت السيارة يسارًا، قاصدة البلدة، قلت:

– «أمي، يجب أن أذهب.»

– «كيسي، انتظري...»

أغلقت الخط قبل أن تكمل. وأنا أحدق في منزل عائلة رويس الخاوي الآن، طافت بذهني ذكرى آخر عيد ميلاد احتفلت به مع لين. (الخامس والثلاثون الكبير). واحتفاءً بذلك، استأجر صالة سينما بأكملها ليتسنى لي أخيرًا تحقيق حلمي بمشاهدة فيلم (النافذة الخلفية) على الشاشة الفضية.

لو كانت أمي لا تزال على الخط، لأخبرتني أن ما أفعله ليس سوى لعب أدوار. أتقمص شخصية (جيمي ستيوارت) في كرسيه المتحرك لأن حياتي البائسة تفتقر لأي حدث ذي مغزى. ورغم أن هذا ربما يكون أقرب للحقيقة مما أود الاعتراف به، إلا أن هذه ليست مجرد مسرحية.

إنه واقع. إنه يحدث الآن. وأنا جزء منه.

لكن هذا لا يمنعني من استلهام خطوة من صديقنا العزيز (جيمي). في الفيلم، دفع بـ (غريس كيلي) لتفتيش شقة جاره المريب، لتعثر على خاتم الزواج الذي أثبت إدانته بقتل زوجته. ورغم اختلاف الزمن، وجهلي بما إن كان خاتم زواج كاثرين سيكون دليلًا كافيًا لـ ويلما آنسون، إلا أنني أرجح أن شيئًا آخر في ذلك المنزل سيفي بالغرض.

وبحلول الوقت الذي توارت فيه سيارة توم الـ (بنتلي) عن ناظري، كان الهاتف قد استقر مجددًا في جيبي، واحتل المنظار مكاني في الكرسي الهزاز، وانطلقت أنا بخطى حثيثة مغادرة الشرفة.

أثناء غيابه، لا أعتزم الاكتفاء بمجرد مراقبة منزل عائلة رويس.

بل أنوي تفتيش المكان بأسره.

***

عوضًا عن شق عباب البحيرة بالقارب – وهو الخيار الأسرع والأيسر – آثرت المشي عبر الطريق الحصوي الذي يطوق بحيرة جرين. فالطريق غارق في سكون تام وأقل لفتًا للانتباه من القارب، الذي قد يفضح أمري صوته ومرآه لـ توم إن عاد، لا سمح الله، بينما لا أزال هناك واضطررت لفرار سريع.

علاوة على ذلك، يمنحني المشي فرصة لتصفية ذهني، وترتيب أفكاري، وإن أردت الصدق التام، العدول عن قراري.

الطريق، الذي يضيق في بعض أجزائه وتصطف الأشجار على جانبيه حتى ليكاد يبدو كممر خفي، يدعو للتأمل. وبينما أخطو، والبحيرة تتلألأ من بين الأشجار عن يساري، والغابة الكثيفة ترتفع عن يميني، كان ما يجول في خاطري هو أن اقتحام منزل رويس فكرة سيئة.

سيئة للغاية.

بل هي الأسوأ على الإطلاق.

أتوقف حين أبلغ الزاوية القصوى شمالي البحيرة، في قلب الانحناء الذي يتخذ شكل حدوة حصان، والفاصل بين منزل إيلي ومنزل عائلة ميتشل، حيث ينزل بون. أتساءل عما قد يقولانه إن علما بما أعتزم فعله. سيقولان إنه غير قانوني، على الأرجح. وإن الاقتحام والتسلل جريمة، حتى وإن كانت نواياي نبيلة. أما بون، الشرطي السابق، فسيطرح قائمة تطول لأكثر من دزينة تهم سأواجهها إن أُلقي القبض عليّ. ولن يتردد إيلي في التنويه بأن ما أوشك على الإقدام عليه محفوف بالمخاطر أيضًا. فـ توم رويس سيعود عاجلًا أم آجلًا.

في الأفق البعيد عبر الماء، عند الطرف الجنوبي للبحيرة تحديدًا، ألمح المنحدر الصخري حيث استمتعنا، لين وأنا، بنزهتنا المسائية قبل وفاته بأسبوع. وفي المياه بالأسفل، يبرز (العنيد العجوز) من السطح. ولطبيعة موقعه، تستحيل رؤية الشجرة العتيقة من أي من المنازل المطلة على بحيرة جرين، ولعل هذا هو السر وراء مكانتها الأسطورية.

حارس البحيرة، كما يسميه إيلي.

حتى وإن كان محقًا وكان (العنيد العجوز) يكلأ بحيرة جرين بعنايته، فإن قدراته تظل محدودة. فهو لا يستطيع، على سبيل المثال، اقتحام منزل رويس والبحث عن أدلة.

وهذا يترك المهمة ملقاة على عاتقي.

ليس رغبة مني.

بل لأنني مضطرة لذلك.

خاصة إن كان العثور على دليل إدانة بالداخل هو طريقي الوحيد لإقناع ويلما بأن توم ينسج الأكاذيب حول كاثرين.

أستأنف المشي، بخطى أسرع من ذي قبل، ولا أبطئ حتى أتجاوز منزل إيلي ويلوح منزل آل رويس في الأفق. واجهته الأمامية تناقض تمامًا واجهته الخلفية. فلا جدران زجاجية ممتدة من الأرض إلى السقف هنا. بل مجرد كتلة عصرية من الصلب والحجر، تتخللها شرائح ضيقة من النوافذ في كلا الطابقين.

الباب الأمامي، المصنوع من خشب البلوط والضخم بما يكفي لبوابة قلعة، موصد بإحكام، مما يجبرني على الالتفاف حول جانب المنزل وتجربة باب الفناء الخلفي. كنت أود تجنب خطر افتضاح أمري من ضفتي من البحيرة. آمل أن يكون بون منشغلًا بعمله داخل منزل عائلة ميتشل، وألا يكون جالسًا على الرصيف، يراقب هذا المكان بالولع ذاته الذي تملكني.

أعبر الفناء بخفة، متجهة مباشرة نحو الباب الزجاجي المنزلق المفضي إلى الداخل. أسحبه، فيفتح الباب غير الموصد ليصنع شقًا صغيرًا.

رؤية تلك الفجوة البالغة بوصتين بين الباب وإطاره تجعلني أتوقف للحظة. رغم جهلي بتفاصيل قانون العقوبات في فيرمونت، لست بحاجة لـ بون ليخبرني بأن ما أوشك على اقترافه يخالف القانون. لا يرقى الأمر لدرجة الاقتحام والتسلل بفضل الباب غير الموصد. وبما أنني لا أنوي سرقة أي شيء، فلا يمكن اعتباره سطوًا. لكنه يظل انتهاكًا للحرمة، وسيسفر على الأقل عن غرامة والمزيد من العناوين الصحفية المروعة إن أُلقي القبض عليّ.

لكن صورة كاثرين تقفز إلى ذهني. وكيف كذب توم – بصفاقة تامة – بشأن مكانها. وأدرك أنني إن لم أتحرك الآن، فلن يتحرك أحد. ليس حتى يغدو الوقت متأخرًا. هذا إن لم يكن قد فات الأوان بالفعل.

لذا أسحب الباب ليفتح قليلًا، وأنسل للداخل، وأغلقه خلفي بسرعة.

في الداخل، أول ما يأسر نظري هو الإطلالة من النوافذ الممتدة بحجم الجدار والمطلة على البحيرة. وتحديدًا، كيف يبدو منزل عائلتي الريفي المتهالك بسحره الخاص من هذه الزاوية. يبدو ضئيلًا، وبعيدًا للغاية. وبفضل ظلال الأشجار المحيطة به، بالكاد أستطيع تمييز صف النوافذ في غرفة النوم الرئيسية أو أي شيء في الشرفة الخلفية يتجاوز السياج. لا كراسي هزازة. ولا طاولة تتوسطها. وقطعًا لا منظار. قد يكون أحدهم جالسًا هناك الآن، يراقبني من الضفة المقابلة، ولن يكون لدي أدنى فكرة.

ومع ذلك، كانت كاثرين تعلم أنني أراقب. في الليلة الأخيرة التي رأيتها فيها، وقبل أن ينتزعها توم بعنف من هذه البقعة بالذات، حدقت مباشرة نحو تلك الشرفة، مدركة وجودي هناك، أراقب المشهد بأسره. آمل أن يكون ذلك قد بعث فيها بعض المواساة. لكن أخشى أن يكون قد أورثها الفزع الذي يجتاحني الآن. أشعر وكأنني في

حوض سمك مكشوف، وكل حركة لي مفضوحة. يغمرني شعور بالهشاشة لم أتوقعه ولا أستسيغه.

والذنب. الكثير من الذنب.

فاليوم ليست المرة الأولى التي ألج فيها منزل آل رويس.

فمن خلال مراقبتي شبه المستمرة، يمكن القول إنني كنت أفعل ذلك منذ أيام.

ورغم يقيني الراسخ في أعماقي بأن أحدًا لم يكن ليدرك الخطر المحدق بـ كاثرين لولا مراقبتي لهما، إلا أن حرارة الخجل تكسو وجنتيّ بأقوى من أشعة الشمس المتسللة عبر النوافذ.

ولا يزال وجهي يشتعل بينما أقرر وجهتي الأولى للتفتيش. بفضل تلك الزيارة البعيدة وساعات التلصص الأخيرة، أنا ملمة تمامًا بتخطيط المنزل. غرفة المعيشة المفتوحة تحتل نصف الطابق الأول بأكمله، من الواجهة حتى الخلف. وبما أنها تبدو لي المكان الأقل ترجيحًا للعثور على أي دليل إدانة، أجتاز غرفة الطعام وأتجه نحو المطبخ.

وكحال بقية المنزل، يطغى عليه طابع منتصف القرن الحديث مع لمسة إسكندنافية مبسطة، وهو طراز يكتسح برامج (إتش جي تي في) التي أتابعها أحيانًا حين أكون ثملة ويجافيني النوم في جوف الليل. أجهزة من الفولاذ المقاوم للصدأ. وبياض يكسو كل زاوية أخرى. وبلاط (مترو) لامع يغطي الجدران بوفرة.

وعلى النقيض من تلك البرامج الاستعراضية، يحمل مطبخ عائلة رويس آثار استخدام متكرر وفوضوي. بقع طعام متعددة الألوان تلطخ الرخام. صينية على الجزيرة الوسطى تحمل وعاءً وملعقة تكسوهما بقايا شوفان جاف. وعلى الموقد، وعاء بقاع تلتصق به بقايا حساء. ومن الغشاء اللبني الذي يكسوه، أُخمن أنه حساء كريمة الفطر، أُعيد تسخينه الليلة الماضية. أفترض أن كاثرين كانت الطاهية في هذا الزواج،

وأن توم قد انحدر به الحال ليأكل كطالب جامعي متهور. لا يسعني سوى إطلاق حكمي عليه حين أسترق النظر إلى سلة المهملات وألمح علبًا فارغة لوجبات مكسيكية سريعة التحضير في الميكروويف ووجبات (لين كويزين). فحتى في أقصى حالات ثمالتي وكسلي، لم أكن لألجأ قط إلى البوريتو المجمد.

أما ما لم تقع عليه عيناي – لا في سلة المهملات ولا في أي زاوية أخرى من المطبخ – فهو أي أثر لحدث مروع وقع هنا. لا قطرات دماء وسط بقع الطعام. لا سكين حاد أو منشار معادن أو أي نوع من الأسلحة يجف في غسالة الأطباق. حتى رسالة وداع من كاثرين، كما تنبأت مارني، لم يكن لها أثر.

وبعد أن تيقنت من خلو المكان مما يستدعي التوقف، أجريت جولة سريعة في أرجاء الطابق الأول – غرفة مشمسة أنيقة متفرعة من المطبخ، حمام ضيوف يفوح بعبق الخزامى، وبهو المدخل – قبل أن أصعد إلى الطابق العلوي.

كانت محطتي الأولى في الطابق الثاني هي الغرفة الوحيدة المحجوبة عن النوافذ المترامية الأطراف في الواجهة الخلفية للمنزل – غرفة الضيوف. بدت فاخرة، متباهية بسرير ضخم، ومساحة جلوس، وحمام ملحق يبدو وكأنه صالة منتجع صحي. كل شيء فيها مهندم، ونظيف، وممل حد التثاؤب.

وانسحب الأمر ذاته على غرفة الرياضة، رغم أنني تفحصت رف الأوزان الحرة باحثة عن آثار دماء جافة تحسبًا لاستخدام أي منها كسلاح. كانت خالية من الشوائب، مما بعث في نفسي مزيجًا من الارتياح والانزعاج الخفيف لتبادري أصلًا فكرة تفحصها.

وبعد ذلك، اتجهت نحو غرفة النوم الرئيسية، حيث أثارت رؤية منزلي عبر النوافذ العملاقة وخزة ذنب أخرى، مذكرة إياي بأنني راقبت كاثرين وتوم في أقدس أروقة خصوصيتهما. وما زاد الطين بلة هو حقيقة تواجدي الآن داخل ملاذهما، أستكشفه بعين لص متمرس.

لم ألمح في الغرفة ذاتها ما يثير الريبة من النظرة الأولى، سوى سرير غير مرتب، وزوج من سراويل توم الداخلية ملقى بإهمال على الأرض، وكأس زجاجية فارغة على منضدته. احترت أيهما أشد بؤسًا – أن تلصصي قد منحني سلفًا معرفة جانب السرير الذي يخص توم، أم أن شمة واحدة للكأس الزجاجية أكدت لي على الفور أنه كان يعاقر الويسكي.

وحين طوقت السرير وتفحصت منضدة كاثرين، اصطدمت بأول علامة تثير الشك. وعاء صغير بلون علب (تيفاني) يستقر بجوار مصباح السرير. وفي قاعه تقبع قطعتان من المجوهرات.

خاتم خطوبة ودبلة زواج.

أعاد لي المشهد فورًا ذكرى فيلم (النافذة الخلفية) و(غريس كيلي) كما بدت عبر عدسة المقربة لـ (جيمي ستيوارت)، وهي تبرز خاتم زواج السيدة (ثوروالد) القتيلة. في عام 1954، كان ذلك بمنزلة دليل دامغ. أما اليوم، فلا يثبت شيئًا. هكذا كانت ويلما آنسون لتقول لي.

وفي هذه الحالة، أميل لمشاطرتها الرأي. فلو كانت كاثرين قد هجرت توم بالفعل، أليس من البديهي أن تترك خواتمها خلفها؟ الزواج قد انتهى. وهي تروم بداية جديدة. ولا حاجة لها بالاحتفاظ بمجوهرات ترمز لاتحادهما التعيس. علاوة على ذلك، أعلم من لقائنا الأول الدرامي أن كاثرين لا ترتدي دبلة زواجها بصفة دائمة.

ومع ذلك، يظل الأمر مثيرًا للريبة بما يكفي لأستل هاتفي من جيبي وألتقط بضع صور للخواتم المستقرة في المنحنى الرقيق للوعاء. أبقيت الهاتف في يدي وأنا أختلس النظر إلى الحمام، الذي بدا أوسع وأكثر إيحاءً بأجواء المنتجعات الصحية من ذلك الملحق بغرفة الضيوف. وكحال كل زاوية أخرى، لم يكن يشي سوى بأن توم رويس رجل فوضوي حين يُترك لحاله. الدليل الأول: المنشفة المكومة بجوار الحوض. الدليل الثاني: زوج آخر من السراويل الداخلية على الأرض. هذه المرة، أعفيت نفسي

من إصدار الأحكام. فلو اقتحم أحدهم غرفة نومي في هذه اللحظة، لوجد ملابس الأمس مكومة في أسفل السرير وحمالة صدر ملقاة بلامبالاة على ظهر الكرسي الوثير في الزاوية.

انتقلت من الحمام إلى خزانة الملابس المبنية في الحائط. كانت فسيحة ومرتبة، وتكسو جدرانها شبكة متقنة من الأرفف، وأعمدة التعليق، والأدراج. لا شيء يبدو مفقودًا، وهو إدراك بعث في نفسي موجة قلق متجددة. أثناء تجوالي في أرجاء المنزل، كنت أتقبل رويدًا رويدًا فكرة أن كاثرين ربما تكون قد حزمت أمرها وغادرت ببساطة، دون أن تترك لـ توم أي خيط يدل على وجهتها. لكن كل هذه الملابس، التي تحمل علامات (غوتشي)، و(ستيلا مكارتني)، وبلمسة طبيعية منعشة، (إتش آند إم)، تشير إلى عكس ذلك. وكذا طقم الحقائب المتطابق المركون في الزاوية، والذي كنت لأظنه ملكًا لـ توم لولا أن البطاقات المتدلية من مقابضه تحمل اسم كاثرين.

رغم تفهمي لفكرة ترك خاتمي خطوبتها وزواجها، إلا أن كاثرين حتمًا كانت لتأخذ بعض ملابسها معها. غير أن الخزانة تغص بأغراضها، لدرجة أنني بالكاد لمحت شماعة واحدة فارغة ومساحة خالية يتيمة على الأرفف.

حين غادرت كاثرين – هذا إن كانت قد غادرت أصلًا – لم تحمل معها سوى الثياب التي كانت ترتديها.

شرعت في فتح الأدراج، فتكشفت لي سترات مطوية بعناية، وقمصان قطنية وملابس رياضية، وملابس داخلية تشكل قوس قزح من الألوان.

وهاتف.

كان محشورًا في عمق درج الملابس الداخلية لـ كاثرين، يكاد يتوارى خلف زوج من سراويل (فيكتوريا سيكريت) الداخلية. رؤيته أعادت إلى ذهني تطبيق (ميكسر) والمثلث الأحمر الذي يشير إلى موقع كاثرين.

التقطت صورة له باستخدام هاتفي، ثم مررت عبر سجل مكالماتي حتى عثرت على رقم كاثرين. وفي اللحظة التي ضغطت فيها على زر الاتصال، بدأ الهاتف في الدرج بالرنين. أزحت السراويل الداخلية جانبًا حتى أمكنني رؤية رقمي مضاءً على شاشته. وأسفله، توقيت آخر اتصال أجريته بها.

أمس. الواحدة ظهرًا.

تركت الهاتف يرن حتى انطلقت رسالة بريدها الصوتي.

«مرحبًا، لقد وصلتَ إلى كاثرين.»

تسارعت نبضات القلق في عروقي. كل ما جلبته كاثرين معها – هاتفها، ملابسها، مجوهراتها – لا يزال قابعًا هنا. الشيء الوحيد المفقود هو كاثرين ذاتها.

التقطت هاتفها، مستعينة بزوج من السراويل الداخلية لتجنب تلطيخ الشاشة ببصماتي. شكرًا لدوري كضيفة في مسلسل (القانون والنظام).

كان الهاتف موصدًا برمز مرور، بالطبع. ولم يبح بأي معلومة سوى ما تتيحه شاشة القفل. الوقت، والتاريخ، وما تبقى من روح في بطاريته. قليل جدًا، على ما يبدو. كان هاتف كاثرين يلفظ أنفاسه الأخيرة، مما ينبئني بأنه لم يُشحن ليوم كامل على الأقل، وربما أكثر.

أعدت الهاتف إلى مخبأه، تحسبًا لمراقبة توم له. لا حاجة لتنبيهه بوجودي. أغلقت الدرج وكنت على وشك مغادرة الخزانة حين استأنف هاتف كاثرين رنينه، وصوته مكتوم داخل الدرج.

عدت أدراجي، وسحبت الدرج بقوة، لألمح رقم هاتف يضيء باللون الأبيض على خلفية الشاشة السوداء. وكحالي، لم تكن كاثرين ترى في المتصل شخصًا مقربًا بما يكفي لحفظ رقمه.

لكن المتصل سبق له المحاولة.

وبجوار الرقم، كان هناك تذكير بآخر مرة اتصل فيها.

هذا الصباح.

ولأن الرد كان ضربًا من المستحيل، أخرجت هاتفي بسرعة والتقطت صورة للرقم المضيء على شاشة هاتف كاثرين قبل أن ينهي المتصل المكالمة. قد يكون من المفيد الاتصال به لاحقًا. ربما هو الآخر يبحث عن كاثرين. وربما يتقاسم معي ذات القلق.

دسست هاتفي في جيبي، وأغلقت الدرج، وغادرت الخزانة. بعدها، خرجت من غرفة النوم إلى ردهة الطابق الثاني، قاصدة الغرفة الوحيدة التي لم تُفتش بعد.

المكتب المنزلي. معقل توم بامتياز. طغت على أثاثه لمسة ذكورية واضحة. أخشاب داكنة وزجاج وافتقار تام لأي بصمة شخصية. ثمة رف يحمل أدوات حانة عتيقة تتناغم مع اسم تطبيقه، وخزانة كتب تغص بعناوين تميل إلى الطموح في عالم الأعمال. وعلى قمة الرف، داخل إطار فضي، تستقر صورة زفاف توم وكاثرين ذاتها التي رأيتها قبل سنوات في مجلة (بيبول).

وبجوار النافذة، يتربع مكتب ذو سطح زجاجي يعتليه حاسوب توم رويس المحمول. كان مغلقًا الآن، منبسطًا ومدمجًا ككتاب مصور. انزلقت نحوه، مسترجعة الليلة التي راقبت فيها كاثرين عند هذا المكتب، مستغرقة في استخدام هذا الحاسوب بالذات. لا يسعني نسيان مدى دهشتها. صدمة كانت جليّة حتى عبر عدسات المنظار ومن على بُعد ربع ميل. وأذكر أيضًا ارتباكها الذي بالكاد أفلحت في إخفائه حين تجلى توم عند عتبة الباب.

حامت يدي فوق الحاسوب وأنا أتردد بين فتحه واستكشاف ما يحويه، وبين التراجع. فعلى نقيض هاتف كاثرين، لا سبيل لاستخدامه دون تلطيخه ببصماتي. صحيح أنه يمكنني مسحه بقميصي بعد الانتهاء، لكن ذلك سيمحو بصمات توم وكاثرين معه. وقد يُفسر هذا على أنه طمس للأدلة، وهو ما تمقته المحاكم عادة. درس آخر تعلمته من مسلسل (القانون والنظام).

ومن ناحية أخرى، قد يمثل هذا الحاسوب المفتاح الذي سيفك لغز ما ألمّ بـ كاثرين. فمجرد عرض صور هاتف كاثرين وخواتمها المتروكة لـ ويلما آنسون قد لا يشفع لاستصدار مذكرة تفتيش. وفي غضون ذلك، يمكن لـ توم بسهولة إخفاء ما يحتويه الحاسوب عن الأعين. ولن يكلفه الأمر سوى إلقاءة بسيطة في مياه بحيرة جرين.

وتلك الفكرة – غرق الحاسوب في قاع البحيرة المظلم والموحل – حسمت قراري بفتحه. إن لم ألقِ نظرة الآن، فقد لا يتسنى لأحد ذلك أبدًا.

فتحت الحاسوب، فانبعثت الحياة في شاشته، كاشفة عن خلفية تظهر بحيرة في أبهى حللها الصيفية. أشجار تكتسي بدرجة من الأخضر لا تُرى إلا في يوليو. وأشعة شمس تتراقص كغبار الجنيات على سطح الماء. وسماء زرقاء لدرجة تبدو وكأنها مرسومة بالكمبيوتر.

بحيرة جرين.

أستطيع تمييزها في أي مكان.

ضغطت على مسطرة المسافات، فتبخرت البحيرة لتحل محلها شاشة مكتب تغص بعلامات التبويب والأيقونات والمجلدات. زفرت أنفاسي بارتياح. كنت أخشى أن يكون الحاسوب مغلقًا برمز مرور كحال هاتف كاثرين.

ولكن، وقد أصبح الطريق ممهدًا، احترت في وجهتي الأولى. معظم المجلدات بدت مرتبطة بـ (ميكسر)، وتحمل أسماء مثل: (بيانات الربع الثاني)، (قائمة الإعلانات)، (النماذج الأولية 2.0). نقرت على بضعة منها، فطالعتني جداول بيانات، ومذكرات محفوظة، وتقارير مثقلة بمصطلحات الأعمال لدرجة كأنها مكتوبة باللغة السنسكريتية.

لم يلفت انتباهي سوى جدول بيانات واحد. يحمل تاريخًا يعود لثلاثة أشهر مضت، ويتألف من عمود من الأرقام، تكتسي جميعها باللون الأحمر. التقطت صورة

لشاشة الحاسوب رغم جهلي بما إن كانت تلك الأرقام تمثل دولارات أم مشتركين أم شيئًا آخر. فعدم إلمامي بدلالتها لا يعني أنها لن تكون ذات نفع لاحقًا.

أغلقت المجلد وبدأت أبحث عن تلك التي تبدو غير ذات صلة بتطبيق توم رويس. واخترت واحدًا يحمل اسمًا معبرًا.

كات.

وبداخله، وجدت المزيد من المجلدات، مصنفة بالسنوات وتغطي نصف عقد من الزمن. ألقيت نظرة سريعة في كل منها، فلم أجد صورًا لـ كاثرين من أيام عروض الأزياء فحسب، بل المزيد من جداول البيانات. واحد لكل سنة. وتصدر كل منها العنوان ذاته: (الأرباح). تصفحت بعضها، ولاحظت غياب اللون الأحمر تمامًا. فرغم اعتزالها عروض الأزياء، إلا أن كاثرين كانت تجني أموالًا طائلة. مبلغ يفوق بكثير تقديرات ذلك الموقع الإلكتروني الخاص بثروات المشاهير، ويتجاوز بأضعاف مضاعفة عائدات (ميكسر).

التقطت صورًا لجداول البيانات الخاصة بالسنوات الثلاث الأخيرة وانتقلت إلى متصفح الويب. وخلال ثانيتين ونقرة واحدة، وجدت نفسي أُحملق في سجل التصفح.

الجائزة الكبرى.

أدركت على الفور أن توم لم يقم بأي تصفح ملحوظ خلال اليومين الماضيين. لم تكن هناك أي عمليات بحث تثير الشبهات حول طرق التخلص من جثة أو أفضل مناشير المعادن لقطع العظام. فإما أن توم لم يلمس الحاسوب منذ اختفاء كاثرين، وإما أنه محا سجل التصفح الخاص بالثماني وأربعين ساعة الماضية.

أما سجل قبل ثلاثة أيام، فقد قدم كنزًا من المواقع المُزارة. بعضها، كالمقال الخاص بتطبيق (ميكسر) من مجلة (بلومبيرج بيزنس ويك) الذي وجدته سابقًا، بدا بوضوح من صنيع توم رويس. بينما أشارت مواقع أخرى، كقسم الأزياء في صحيفة

(نيويورك تايمز) ومجلة (فانيتي فير)، إلى بصمة كاثرين. وكذا فعلت عملية بحث مثيرة للاهتمام على (جوجل).

أسباب الغرق في البحيرات.

نقرت على الرابط وطالعتني قائمة مقتضبة بالأسباب، شملت السباحة الانفرادية، التسمم، وركوب القوارب دون سترة نجاة. وهذا السبب الأخير أعادني بالذاكرة إلى لين. كما أوقد في نفسي رغبة عارمة في النزول واحتساء مشروب قوي من حانة غرفة المعيشة.

سعيت جاهدة لطرد تلك الفكرة والرغبة، فنفضت جسدي قليلًا ومضيت قدمًا. انتقلت إلى (جوجل) وتفحصت أحدث المواضيع التي بُحث عنها عبر الحاسوب، لأجد المزيد حول الغرق والمياه.

السباحة ليلًا.

الأشباح في الانعكاسات.

البحيرات المسكونة.

تسللت تنهيدة من شفتي. يبدو أن قصة نار المخيم التي سردها إيلي قد دفعت توم أو كاثرين للهرولة نحو (جوجل). بل إن أحدهما غاص في بحث مكثف قبل أيام معدودة. وإلى جانب المواضيع المتعلقة بالبحيرة، وجدت عمليات بحث عن نتائج (بطولة العالم للبيسبول)، وتوقعات الطقس، ووصفات (الباييلا).

غير أن موضوعًا واحدًا جمدني في مكاني.

النساء المفقودات في فيرمونت.

لِمَ قد يكترث توم أو كاثرين بأمر كهذا بحق السماء؟

وأنا غارقة في صدمتي، هممت بالنقر على الرابط حين استرعى انتباهي اسم تحته مباشرة.

اسمي.

لم تكن رؤية اسمي في سجل التصفح مفاجئة. فأنا موقنة بأن الكثير من الغرباء قد بحثوا عني عبر (جوجل) في العام الماضي. ومن المنطقي أن يقدم جيراني الجدد على ذلك أيضًا. بل إنني أعلم سلفًا النتيجة الأولى التي ستظهر قبل أن أنقر عليها. وبالفعل، ظهرت صورة لي وأنا أعب من كأس مزدوج من الكوكتيل القديم، مصحوبة بالعنوان الذي سيطاردني على الأرجح لبقية حياتي.

«نوبة شرب كيسي.»

وأسفله، مقالات عن طردي من مسرحية (ذرة شك)، وصفحتي على موقع (قاعدة بيانات الأفلام على الإنترنت)، ونعي لين في صحيفة (لوس أنجلوس تايمز). وقد نُقر على جميع هذه الروابط، مما يؤكد أن توم أو كاثرين كان ينبش في ماضيي.

أما ما ليس جليًا، فهو أيهما فعل ذلك.

ولماذا.

وعندما عدت إلى سجل التصفح في محاولة لاستجلاء الأمر، لاحظت اسمًا مألوفًا آخر قد أُدخل في محرك بحث (جوجل).

بون كونراد.

أسفر البحث عن مقال حول وفاة زوجته. وبقراءته، اكتشفت حقيقتين مدهشتين. الأولى أن بون هو بالفعل اسمه الحقيقي. والثانية أنه كان شرطيًا في أقرب مركز شرطة لبحيرة جرين. أما باقي تفاصيل المقال فطابقت تمامًا ما رواه لي يوم أمس. عاد إلى المنزل من عمله، ووجد زوجته ملقاة أسفل الدرج، واستدعى المسعفين الذين أعلنوا وفاتها. وصُرح قائد الشرطة – رئيس بون – بأن الحادثة كانت عرضية ومأساوية. نهاية القصة.

واصلت البحث، وتيقنت أن الأمر لم يقتصر على سكان البحيرة فحسب. بل وجدت أيضًا عملية بحث عن شخص لم أسمع به قط: هارفي بروير.

وأدى النقر عليه إلى ظهور عدد هائل من النتائج. اخترت النتيجة الأولى – مقال نُشر قبل عام في إحدى صحف بنسلفانيا يحمل عنوانًا مروعًا.

«رجل يعترف بتسميم زوجته ببطء.»

قرأت المقال، ومع كل جملة كانت نبضات قلبي تتسارع. اتضح أن هارفي برويز، ساعي بريد في الخمسينيات من عمره من شرق ستراودسبورغ، سقطت زوجته روث، التي كانت في الأربعينيات، ميتة فجأة إثر نوبة قلبية داخل أحد متاجر (وول مارت).

ورغم أنها كانت في صحة جيدة – «لائقة بدنيًا ككمان»، كما وصفتها إحدى صديقاتها – إلا أن وفاتها لم تكن مفاجأة تامة. فقد أفاد أشقاؤها للشرطة بأنها كانت تشكو من نوبات ضعف ودوار مفاجئة في الأسابيع التي سبقت وفاتها. «قالت إنها لم تكن تشعر بأنها على طبيعتها»، هكذا صرحت إحدى شقيقاتها.

ولأن هارفي كان سيورث مبلغًا ماليًا كبيرًا بعد وفاتها، راودت أسرة روث شكوك بوجود شبهة جنائية. وكانوا محقين. كشف تشريح الجثة عن وجود آثار ضئيلة لـ (البريملادين)، وهو مكون شائع في سم الفئران، في نظام روث. ويعمل البريملادين، وهو منبه يصفه بعض الخبراء بـ «كوكايين السموم»، على تسريع معدل ضربات القلب. وفي القوارض، يكون الموت فوريًا. أما في البشر، فيستغرق وقتًا أطول بكثير.

وحين استجوبت الشرطة هارفي، انهار فورًا واعترف بتدسيس جرعات مجهرية من البريملادين لزوجته لأسابيع. هذا السم، الذي كان يدسه يوميًا في طعامها وشرابها، أضعف قلب روث حتى توقف تمامًا. وادعى هارفي أن الفكرة استلهمها من مسرحية في برودواي شاهداها معًا خلال رحلة حديثة إلى نيويورك.

(ذرة شك).

يا.

إلهي.

كان هارفي برووير ضمن جمهور مسرحيتي. رآني على المسرح، أجسد دور امرأة تدرك تدريجيًا أن زوجها يسممها ببطء. جلس في ذلك المسرح المظلم، يتساءل عما إذا كان يمكن تطبيق ذلك في الحياة الواقعية. واتضح أنه ممكن. وكاد يفلت بفعلته.

وبحلول الوقت الذي بلغت فيه نهاية المقال، بدأت لحظات مختلفة جمعتني بـ كاثرين تتوالى في مخيلتي كعرض شرائح.

طافية في البحيرة، هامدة، وشفتيها بلون أزرق جليدي.

(بدا الأمر وكأن جسدي بأسره توقف عن العمل،) هكذا وصفت الأمر لاحقًا.

منهارة في كرسي هزاز، تعاني من آثار الخمر.

(لست على طبيعتي مؤخرًا.)

مترنحة إثر كأسين فقط من النبيذ.

(لا أشعر أنني بخير.)

أما الليلة التي قضيناها بجوار النار، فهي التي تستحوذ على تفكيري بقوة، حيث بدأت تفاصيل بدت صغيرة حينها تتضخم الآن محملة بمعاني عميقة.

توم وهو يخبرني بمدى روعتي في مسرحية (ذرة شك).

إصراره على سكب النبيذ، وفعله ذلك بظهره موجهًا إلينا، كي لا نرى ما يفعله.

مناولته الكؤوس لكل منا بحرص، وكأنها مخصصة لنا تحديدًا.

ابتلاع كاثرين لكأسها دفعة واحدة، وحصولها على كأس أخرى من زوجها.

تسمرت في مكاني لثانية، عاجزة عن النطق. كان الإدراك كوميض كاميرا قديمة الطراز ينفجر في وجهي. أبيض، وساطع، ومسبب للعمى. ومترنحة من هول

الصدمة، أغمضت عينيّ وتساءلت عما إذا كان ما حل بـ روث برووير قد طال كاثرين أيضًا.

بدا الأمر منطقيًا تمامًا، كما تتضح صورة اللغز حين تستقر كل القطع في أماكنها الصحيحة. شاهد توم مسرحية (ذرة شك)، وكحال هارفي، بدأت التروس تدور في رأسه. أو لعل قصة جريمة هارفي برووير هي التي استرعت انتباهه أولًا، فدفعه الفضول لمشاهدة المسرحية بنفسه. لا سبيل لمعرفة الكيفية، أو السبب، أو التوقيت. ولا يهم ذلك. فـ توم قرر محاكاة كل من هارفي والمسرحية، فكان يدس لـ كاثرين جرعات ضئيلة من السم كلما تسنى له ذلك، مستنزفًا قواها حتى توقف كل شيء فجأة في يوم ما.

لكن كاثرين اكتشفت الأمر، والأرجح أنها فعلت ذلك بنفس الطريقة التي أتبعها الآن: بتصفح سجل بحث زوجها. هذا ما رأته في الليلة التي سبقت اختفائها.

وهذا ما يفسر نظرة الصدمة والفضول التي ارتسمت على وجهها حين راقبتها من الشرفة. جالسة على هذا الكرسي بالذات. وتحدق في هذا الحاسوب المحمول بالذات. مصدومة تمامًا كما أنا الآن.

وهو السبب وراء الشجار الذي نشب بينها وبين توم في وقت لاحق من تلك الليلة. فقد واجهته بمعرفتها لما يقترفه. وأنكر هو ذلك، وربما طالب بمعرفة مصدر فكرتها. كيف؟ مَن؟

وبحلول الفجر، كانت كاثرين قد تلاشت. فإما أن توم قد قتلها، أو أنها فرت هاربة، تاركة كل شيء خلفها. والآن، قد تكون مدفونة في أعماق الغابة، أو قابعة في قاع البحيرة، أو مختبئة في مكان مجهول. هذه هي الاحتمالات الوحيدة التي تتسع لها مخيلتي.

ويجب عليّ التوصل إلى الحقيقة.

وإقناع المحققة ويلما آنسون بمد يد العون.

أخرجت هاتفي مجددًا والتقطت صورة لشاشة الحاسوب المحمول، حيث كان المقال الذي يتناول قصة هارفي برووير غير مقروء، غير أن العنوان كان جليًا وواضحًا. كنت أتأهب لالتقاط صورة أخرى حين تناهى إلى مسامعي صوت مزعج من خارج المنزل.

إطارات تسحق الحصى.

إلى يميني نافذة توفر إطلالة من الجهة الجنوبية الغربية للمنزل. توجهت نحوها، فرأيت سيارة توم رويس ٦ـ (بنتلي) تتوارى تحت الرواق الجانبي.

تبًا.

اندفعت خارجة من غرفة المكتب، لكنني تسمرت في مكاني واستدرت عائدة حين أدركت أن الحاسوب المحمول لا يزال مفتوحًا. هرعت إلى المكتب، وأطبقت الحاسوب بعنف، وانطلقت مجددًا من الغرفة. توقفت في ممر الطابق الثاني، تائهة بين الخيارات. ففي غضون ثوانٍ، سيكون توم بالداخل. إن هرعت عبر الدرج الآن، فالأرجح أنه سيلمحني. قد يكون من الأفضل البقاء في هذا الطابق والاختباء في مكان لا يُرجح أن يدخله. وتبدو غرفة الضيوف الخيار الأمثل. يمكنني الزحف تحت السرير والانتظار حتى أوقن من قدرتي على الهرب دون أن يُكتشف أمري.

وهو ما قد يستغرق ساعات.

وفي الوقت ذاته، لم يطأ توم المنزل بعد. ربما انشغل بشيء ما في الخارج. ربما لا يزال أمامي متسع من الوقت لأهبط الدرج كالسهم وأتسلل من الباب الأمامي.

قررت المجازفة، ويرجع ذلك أساسًا إلى أن الاختباء هنا – وربما لفترة طويلة – لا يضمن ألا يجدني توم في النهاية. الخيار الأكثر أمانًا هو مغادرة المنزل.

الآن وفي التو.

وبلا تفكير سوى في الخروج من هنا بأقصى سرعة ممكنة، ركضت نحو الدرج.

ثم هبطت الدرج.

ثم نحو الباب الأمامي.

أمسكت بالمقبض وسحبته.

كان الباب موصدًا، وهي حقيقة كنت أعلمها سلفًا لكنها سقطت من ذاكرتي لسببين: الأول، أن عقلي كان مثقلًا بأمور أخرى، والثاني، أنني لم أقم بأمر كهذا من قبل قط.

وبينما كنت أمد يدي نحو القفل، تناهى إلى سمعي صوت باب آخر يُدفع ليُفتح.

الباب الزجاجي المنزلق في الجزء الخلفي من المنزل.

توم يدخل – وأنا على بُعد ثانية واحدة من الافتضاح. الباب الأمامي محاذٍ لغرفة المعيشة مباشرة. وإن توجه إلى أي مكان عدا غرفة الطعام أو المطبخ، فسيكتشف أمري. وحتى إن لم يفعل، فإن طقطقة القفل وصوت فتح الباب سينبئانه بوجودي.

استدرت بسرعة، مستعدة لمواجهته، وعقلي يدور في دوامة بحثًا عن عذر مقنع يبرر تواجدي داخل منزله. لكنني عجزت عن ذلك. فقد شل الذعر تفكيري تمامًا.

وبينما مرت ثانية، ثم أخرى، أدركت أنني لم أسمع صوت إغلاق الباب المنزلق أو خطوات توم داخل المنزل. بل ما سمعته، محمولًا على نسيم الخريف المتدفق عبر ذلك الباب الذي لا يزال مشرعًا، كان صوت تلاطم المياه على الشاطئ، وهدير قارب يرسو عند رصيف آل رويس، وصوت مألوف ينادي باسم توم.

بون.

تسمرت عند الباب، أترقب ما يثبت أن توم لا يزال في الخارج. وتأكدت من ذلك حين سمعت بون، الذي يقف الآن في الفناء الخلفي، يسأله عما إذا كان بحاجة لأي إصلاحات في المنزل.

– «قلت لنفسي أن أسألك، بما أنني أوشكت على الانتهاء من عملي في منزل عائلة ميتشل.»

رد توم:

– «أنا بخير. كل شيء يبدو في...»

لم ألقِ بالًا لبقية حديثه، فقد كنت منشغلة بفك القفل وجذب الباب بقوة ليُفتح. وما إن وطأت قدماي الخارج، حتى أقدمت على التصرف الوحيد الذي بدا منطقيًا.

الركض.

***

بفضل قاربه، سبقني بون في العودة إلى ضفتنا من البحيرة. ورغم توقفي عن الركض بمجرد تجاوزي لمنزل إيلي، إلا أنني كنت لا أزال ألهث حين رأيته ينتظرني في منتصف الطريق، عاقدًا ذراعيه على صدره كأب حانق.

بادرني بون فور اقترابي:

– «ما اقترفته هناك كان حماقة وتهورًا. لكان توم قد أمسك بكِ لولا أنني قفزت إلى قاربي واعترضت طريقه.»

– «وكيف لك أن تعرف أنني هناك؟»

أدركت الإجابة وهي تقبع في يده اليمنى.

المنظار.

ناولني إياه قائلًا:

– «استعرته بعدما رأيتكِ تجتازين المنزل. حزرت وجهتك، فهرعت إلى شرفتكِ لأراقب الوضع.»

– «ولمَ لم تمنعني من الذهاب؟»

– «لأنني كنت أفكر في الإقدام على ذلك بنفسي.»

– «لكنك وصفت الأمر للتو بالحماقة والتهور.»

– «لقد كان كذلك بالفعل،» قال بون. «لكن هذا لا ينفي كونه ضرورة. هل عثرتِ على شيء؟»

– «الكثير.»

استأنفنا مسيرنا، مجتازين منزل ميتشل في طريقنا إلى منزلي. كنا نمشي كتفًا بكتف، بينما تتراقص حولنا أوراق الخريف بألوانها النارية، في مشهد كان ليكون

ساحرًا – بل ورومانسيًا – لولا قتامة الموضوع الذي يجمعنا. أطلعت بون على حقيقة بقاء خواتم كاثرين وهاتفها وملابسها في غرفة نومها، قبل أن أسرد له ما وجدته على حاسوب توم، بما في ذلك قصة هارفي برويز.

قلتُ:

– «لقد كان توم يسممها ببطء. تمامًا كما فعل ذلك الرجل بزوجته. أنا موقنة من ذلك. كاثرين أسرت لي بأنها لم تكن تشعر بخير. كانت تنتابها نوبات وهن وتعب مفاجئة.»

– «إذن تظنين أنها فارقت الحياة؟»

– «أظن أنها اكتشفت الأمر. وأرجو من قلبي أنها قد فرت. لكن ثمة احتمال...»

أومأ بون برأسه بوقار، ولا ريب أنه كان يستحضر في ذهنه الغطاء البلاستيكي، والحبل، ومنشار المعادن.

– «أن توم أدركها قبل أن تفعل.»

قلتُ:

– «لكننا نملك الدليل الآن.» أخرجت هاتفي وشرعت في استعراض الصور التي التقطتها. «أرأيت؟ هذا مقال هارفي برويز، محفوظ على حاسوب توم الشخصي.»

– «هذا ليس كافيًا يا كيسي.»

توقفت في منتصف الطريق المفروش بأوراق الخريف، تاركة بون يبتعد بضع خطوات قبل أن يدرك أنني لم أعد بجانبه.

– «ماذا تعني بأنه ليس كافيًا؟ لدي صور لهاتف كاثرين وملابسها، ناهيك عن دليل قاطع يثبت قراءة زوجها عن رجل أقدم على قتل زوجته.»

قال بون:

– «ما أقصده هو أن هذا لم يتم بالطرق القانونية. لقد حصلتِ على كل هذه الأشياء باقتحام منزلهما. وهي جريمة تفوق التجسس فداحة.»

قلت، وقد غلبت نبرة نفاد الصبر على صوتي:

– «وهل تعلم ما هو الأشد فداحة؟ التخطيط لقتل زوجتك.»

كنت لا أزال متسمرة في مكاني، مما اضطر بون للعودة ولف إحدى ذراعيه القويتين حول كتفيّ ليحثني على المشي مجددًا.

– «أنا أوافقكِ الرأي تمامًا،» قال. «لكن هكذا يطبق القانون. لا يمكنكِ إثبات ارتكاب أحدهم لجريمة باقترافك جريمة أخرى. للإيقاع به حقًا، نحن بحاجة إلى نوع من الأدلة – لا يكون قد جُمع بطرق غير مشروعة – قد يشير إلى وجود شبهة جنائية.»

ما لم ينطق به – لكنني استنتجته رغم ذلك – هو أن توم رويس، حتى اللحظة، كان بارعًا في محو آثاره. وصورة (إنستغرام) التي نشرها على حساب كاثرين دليل دامغ على ذلك. وبالتالي، من المستبعد أن يكون قد خلف وراءه دليلًا قاطعًا يسهل الوصول إليه قانونيًا.

توقفت مجددًا، هذه المرة شلني إدراك أنني أملك دليلًا في حوزتي.

لكنه لم يُترك من قِبل توم.

بل من صنيع كاثرين وحدها.

انطلقت مسرعة في الطريق مجددًا، بحركة مباغتة كوقوفي تمامًا. وعوضًا عن المشي، عدت إلى الركض، متجاوزة بون بمسافة كبيرة في طريقي إلى منزل البحيرة.

صاح من خلفي:

– «ماذا تفعلين؟»

لم أبطئ من سرعتي وأنا أرد عليه:

– «أحضر الدليل. وبطريقة قانونية!»

بمجرد عودتي إلى المنزل، توجهت مباشرة إلى المطبخ وسلة المهملات التي كان يفترض إفراغها قبل يوم، ولكن لحسن الحظ لم يحدث ذلك. انتصار نادر للكسل. نبشت في القمامة، وتغوص أصابعي في مناشف ورقية مبللة وكتل لزجة من الشوفان. وبحلول الوقت الذي لحق بي فيه بون، كنت قد قلبت السلة وأفرغت محتوياتها على الأرض.

وبعد دقيقة إضافية من البحث، عثرت على ضالتي.

قطعة مكسورة من كأس نبيذ.

رفعتها بانتصار نحو الضوء. كانت الزجاجة أكثر اتساخًا الآن مما كانت عليه حين وجدتها تلمع في الحديقة. فتات يعلو سطحها، وبقعة بيضاء قد تكون تتبيلة سلطة. أتمنى ألا يؤثر ذلك، لأن الغشاء الشبيه بالملح الجاف الذي لمحته سابقًا لا يزال موجودًا.

إن كان توم رويس قد دس شيئًا في نبيذ كاثرين تلك الليلة حقًا، فآمل أن تكون هذه القطعة الزجاجية قادرة على إثبات ذلك.

***

حين وصلت ويلما آنسون، كانت شظية الزجاج قد استقرت بأمان داخل كيس (زيبلوك). تأملتها عبر البلاستيك الشفاف، وميلة رأسها تشي إما بفضول أو بنفاد صبر. معها، تصعب قراءة الإشارات.

سألتني:

– «من أين حصلتِ على هذه مجددًا؟»

قلتُ:

– «من الحديقة. تحطمت الكأس حين سقطت كاثرين فاقدة الوعي على العشب وهي تحملها.»

قالت ويلما:

– «بسبب ادعاء تخديرها؟»

صححت لها قائلة:

– «تسميمها.»

– «قد تخالفكِ نتائج المختبر الرأي.»

اتفقنا، بون وأنا، على أنه ليس من الحكمة إطلاع ويلما على التفاصيل الدقيقة لكيفية شكي في محاولة توم تسميم زوجته. وبدلاً من ذلك، أخبرناها أنني تذكرت فجأة ذكر كاثرين لاسم هارفي برووير، مما قادني إلى شبكة الإنترنت وبلورة نظريتي بأن توم ربما خطط لتكرار ما فعله برووير بزوجته. كان ذلك كافيًا لحث ويلما على المجيء. والآن بعد أن حضرت، يبقى التساؤل الأهم: هل ستتخذ إجراءً حيال ذلك؟

سألتُ:

– «هل يعني هذا أنكِ ستجرين لها اختبارًا؟»

تنهدت ويلما وهي تجيب:

– «أجل. رغم أن ظهور النتائج سيستغرق بضعة أيام.»

– «لكن توم قد يكون قد اختفى بحلول ذلك الوقت. ألا يمكنكِ على الأقل استجوابه؟»

– «هذا ما أعتزم فعله.»

– «متى؟»

– «حين يحين الوقت المناسب.»

– «أليس الآن هو الوقت المناسب؟» بدأت أترنح جيئة وذهابًا، مدفوعة بوقود نفاد الصبر الذي يفور في داخلي. كل ما أود البوح به لـ ويلما هو ذاته ما يحظر عليّ البوح به. فكشفي عن بقاء هاتف كاثرين وملابسها وخواتمها في غرفة نومها بمثابة اعتراف صريح باقتحامي لمنزل آل رويس. لذا، أكتم كل شيء، شاعرة وكأنني زجاجة شمبانيا خُضت بقوة، آملة ألا أنفجر تحت هذا الضغط المتراكم.

– «ألا تصدقيننا؟»

قالت ويلما:

– «أظن أنها نظرية وجيهة. واحدة من عدة نظريات.»

– «إذن تحققي منها،» قلت. «اذهبي إلى هناك واستجوبيه.»

– «وأسأله عما إذا كان قد أزهق روح زوجته؟»

– «أجل، كبداية.»

توجهت ويلما إلى غرفة الطعام المجاورة دون انتظار دعوة. ببدلتها السوداء، وقميصها الأبيض، وحذائها العملي، بدت أخيرًا كمحققات التلفاز التي رسمتها في مخيلتي. التشابه الوحيد مع إطلالتها في الليلة الماضية كان ربطة الشعر التي تطوق معصمها. خضراء هذه المرة بدلًا من الصفراء، ومن الواضح أنها لا تخص ابنتها. تدلت من كتفها حقيبة مراسلات سوداء، أسقطتها على الطاولة. وحين جلست، انفرجت سترتها لتكشف عن مسدس مستقر في جرابه تحتها.

قالت:

– «الأمر ليس بالبساطة التي تتخيلينها. قد يكون هناك شيء آخر يجري هنا. شيء أكبر مما حل بـ كاثرين رويس.»

سأل بون:

– «أكبر بأي شكل؟»

– «هل سبق لكم أن مارستم تمرين الثقة؟ تعلمون، ذاك الذي يميل فيه المرء للخلف، آملاً أن يلتقطه من يقف وراءه؟» رفعت ويلما سبابتها وأمالتها ببطء لتوضيح الفكرة. «ما سأبوح به لكم الآن يشبه ذلك كثيرًا. سأأتمنكم على معلومات سرية. وأنتم ستكافئون هذه الثقة بالبقاء مكتوفي الأيدي وصامتين، وستدعونني أؤدي عملي وحسب. متفقان؟»

سألتُ:

– «أي نوع من المعلومات؟»

– «تفاصيل عن تحقيق لا يزال جاريًا. إن أفشيتم سر إطلاعي لكم عليها لأي كان، فقد أواجه متاعب جمة، وقد ينتهي بكم المطاف خلف القضبان.»

توقعت أن تعقب ويلما بابتسامة لتوضح أنها كانت تمزح ومبالغة. لكن ذلك لم يحدث. ظلت تعابير وجهها صارمة كشاهد قبر وهي تلف ربطة الشعر حول معصمها وتقول:

– «أقسما ألا تطلعا أحدًا على هذا.»

قال بون:

– «أنتِ تعرفين أنني جدير بالثقة.»

– «أنا لست قلقة بشأنك.»

قلتُ:

– «أقسم،» رغم أن جدية ويلما أثارت في نفسي شكوكًا حول رغبتي في سماع ما ستطرحه. فما اكتشفته اليوم كان كافيًا لإشعال نار القلق في داخلي.

ترددت ويلما، لثانية واحدة، قبل أن تمد يدها لحقيبتها.

– «متى ابتاعت عائلة رويس ذلك المنزل؟»

أجبتُ:

– «الشتاء الماضي.»

أضاف بون:

– «كان هذا صيفهم الأول هنا.»

فتحت ويلما سحاب حقيبتها.

– «هل ذكر توم رويس قط أنه قدم إلى هذه المنطقة قبل شراء المنزل؟»

– «أجل،» قلت. «أخبرني أنهما أمضيا عدة مواسم صيفية في عقارات مستأجرة مختلفة.»

أضاف بون:

– «وقد أخبرني بالشيء ذاته. وقال إنه سعيد بالعثور أخيرًا على مكان يخصهما.»

أشارت ويلما لنا بالجلوس. وبعد أن فعلنا، أنا وبون متجاورين، أخرجت مجلدًا من حقيبتها ووضعته على الطاولة أمامنا.

– «هل يألف أي منكما اسم ميغان كين؟»

قال بون:

– «هي تلك الفتاة التي اختفت قبل عامين، أليس كذلك؟»

– «صحيح.»

فتحت ويلما المجلد، وسحبت ورقة، ودفعتها نحونا. كانت تحمل صورة واسمًا، وكلمة واحدة بعثت قشعريرة في عمودي الفقري.

مفقودة.

حدقت في صورة ميغان كين. كانت تضاهي بجمالها عارضات إعلانات الشامبو. شعر أشقر بلون العسل، ووجنتان متوردتان، وعينان زرقاوان. التجسيد المثالي للفتاة الأمريكية.

قالت ويلما:

– «كانت ميغان في الثامنة عشرة حين تلاشت. كانت من أبناء المنطقة. وتملك عائلتها المتجر العام في البلدة المجاورة. قبل عامين، أخبرت والديها أنها على موعد وخرجت، وطبعت قبلة على وجنة والدتها في طريقها. وكانت تلك المرة الأخيرة التي رآها فيها أحد. عُثر على سيارتها في مكانها المعتاد – متوقفة خلف متجر والديها. بلا أي أثر لجريمة أو عراك. ولا شيء يوحي بأنها لم تكن تعتزم العودة إليها.»

دفعت ويلما ورقة أخرى نحونا. مطابقة للأولى في تصميمها.

صورة – لسمراء فاتنة بشفتين مطليتين بلون الكرز الأحمر ووجه يحيط به شعر أسود.

الاسم – تونـي بورنيت.

مفقودة، أيضًا.

– «تلاشت توني بعد ميغان بشهرين. كانت في الأساس رحالة. وُلدت ونشأت في (مين)، لكن والديها المتدينين بشدة طرداها من المنزل بعد شجار أخير حول تصرفاتها. وفي النهاية، استقر بها المطاف في مقاطعة (كاليدونيا)، مقيمة في نزل يؤجر غرفه أسبوعيًا. وحين انقضى أسبوعها ولم تسلم الغرفة، ظن المدير أنها غادرت البلدة تهربًا. لكنه حين تفقد غرفتها، وجد كل أغراضها لا تزال هناك كما يبدو. غير أن توني بورنيت كانت قد اختفت. لم يبادر المدير بالاتصال بالشرطة فورًا، متوقعًا عودتها خلال يوم أو يومين.»

قال بون:

– «أفترض أن ذلك لم يحدث قط.»

أجابت ويلما:

– «لا. لم يحدث ذلك قطعًا.»

وسحبت الورقة الثالثة من المجلد.

سو إلين سترايكر.

تبدو خجولة، وهو ما تعكسه الابتسامة المتفاجئة على وجهها، وكأنها أدركت للتو أن أحدهم يوجه عدسته نحوها.

مفقودة، كحال الباقيات.

وهي ذات الفتاة التي أتت كاثرين على ذكرها أثناء تحلقنا حول النار في الليلة الأخرى.

قالت ويلما:

– «كانت سو إلين في التاسعة عشرة من عمرها. اختفت الصيف الماضي. كانت طالبة جامعية تمضي الموسم في العمل بمنتجع يطل على بحيرة في بلدة (فيرلي). غادرت عملها ذات ليلة ولم ترجع قط. وكما هو الحال مع الأخريات، لم يكن هناك ما يشير إلى أنها حزمت أمتعتها وهربت. لقد تلاشت ببساطة... تبخرت.»

قال بون:

– «ظننت أنها غرقت.»

– «كانت تلك إحدى الفرضيات، رغم انعدام أي دليل ملموس يدعم أنها الحقيقة المطلقة.»

– «لكنكِ ترجحين وفاتها، أليس كذلك؟ هي والأخريات أيضًا.»

– «أريد الصراحة؟ نعم.»

– «وهل ثمة رابط بين حوادث وفاتهن؟»

أجابت ويلما:

– «أجل. مؤخرًا، بتنا نميل للاعتقاد بأنهن ضحايا لقاتل واحد. شخص يتردد على المنطقة بانتظام منذ عامين على الأقل.»

شهق بون بقوة. «قاتل متسلسل.»

تعلقت الكلمات في هواء غرفة الطعام الخانق، باقية كعفن لا يتبدد. حدقت في الصور المتناثرة على الطاولة، ومعدتي تعتصر حزنًا وغضبًا في آن معًا.

ثلاث نساء.

بل فتيات.

في مقتبل العمر، لا يزلن يتنفسن البراءة.

أُختطفن في زهرة شبابهن.

والآن هن في طي النسيان.

وبينما أتأمل كل صورة، تدهشني حيوية شخصياتهن التي تكاد تنبض من الورق. فوران ميغان كين. غموض توني بورنيت. وبراءة سو إلين سترايكر.

أتخيل عائلاتهن وأصدقاءهن، وكم يمزقهم الحنين إليهن.

أتخيل طموحاتهن، وأحلامهن، وإخفاقاتهن، وآمالهن، وأحزانهن.

أتخيل رعبهن في لحظاتهن الأخيرة قبل الموت. خائفات ووحيدات، على الأرجح. وهما أقسى شعورين قد يختبرهما إنسان.

اختنقت بغصة في صدري، وللحظة مروعة، خشيت أن تنفجر كصرخة. لكني ابتلعتها، تماسكت، وطرحت السؤال الذي لا بد من طرحه.

– «وما شأن كاثرين رويس بكل هذا؟»

أخرجت ويلما غرضًا أخيرًا من المجلد. كانت نسخة مصورة بالألوان لبطاقة بريدية. لقطة علوية لبحيرة متعرجة تعانقها الغابات والجبال. لوحة ألفتها عيناي مئات المرات على رفوف المتاجر المحلية، وأدرك ماهيتها دون عناء قراءة الاسم المطبوع أسفلها.

بحيرة جرين.

– «في الشهر الماضي، بعث أحدهم هذه البطاقة إلى قسم الشرطة المحلي.»

التفتت ويلما إلى بون. «إلى معقلك القديم. فأحالوها إلينا. بسبب هذا.»

وقلبت الصفحة، لتكشف عن النسخة المصورة لظهر البطاقة. على الجانب الأيسر، خُطت أحرف كبيرة وبخط مرتعش يكاد يشبه خربشات طفل، عنوان مقر عمل بون السابق، والذي يبعد قرابة خمس عشرة دقيقة من هنا. وعلى الجانب الأيمن، وبالخط الطفولي ذاته، دُونت ثلاثة أسماء.

ميغان كين.

تونـي بورنيت.

سو إلين سترايكر.

وأسفل الأسماء، خُطت أربع كلمات.

(أظن أنهن قابعات هنا).

تمتم بون:

– «يا إلهي.»

أما أنا، فالتزمت الصمت، وقد عقدت الصدمة لساني.

أوضحت ويلما:

– «لا سبيل لتعقب المُرسل. فهذه البطاقة بالذات تُباع في كل زاوية من مقاطعتنا منذ سنوات. وكما ترون، فهي تفتقر لأي عنوان مُرسل.»

سأل بون:

– «وماذا عن البصمات؟»

– «متوفرة بكثرة. لقد تداولت هذه البطاقة أكثر من دزينة أيادٍ قبل أن تستقر في حوزة شرطة الولاية. كان الطابع ذاتي اللصق، مما ينفي وجود أي حمض نووي على ظهره. وأكد تحليل الخط أن كاتبها أيمن استخدم يده اليسرى. ولهذا السبب تكاد

تكون غير مقروءة. لقد كان المُرسل بارعًا في طمس آثاره. الخيط الوحيد الذي نملكه، في واقع الأمر، هو الختم البريدي، الذي يكشف عن إيداعها في صندوق بريد في حي (أبر ويست سايد) بـ (مانهاتن). والمفارقة، أن هذا هو ذات الحي الذي تقطن فيه شقة توم وكاثرين رويس. قد يكون الأمر مجرد مصادفة، لكنني أستبعد ذلك.»

مرر بون يده على ذقنه الخشن، مستوعبًا هذا السيل من المعلومات.

– «إذن، تعتقدين أن أحدهما هو من أرسل تلك البطاقة؟»

أكدت ويلما:

– «أجل. وتحديدًا كاثرين. فتحليل الخط يشير بقوة إلى أن الكاتب أنثى.»

– «ولِمَ قد تقدم على فعل كهذا؟»

– «ماذا تظن أنت؟»

لم يستغرق الأمر سوى كسر من الثانية ليدرك بون مغزى كلماتها، وتتبدل تعابير وجهه وهو ينتقل من التفكير إلى بلورة النظرية ثم الإدراك.

سأل:

– «أتظنين حقًا أن توم هو من قتل تلك الفتيات؟ وأن كاثرين كانت على علم بذلك؟ أو على الأقل ارتابت في الأمر؟»

قالت ويلما:

– «هذه إحدى الفرضيات المطروحة. ولهذا السبب نحن نتوخى الحذر البالغ هنا. فإذا كانت كاثرين قد أرسلت تلك البطاقة لتلفت انتباه الشرطة إلى زوجها، فمن الوارد أيضًا أنها فرت وتوارت عن الأنظار في مكان ما.»

أضاف بون:

– «أو ربما اكتشف توم الأمر وأسكتها.»

– «وهذا احتمال وارد أيضًا، بلا شك. لكن إن كانت قد اختبأت لحماية نفسها، فنحن نبتغي العثور عليها قبل أن يصل إليها زوجها. وبكلتا الحالتين، أنتما

تستحقان بعض الثناء على هذا. فلو لم تتصلي بي بشأن كاثرين، لما راودتنا فكرة ربطها وتوم بهذه البطاقة. لذا، شكرًا لكما.»

سأل بون، والزهو يكلل صوته:

– «وما هي الخطوة التالية؟» مرة شرطيًا، سيظل شرطيًا للأبد، على ما يبدو.

شرعت ويلما في جمع الأوراق ودسها في المجلد. وبينما هي تفعل ذلك، اختلست نظرة أخيرة إلى وجوه تلك الفتيات المفقودات. ميغان وتوني وسو إلين. كل واحدة منهن تعتصر قلبي بشدة حتى كدت أتأوه. ثم أغلقت ويلما المجلد فتلاشت الثلاثتهن من جديد.

– «في الوقت الحالي، نحن نتقصى جميع العقارات التي استأجرها توم في (فيرمونت) خلال العامين الماضيين. أماكن إقامته. مدة بقائه فيها. وما إذا كانت كاثرين برفقته.»

أسقطت ويلما المجلد في حقيبة مراسلاتها ورمقتني بنظرة قائلة:

– «وإن تزامنت التواريخ مع هذه الاختفاءات، فحينها سيكون الوقت مناسبًا لاستجواب توم رويس.»

قشعريرة أخرى تجتاحني. واحدة من تلك القشعريرات العنيفة التي ترج الجسد كرجّاج كوكتيل.

الشرطة ترجح أن توم سفاح.

ورغم أن ويلما لم تفصح عن ذلك صراحة، إلا أن الإيحاء كان صارخًا. إنهم يظنون أنه الفاعل.

والموقف برمته أشد قتامة مما تصورته في البداية بكثير.

الوقت الحاضر

أحكم قبضتي على السكين، آملة أن تخفي شدتها الارتعاش الذي لا يزال يتملك يدي. يرمقني ببرود متصنع ويقول:

– «أيفترض بي أن أشعر بالتهديد من هذا؟ لأنني لا أشعر به.»

– «لا يعنيني حقًا بماذا تشعر.»

وهذه هي الحقيقة، وإن كانت مغلفة بشيء من المبالغة. فبلى، أنا أهتم. أبتغيه أن يشعر بالتهديد. لكني أدرك أيضًا أن هذا لا يشكل فرقًا جوهريًا. فالأهم هو إجباره على البوح، وإن كان مجاراته في لامبالاته هو السبيل لذلك، فأنا على أتم الاستعداد.

أعود إلى السرير الآخر في الغرفة، وألقي السكين جانبًا لألتقط كأس البوربون عن المنضدة.

يقول:

– «ظننتكِ ذاهبة لإعداد القهوة.»

– «عدلت عن رأيي.» أمد الكأس نحوه. «هل تود القليل؟»

يهز رأسه نافيًا.

– «لا أظنها فكرة سديدة. أود الحفاظ على صفاء ذهني.»

أرتشف جرعة.

– «إذن، المزيد لي.»

يقول:

– «ربما يجدر بكِ أنتِ أيضًا التفكير في الحفاظ على صفاء ذهنكِ. ستحتاجينه في معركة الدهاء التي تتوهمين أننا نخوضها.»

– «إنها ليست معركة.» أتجرع رشفة أخرى، وأتلذذ بها مسمعة إياه صوت تلمظي لأؤكد له مدى استمتاعي. «ونحن لا نلعب أي لعبة. أنت ستخبرني بما أريد معرفته. عاجلًا أم آجلًا.»

– «وماذا ستفعلين إن أبيت؟»

أومئ برأسي نحو السكين المستقر بجواري على السرير.

يبتسم ثانية.

– «أنتِ لا تملكين الجرأة لذلك.»

أقول له:

– «أنت تقول ذلك، لكني لا أظنك توقن به تمامًا.»

وبلمح البصر، تتبخر الابتسامة.

ممتاز.

في الخارج، تواصل الرياح عواءها بينما يجلد المطر السقف بلا هوادة. يُفترض أن تنجلي العاصفة بحلول الفجر. ووفقًا للساعة القابعة بين السريرين، لم ينتصف الليل بعد. ورغم أن الوقت قد يبدو متسعًا بين الآن وذاك الحين، إلا أنه قد لا يكون كافيًا. فما أعتزم القيام به لا يحتمل نور النهار، ولا أظنني قادرة على تحمل هذا الموقف حتى ليلة الغد. قد أفقد صوابي بحلول ذلك الوقت. وحتى إن نجوت، فأنا على يقين من أن ويلما آنسون ستعاود طرق بابي في الصباح الباكر.

عليّ أن أدفعه للحديث الآن.

أقول له:

– «بما أنك تأبى الحديث عن كاثرين، حدثني عن الفتيات إذن.»

– «أي فتيات؟»

– «اللواتي قتلتهن.»

يقول:

– «آه، أجل. هُن.»

تعاود الابتسامة الظهور، وهذه المرة مشوبة بقسوة والتواء يدفعاني للرغبة في اختطاف السكين وغرسه مباشرة في قلبه.

– «لمَ...» أتوقف، وآخذ نفسًا عميقًا، محاولة السيطرة على مشاعري التي تتأرجح بين الغضب والاشمئزاز. «لمَ فعلت ذلك؟»

يتظاهر بالتفكير، رغم عدم وجود سبب واحد يمكنه تقديمه ليبرر ما اقترفه. يبدو أنه يدرك ذلك فيستسلم. وعوضًا عن التبرير، وبذات الابتسامة الملتوية، يكتفي بالقول:

– «لأنني استمتعت بذلك.»

قبل ذلك..

حين تنصرف ويلما آنسون، تصطحب معها قطعة زجاج الكأس المحطمة. والطريقة التي تحملها بها إلى سيارتها، مباعدة إياها عن جسدها في كيس (زيبلوك) وكأنها تقبض على شطيرة متعفنة، تنبئني بأنها موقنة سلفًا بأنها لن تسفر عن شيء. كنت لأشعر بالحنق لولا أنني ما زلت مصدومة مما ألقته على مسامعنا للتو.

إنها تشتبه في أن توم رويس قاتل متسلسل.

وتظن أن كاثرين قد شاطرتها هذا الشك.

وأن هذا هو السبب وراء كون كاثرين الآن في عداد الموتى أو متوارية عن الأنظار.

كانت ويلما محقة. فالأمر أضخم بكثير من مجرد اختفاء كاثرين. ولا أملك أدنى فكرة عما يجدر بي فعله الآن. أعلم تمامًا ما كانت ستقوله مارني وأمي. كانتا ستنصحانني بحماية نفسي، والنأي بها عن طريق الخطر، وتجنب أن أغدو هدفًا. من حيث المبدأ، أنا أتفق معهما. لكن الواقع هو أنني بت جزءًا من هذا المستنقع، شئت أم أبيت.

وأنا خائفة.

هذه هي الحقيقة العارية.

بعد أن راقبت سيارة ويلما تبتعد، عدت إلى غرفة الطعام باحثة عن بون. لكنني وجدته في الشرفة، قابضًا على المنظار ومسلطًا نظره على منزل آل رويس على الضفة المقابلة.

قلتُ:

– «مراقبة الطيور مذهلة في هذا الوقت من العام. يا لجمال هذا الريش المتنوع.»

قال بون، مجاريًا دعابتي السخيفة:

– «هذا ما أسمعه.»

استقريت في الكرسي الهزاز المجاور له.

– «هل من أثر لـ توم؟»

– «لا شيء. لكن سيارته لا تزال بالخارج، لذا أنا موقن بأنه هناك.» صمت بون لبرهة. «أتظنين أن ويلما محقة؟ بشأن كون توم قاتلًا متسلسلًا؟»

هززت كتفيّ، رغم علمي بأن بون لا يراني لانهماكه في المراقبة عبر المنظار. رؤيته وهو يتفرس في منزل عائلة رويس بهذا التركيز تعكس لي صورتي خلال الأيام القليلة الماضية. متسمرة في هذه الشرفة. والمنظار ملتصق بوجهي. لا أنشغل بشيء سواه. إنه ليس مظهرًا جذابًا، حتى على شخص يمتلك وسامة مفرطة كـ بون.

قال:

– «أظن أنها قد تكون لامست الحقيقة. فـ توم دائم التردد على المنطقة، وهو أمر لطالما أثار حيرتي. إنه ثري. وزوجته عارضة أزياء خارقة. بوسعهما السفر لأي مكان. تباً، بوسعهما شراء جزيرتهما الخاصة. ومع ذلك، كانا يؤثران هذا المكان دائمًا؛ أحراش فيرمونت، حيث يخيم السكون وتتضاءل احتمالات الإزعاج. وهناك أيضًا حقيقة أنني دائمًا ما استشعرت ذبذبات غريبة تصدر عنه. يبدو مفرطًا في...»

– «الحدة؟» قلت، مكررة وصف مارني لـ توم رويس.

– «أجل. لكنها حدة صامتة. وكأن ثمة غليانًا مكتومًا تحت السطح. هؤلاء هم من يجدر بك الحذر منهم. والحمد لله أنكِ كنتِ تفعلين ذلك بالضبط يا كيسي. لولا مراقبتكِ، لما فطن أحد لكل هذا. وهذا يحتم علينا ألا نتراخى الآن. يجب أن نواصل مراقبته.»

أدرت وجهي نحو البحيرة، ووجهت بصري ليس إلى منزل عائلة رويس، بل إلى المياه ذاتها. تحت أشعة شمس ما بعد الظهيرة، تبدو مسالمة، بل ومغرية. يستحيل أن يخمن المرء مدى عمقها أو حلكة عتمتها. عتمة تخفي كل ما يرسو في قاعها.

ربما ميغان كين.

وتوني بورنيت.

وسو إلين سترايكر.

وربما حتى كاثرين رويس.

مجرد تخيل نساء متعددات يرقدن وسط الطمي والطحالب يبعث في نفسي دوارًا دفعني للتشبث بمسندي الكرسي الهزاز وإشاحة نظري عن الماء.

قلتُ:

– «لا أظن أن ذلك سيروق لـ ويلما. لقد سمعتِ ما قالته. إنها تود منا أن نبقى بعيدين عن المشهد وندع الشرطة تتولى الأمر.»

– «أنتِ تتناسين أنها أقرت أيضًا بأنهم لم يكونوا ليربطوا بين كاثرين وتلك البطاقة البريدية لولانا. ربما نفلح في العثور على شيء آخر يخدم قضيتهم.»

– «وماذا إن فعلنا؟ هل سيتمكنون من الاستفادة منه حقًا؟»

تتبادر إلى ذهني كل الاكتشافات التي جمعتها من منزل عائلة رويس. هاتف كاثرين، ملابسها، وكنز المعلومات القابع في ذلك الحاسوب المحمول. من المثير للحنق أن يُحظر استخدام أي منها ضد توم، رغم أنها جميعًا تصرخ بإدانته بشيء ما.

– «هذا يختلف عن اقتحامك لمنزلهما. ذاك كان خرقًا للقانون. أما ما أقترحه الآن فليس كذلك.»

أنزل بون المنظار ورمقني بنظرة تتقد بحماس قلق. نقيض ما يعتمل في داخلي تمامًا. ورغم جهلي بما يخطط له، أوقن أن الأمر لن يروق لي. لا سيما وأنه يبدو مصممًا على ما يتجاوز مجرد مراقبة منزل توم.

قلتُ:

– «أو يمكننا الامتثال لنصيحة ويلما. ألا وهي الجلوس مكتوفي الأيدي.»

لم يفلح اقتراحي في إخماد الشرارة في عيني بون. بل على العكس، بدا أكثر إصرارًا وهو يقول:

– «أو يمكننا المرور بالمتجر الذي تديره عائلة ميغان كين. نستطلع المكان، ونطرح بعض الأسئلة البريئة. لا أدعي أننا سنفك طلاسم هذه القضية برمتها. والراجح أن مسعانا لن يسفر عن شيء. لكنه يبقى أفضل من التسمر هنا، نترقب ونراقب.»

أومأ برأسه بحدة نحو الضفة المقابلة. إيماءة مشبعة بالإحباط، تنبئني بأن غايته تتجاوز مجرد توم رويس. أرجح أن دافعه الحقيقي نابع من حنين شرطي سابق لميدان العمل. وأنا أتفهم هذا التوق. فأنا نفسي أصاب بالتململ كلما شاهدت فيلمًا استثنائيًا أو أداءً مسرحيًا مبهرًا، وتعتصرني الرغبة في العودة لخشبة المسرح أو الوقوف أمام عدسات الكاميرا.

لكن ذلك الفصل من حياتي قد طوي. تمامًا كحال بون مع الشرطة. وتقمص دور المحقق لن يبدل من الواقع شيئًا.

قال وهو ينخز ذراعي بأحد مرفقيه القويين:

– «قد يكون الأمر ممتعًا. وسيكون من الجيد الخروج من المنزل قليلًا. متى كانت آخر مرة برحتِ فيها هذا المكان؟»

– «هذا الصباح.» والآن حان دوري للإشارة نحو منزل عائلة رويس. «وقد نلت كفايتي من الإثارة ليوم واحد بتواجدي هناك.»

قال بون:

– «لكِ ما تريدين. لكني ذاهب، بكِ أو بدونكِ.»

كدت أخبره أن الخيار الثاني هو الأرجح. فلا رغبة لي في التورط في هذا المستنقع أكثر مما فعلت بالفعل. لكني حين وزنت الخيار البديل – البقاء وحيدة هنا، بانتظار حدوث أمر ما، مكافحة رغبة المراقبة التي أعلم أنني سأستسلم لها حتمًا – أدركت أن التشبث بصحبة الشرطي السابق الوسيم هو الخيار الأمثل.

ناهيك عن أنه محق. فالابتعاد سيعود عليّ ببعض النفع، وليس فقط عن المنزل. أنا بحاجة إلى إجازة من بحيرة جرين ذاتها. فقد أمضيت وقتًا طويلًا أتأمل مياهها والمنزل القابع على ضفتها المقابلة. وهو ما سأستمر في فعله إن تركني بون ورحل. مجرد فكرة جلوسي هنا، أحدق في المياه المرقشة بأشعة الشمس، وأستعرض في مخيلتي وجوه من قد يكونون راقدين في قاعها، تبعث على كآبة تجعلني أذعن طائعة.

قلتُ:

– «حسنًا. لكن بشرط أن تبتاع لي مثلجات في طريق العودة.»

انفرجت أسارير بون عن ابتسامة عريضة لدرجة توحي بأنني وافقت للتو على خوض مباراة مونوبولي.

قال:

– «اتفقنا. وسأتكفل حتى بالزينة الإضافية.»

***

يجمع المتجر الذي تديره عائلة ميغان كين بين كونه سوبر ماركت ومصيدة سياح. في الخارج، وعلى مرأى من الطريق بهدف استقطاب السائقين العابرين، ينتصب تمثال موظ نُحت بمنشار جنزيري. وتتدلى فوق الباب الأمامي لافتة تُعلن عن بيعهم لشراب القيقب، وكأنها سلعة نادرة في فيرمونت الغارقة فيه.

ولا يختلف المشهد في الداخل كثيرًا. مزيج من العملية الباهتة والحميمية المفرطة. فشراب القيقب المذكور آنفًا يستقر في خزانة كتب عتيقة بجوار الباب مباشرة، مصطفًا بأحجام تتدرج من كأس صغيرة إلى إبريق سعة غالون. وإلى جوارها، برميل بوربون يفيض بدمى محشوة لموظ ودببة، وحامل سلكي يعج بالبطاقات البريدية. أدرته بلفة سريعة أصدرت صريرًا، فوقعت عيناي على البطاقة ذاتها التي استعرضتها ويلما آنسون أمامنا. جفلت لمرآها، وكدت أصطدم بموظ خشبي آخر، هذه المرة مزين بقبعات صوفية تكلل قرونه.

ويكتسي المتجر بطابع عملي أكثر كلما توغلنا في الداخل. هناك عدة ممرات تزخر بالسلع المعلبة، والمعكرونة المعبأة، ومعجون الأسنان، وورق الحمام، والتي أوشكت على النفاد ترقبًا للعاصفة القادمة. وثمة قسم للأجبان واللحوم الباردة، وآخر للمجمدات، ومنطقة دفع تفيض بسلع المتاجر السريعة من بطاقات اليانصيب والسجائر.

وحين لمحت الفتاة القائمة على آلة تسجيل النقد، تعثرت نبضات قلبي.

إنها ميغان كين.

ورغم أن وجهها كان جانبيًا وهي تشخص ببصرها عبر النافذة في واجهة المتجر، إلا أنني ميزت ذلك الجمال النضر والبريء من الصورة التي طالعتها قبل ساعة.

وللحظة، شلني الذهول.

ميغان لم تمت.

مما يعني أن الأخريات ربما لم يمتن أيضًا.

وأن الأمر برمته لم يكن سوى سوء فهم مريع وفادح.

كنت على وشك الإمساك بـ بون لأبثه كل هذا، حين استدارت الفتاة خلف آلة تسجيل النقد لتواجهني، فأدركت خطئي.

ليست هي ميغان.

لكنها بلا ريب تمت لها بصلة قرابة وثيقة. فهي تحمل ذات العينين الزرقاوين والابتسامة المثالية التي تلتقطها الكاميرات. أرجح أنها شقيقة صغرى تفتحت أنوثتها لتصبح صورة طبق الأصل من فتاة الجيران الرقيقة التي بدت عليها ميغان.

سألت:

– «هل يمكنني مساعدتكم؟»

تعلثمت ولم أدرِ كيف أرد، جزئيًا لأن صدمة رؤية من توهمتها ميغان لم تفارقني بعد، وجزئيًا لأن بون وأنا لم نتفق على ما سنقوله أو نفعله عند بلوغ المتجر. ولحسن الحظ، تولى هو دفة الحديث نيابة عني.

قال وهو يقترب منها:

– «نحن نلقي نظرة فحسب. رأينا الموظ في الخارج وقررنا التوقف. إنه متجر جميل.»

جالت الفتاة بنظرها في الأرجاء، ويبدو أنها لم تتأثر بالرفوف والهدايا التذكارية التي تقع عليها عيناها كل يوم.

قالت:

– «أفترض ذلك. والداي يبذلان قصارى جهدهما.»

إذن هي شقيقة ميغان. يغمرني شعور بالفخر لنجاحي في التخمين، رغم أن الشبه بينهما صارخ لدرجة أن أي شخص كان ليستنتج ذلك.

قال بون:

– «أراهن أن المتجر يعج بالزبائن في عطلات نهاية الأسبوع.»

– «أحيانًا. كان خريفًا جيدًا. لقد توافد الكثيرون لرؤية أوراق الشجر.»

أثناء حديث الفتاة، لاحظت أمرًا مثيرًا للاهتمام. لم تكن تنظر إلى بون، وهو ما كنت لأفعله لو كنت مكانها. بل كانت تختلس النظرات نحوي باستمرار.

سألها بون وهو يخرج هاتفه:

– «هل لديكِ حساب على (ميكسر)؟»

– «لا أظن ذلك. ما هذا؟»

– «تطبيق. يتيح للناس إضافة أنشطتهم التجارية المفضلة ليراها أصدقاؤهم.» نقر على هاتفه وعرضه على الفتاة. «يجدر بكِ الانضمام إليه. قد يجلب لكم المزيد من الزبائن.»

ألقت الفتاة نظرة سريعة لا تتعدى الثانية على هاتف بون قبل أن تعاود النظر إليّ. كان جليًا أنها تعرفني لكنها لا تستطيع تحديد من أين. أواجه هذا كثيرًا. وكل ما آمله هو أن تكون معرفتها بي من خلال أعمالي السينمائية والتلفزيونية، وليس من إحدى الصحف الفضائحية التي تملأ رف المجلات على مرأى من آلة تسجيل النقد.

قالت الفتاة وهي تعاود النظر إلى هاتف بون:

– «سأسأل والديّ.»

– «إنه تطبيق رائع. مبتكره يقيم بالجوار. لديه منزل على بحيرة جرين.»

حتى هذه اللحظة، كنت أتساءل عن سبب توجيه بون لدفة الحديث نحو (ميكسر). لكن حين نقر على هاتفه مجددًا ليظهر الملف الشخصي لـ توم رويس، تجلى لي مقصده بوضوح.

قال بون وهو يستعرض صورة توم:

– «اسمه توم. هل سبق أن رأيته يزور المتجر؟»

تأملت الفتاة هاتف بون وقالت:

– «لست متأكدة. ربما؟»

قال بون محفزًا:

– «إن ملامحه لا تُنسى. أعني، ليس من المألوف أن يتردد مليونيرا تكنولوجيا على متجركم كل يوم.»

أجابت الفتاة:

– «أنا لا أتواجد هنا إلا بعد المدرسة وفي عطلات نهاية الأسبوع.»

– «إذن يجدر بكِ سؤال والديكِ.»

أومأت الفتاة برأسها بارتباك قبل أن ترمقني بنظرة أخرى، غير أنني هذه المرة شعرت أنها تبحث عمن ينتشلها من هذا الحديث. بدت هشة للغاية – بالغة الصغر وفي أمس الحاجة للحماية – لدرجة أنني قاومت رغبة عارمة في القفز فوق المنضدة، واحتضانها بشدة، والهمس لها بمدى أسفي على فاجعتهم. وعوضًا عن ذلك، اقتربت من آلة تسجيل النقد وأزحت بون جانبًا.

قلتُ، والكلمة تفلت من لساني قبل أن أفلح في إيجاد بديل أفضل:

– «عليكِ أن تعذري حبيبي. إنه يحاول تشتيت انتباهك عن السبب الحقيقي لزيارتنا.»

سألت الفتاة:

– «وما هو؟»

أعاد بون هاتفه إلى جيبه وقال:

– «وأنا أيضًا يقتلني الفضول لمعرفة ذلك.»

مرت ثانية وأنا أستحضر عذرًا مقنعًا لدخولنا المتجر. «أردت الاستفسار عما إذا كانت هناك أي محلات مثلجات جيدة في الجوار.»

قالت الفتاة:

– «(هيليير). إنه الأفضل.»

لم تخطئ. فقد قصدنا، لين وأنا، (هيليير)، وهو مزرعة ألبان عتيقة تبعد ميلًا واحدًا على الطريق، مرات عدة في الصيف الماضي. كنا نشتري مثلجاتنا المفضلة ونتناولها على المقعد الخشبي في الواجهة. أنا أختار الفستق في مخروط بسكويت. وهو يفضل كوبًا من الروم بالزبيب. أعجز عن تذكر متى كانت آخر زيارة لنا، رغم أنه يبدو من الأمور التي يتمنى المرء تذكرها. آخر مخروط مثلجات شاركته مع زوجي قبل أن يرحل.

تأملت شقيقة ميغان وتساءلت إن كانت تكابد معاناة مماثلة. تعجز عن استرجاع تفاصيل العديد من اللحظات الأخيرة لأنها كانت غافلة بسذاجة عن كونها الأخيرة. آخر حديث ودي بين شقيقتين. آخر شجار. آخر مخروط مثلجات، وآخر عشاء عائلي، وآخر تلويحة وداع.

مجرد التفكير في الأمر يعتصر قلبي ألمًا. وكذلك التساؤل عما إذا كان لـ توني بورنيت وسو إلين سترايكر شقيقات يفتقدنهن، ويرثينهن، ويتمنين في قرارة أنفسهن وفي الزوايا المظلمة من قلوبهن التي لا يبحن بها لأحد، أن يعثر شخص ما على جثثهن ليرحمهن من هذا العذاب.

قلتُ، مانحة إياها ابتسامة تبدو في الغالب أشد حزنًا من كونها ممتنة:

– «شكرًا.»

– «لكنني لست واثقة من أنهم يفتحون أبوابهم الآن. فالموسم السياحي قد انقضى.»

– «وهل تبيعون المثلجات هنا؟»

أشارت شقيقة ميغان نحو قسم المجمدات وقالت:

– «لدينا عبوات سعة غالون، وعبوات سعة ربع غالون، وبضعة مخاريط مثلجات فردية.»

– «هذا يفي بالغرض تمامًا.»

أمسكت بـ بون من مرفقه وجذبته نحو ثلاجة المثلجات. وبينما نحن نتأمل خياراتنا، انحنى نحوي وهمس:

– «(حبيبي)، إذن؟»

توردت وجنتاي خجلًا. فتحت أحد أبواب الثلاجة، آملة أن تطفئ لفحة الهواء الجليدي نار وجهي، والتقطت مثلجات (بومب بوب) بألوانها الأحمر والأبيض والأزرق. «آسفة. هذا أقصى ما جاد به عقلي في لحظة مباغتة.»

قال بون وهو يختار مخروط (درامستيك) مغطى بالشوكولاتة:

– «مثير للاهتمام. وللعلم فقط، لا داعي للأسف. لكني أظن أنه سيتعين علينا التظاهر بذلك حتى نغادر المتجر.»

وبغمزة خبيثة، التقط يدي، فلامست كفه الدافئة كفي. كان شعورًا غريبًا أن أقبض على شيء جليدي بيد، وشيء ينبض بالدفء والحياة باليد الأخرى. وبينما كنا نعود أدراجنا نحو آلة تسجيل النقد، تملكت جسدي حيرة بين التعرق والارتجاف.

حاسبت شقيقة ميغان على مشترياتنا، ولم يفلت بون يدي إلا لبرهة كافية ليخرج محفظته ويدفع. وما إن استقرت المحفظة في جيبه، حتى عاد ليشبك يده بيدي ثانية. شددت على قبضته وتركته يقودني خارج المتجر.

ألقى بون من فوق كتفه لشقيقة ميغان:

– «شكرًا على المساعدة.»

أجابت:

– «في أي وقت. أتمنى لكم يومًا سعيدًا.»

وقبل أن أخطو خارج المتجر، استرقت نظرة أخيرة إلى الفتاة عند آلة تسجيل النقد. كانت تسند مرفقها على المنضدة وتريح رأسها بحالمية في كف يدها. راقبتنا ونحن نغادر، متجاوزة إيانا بنظراتها نحو الطريق، والأشجار، والجبال في الأفق. ورغم أنها ربما كانت تتأمل أيًا من تلك الأشياء، لم أملك سوى أن أظن أنها تشخص ببصرها حقًا إلى ما وراءها، نحو بقعة نائية ومجهولة قد تكون شقيقتها قد هربت إليها، ولا تزال قعيدة هناك، تترقب اللحظة المواتية للعودة إلى أحضان المنزل.

***

التهمنا المثلجات ونحن نجلس في صندوق شاحنة بون، وسيقاننا تتدلى من الباب الخلفي المفتوح. ندمت على اختيار (بومب بوب) في اللحظة التي لامس فيها شفتي. كان طعمه مفرط الحلاوة ومصطنعًا للغاية، وصبغ لساني بلون أحمر فاقع.

أنزلت المثلجات وقلت:

– «إذن، كانت رحلتنا هباءً منثورًا.»

قضم بون مخروط الـ (درامستيك)، فتحطمت قشرة الشوكولاتة العلوية بصوت مقرمش مدوٍ.

– «أنا لا أرى الأمر من هذه الزاوية.»

– «لقد سمعت ما قالته. توم رويس لم يطأ المتجر قط.»

– «هذا على حد علمها. وهو أمر لا يثير استغرابي. فإن صحت شكوكي، فقد زار توم المتجر أثناء نوبة عمل ميغان. وليس شقيقتها. ولربما تكرر الأمر مرارًا. يدخل، يتبادل معها أطراف الحديث، يغازلها، ولربما دعاها في موعد. ثم أزهق روحها.»

– «تبدو متيقنًا من استنتاجك.»

– «لأنني كذلك فعلًا. لا أزال أحتفظ بحدس الشرطي.»

– «إذن، لِمَ استقلت؟»

رمقني بون بنظرة جانبية.

– «ومَن قال إنني استقلت؟»

– «أنت من قال ذلك،» قلت. «لقد أخبرتني أنك كنت شرطيًا، وهو ما فهمت منه أنك استقلت.»

– «أو ربما عنى ذلك أنني أُوقفت عن العمل بلا راتب لستة أشهر، ولم أعد قط بعد انقضاء عقوبتي.»

– «أوه، تباً.»

قال بون قبل أن يأخذ قضمة أخرى:

– «هذا يوجز القصة تقريبًا.»

نظرت إلى مثلجاتي. بدأت تذوب قليلًا. قطرات بألوان قوس قزح تتساقط على الأرض كدماء في فيلم رعب.

– «ماذا حدث؟» سألت.

قال بون:

– «بعد وفاة زوجتي ببضعة أشهر، كنت مخمورًا أثناء نوبة عملي. ليس أشنع ما قد يقترفه شرطي، بالتأكيد. لكنه سيئ. خاصة حين استجبت لبلاغ. اشتباه في سطو. اتضح في النهاية أنه مجرد جار يستخدم المفتاح الاحتياطي لاستعارة آلة جز العشب الخاصة بالمالك. لكنني لم أدرك ذلك إلا بعد أن أطلقت النار من سلاحي، وكدت أردي الرجل قتيلًا، مما أدى إلى إيقافي عن العمل بسبب سكري.»

– «وهل هذا ما دفعك لاتخاذ قرار التعافي؟»

رفع بون نظره عن مثلجاته.

– «أليس هذا مبررًا كافيًا؟»

إنه كذلك، وكان يجدر بي إدراك ذلك قبل أن أسأل.

– «والآن بعد أن تعافيت، لِمَ لا تعود لعملك كشرطي؟»

أجاب بون:

– «لم يعد الأمر يلائمني. أتعرفين المقولة: (من شب على شيء شاب عليه)؟ إنها حقيقة. لا سيما حين يواظب كل من تعرفينهم على تلك العادات. عمل الشرطي مشحون بالضغوط. ويتطلب الكثير لتفريغ شحنتك بعد انتهاء النوبة. جعة بعد العمل.

كؤوس خمر أثناء حفلات الشواء في عطلات نهاية الأسبوع. كنت بحاجة للابتعاد عن كل هذا. وإلا لكان هناك شيطان من الرسوم المتحركة يربض على كتفي دائمًا، يهمس في أذني بأن لا بأس، إنها مجرد كأس واحدة، ولن يحدث مكروه. أيقنت أنني لن أستطيع العيش هكذا، فابتعدت. الآن أتدبر أموري بالعمل في وظائف متفرقة، وصدقي أو لا تصدقي، أنا أكثر سعادة الآن. عشت تعيسًا لفترة طويلة جدًا. ولم أدرك ذلك إلا حين بلغت القاع.»

منحت مثلجاتي لعقة فاترة وتساءلت إن كنت قد بلغت القاع أنا الأخرى أم أن ثمة مسافة تفصلني عن الارتطام. والأسوأ من ذلك، راودني شك بأن طردي من مسرحية (ذرة شك) كان هو القاع، وأنا الآن أهوي في مستوى أدنى منه، أحفر طريقي نحو قبو سحيق لن أرى النور منه أبدًا.

قال بون:

– «ربما كانت الأمور ستتخذ مسارًا مختلفًا لو رُزقنا بأطفال. الأرجح أنني لم أكن لأغرق في الشرب بتلك الشراهة بعد وفاة زوجتي. فوجود من تعوله يجبرك على التخلي عن أنانيتك. أعني، لقد أردنا أطفالًا. وسعينا لذلك حقًا. لكن القدر لم يشأ.»

– «لم نتطرق، لين وأنا، للحديث عن هذا الأمر قط،» قلت، وهي الحقيقة. لكنني أظنه كان يتوق لإنجاب أطفال، وأن ذلك كان جزءًا من مخططه للإقامة الدائمة في منزل البحيرة. وأظنه كان يدرك أيضًا عدم رغبتي في ذلك، والسبب الرئيسي هو خشيتي من توريثهم ذات الندوب النفسية التي أورثتني إياها أمي.

وفي النهاية، كان ذلك من حسن الحظ. فرغم أملي بأن وجود طفل كان ليمنحني القوة للتماسك بعد رحيل لين، إلا أنني أشك في ذلك. ربما لم أكن لأنهار بتلك السرعة وذلك الدوي. انهيار بطيء وممتد عوضًا عن سقوطي المدوي أمام الملأ. وفي كلتا الحالتين، يخبرني حدسي بأنني كنت سأنتهي حتمًا إلى حيث أنا الآن.

سألتُ:

– «هل تفتقد ذلك؟»

أخذ بون قضمة من مثلجاته، مماطلًا. كان يدرك أنني لم أعد أقصد عمله في الشرطة.

أجاب أخيرًا:

– «ليس بعد الآن. في البداية نعم. وبشدة. تلك الأشهر الأولى، يا إلهي. قاسية بحق. أعني، يصبح الشرب هو جل ما يشغل تفكيرك. لكن يمضي يوم، ثم أسبوع، ثم شهر، ويبدأ حنينك يتلاشى شيئًا فشيئًا. وسرعان ما تكف عن التفكير فيه تمامًا لأنك تنشغل بالحياة التي كان بوسعك عيشها طوال هذا الوقت ولكنك لم تفعل.»

– «لا أظن الأمر بهذه السهولة.»

أنزل بون مخروط (الدرامستيك) ورمقني بنظرة.

– «حقًا؟ أنتِ تفعلين ذلك الآن. متى كانت آخر مرة شربتِ فيها كأسًا؟»

صُدمت لاضطراري للتفكير في الأمر – وليس لأنني شربت لدرجة أفقدتني الذاكرة. في البداية، كنت موقنة بأنني شربت شيئًا ما اليوم. ثم أدركت أن آخر عهدي بالخرب كان جرعة مزدوجة من البوربون الليلة الماضية، قبل أن أبحث عن توم وكاثرين رويس على متصفح (جوجل) في حاسوبي المحمول.

– «الليلة الماضية،» قلت، وقد اجتاحني فجأة عطش مجنون للخمر. مصصت مثلجات الـ (بومب بوب)، آملة أن تطفئ ظمئي. لكنها أخفقت. كانت شديدة الحلاوة وتفتقر لتلك اللسعة التي أتوق إليها. مجرد نسخة مجمدة من كوكتيل (شيرلي تيمبل).

لاحظ بون نفوري الواضح. ومد مخروط (الدرامستيك) نصف المأكول قائلًا:

– «لا يبدو أن مثلجاتكِ تروقكِ. أتريدين تذوق خاصتي؟»

هززت رأسي نافية.

– «لا، أنا بخير.»

– «لا أمانع حقًا. وأنا شبه واثق من أنكِ لا تحملين عدوى القمل.»

انحنيت وقضمت قضمة صغيرة من الجانب، لأحظى بمزيج متساوٍ من المثلجات والبسكويت.

قلتُ:

– «كنت أعشق هذه المثلجات في طفولتي.»

– «وأنا أيضًا.» رمقني بون بنظرة أخرى. «هناك بعض المثلجات على وجهك.»

تلمست شفتي باحثة عنها.

– «أين؟ هنا؟»

تنهد قائلًا:

– «على الجانب الآخر. تعالي، دعيني أمسحها.»

لامس بون زاوية فمي بسبابته ومررها ببطء على منحنى شفتي السفلى.

– «لقد أزلتها،» قال.

على الأقل، أظن أن هذا ما قاله. فقد كان قلبي يقرع بسرعة وبصوت عالٍ في أذني لدرجة منعتني من الجزم بذلك. ورغم الفراشات التي تراقصت في معدتي، كنت أعي تمامًا أن هذه كانت خطوة مدروسة من بون. خطوة ذكية. لكنها تبقى خطوة. خطوة تفوق بكثير صراحة لين الخجولة في ذلك اليوم بالمطار.

(هل يمكنني أن أحظى بقبلة أولًا؟)

كنت على استعداد للمضي قدمًا حينها. لكن ليس الآن. ليس بعد.

– «شكرًا،» قلت، وأنا أتزحزح قليلًا لأزيد المسافة بيننا بضع بوصات أخرى. «وشكرًا على ما فعلته في وقت سابق اليوم. لتشتيت انتباه توم لبرهة كافية مكنتني من التسلل خارج المنزل.»

– «لا شكر على واجب.»

– «وشكرًا لعدم بوحك لـ ويلما بذلك. أظن أنك كنت ترغب في ذلك. تبدوان مقربين.»

– «نحن كذلك، أجل.»

– «هل عملتما معًا؟»

– «أجل، لكني عرفت ويلما قبل ذلك بكثير،» قال بون. «تزاملنا في المدرسة، سواء في الثانوية أو في أكاديمية الشرطة. لقد مدت لي يد العون مرارًا وتكرارًا على مر السنين. كانت من بين أولئك الذين أقنعوني بترك الشرب. جعلتني أدرك أنني لم أكن أؤذي نفسي فحسب، بل من حولي أيضًا. والآن بعد أن تعافيت، لا تزال ترعاني بعينها. هي من قدمتني لعائلة ميتشل. كانت تعلم بحاجتهم لإصلاحات في منزلهم وبحاجتي لمأوى لبضعة أشهر. لذا يمكنكِ إلقاء اللوم عليها لابتلائكِ بي كجار.»

ألقى بآخر قطعة من مخروط المثلجات في فمه قبل أن يختلس نظرة إلى مثلجاتي، التي ذابت لدرجة استحال معها الاستمرار في تناولها.

سأل:

– «هل انتهيتِ منها؟»

– «أظن ذلك.»

قفزت من الباب الخلفي للشاحنة لأفسح المجال لـ بون لإغلاقه. وبعد إلقاء ما تبقى من مثلجاتي في سلة مهملات قريبة، عدت إلى الشاحنة. وبينما كنت أربط حزام الأمان على صدري، باغتتني فكرة: لسنا أنا وبون الوحيدين الذين يشاركون توم الإقامة عند البحيرة. هناك جار آخر، وبحد علمي، يجهل تمامًا كل ما يجري.

سألتُ:

– «أتظن أنه يجدر بنا إخبار إيلي؟»

– «بشأن توم؟»

– «إنه يقطن في المنزل المجاور له مباشرة. من حقه أن يعلم ما يحاك حوله.»

قال بون:

– «لا أظن أن عليكِ القلق. إيلي قادر على تدبر أمره. فضلًا عن أن توم لا يستهدف رجالًا في السبعين من عمرهم. كلما قل علم إيلي، كان ذلك أصلح له.»

شغل الشاحنة وانسحب من موقف السيارات. في المرآة الجانبية، لمحت سيارة (تويوتا كامري) متهالكة مركونة في مساحة حصوية خلف المتجر. رؤيتها أثارت في نفسي تساؤلًا عما إذا كانت سيارة ميغان كين، تقودها شقيقتها الآن.

وإن كانت شقيقتها تتجرع غصة حزن في كل مرة تجلس فيها خلف المقود.

وكم مضى على وقوف السيارة هناك قبل أن يفطن والدا ميغان لوقوع مكروه.

وإن كان يراودهم، حين يرونها متوقفة هناك الآن، أمل عابر وقاسٍ بأن ابنتهم الغائبة منذ زمن قد عادت.

تواصلت هذه الأفكار في الدوران في رأسي بعد وقت طويل من تلاشي السيارة والمتجر الذي تقف خلفه في المرآة الجانبية، تاركة إياي أتمنى لو كنت كـ إيلي، أجهل تمامًا ما يدور حولي.

لكن أوان ذلك قد ولى.

والآن، أخشى أنني صرت أعرف أكثر مما ينبغي.

***

عوضًا عن اتخاذ المنعطف المؤدي إلى منزلينا، قاد بون الشاحنة أبعد قليلًا نحو الطريق المفضي إلى الضفة المقابلة من البحيرة. لم يقدم تفسيرًا لذلك، ولم أكن بحاجة لواحد. فالدوران حول البحيرة بأكملها سيمر بنا حتمًا على منزل عائلة رويس لنتأكد من وجود توم هناك.

واتضح أنه لا يزال متواجدًا.

وليس بمفرده.

حين لاح ممر سيارات منزل آل رويس في الأفق، أبصرنا سيارة ويلما آنسون متوقفة بالقرب من الرواق الجانبي، محاصرة بذلك سيارة توم الـ (بنتلي) بفعالية. كانا في الخارج، يخوضان ما يبدو كحديث ودي.

حسنًا، ودي بالقدر الذي تسمح به طبيعة المحققة آنسون. لم ترتسم أي ابتسامة على محياها وهي تتحدث، لكنها في الوقت ذاته لم تبدُ قلقة من مبادلة أطراف الحديث مع رجل ترجح أنه سفاح متسلسل.

أما توم، فكان يفيض سحرًا وجاذبية. وقف بأريحية تامة في الفناء الأمامي، يضحك بخفة على تعليق ألقته ويلما للتو. عيناه تلمعان، وأسنانه تتألق ببياض ناصع خلف شفتيه المنفرجتين.

كل هذا مجرد تمثيلية.

أنا موقنة بذلك لأنه حين مررنا، بون وأنا، بالشاحنة، رمقني توم بنظرة جليدية قادرة على إعادة تجميد مثلجاتي التي ألقيتها للتو في سلة مهملات موقف السيارات. كافحت لأشيح بوجهي – نحو بون، نحو الطريق الممتد أمامنا، نحو قطعة البحيرة

التي تتراءى من بين الأشجار – لكني عجزت. كنت مسمرة بنظرة توم الثاقبة، ولم أملك سوى تحمل وطأتها وهي تلاحقني في الشاحنة العابرة.

رأسه يدور ببطء ملاحقًا إياي.

عيناه معلقتان بعينيّ.

والابتسامة التي كانت ترتسم على وجهه قبل ثوانٍ معدودة، تلاشت الآن بلا أثر.

****

حين أنزلني بون عند منزل البحيرة، خيمت بضع ثوانٍ من الصمت الثقيل بينما انتظر دعوتي له للداخل، في حين تجاذبتني الحيرة حول ما إن كنت أرغب في ذلك حقًا. كل محادثة أو تواصل عابر يقلص المسافة بيننا خطوة إضافية، كمراهقين خجولين يتقاسمان مقعدًا واحدًا، وتدفعهما جاذبية خفية للاقتراب. وفي هذه اللحظة، قد لا يكون هذا هو الخيار الأمثل لأي منا.

لم أختبر مثل هذا التردد مع موريس، عامل المسرح في (ذرة شك) الذي تدرج من رفيق شرب إلى رفيق فراش. كنا نتقاسم الغاية ذاتها: الثمالة وممارسة الجنس.

لكن بون ليس موريس. فهو متعافٍ، كبداية. ويحمل ندوبًا لا تقل عمقًا عن ندوبي. أما ما يبتغيه، فأفترض – بل وآمل – أن يشمل تشابك جسديهما العاريين. لكن إلى أي غاية؟ هذا هو السؤال الذي يتردد في ذهني كأغنية لـ (تايلور سويفت) تأبى الانقطاع. وجهلي بنواياه النهائية يجعلني أعزف عن الانخراط في اللعبة من الأساس.

علاوة على ذلك، أنا في أمس الحاجة إلى كأس خمر.

ذلك الظمأ الذي اجتاحني فور تذكري أنني لم أرتشف قطرة واحدة طوال اليوم لم يفارقني. صحيح أنه خبا قليلًا حين مرر بون إصبعه على شفتي السفلى، وحين سمرني توم بنظراته ونحن نمر بمنزله. لكنه الآن أشبه بحكة تلح في طلب الاستجابة.

حكة لا يسعني المساس بها في حضور بون.

قلتُ بصوت أرفع من المعتاد ليخترق هدير محرك الشاحنة:

– «ليلة سعيدة. شكرًا على المثلجات.»

رد بون برمشتين متعاقبتين تصلحان كـ (ميم) ساخر، وكأنه لم يعتد الرفض. وبمظهره هذا حتمًا، أرجح أن هذا لا يحدث له كثيرًا.

قال:

– «لا شكر على واجب. ليلة سعيدة لكِ أيضًا، على ما أظن.»

ترجلت من الشاحنة ودلفت إلى الداخل. كان الغسق قد أرخى سدوله على الوادي، ليغلف داخل منزل البحيرة بكآبة رمادية. تنقلت من غرفة إلى أخرى، أشعل الأضواء وأطرد الظلال في طريقي. وحين بلغت غرفة الطعام، قصدت خزانة المشروبات مباشرة واختطفت أقرب زجاجة طالتها يدي.

بوربون.

لكن بعد أن فتحت الزجاجة، استوقفتني عبارة تفوه بها بون سابقًا ومنعتني من رفعها إلى شفتي.

(كنت أؤذي الآخرين وليس نفسي فحسب).

هل أؤذي الآخرين بشربي؟

أجل. لا مجال للشك في ذلك. أنا أؤذي مارني. أؤذي أصدقائي وزملائي. أنكمش خجلًا حين أسترجع مدى وقاحتي الفجة مع طاقم مسرحية (ذرة شك). ظهوري مخمورة كان أبلغ رسالة ازدراء لجهودهم واستعداداتهم المضنية. لم يهب أحد منهم للدفاع عني بعد فصلي، ولا أملك إلا أن أعذرهم.

أما بالنسبة لأمي، فأنا أتعمد الشرب لإيذائها، رغم إصرارها على أنني لا أعاقب سوى نفسي. هذا غير صحيح. فلو أردت معاقبة نفسي حقًا، لحرمتها من أحد المتع القليلة المتبقية لي.

وأنا أستلذ بالشرب.

كثيرًا.

يروق لي ذلك الشعور الذي يتملكني بعد الكأس الثالثة أو الرابعة أو الخامسة. ذلك الخدر والطفو. كقنديل بحر ينساب في محيط هادئ. ورغم إدراكي لزواله – وأنني بعد ساعات سأصحو بجفاف في الحلق، ورأس يطرق ألمًا، ومعدة تلفظ كل ما في جوفها – إلا أن انعدام الوزن المؤقت هذا يستحق الثمن.

لكن أيًا من هذه الأسباب ليس الدافع وراء فشلي في قضاء يوم واحد بكامل وعيي طوال الأشهر التسعة الماضية.

أنا لا أشرب لأؤذي، أو لأعاقب، أو لأنتشي.

أنا أشرب لأنسى.

ولهذا أميل الزجاجة وأرفعها إلى شفتي الجافتين المنفرجتين. وما إن يلامس البوربون لساني وسقف حلقي، حتى يذوب كل التوتر المتراكم في عقلي وعضلاتي دفعة واحدة. أنفرج كبرعم زهرة يتفتح في أبهى حلة.

هكذا أفضل، أفضل بكثير.

أتجرع بلعتين إضافيتين من الزجاجة قبل أن أملأ كأسًا – خالية من الثلج – وأحملها إلى الشرفة.

أحال الشفق مياه البحيرة إلى لون فضي زئبقي، ونسيم عليل يداعب سطحها ليخلق تموجات خفيفة. على الضفة المقابلة، يقبع منزل آل رويس غارقًا في العتمة. تعكس جدرانه الزجاجية حركة المياه، لتبدو وكأن المنزل بأسره يتموج.

هذا الخداع البصري يرهق عينيّ.

أغمضهما وأرتشف بضع قطرات إضافية في الظلام.

أبقى على هذه الحال لزمن لا يعلمه إلا الله. دقائق؟ نصف ساعة؟ لا أحصي الوقت لأنني ببساطة لا أكترث. يكفيني الجلوس على الكرسي الهزاز، عينيّ مطبقتين، بينما يدفئني البوربون ليصد لسعة نسيم المساء.

اشتدت الرياح بما يكفي لتهيج البحيرة. (تريش)، تعلن عن قرب وصولها. تندفع المياه نحو الشاطئ، لتلطم الجدار الحجري الساند خلف الشرفة. صوت يشبه، بشكل مروع، خطوات ثقيلة تخوض في الماء، فلا يسعني إلا أن أتخيل جثث ميغان كين، وتوني بورنيت، وسو إلين سترايكر، التي نهشتها الأسماك، وهي تطفو من الأعماق لتطأ الشاطئ.

والأدهى من ذلك هو تصوري لـ كاثرين تفعل الشيء ذاته.

والأقسى هو تخيل لين يقف هناك أيضًا، صورة ذهنية بالغة الحيوية لدرجة أقسم معها أنني أستشعر حضوره. لا يهم أنه، بخلاف الأخريات، عُثر على جثته وأُحرقت، ونُثر رماده في هذه البحيرة بالذات. لا أزال أوقن أنه هناك، على بُعد ياردات قليلة من الشاطئ، يقف في العتمة بينما تداعب المياه ركبتيه.

(أنتِ تدركين أن البحيرة مسكونة، أليس كذلك؟)

كلا يا مارني، ليست كذلك.

أما الذكريات، فشأن آخر. إنها تعج بالأشباح.

فأشرب المزيد لأطردها.

وبعد كأسين – أو ثلاث – من البوربون، تلاشت الأشباح لكنني لا أزال هنا، تجاوزت مرحلة النشوة وأنزلق بخطى حثيثة نحو ثمالة مطبقة. وتوم لا يزال هنا أيضًا، قابعًا في مأمن داخل منزله الذي يتوهج الآن كشعلة نار.

يبدو أن ويلما لم تجد مبررًا لاستدعائه للمزيد من الاستجواب، أو لعل توم قد حبك من الأكاذيب ما يكفي للإفلات في الوقت الراهن. وفي كلتا الحالتين، إنه نذير شؤم. فـ كاثرين لا تزال في عداد المفقودين، وتوم يصول ويجول حرًا طليقًا وكأن شيئًا لم يكن.

ممسكة بالمنظار بيدين خدرتين ومرتجفتين من فرط البوربون، أراقبه عبر نافذة المطبخ. يقف عند الموقد، واضعًا منشفة أطباق على كتفه وكأنه طاهٍ محترف وليس

مجرد مليونير مدلل يكابد لتسخين حساء. وعلى الرخامة تقبع زجاجة أخرى من نبيذ الخمسة آلاف دولار. يسكب لنفسه كأسًا ويرتشف منه متلمظًا بشفتيه. رؤية توم بهذا القدر من اللامبالاة بينما مصير زوجته مجهول، تدفعني للوصول إلى كأسي وإفراغها عن آخرها.

وحين أنهض للتوجه للداخل وسكب كأس أخرى، تبدأ الشرفة، والبحيرة، ومنزل عائلة رويس في الميلان كسفينة (التايتنك). أشعر تحت قدميّ وكأن الأرض تميد، وكأنني تعثرت في أحد أفلام الكوارث السخيفة التي كان لين ليؤلفها.

وبدلًا من المشي عائدة إلى المطبخ، أترنح.

حسنًا، إذن أنا لست أطرق أبواب الثمالة.

لقد بلغتها بالفعل.

وهذا يعني أن كأسًا أخرى لن تضر، أليس كذلك؟

بلى.

أضيف المزيد من البوربون إلى كأسي وأعود بها للخارج، متوخية الحذر في حركتي. أضع قدمًا ببطء أمام الأخرى كمن يمشي على حبل مشدود. وسرعان ما أبلغ الكرسي الهزاز، لأهوي فيه مطلقة ضحكة خافتة. وبعد رشفة أخرى من البوربون، أستبدل كأسي بالمنظار وأسترق النظر إلى منزل آل رويس مجددًا، مركزة على المطبخ.

لم يعد توم هناك، رغم بقاء الحساء. يستقر الوعاء على الرخامة بجوار النبيذ، ولا تزال خيوط البخار تتصاعد في الهواء.

ينزلق بصري نحو غرفة الطعام، الخاوية هي الأخرى، ثم إلى غرفة المعيشة الفسيحة. وتوم ليس هناك أيضًا.

أميل بالمنظار قليلًا للأعلى، متتبعة بنظري ذات المسار الذي قطعته بقدمي سابقًا.

غرفة الرياضة.

خاوية.

غرفة النوم الرئيسية.

خاوية.

المكتب.

خاوٍ.

فكرة مقلقة تخترق غيوم ثمالتي: ماذا لو هرب توم فجأة؟ ربما دب الذعر في قلبه بعد محادثته مع ويلما آنسون. أو لعلها اتصلت به في اللحظة التي تأهب فيها لتناول حسائه، مخبرة إياه برغبتها في استدعائه لاستجواب رسمي، مما جعله يهرول للبحث عن مفاتيحه. من الوارد جدًا أنه يقود سيارته مبتعدًا في هذه اللحظة، مسرعًا نحو الحدود الكندية.

أدير المنظار بعيدًا عن الطابق الثاني نحو جانب المنزل، باحثة عن سيارته ٦ـ (بنتلي). لا تزال هناك، قابعة تحت الرواق.

وبينما أرد بصري نحو المنزل، ممررة إياه على الفناء الخلفي المتناثرة فيه أوراق الشجر الميتة والأشجار العارية على شاطئ البحيرة التي تساقطت منها، ألمح شيئًا على رصيف عائلة رويس.

شخصًا.

وليس أي شخص.

إنه توم.

يقف عند نهاية الرصيف، منتصب القامة كعمود فولاذي. ويقبض بيديه على منظار، مصوبًا إياه نحو هذا الجانب من البحيرة.

ونحوي أنا.

أنخفض، محاولة التواري خلف سياج الشرفة، وهو تصرف أدرك، حتى في ذروة ثمالتي، مدى سخافته من عدة جوانب. أولًا، إنه سياج وليس جدارًا قرميديًا. لا أزال مرئية بين ألواحه البيضاء. ثانيًا، لقد رآني توم. وهو يعلم، كما علمت كاثرين، أنني كنت أراقبهم.

والآن هو يبادلني المراقبة. ورغم أنني خفضت المنظار، لا يزال بوسعي رؤيته، طيفًا يكتنفه الليل يقف على حافة الرصيف. يثبت على هذا النحو لدقيقة إضافية قبل أن يستدير فجأة ويمشي عائدًا عبر الرصيف.

لم أجرؤ على رفع المنظار إلى عينيّ مجددًا إلا بعد أن اجتاز توم الفناء وتوجه عائدًا إلى داخل المنزل. في الداخل، لمحت طيفه يعبر غرفة الطعام قاصدًا المطبخ، حيث توقف ليختطف شيئًا من على الرخامة. ثم عاود التحرك، مندفعًا للخارج ثانية عبر الباب الجانبي الملحق بالمطبخ.

انزلق إلى داخل الـ (بنتلي). وبعد ثانيتين، دبت الحياة في المصابيح الأمامية – شعاعان توأمان شقا عباب الظلام عبر البحيرة. وحين أرجع توم السيارة من تحت الرواق، حسبت للوهلة الأولى أنه يلوذ بالفرار أخيرًا. لقد أدرك أنني كشفت أمره فقرر الهرب، ربما للأبد. انتزعت هاتفي من جيبي، متأهبة للاتصال بـ ويلما آنسون وإبلاغها. قفز الهاتف كضفدع وثاب من بين أصابعي المخدرة بالبوربون. اندفعت لالتقاطه، فأخفقت، وراقبته بعجز وهو يرتطم بأرضية الشرفة، وينزلق من تحت السياج، ويهوي إلى الأرض المعشبة بالأسفل.

وعبر الماء، بلغت ـ (بنتلي) نهاية الممر. وانعطفت يمينًا، لتسلك الطريق الذي يطوق البحيرة. رؤية ذلك أيقظت في ذهني فكرة أخرى تعيد لي وعيي. لو كان توم هاربًا، لانعطف يسارًا، نحو الطريق الرئيسي.

عوضًا عن ذلك، هو يقود في الاتجاه المعاكس.

حول البحيرة.

قاصدًا إياي مباشرة.

ولا أزال راكعة في الشرفة، أراقب مصابيح الـ (بنتلي) الأمامية وهي تشق نفقًا في الظلام، متبعة مسارها متجاوزة منزل إيلي، ثم متوارية عن الأنظار حين تبلغ المنحنى الشمالي للبحيرة.

أخيرًا، أتحرك.

أتعثر نحو داخل المنزل.

أوصد الأبواب الزجاجية المزدوجة خلفي بعنف.

أتخبط مع القفل لأنني ثملة ومرعوبة ولم أضطر لاستخدامه من قبل قط. ففي معظم الليالي، لا مبرر لإيصاد أي من الأبواب.

لكن الليلة، لدي مبرر.

وفي الداخل، أندفع من غرفة إلى أخرى، أطفئ كل المصابيح التي أشعلتها آنفًا.

غرفة الطعام والمطبخ. غرفة المعيشة وغرفة المكتب. المكتبة والبهو.

وسرعان ما يغرق المنزل بأسره في العتمة التي كان عليها حين وصلت. أزيح الستارة قليلًا عن النافذة الصغيرة المحاذية للباب الأمامي وأسترق النظر للخارج. لقد بلغ توم هذا الجانب من البحيرة وهو يتجه نحوي. ألمح المصابيح الأمامية أولًا، تشق الظلام، ممهدة الطريق لسيارة الـ (بنتلي) ذاتها، والتي تتباطأ سرعتها كلما دنت من المنزل.

أمني النفس بأمل ساذج أن يرى توم المكان غارقًا في عتمة تامة فيواصل طريقه، رغم علمه بوجودي هنا.

لكنه لا يفعل.

رغم ظلمة المنزل، يوجه توم سيارته نحو الممر. تتسلل أشعة المصابيح الأمامية عبر الألواح المشطوفة لنافذة الباب الأمامي، لترسم وهجًا مستطيلًا على جدار البهو. أنخفض متفادية النور، وأزحف نحو الباب، وأدير القفل.

ثم أنتظر.

متكورة على الأرض.

ظهري يسند الباب.

أصيخ السمع لـ توم وهو يترجل من السيارة، وتسحق خطاه الحصى في الممر صعودًا نحو المنزل، ليطأ الشرفة الأمامية.

وحين يطرق الباب بقوة، يرتجف الخشب خلف ظهري. أطبق بكلتا يدي على أنفي وفمي، متضرعة ألا يسمع أنفاسي.

– «أعلم أنكِ بالداخل يا كيسي!» كان صوت توم كقذيفة مدفع. مدويًا. وغاضبًا. «تمامًا كما أعلم أنكِ كنتِ داخل منزلي. لقد نسيتِ إقفال الباب الأمامي حين غادرتِ.»

أنكمش خجلًا من حماقتي. فرغم اضطراري للمغادرة على عجل، كان يجدر بي تذكر إيصاد الباب خلفي. إنها تلك التفاصيل الصغيرة التي قد توقعك في فخ حين تكون متورطًا في إخفاء أمر ما.

– «ربما كان الأجدر بي إخبار صديقتكِ المحققة بذلك بدلًا من الإجابة عن كل أسئلتها. ماذا كنت أفعل؟ هل سمعت خبرًا عن زوجتي؟ أين نزلت في كل صيف خلال العامين الماضيين؟ أنا أعلم أنكِ من أرسلها يا كيسي. وأعلم أنكِ تتجسسين عليّ.»

توقف لبرهة، ربما مترقبًا مني أي رد فعل، حتى لو كان إنكارًا لما هو حقيقة واقعة. لزمت الصمت، أستنشق أنفاسًا قصيرة ومحمومة عبر أصابعي المتشابكة، وهواجسي تتخبط حول خطوة توم التالية. كان وهج المصابيح الأمامية المتسلل عبر

نافذة الباب بمثابة تذكير قاسي بهشاشة المنزل وتعدد ثغراته. بوسع توم اقتحامه بسهولة إن أراد. زجاج محطم أو دفعة عاتية لأحد الأبواب هي كل ما يتطلبه الأمر.

عوضًا عن ذلك، عاود الطرق على الباب، بقوة لدرجة خُيل إليّ أنه سيحطمه حقًا. وأفلتت صرخة ذعر مكتومة من بين يدي المطبقتين. ضغطتهما بقوة أكبر على فمي، لكن الأوان كان قد فات. فقد تسلل الصوت.

وسمعه توم.

وحين استأنف حديثه، كان فمه ملاصقًا لثقب القفل، وصوته يهمس في أذني مباشرة.

– «يجدر بكِ تعلم عدم دس أنفكِ في ما لا يعنيكِ يا كيسي. ويجدر بكِ إغلاق فمكِ. لأنكِ مخطئة تمامًا في كل ما تظنين أنه يحدث. أنتِ لا تملكين أدنى فكرة عما يجري. فقط دعينا وشأننا بحق الجحيم.»

بقيت متكورة خلف الباب حتى بعد انصراف توم. أصغيت لخطواته تبتعد عن المنزل، وصوت باب السيارة يُفتح ويُغلق. راقبت تلاشي وهج المصابيح الأمامية عن جدار البهو، وسمعت طنين السيارة يبتعد في ليل أكتوبر.

ورغم ذلك، تسمرت في مكاني، مكبلة بالقلق.

خشية أن يعود توم في أي لحظة.

وخشية أن أختفي فجأة كـ كاثرين إن فعل.

مرعوبة ومنهكة – ولنكن صرحاء، بالغة الثمالة – لدرجة شلت حركتي، أغمضت عينيّ وأصغيت لدقات ساعة الحائط في غرفة المعيشة وهي تحصي الثواني في رأسي. وسرعان ما خبا الصوت. ومعه أفكاري. ووعيي.

وحين تناهت إلى مسمعي طرقات أخرى على الباب، بالكاد أدركتها. بدت بعيدة وأقرب للوهم. كصوت في حلم يقظة أو تلفاز تُرك يعمل بينما تغط في النوم.

ورافقها صوت.

على الأرجح.

– «كيسي؟» توقف قصير. «هل أنتِ هناك؟»

دمدمت بشيء ما. أظنه كان «لا».

قال الصوت من الجانب الآخر للباب:

– «رأيت توم يمر بالسيارة فساورني القلق من أنه قادم لرؤيتكِ. هل أنتِ بخير؟»

قلت «لا» مجددًا، رغم أنني لست واثقة هذه المرة مما إذا كانت الكلمة قد نُطقت أم اكتفيت بالتفكير فيها. بدأ وعيي يتلاشى ثانية. وخلف جفوني المطبقة، أخذ البهو يدور كلعبة (تيلت-أ-ويرل) الدوارة في الملاهي، وكنت أترنح معه، منزلقة نحو هاوية مظلمة من العدم.

وقبل أن أبلغها، استوعبت أمرين. الأول كان صوتًا منبعثًا من الأسفل، من ذلك القبو الذي أأبى دخوله. والثاني كان إحساسًا يثلج الصدر بأنني لم أعد وحدي، وأن ثمة شخصًا آخر داخل المنزل معي.

أحسست بباب يُفتح.

وخطوات تقترب مني.

شخص آخر في البهو.

منتزعة من غياهب ثمالتي لثانية واحدة، فتحت عينيّ بحدة لأرى بون منتصبًا فوقي، ورأسه مائل في نظرة تمزج بين الفضول والشفقة.

ثم انغلقت عيناي مجددًا حين رفعني بين ذراعيه، وغبت عن الوعي أخيرًا.

***

أستيقظ برأس يطرق ألمًا ومعدة تموج بالغثيان في سرير لا أذكر كيف آويت إليه. وحين أفتح عينيّ، يجبرني الضوء المتسلل عبر النوافذ الطويلة على التحديق، رغم أن سماء الصباح تكتسي بلون رمادي داكن. وعبر تلك النظرة المثقلة بالنعاس، ألمح الوقت – التاسعة والربع – وكأس ماء شبه ممتلئة على المنضدة. أتجرع عدة رشفات نهمة قبل أن أنهار مجددًا على السرير. وممددة على المرتبة، والأغطية تتشابك حول ساقيّ، أكابد لاسترجاع أحداث الليلة الماضية.

أذكر الشرب في الشرفة.

وانخفاضي بحماقة خلف السياج حين أدركت أن توم كان يراقبني.

وتوم عند الباب، يصرخ ويطرق، رغم أن معظم ما تفوه به قد ضاع في ضباب البوربون. وكذا الحال مع كل ما تلى ذلك، ولهذا أفزع حين أدرك رائحة شيء يُطهى تتصاعد من الطابق السفلي.

ثمة شخص آخر هنا.

أقفز من السرير، وأركل سلة مهملات تُركت بجواره دون قصد، وأترنح خارجة من غرفة النوم، وجسدي متصلب وموجع. وفي الردهة، تتضح روائح الطهي أكثر وتصبح مألوفة. قهوة ولحم مقدد. وعند قمة الدرج، أنادي على من في المطبخ.

– «مرحبًا؟» قلت، بصوت مبحوح من فرط الحيرة وصداع الكحول القاتل.

– «صباح الخير أيتها النائمة. ظننتكِ لن تستيقظي أبدًا.»

سماع صوت بون يوقد ومضة أخرى في ذاكرتي. هو عند الباب بعد مغادرة توم بوقت قصير، وأنا أحاول الرد لكنني غير واثقة مما إذا كنت فعلت حقًا، ثم هو بالداخل، رغم أنني شبه متيقنة من أنني لم أفتح الباب قط.

– «هل قضيت الليل بأكمله هنا؟»

قال بون:

– «أجل، فعلت.»

لم تفعل إجابته سوى إثارة المزيد من التساؤلات. كيف؟ ولماذا؟ وماذا فعلنا طوال الليل؟ رغم أن إدراكي لكوني لا أزال أرتدي ذات الجينز والسترة القطنية من الأمس يرجح أننا لم نفعل شيئًا.

– «سأنزل... سأنزل فورًا،» قلت قبل أن أهرول عائدة إلى غرفة النوم. هناك، أتفحص المرآة فوق خزانة الأدراج. الانعكاس الذي يحدق فيّ يبعث على الفزع. بعينين محمرتين وشعر فوضوي، أبدو كامرأة لا تزال تترنح من فرط الشرب في الليلة الماضية، وهو واقعي بالضبط.

أمضي الدقائق الخمس التالية أتعثر وأتخبط في الحمام. أحقق ما لا بد أنه رقم قياسي لأسرع حمام في العالم، يليه تنظيف ضروري للأسنان وتمشيط للشعر. وغرغرة بغسول الفم وتبديل لملابسي إلى سروال جينز وسترة أقل رائحة، لأبدو بعدها بمظهر لائق.

إلى حد ما.

الجانب المشرق من فورة النشاط هذه هو أنها أنستني مدى قسوة الصداع الذي أعانيه حقًا. الجانب المظلم هو أن كل ذلك يعود ليضربني بقوة بمجرد محاولتي النزول على الدرج. التحديق في الانحدار الحاد للدرج يصيبني بدوار لدرجة أظن معها أنني سأتقيأ. أمتص بعض الهواء حتى يزول الشعور وأهبط الدرج ببطء، إحدى يدي على الدرابزين، والأخرى مسطحة على الحائط، وكلتا قدميّ تلامسان كل درجة.

عند الأسفل، آخذ بضعة أنفاس عميقة أخرى قبل التوجه إلى المطبخ. بون عند الموقد، يعد الفطائر المحلاة ويبدو كطاهٍ مشهور مثير في سروال جينز ضيق، وقميص أبيض أضيق، ومئزر يحمل عبارة (قبِّل الطاهي). أضبطه في منتصف قلب إحدى الفطائر. وبحركة خاطفة من معصمه، تقفز الفطيرة من المقلاة كلاعب جمباز قبل أن تتشقلب عائدة إلى مكانها.

– «تفضلي بالجلوس،» قال. «الإفطار جاهز تقريبًا.»

يستدير مبتعدًا عن الموقد لبرهة كافية ليناولني كوب قهوة يتصاعد منه البخار. أرتشف منه بامتنان وأجلس عند رخامة المطبخ. رغم صداعي النابض وجهلي بأي تفاصيل عن الليلة الماضية، إلا أن الموقف يفيض بحميمية تبعث على الراحة وقدر لا يستهان به من الشعور بالذنب. هكذا تمامًا كنا نمضي صباحات عطلات نهاية الأسبوع هنا، أنا ولين، أنا أتلذذ بالقهوة بينما يعد هو الإفطار مرتديا المئزر ذاته الذي يرتديه بون الآن. فعل ذلك مع شخص آخر يشعرني وكأنني أرتكب خيانة، وهو ما يفاجئني. لم أشعر بذرة ذنب حين ضاجعت عامل مسرح من (ذرة شك). ربما لأنني في تلك الحالة كنت أعي قواعد اللعبة.

أما هنا، فلا أملك أدنى فكرة.

يدفع بون أمامي طبقًا مكدسًا بالفطائر مع اللحم المقدد على الجانب، فتصدر معدتي وخزة ألم.

قلتُ:

– «بصراحة، لست جائعة جدًا.»

ينضم إليّ بون بطبقه المكدس بالطعام.

– «الأكل سيفيدكِ. أطعمي الخمر، وجوعي الحمى. أليس هذا هو المثل؟»

– «لا.»

– «قريب كفاية،» قال وهو يتوج فطائره بقطعتين من الزبدة. «والآن كُلي.»

أقضم قطعة صغيرة من اللحم المقدد، متوجسة من أن تدفعني للركض نحو الحمام للتقيؤ. لدهشتي، جعلتني أشعر بتحسن. وكذلك فعلت قضمة من الفطيرة. وسرعان ما صرت ألتهم الطعام، وأتبعه بالمزيد من القهوة.

قال بون بعفوية، وكأننا نتناول الإفطار معًا طوال الوقت:

– «كان يجدر بنا إحضار بعض شراب القيقب من المتجر بالأمس.»

أخفضت شوكتي.

– «هل يمكننا التحدث عما حدث الليلة الماضية؟»

– «بالتأكيد. إن كنتِ تذكرينه.»

أخذ بون رشفة من قهوته فورًا، وكأن ذلك سيخفف من نبرة التوبيخ في صوته. تظاهرت بتجاهل الأمر.

– «كنت آمل أن تملأ بعض الفراغات.»

قال بون:

– «كنت على وشك الصعود للنوم حين لمحت سيارة توم ٦ـ (بنتلي) تمر بجوار المنزل. وبما أنه لا يملك سببًا للقيادة في هذا الجانب من البحيرة، افترضت أنه قادم لرؤية أحدنا. ولأنه لم يتوقف عند منزلي، استنتجت أنه متوجه إليكِ. ولم أظن أن ذلك يبشر بالخير.»

قلتُ:

– «لقد ضبطني وأنا أراقب المنزل. ويبدو أنه ابتاع منظارًا لنفسه من متجر الأدوات الصلبة.»

– «هل كان غاضبًا؟»

– «هذا وصف ملطف للغاية.»

– «وماذا حدث حين كان هنا؟»

تناولت قضمتين أخريين من الفطيرة، وارتشفت رشفة طويلة من القهوة، وحاولت استجماع ذكرياتي الضبابية لزيارة توم. نجحت بضع منها في ذلك، متجلية بوضوح تام حين احتجتها.

قلتُ، متذكرة إحساس الباب على ظهري وهو يهتز تحت طرقات توم:

– «أطفأت كل الأضواء واختبأت بجوار الباب. لكنه كان يعلم بوجودي، فصرخ ببعض الأشياء.»

رفع بون بصره عن طبقه.

– «أي نوع من الأشياء؟»

– «هنا تبدأ الأمور في الضبابية. أظنني أذكر فحوى ما قاله، لكن ليس كلماته الدقيقة.»

– «إذن صوغيها بكلماتكِ.»

– «قال إنه يعلم أنني كنت أتلصص عليه، وأنني من أخبر ويلما بأمر كاثرين. أوه، وأنه يعلم باقتحامي لمنزله.»

سأل بون:

– «هل هددكِ؟»

– «ليس تمامًا. أعني، كان الموقف مرعبًا. لكن لا، لم تكن هناك تهديدات صريحة. طلب مني فقط أن أدعه وشأنه ورحل. ثم جئت أنت إلى الباب.»

توقفت، مشيرة إلى أن ذاكرتي قد خذلتني وأنني آمل أن يكمل لي بون البقية. وهو ما فعله، وإن بدا عليه الانزعاج الطفيف لاضطراره لتذكيري بأمر كان يفترض أن أكون بكامل وعيي لأتذكره بمفردي.

قال:

– «سمعتكِ بالداخل بعد أن طرقت الباب. كنتِ تدمدمين وتبدين في حالة ذهول. ظننتكِ مصابة ولست...»

توقف بون عن الكلام، وكأن كلمة (مخمورة) مرض معدٍ وسيصاب به مجددًا إن تجرأ على نطقها.

قلتُ، وقد باغتتني صورة له وهو ينتصب فوقي في الظلام:

– «لقد دخلت لتطمئن عليّ.»

– «أجل.»

– «كيف؟»

– «الطابق الأرضي.»

كان بون يشير إلى الباب المؤدي إلى القبو. الباب ذو الطلاء الأزرق الباهت والصرير المستمر الذي يفضي مباشرة إلى الفناء الخلفي أسفل الشرفة. لم أدرك أنه لم يكن موصدًا لأنني لم أنزل إلى هناك منذ الصباح الذي استيقظت فيه ووجدت لين مفقودًا.

أضاف، مشيرًا إلى طاولة غرفة الطعام حيث يقبع الهاتف الآن:

– «وجدت هاتفكِ في الخارج هناك، بالمناسبة.»

– «وماذا حدث بعد ذلك؟»

– «حملتكِ ووضعتكِ في السرير.»

– «وثم؟»

– «أجبرتكِ على شرب بعض الماء، ووضعت سلة مهملات بجوار السرير في حال شعرتِ بالغثيان، وتركتكِ وحدكِ لتنامي.»

– «وأين نمت أنت؟»

أجاب بون:

– «في غرفة النوم بآخر الممر. تلك التي تضم سريرين مفردين وسقفًا مائلًا.»

غرفة طفولتي، التي شاركتها مع مارني، والتي أتخيل أنها كانت لتشعر بمزيج من التسلية والصدمة لليلة الخالية تمامًا من الرومانسية التي قضيتها مع الشرطي السابق الوسيم في المنزل المجاور.

قلتُ:

– «شكرًا لك. لم تكن مضطرًا لتحمل كل هذا العناء.»

– «بالنظر إلى الحالة التي كنتِ عليها، أظنني كنت مضطرًا لذلك.»

لزمت الصمت بعد ذلك، مدركة عدم جدوى اختلاق أعذار للوصول إلى هذه الدرجة من الثمالة في وقت قصير هكذا. ركزت على إنهاء إفطاري، وتفاجأت حين فرِغ الطبق. وحين فرِغ كوب القهوة أيضًا، نهضت وصببت لنفسي كوبًا آخر.

قال بون:

– «ربما يجدر بنا الاتصال بـ ويلما وإخبارها بما حدث.»

– «لم يحدث شيء،» قلت. «فضلًا عن أن ذلك سيتطلب الكثير من التبريرات.»

إن أخبرنا ويلما آنسون بمجيء توم إلى بابي، فسيتحتم علينا أيضًا الإفصاح عن السبب. ولست متحمسة البتة للاعتراف لعضو في شرطة الولاية بأنني اقتحمت منزل شخص آخر. توم هو من أريده خلف القضبان. لا أنا.

قال بون:

– «حسنًا. لكن لا تظني لثانية أنني سأتركِكِ هنا بمفردكِ بينما لا يزال هو في الجوار.»

– «هل هو لا يزال في الجوار حقًا؟»

أجاب بون مع إيماءة نحو الأبواب الزجاجية المزدوجة وإطلالتها على الضفة المقابلة:

– «سيارته هناك. وهو ما أفسره بأنه لا يزال هناك أيضًا.»

نظرت من الباب وعبر البحيرة، متسائلة عن سبب عدم فرار توم حتى الآن.

وحين عبرت لـ بون عن تساؤلي، قال:

– «لأن ذلك سيبدو كإدانة له. وفي الوقت الحالي، هو يراهن على أن الشرطة لن تجد دليلًا ضده.»

قلتُ:

– «لكنه لا يستطيع الاستمرار في هذه المسرحية للأبد. سيدرك شخص آخر أن كاثرين مفقودة.»

انتقلت إلى غرفة الطعام والتقطت هاتفي، الذي حمل آثار سقوطه من الشرفة. الزاوية اليمنى السفلية مهشمة، وشق متعرج كبرق يشطر الشاشة من جهة لأخرى. لكنه لا يزال يعمل، وهذا هو الأهم.

دخلت مباشرة إلى حساب كاثرين على إنستغرام، والذي لم يشهد أي تحديث منذ صباح اختفائها. لا يمكن أن أكون الوحيدة التي تدرك أن صورة ذلك المطبخ الناصع لم تُنشر بواسطة كاثرين. بالتأكيد، سيلاحظ آخرون – وخاصة المقربين منها أكثر مني – الشهر الخاطئ على التقويم وانعكاس توم في غلاية الشاي.

في الواقع، من المحتمل أن يكون أحدهم قد لاحظ ذلك بالفعل.

أغلقت إنستغرام وفتحت الصور المحفوظة على هاتفي. راقبني بون من عند رخامة المطبخ، وقد توقف كوبه في منتصف المسافة إلى شفتيه.

– «ماذا تفعلين؟»

– «حين كنت أفتش منزل توم وكاثرين، وجدت هاتفها.»

– «أعلم،» قال بون. «وهو ما كان ليكون دليلًا قاطعًا لولا تلك المشكلة البسيطة المتمثلة في... تعلمين، الحصول عليه بطريقة غير قانونية.»

لاحظت سخريته لكنني كنت منشغلة بتقليب الصور لدرجة لم أعبأ بها.

مررت بصورة المقال عن هارفي برونير، والذي بدا محببًا على شاشة الحاسوب المحمول، وصور السجلات المالية لـ كاثرين وبيانات (ميكسر) الفصلية.

قلت وأنا أصل إلى الصور الملتقطة داخل غرفة النوم الرئيسية:

– «بينما كنت هناك، اتصل أحدهم بـ كاثرين. التقطت صورة للرقم الذي ظهر على الشاشة.»

– «وكيف سيفيدنا ذلك؟»

– «لو اتصلنا بالرقم وتبين أنه شخص قلق على كاثرين – وخاصة إن كان من أفراد عائلتها – ربما يكون ذلك كافيًا لـ ويلما وشرطة الولاية لإعلانها مفقودة واستجواب توم رسميًا.»

تصفحت الصور على هاتفي.

خواتم كاثرين.

ملابس كاثرين.

وأخيرًا، هاتف كاثرين، بشاشتيه الفارغة والمضاءة باتصال وارد.

حدقت في الشاشة داخل شاشتي. شعور غريب. كالنظر إلى صورة فوتوغرافية لصورة أخرى.

لا اسم يظهر. مجرد رقم، مما يحملني على الاعتقاد بأنه شخص لم تكن كاثرين تعرفه جيدًا على الأرجح. إن كانت تعرفه من الأساس. ثمة احتمال كبير أن يكون مسوقًا عبر الهاتف، أو معرفة سطحية، أو ببساطة رقمًا خاطئًا. أذكر ظهور رقمي الخاص على الشاشة حين اتصلت لأتأكد من أن الهاتف يخص كاثرين. ورغم أن تلك الأرقام العشرة أكدت أن كاثرين لم تضفني إلى جهات اتصالها، إلا أن ذلك لم يقلل من قلقي بشأن مكانها أو ما قد يكون ألمّ بها. قد يكون الحال ذاته مع هذا المتصل الآخر. قد يكون قلقًا بقدر قلقي.

اتصلت بالرقم دون تفكير ثانٍ، أتنقل بين الصورة ولوحة مفاتيح هاتفي حتى أدخلت الرقم كاملًا.

حبست أنفاسي.

وضغطت على زر الاتصال.

وعند رخامة المطبخ، بدأ هاتف بون في الرنين.

****

الوقت الحاضر

أقول:

– «ماذا فعلت بالفتيات بعد قتلهن؟ أهن هنا، في البحيرة؟»

يميل برأسه إلى الجانب ويواجه الجدار. في البداية، أظنه يعاقبني بالصمت مجددًا.

المطر يلطم النافذة.

وخلفها مباشرة، ينكسر شيء ما.

غصن شجرة يستسلم للرياح.

على السرير، ينطق بصوت يكاد يعلو بالكاد على العاصفة الهوجاء في الخارج.

– «أجل.»

لا ينبغي أن تكون الإجابة مفاجئة. أستحضر البطاقة البريدية، وتلك الإطلالة الجوية لبحيرة جرين، والكلمات الأربع المكتوبة بخط مرتعش أسفل ثلاثة أسماء.

(أظن أنهن قابعات هنا.)

ومع ذلك، تضربني هزة خفيفة من الصدمة. أشهق. نصف شهقة مرتجفة أثارها تأكيد أن ميغان كين، وتوني بورنيت، وسو إلين سترايكر كن قابعات في قاع البحيرة طوال هذا الوقت. لأكثر من عامين، في حالة ميغان. طريقة مروعة للدفن.

لكنهن لم يدفن هنا.

لقد أُلقي بهن.

تم التخلص منهن كأكياس قمامة.

مجرد التفكير في الأمر يملأ قلبي بحزن عميق لدرجة أنني أرتشف فورًا جرعة أخرى من البوربون. وحين أبتلعها، يحرق الكحول حلقي بدلًا من أن يهدئه.

– «هل تذكر أين؟»

– «أجل.»

يدير رأسه نحوي مجددًا. وحين تتلاقى أعيننا، أتساءل عما يراه في عينيّ. آمل أن يرى ما أحاول إظهاره وليس حقيقتي العاطفية. صرامة فولاذية بدلًا من الخوف، عزم بدلًا من حزن لا يسبر غوره على ثلاث نساء لم ألتقهن قط. لكنني أشك في أنه قادر على النفاذ لداخلي. فهو يعلم أن التمثيل مهنتي.

أقول له:

– «إذن أخبرني. أخبرني أين يمكن العثور عليهن.»

يضيق عينيه بفضول.

– «ولماذا؟»

لأن الحقيقة ستنجلي حينها. ليس فقط أنه قتل ميغان، وتوني، وسو إلين، بل ما حل بهن، وأين كن حين فارقن الحياة، وأين يرقدن الآن. حينها سيتمكن أقاربهن وأصدقاؤهن، الذين طال انتظارهم للإجابات، من الحداد – وربما، في النهاية، إيجاد السلام.

لا أبوح له بذلك لأنني لا أظنه يكترث. بل قد يجعله ذلك أقل رغبة في الحديث.

يقول:

– «هل الأمر يتعلق بالعثور عليهن؟ أم بمعرفة ما حل بـ كاثرين؟»

– «كلاهما.»

– «وماذا لو كان أحدهما فقط ممكنًا؟»

أمرر يدي على المرتبة حتى تلامس مقبض السكين.

– «أظن أن كل الخيارات مطروحة على الطاولة، ألا تظن ذلك؟»

يرد بقلبة عين وتنهيدة، وكأنه سئم من فكرة استخدامي للسكين بالفعل.

يقول:

– «انظري إليكِ تتصنعين القوة. يجب أن أقر، حتى هذه المحاولة البائسة لتهديدي كانت مفاجئة. ربما قللت من شأنكِ قليلًا.»

أحكم قبضتي على السكين.

– «أكثر من قليلًا.»

يقول:

– «ثمة مشكلة واحدة فقط. قضية غير منتهية لست واثقًا من أنكِ أخذتها بالحسبان بعد.»

على الأرجح، هو محق. ثمة أمور كثيرة لم آخذها بالحسبان. لم أخطط لأي من هذا. أنا أعمل بلا نص الآن، أرتجل بجنون وآمل ألا أفسد الأمر برمته.

– «أنا لن أبرح مكاني.» يحرك ذراعيه لأقصى مدى، فتشتد الحبال التي تربطهما بأعمدة السرير. «وأنتِ باقية بالتأكيد. وهذا يثير فضولي حيال أمر واحد.»

– «وما هو؟»

– «ما تعتزمين فعله بـ توم رويس.»

البيت المقابل للبحيرة

قـبـل ذلـك..

تركتْ الهاتف يواصل الرنين، والصدمة تعقد لساني عن إنهاء المكالمة. ومن جهته، لم يكلف بون نفسه عناء الرد. فهو يعلم هوية المتصل.

أنا.

أحاول الوصول إلى ذات الشخص الذي هاتف كاثرين رويس.

قال بون في اللحظة التي أُحيلت فيها المكالمة إلى بريده الصوتي، لينساب إلى مسامعي نسختان منه، تتشابكان في دويتو سريالي:

– «يمكنني الشرح...»

«مرحبًا، أنا غير متاح للرد على مكالمتك. أرجوك...»

– «...اسمعيني يا كيسي. أنا أعلم بما...»

«...اسمك ورقمك، وسأقوم...»

– «...تفكرين، وأؤكد لكِ...»

«...بالاتصال بك.»

نقرت على هاتفي، قاطعة صوت بون المسجل بينما ينهض بون الحقيقي من عند رخامة المطبخ ويخطو نحوي.

حذرته:

– «لا تقترب.»

رفع بون يديه، باسطًا كفيه في إيماءة براءة.

– «أرجوكِ، اسمعيني فحسب.»

– «لِمَ كنت تتصل بها؟»

أجاب بون:

– «لأنني كنت قلقًا. لقد اتصلت بها في اليوم السابق، ولم ألقَ ردًا. وحين رأيتك تقتحمين المنزل، اتصلت للمرة الأخيرة، آملًا أن نكون مخطئين وأنها هناك تتجنبني، وأن اقتحامكِ سيفزعها فيدفعها للرد وإخباري بأنها بخير.»

– «تتجنبك؟ لقد أخبرتني أنك بالكاد تعرفها. وأنكما لم تلتقيا سوى مرة أو مرتين. وقلت الشيء ذاته لـ ويلما. يبدو هذا قلقًا مبالغًا فيه تجاه شخص ادعيت أنك لا تعرفه جيدًا.»

عاد بون للجلوس عند الرخامة، وابتسامة متعالية ترتسم على وجهه.

– «لا يحق لكِ الحكم. أنتِ بالكاد عرفتِ كاثرين.»

لا يسعني المجادلة في ذلك. علاقتي بـ كاثرين لم تتجاوز مرحلة المعارف العابرين حين اختفت.

قلتُ:

– «على الأقل لم أكذب بشأن ذلك.»

– «أنتِ محقة. لقد كذبت. هأنذا أعترف. لقد عرفت كاثرين. كنا أصدقاء.»

– «إذن لِمَ لم تصارحني بذلك؟ لِمَ الكذب عليّ؟ وعلى ويلما؟»

قال بون:

– «لأن الأمر كان معقدًا.»

– «معقدًا كيف؟»

استعدت بذاكرتي تلك الظهيرة التي لمحْت فيها كاثرين في الماء. ثمة أمر كان يجدر به أن يثير ريبتي حينها، لكنه ضاع في زحمة الأحداث اللاحقة.

لِمَ لم أرها قبل ذلك؟

لقد مكثت هناك طوال فترة ما بعد الظهيرة، جالسة في الشرفة، مواجهة لمنزلها ورصيفها. ورغم المسافة، ورغم أنني لم أكن أستعين بالمنظار بعد – ولم أكن

أولي الماء اهتمامًا كبيرًا – إلا أنني حتمًا كنت لألاحظ خروج شخص من الضفة المقابلة، ومسيره على الرصيف، وغوصه في الماء، وبدء سباحته.

لكنني لم أرَ شيئًا. ليس قبل أن تبلغ كاثرين منتصف البحيرة.

مما يعني أنها لم تسبح من ضفتها، بل من ضفتي. وتحديدًا، من جهة منزل ميتشل، حيث تنحني البحيرة للداخل، لتخفي الشاطئ جزئيًا.

قلتُ:

– «لقد كانت معك، أليس كذلك؟ في اليوم الذي كادت تغرق فيه؟»

لم يرمش بون.

– «أجل.»

– «ولماذا؟» تسلل حسد غير مقصود ولا مفر منه إلى نبرتي. «هل كنتما على علاقة غرامية؟»

أجاب بون:

– «لا. كان كل شيء بريئًا تمامًا. التقينا في الليلة التي وصلت فيها في أغسطس. جاءت هي وتوم لتقديم أنفسهما وأخبراني أنهما سيبقيان هنا حتى (عيد العمال) وأنه لا ينبغي لي أن أكون غريبًا. في اليوم التالي، سبحت كاثرين عبر البحيرة إلى رصيفي وسألتني إن كنت أود الانضمام إليها.»

– «أتظن أنها كانت تحاول إغواءك؟»

– «أظنها كانت تشعر بالوحدة فحسب. وإن كان في نيتها ممارسة الجنس، فلم ألمح ذلك. إنها عارضة أزياء خارقة بحق السماء. بوسعها الحصول على أي رجل تريده. لم يساورني أدنى شك في أنها كانت مهتمة بي.»

كل هذا التواضع المصطنع مجرد تمثيلية. بون يدرك تمامًا مدى وسامته. أستحضر صورته عاريًا على الرصيف، مستحمًا بضوء القمر، بجمال يسحر الألباب ك

كاثرين ذاتها. الآن، وأكثر من أي وقت مضى، أنا موقنة بأنه كان يعلم بمراقبتي له في تلك الليلة.

قلتُ:

– «إذن ذهبتما للسباحة معًا.»

– «بضع مرات، أجل. ولكن لا شيء أكثر من ذلك. كنا نجلس بعد ذلك على الشرفة ونتحدث. كانت تعيسة حقًا، هذا كان جليًا. لم تصرح بذلك قط. اكتفت بتلميحات قوية بأن الأمور كانت سيئة بينها وبين توم.»

فعلت كاثرين الشيء ذاته معي، ملقية تعليقات مبطنة حول حالة زواجها. وكـ بون، افترضت أنها كانت حزينة ووحيدة وتبحث عن صديق. ولهذا لم يكن لدي مبرر للكذب بشأن طبيعة علاقتنا.

– «إن كان الأمر بهذه البراءة، لِمَ لم تصارحني بالحقيقة أبكر؟»

– «لأن الأمر لم يعد كذلك. حسنًا، كاد ألا يكون كذلك.» تهدل في مقعده، وكأن البوح بالحقيقة قد استنزف طاقته. لولا مرفقيه المستندين على الرخامة، لظننت أنه سينهار على الأرض. «في اليوم التالي لـ (عيد العمال)، قبل عودتها هي وتوم إلى نيويورك، قبلتها.»

تخيلت سيناريو مشابهًا لما حدث بيننا بالأمس. بون وكاثرين يجلسان معًا، أقرب مما ينبغي، وحرارة الانجذاب تشع من أجسادهما. أتخيل بون يمرر إصبعه على شفتها السفلى، وينحني، ويطبع قبلة على البقعة التي لامسها للتو. حركة سلسة أخرى.

اكتسى صوت بون بقسوة لم أعهدها منه من قبل. نبرة يتردد فيها صدى الغضب والمرارة.

– «أصيبت كاثرين بالذعر، رحلت، وعادت إلى حياتها المخملية مع زوجها الملياردير. لم أظن قط أنني سأراها ثانية. ثم، قبل أيام قليلة، هاهي ذي، عائدة إلى

ذلك المنزل مع توم. لم تخبرني قط بعودتهما. ولم تتوقف لرؤيتي. اتصلت بها مرات عدة، لمجرد الاطمئنان عليها. لكنها تجاهلت المكالمات. وتجاهلتني.»

قلتُ:

– «ليس تمامًا، تذكر. فقد كانت معك في اليوم الذي أنقذتها فيه من البحيرة.»

قال بون:

– «لقد سبحت إلى هنا، دون سابق إنذار، تمامًا كما فعلت في المرة الأولى. حين رأيتها، ظننت أن شيئًا لم يتغير وأننا سنكمل من حيث توقفنا. لكن كاثرين أوضحت أن ذلك لن يحدث. أخبرتني أنها أتت فقط لتطالبني بالكف عن الاتصال بها. قالت إن توم قد لاحظ وكان يطرح الكثير من الأسئلة.»

– «وماذا قلت لها؟»

– «أنها حرة في الرحيل. ففعلت. ولهذا تفاجأت حين اتصلت بي في وقت لاحق من تلك الظهيرة.»

– «ولماذا اتصلت؟»

هز بون كتفيه وقال:

– «لا أدري. لم أجب ومحوت رسالتها دون الاستماع إليها.»

اجتاحتني ومضة من الذاكرة لجلوسي في الشرفة، أراقب آل رويس للمرة الأولى. لن أنسى قط كيف تسلل توم عبر غرفة الطعام بينما كانت كاثرين، في غرفة المعيشة، تجري مكالمة هاتفية، وتنتظر ردًا، وتهمس برسالة. الآن أعلم لمن كانت تلك الرسالة.

قلتُ:

– «كنت في طريقك إلى هنا حين اتصلت. هل كانت هي السبب وراء قدومك لتقديم نفسك؟ بما أن كاثرين صدتك، قررت تجربة حظك مع الجارة؟»

جفل بون متألمًا.

– «قدمت نفسي لأنني كنت وحيدًا وظننت أنكِ ربما تكونين كذلك. وأننا إذا أمضينا بعض الوقت معًا، فقد يتلاشى هذا الشعور لدى كلينا. وأنا لا أندم على ذلك. لأنكِ تعجبينني يا كيسي. أنتِ مرحة، وذكية، ومثيرة للاهتمام. وتذكرينني تمامًا بما كنت عليه في الماضي. أنظر إليكِ، وكل ما أريده هو أن...»

– «تصلحني؟»

قال بون:

– «أساعدكِ. لأنكِ تحتاجين للمساعدة يا كيسي.»

لكنه كان يبتغي أكثر من ذلك حين قدم نفسه في ذلك اليوم. أذكر سحره، وثقته المتعالية، ومغازلته التي وجدتها مزعجة ومغرية في آن معًا.

التفكير في تلك الظهيرة استدعى استنتاجًا مقيتًا. كان بون قد ذكر قضاءه اليوم في طلاء أرضية غرفة طعام آل ميتشل. إن كان متواجدًا هناك طوال الوقت، وعلى مقربة من أحداث البحيرة، لِمَ لم يحرك ساكنًا حين كانت كاثرين تغرق وأنا أصرخ طلبًا للنجدة؟

هذا السؤال قادني إلى آخر. سؤال مريع لدرجة أنني بالكاد استطعت النطق به.

– «حين جاءت كاثرين في ذلك اليوم، هل قدمت لها شيئًا لتشربه؟»

نهض بون فجأة وقد استوعب الأمر.

– «عصير ليمون. لماذا ت... لم أفعل ما تفكرين فيه.»

تمنيت لو أستطيع تصديقه. لكن المعطيات تحذرني من ذلك.

ادعت كاثرين أنها شعرت بوهن مفاجئ أثناء السباحة.

(بدا الأمر وكأن جسدي بأسره توقف عن العمل).

طوال هذا الوقت، كنت أظن أن توم هو المذنب. يقلد هارفي برووير ويدس جرعات ضئيلة من السم في مشروبات زوجته. لكن كان من الممكن أن يكون بون هو

الفاعل. بون الغاضب، والغيور، والمرفوض، يدس جرعة هائلة في عصير ليمون كاثرين.

قال:

– «كيسي. أنتِ تعرفينني. وتعرفين أنني لن أقدم على فعل كهذا قط.»

لكنني لا أعرفه. ظننت أنني أفعل، ولكن فقط لأنني صدقت كل ما أخبرني به. والآن أنا مضطرة للتشكيك في كل شيء.

بما في ذلك، كما أدركت، ما قاله عن الصرخة في الصباح الذي اختفت فيه كاثرين. ولأنني كنت لا أزال تحت تأثير الثمالة، لم أكن واثقة من مصدر الصوت. بون هو من حسم الأمر بأنه قادم من الضفة المقابلة للبحيرة، متحججًا بصدى لست متأكدة الآن من وجوده.

من الوارد أنه كان يكذب. وأن الصرخة لم تأتِ من الضفة المقابلة، بل من هذه الضفة.

ضفته.

مما يعني أن هناك احتمالًا بأن يكون بون هو من دفع كاثرين للصراخ.

قلتُ وأنا أرى بون يشرع في الاقتراب:

– «ابقَ بعيدًا عني.» طريقة تحركه – البطيئة والمدروسة – كانت أشد إثارة للرعب مما لو كان يندفع. منحتني وقتًا كافيًا لأدرك ضخامة بنيته، وقوته، ومدى سهولة الإيقاع بي.

قال:

– «لقد أسأتِ الفهم تمامًا. لم أمس كاثرين بسوء.»

واصل تقدمه نحوي، فرحت أتلفت بحثًا عن أقرب مخرج. خلفي تمامًا تقع الأبواب الزجاجية المزدوجة المؤدية إلى الشرفة، ولا تزال موصدة. قد أتمكن من فتحها والهرب للخارج، لكن ذلك سيستنزف ثوانٍ ثمينة لست واثقة من امتلاكي لها.

وحين أصبح بون في متناول اليد تقريبًا، انحرفت جانبًا وانطلقت نحو قلب المطبخ. ورغم أنه ليس مخرجًا، إلا أنه يمنحني وصولًا إلى أدوات أدافع بها عن نفسي. التقطت إحداها – أطول نصل من حامل السكاكين على الرخامة – وأشهرته أمامي، متحدية إياه أن يقترب خطوة أخرى.

قلتُ:

– «غادر منزلي. ولا تعد إليه أبدًا.»

انفرج فم بون، وكأنه على وشك إطلاق إنكار آخر – أو ربما التبديل لتهديدي. لكنه، كما يبدو، آثر الصمت كخيار أسلم، فأغلق فمه، ورفع يديه استسلامًا، وغادر المنزل دون أن ينبس بكلمة أخرى.

***

أتنقل من باب إلى آخر، متأكدة من إيصادها جميعًا. أغلقت الباب الأمامي بعد دقائق معدودة من خروج بون منه، وأبواب الشرفة لا تزال مقفلة منذ الليلة الماضية. لم يتبق سوى باب واحد – الباب الأزرق ذو الصرير في القبو.

آخر مكان أود الذهاب إليه.

أعلم يقينًا أنه لا يوجد ما يهدد حياتي فعليًا هناك. فليس فيه سوى خردة كانت تُستخدم كثيرًا في الماضي، وباتت منسية الآن. ما أروم تجنبه هو ذكريات يوم وفاة لين. لا خير يرجى من استرجاع ذلك الصباح. لكن بما أن باب القبو كان منفذ بون للداخل الليلة الماضية، فلا مناص من إقفاله لردعه عن تكرار فعلته.

ورغم أننا لا نزال في منتصف الصباح، فقد تجرعت جرعة من الفودكا قبل التوجه إلى القبو. فالقليل من الشجاعة السائلة لا يضر أبدًا.

ولا الجرعة الثانية.

ولا الثالثة.

أشعر بتحسن ملحوظ حين أشرع أخيرًا في نزول درجات القبو. لم أتردد بالكاد عند الدرجة الأخيرة، متوقفة لثانية واحدة فقط قبل أن أطأ بكلتا قدمي على الأرض الخرسانية. لكن واجهة القبو هي الجزء الأسهل. فهنا تقبع الذكريات السعيدة. لعب تنس الطاولة مع والدي. مارني وأنا خلال عطلة عيد الميلاد، نعتمر القبعات والسترات الشتوية قبل أن نثب مرحين على الجليد المتجمد للبحيرة.

أما الذكريات الأليمة فتربض في الخلف، في غرفة الطين. وحين أدلف إليها، أندم على عدم تجرعي جرعة رابعة من الفودكا.

أسرع نحو الباب وأدير المقبض. إنه مقفل.

لقد فعل بون ما أغفلته أمس في منزل آل رويس. لربما كان الأجدر به اقتحام منزلهم بدلًا من منزلي. وبما أن الباب الأزرق موصد بأمان، أستدير لأتفحص بقية غرفة الطين، مواجهة جدارًا مغطى بألواح مسطحة أفقية مطلية بالرمادي. المسامير التي تثبتها بادية للعيان، لتضفي لمسة ريفية باتت رائجة الآن، لكنها لم تكن سوى للضرورة العملية حين شُيد المنزل. أحد الألواح يفتقر لمسمارين، مما يخلق فجوة صغيرة بينه وبين الجدار. يذكرني ذلك مجددًا بقدم المنزل، وهشاشته، ومدى سهولة تسلل أحدهم للداخل حتى مع إقفال كل الأبواب.

محاولة نفض هذا التقييم الكئيب لكن الصادق عن ذهني، أندفع خارجة من غرفة الطين، عبر القبو وصعودًا إلى غرفة الطعام، حيث أختطف الفودكا من خزانة المشروبات وأتجرع جرعة أخرى. وبمعنويات محصنة، أستل هاتفي من جيبي، متأهبة للاتصال بـ إيلي لأخبره بكل ما دار في الأيام القليلة الماضية.

سيهديني إلى الصواب.

لكن حين أتفحص هاتفي، أرى أن إيلي قد هاتفني بالفعل بينما كنت غارقة في النوم. رسالته الصوتية مقتضبة، دافئة، وتثير القلق قليلًا.

«انتهيت للتو من مشاهدة الأخبار. تبدو هذه العاصفة أسوأ مما توقعوا. سأخرج لجلب المؤن. اتصلي بي خلال النصف ساعة القادمة إن احتجت لأي شيء.»

كان ذلك قبل ثلاث ساعات.

أحاول الاتصال بـ إيلي على أية حال. وحين تُحال المكالمة مباشرة إلى البريد الصوتي، أُنهي الاتصال دون ترك رسالة، وأتناول حاسوبي المحمول، وأحمله إلى غرفة المعيشة. وهناك، أقدم على ما كان يجدر بي فعله منذ أيام: أبحث عن بون كونراد في جوجل.

أول ما يطالعني هو مقال عن وفاة زوجته، وهو ما توقعته. لكن ما لم أتوقعه إطلاقًا هو فحوى المقال، والذي جُسد في عنوانه.

«التحقيق مع شرطي في وفاة زوجته.»

أُحدق بذهول في العنوان، وأعصابي تتوتر وتنتفض. ويزداد الطين بلة حين أطالع المقال لأكتشف أن زملاء بون في العمل قد لاحظوا تناقضات في روايته لأحداث يوم وفاة زوجته. لقد أخبرهم – كما أخبرني – أنها كانت لا تزال على قيد الحياة حين غادر إلى عمله ذلك الصباح. ما تغافل بون عن ذكره هو أن الطبيب الشرعي حصر وقت الوفاة في إطار زمني مدته ساعتان، تخللهما نصف ساعة كان لا يزال فيها بالمنزل.

لكن دائرة الشكوك لم تقف عند هذا الحد. فقد تبين أن زوجة بون – واسمها ماريا – قد قصدت محامي طلاق قبل وفاتها بأسبوع. ورغم قسمه بأنه لم يكن يعلم بنيتها للطلاق، لم يجد زملاء بون مناصًا من التنحي عن القضية وإيكال مهمة إجراء تحقيق رسمي لشرطة الولاية.

أواصل البحث، لأعثر على مقال آخر نُشر بعد أسبوع، يعلن فيه إعفاء بون من أي تهم تتعلق بوفاة ماريا كونراد. ويوضح المقال أنه لم يثبت أي دليل يبرئه من قتلها. بل بكل بساطة، لم يكن هناك دليل يدينه.

أُرفق بالمقال صورتان. إحداهما لـ بون، والأخرى لزوجته. صورة بون كانت صورة رسمية من قسم الشرطة. ولا يثير الدهشة أنه بدا فيها وسيمًا حد العبث بزي الشرطة. الصدمة الحقيقية كانت أن ماريا كانت تضاهيه جمالًا. بعينين براقتين، وابتسامة عريضة، وتقاسيم وجه فاتنة، بدت وكأنها خُلقت لتتهادى على منصات العرض جنبًا إلى جنب مع كاثرين رويس.

تخيلهما معًا على منصة العرض ذكرني بأنني لست الوحيدة عند البحيرة التي يساورها الفضول حيال ما حل بـ ماريا كونراد. فقد أبدى أحد آل رويس اهتمامًا أيضًا. وكان بون من بين الأسماء العديدة التي بحثت عنها في حاسوب توم.

ربما كانت كاثرين.

ربما كان هذا هو ما صعقها في مكتب توم حين راقبتها من الضفة المقابلة.

ربما واجهت بون بالأمر في صباح اليوم التالي.

وربما استشعر ضرورة إسكاتها.

ورغم أن كل هذا لا يعدو كونه مجرد تخمينات جامحة، إلا أنها تكتسي أهمية توجب إبلاغ ويلما آنسون بها. ولهذا سحبت هاتفي وبادرت بالاتصال بها على الفور.

– «آنسون،» أجابت قبل أن تكتمل الرنة الأولى.

– «مرحبًا ويلما. أنا كيسي فليتشر. من بحيرة...»

قاطعتني. «أعرف من أنتِ يا كيسي. ما الخطب؟ هل استجد شيء مع توم رويس؟»

في الواقع، استجد الكثير، لكن الدراما التي حفل بها الأمس تبدو باهتة مقارنة بأحداث هذا الصباح.

– «أتصل بشأن بون.»

– «ما خطبه؟»

– «إلى أي مدى تعرفينه؟»

قالت ويلما:

– «أعرفه كأخي. لِمَ تسألين؟»

– «كنت أقوم ببعض التحريات.»

ردت ويلما بجفاف تام:

– «وهو ما يندرج ضمن مهامي. لكن أكملي.»

– «واكتشفت – بل وأخبرني بون بنفسه – أنه كان على معرفة بـ كاثرين رويس. كانا صديقين. وربما أكثر من ذلك.»

– «أعلم،» قالت ويلما.

توقفت، والحيرة تغلب على دهشتي. «تعلمين؟»

– «لقد اتصل بي بون قبل نصف ساعة وأخبرني بكل شيء.»

– «إذن هو مشتبه به الآن، أليس كذلك؟»

– «ولِمَ قد يكون؟»

قلتُ:

– «لأنه كذب. في أمور كثيرة. وهناك أيضًا ما حدث لزوجته.»

قالت ويلما بحدة مباغتة:

– «هذا لا يمت بصلة لما نحن فيه.»

– «بل يمت. وكاثرين كانت على علم بذلك. لقد بحثت – أو هكذا أظن – عن مقال حول الأمر في حاسوب توم.»

أدركت زلتي في اللحظة التي تفوهت بها. فكالسيارة التي تهوي من منحدر، لم يعد بوسعي التراجع. الخيار الأوحد هو ترقب شدة الارتطام.

سألت ويلما:

– «وكيف لكِ أن تعرفي ذلك؟»

في البدء، لزمت الصمت. وحين نطقت، كان صوتي خفيضًا ومثقلًا بالذنب.

– «لقد كنت داخل منزلهما.»

– «أرجوكِ أخبريني أن توم هو من أدخلكِ وأنكِ لم تقتحمي المكان في غيابه.»

– «لم أقتحمه،» قلت. «لقد تسللت للداخل.»

الصمت الطويل الذي تلا ذلك من جانب ويلما كان كفتيل مشتعل يزحف ببطء نحو كومة ديناميت. أي لحظة الآن، وسيقع الانفجار. وحين حدث، كان أشد دويًا وضراوة مما توقعت.

– «أعطني سببًا واحدًا يمنعني من المجيء واعتقالكِ الآن،» هدرت ويلما في أذني. «هل تدركين مدى غباء ما فعلتِ يا كيسي؟ لقد أفسدتِ للتو تحقيقي بالكامل.»

قلتُ:

– «لكنني عثرت على أشياء.»

– «لا أريد أن أعرف.»

– «أشياء مهمة. تدينه.»

علا صوت ويلما أكثر. لا أدري كيف. فقد ظننت أنها بلغت أقصى درجات الغضب.

– «ما لم تكوني قد عثرتِ على كاثرين رويس شخصيًا، فلا أريد أن أعرف. هل تفهمينني؟ فكلما تفوهتِ أو فعلتِ المزيد من الحماقات، قلّ ما يسعني تقديمه قانونيًا للقاضي والمدعي العام. ذلك الحاسوب الذي عبثت به هو دليل. وتلك الغرف التي جلتِ فيها قد تكون مسرح جريمة. وأنتِ للتو لوثتِ كل ذلك. ناهيك عن أن تواجدكِ في ذلك المنزل – واحتمالية أن تكوني قد دسستِ شيئًا يدينه فيه – يمنح توم ذريعة سهلة لتبرير أي شيء قد نعثر عليه هناك.»

– «أنا لم أدس...»

– «توقفي عن الكلام،» أمرت ويلما. «توقفي عن التلصص. توقفي عن كل شيء.»

– «أنا آسفة.» خرجت الكلمة كصرير. «حقًا، كنت أحاول المساعدة فقط.»

– «لست بحاجة لأسفكِ ولا لمساعدتكِ،» قالت ويلما. «أحتاج منكِ أن تبتعدي تمامًا عن توم رويس. وعن بون.»

– «لكنكِ لا تنكرين أن بون يثير الشبهات، أليس كذلك؟ فوفاة زوجته أولًا، ثم اختفاء كاثرين.»

اختلست نظرة إلى الحاسوب المحمول، الذي لا يزال يعرض المقال الذي يبرئ بون من تهمة التورط في وفاة ماريا. تفحصت سطوره، آملة في التقاط عبارة تدعم موقفي. وعوضًا عن ذلك، وقعت عيناي على تصريح في ذيل المقال.

(أما فيما يخص شرطة الولاية، فالضابط كونراد بريء تمامًا وكل الاتهامات الموجهة إليه لا أساس لها من الصحة).

تجمدت الدماء في عروقي حين أدركت هوية المُصرح.

المحققة ويلما آنسون.

– «لقد أخبرتكِ...»

أنهيت المكالمة، قاطعة حديث ويلما في منتصفه. وحين عاودت الاتصال بعد ثوانٍ، تركت الهاتف يرن. وحين حاولت مجددًا، حولته للوضع الصامت. لا جدوى من الرد. فمن الجلي أنها ترى بون معصومًا من الخطأ. ولن يفلح كلامي في إثنائها عن ذلك.

لم أعد أثق بـ ويلما.

وقطعًا لا أثق بـ بون.

وأدركت أنني وحيدة تمامًا في هذا.

***

لم أطأ بقدمي خارج المنزل إلا بعد أن أسدل الليل ستائره، وحتى حينها لم أتجاوز حدود الشرفة. ثمة ثقل مريب يغلف الهواء. مشبع بالرطوبة والاضطراب. تلاشت رياح الليلة الماضية، وحل محلها سكون يبعث على الرهبة.

الهدوء الذي يسبق العاصفة.

مكومة في كرسي هزاز، أرتشف جرعة من البوربون.

الرابعة أو الخامسة أو السادسة.

يستحيل إحصاء الجرعات حين أحتسي مباشرة من الزجاجة.

خلال فترة ما بعد الظهيرة وأوائل المساء، كنت إما في السرير، أصارع عبثًا لاختطاف بعض النوم؛ أو في المطبخ، ألتهم أي طعام يختزل وقت التحضير؛ أو أطوف في أرجاء المنزل كطير حبيس قفص. وبينما كنت أتنقل – من المكتبة إلى غرفة المكتب إلى غرفة المعيشة – كنت أتدبر ما بوسعي فعله الآن، إن كان ثمة ما يُفعل.

ولم أستغرق طويلًا لاستخلاص الإجابة.

لا شيء.

فهذا ما تبتغيه ويلما في نهاية المطاف.

لذا لجات إلى صديقي القديم، البوربون – الوحيد الذي أئتمنه في هذه اللحظة. وها أنا الآن منتشية وأتأرجح على حافة الثمالة. لا يفصلني عن الهاوية سوى رشفة أو اثنتين من الزجاجة.

خيار يغوي بشدة.

لأنني أريد أن يتلاشى كل شيء.

قلقي على كاثرين، شكوكي التي تطوق توم وبون، عزلتي، وشعوري بالذنب، وحزني الدفين. أريد لكل ذلك أن ينمحي، وألا يعود أبدًا. وإن استلزم الأمر أن أغرق في الثمالة حتى أفقد الوعي، فليكن.

قابضة على عنق الزجاجة، أميلها للخلف، متأهبة لإفراغها عن آخرها.

لكن قبل أن أفعل، يسترعي انتباهي ضوء ينبثق من نافذة مطبخ آل رويس. كفراشة، أنجذب نحوه. لا طاقة لي بمنع نفسي. أضع الزجاجة وألتقط المنظار، موهمة نفسي بألا ضير من استراق نظرة أخيرة للمنزل. فبناءً على كلام ويلما، لقد أفسدت كل شيء بالفعل. ولن يزيد تلصصي على توم الآن الأمور سوءًا.

إنه عند الموقد مجددًا، يسخن علبة حساء أخرى. وحين يرمق النافذة بنظرة فاترة، لا يساورني الخوف من أن يضبطني أراقبه مجددًا. فالشرفة، كحال بقية المنزل، غارقة في عتمة حالكة. وكذا البحيرة والشواطئ المحيطة بها.

وباستثناء مطبخ آل رويس، الضوء الوحيد الآخر المتلألئ في الأرجاء هو وهج مستطيل ينعكس على سطح البحيرة المتموج إلى يميني. منزل عائلة ميتشل. ورغم عجزي عن رؤية المنزل بوضوح من موقعي، إلا أن تلك البقعة المضيئة تبوح لي بكل ما أحتاج معرفته.

بون في المنزل.

أنا محاصرة؛ قاتل زوجات محتمل عن يميني، وآخر يتربص بي على الضفة المقابلة من البحيرة مباشرة.

خاطرة لا تبعث على الطمأنينة البتة.

أدير المنظار شطر منزل إيلي. إنه غارق في ظلام مطبق. من سخرية القدر أن الشخص الوحيد الذي يمكنني الوثوق به على هذه البحيرة هو الوحيد الغائب عنها. أتصل بهاتفه المحمول، آملة أن يجيب، ويخبرني أنه في طريق العودة من شراء المؤن وسيمر بي قبل التوجه لمنزله. وعوضًا عن ذلك، تُحال المكالمة فورًا إلى بريده الصوتي.

أترك له رسالة، مكابدة لتبدو نبرتي واعية وغير مكترثة. وأفشل في كلتيهما.

– «إيلي، مرحبًا. أنا كيسي. أنا، إممم، آمل أن تعود للمنزل قريبًا. كأن تعود الآن. تدور أحداث حول البحيرة تجهلها. أحداث خطيرة. وحسنًا، أنا خائفة. وأنا في أمس الحاجة لصديق الآن. لذا إن كنت بالجوار، أرجوك تعال إليّ.»

أنهيت المكالمة والدموع تنهمر من عينيّ. باغتني البكاء، ورغم رغبتي في عزوه إلى التوتر والبوربون، إلا أنني أدرك أن الجذور أعمق من ذلك. أبكي لأن الأربعة عشر شهرًا التي تلت رحيل لين كانت قاسية كالجحيم. أجل، كانت مارني بجانبي، وأمي، والكثيرون غيرهم ممن هبوا للمواساة. لكن أيًا منهم – ولا حتى لولي فليتشر المحبوبة – لم يكن بمقدوره أن يدرك حقًا حقيقة شعوري.

ولذا شربت.

كان ذلك أهون.

فالكحول لا يصدر أحكامًا.

ولا يخذلني أبدًا.

لكن إن أسرفت في الشرب، ولمدة أطول مما ينبغي، فإن كل هؤلاء الأشخاص ذوي النوايا الحسنة في حياتك، والذين يكابدون لفهمك ويعجزون، يستسلمون في النهاية ويتوارون شيئًا فشيئًا.

هذا هو الإدراك الذي صفعني وأنا أثرثر على الهاتف رغم يقيني بغياب المصغي. هذه هي قصة حياتي باختصار. في هذه اللحظة، أنا لا أملك شيئًا ولا أحدًا. إيلي غائب، وبون ليس محل ثقة، ومارني تتبرأ من كل هذا. أنا وحيدة تمامًا، وهذا يغمرني بحزن مطبق لا يُحتمل.

أمسح دموعي، وأتنهد، وألتقط المنظار ثانية، لأنه ببساطة لا يوجد ما أفعله سواه. أركز عدستي على مطبخ آل رويس، حيث انتهى توم من تسخين حسائه. وبدلًا من صبه في وعاء، أفرغه في حافظة حرارية كبيرة وأحكم إغلاق غطائها.

غريب.

وبالحافظة في يده، فتح درجًا واستل منه مصباحًا يدويًا.

أغرب.

وسرعان ما أطل في الخارج، فشق شعاع المصباح عباب العتمة. رؤيته استحضرت في ذهني ذكرى الليلة الماضية، حين رمقته يفعل الشيء ذاته من نافذة غرفة النوم. ورغم عجزي حينها عن استبيان وجهته، أنا الآن موقنة بها.

منزل عائلة فيتزجيرالد.

وفي لمح البصر، تبدد خمرتي ليحل محلها تأهب بالغ، فبت حساسة لكل ما يحيط بي. الغيوم تهرول متخطية وجه القمر. طائر غواص يطلق نداءً موحشًا في زاوية خفية من البحيرة. المصباح اليدوي يتهادى بين الأشجار، يرتفع وينخفض ويومض كيراعة عملاقة. وانبثقت ذكرى أخرى، حررتها تلك الرؤية.

أنا، مسندة ظهري للباب، وتوم على الجانب الآخر، يصرخ بكلمات أعجزني الخوف والشمالة عن استيعابها.

(أنتِ لا تملكين أدنى فكرة عما يجري،) قال. (فقط دعينا وشأننا بحق الجحيم).

دعينا.

أي ليس هو وحده.

مما يعني أن ثمة طرفًا آخر متورط في كل هذا.

اتسع صدري. فقاعة من الأمل، تضغط على قفصي الصدري.

قد تكون كاثرين لا تزال على قيد الحياة.

أتريث في خطوتي حتى يُتم توم رحلة عودته إلى منزله. ينقضي ربع ساعة قبل أن ينبثق شعاع المصباح اليدوي خارج منزل عائلة فيتزجيرالد، زاحفًا في الاتجاه المعاكس لمساره الأول. أتعقبه بعدستي المنظار طوال الطريق حتى يبلغ منزل آل رويس، حيث يطفئ توم المصباح قبيل ولوجه للداخل.

أضع المنظار جانبًا وأهب للعمل.

نزولًا عبر درجات الشرفة.

اجتيازًا للحديقة.

وصولًا إلى الرصيف الخشبي.

بدأت السماء تمطر – قطرات غليظة تصفع وجهي وشعري وألواح الرصيف بينما أشق طريقي نحو القارب الراسي عند نهايته.

واشتدت الرياح أيضًا، محيلة مياه البحيرة إلى أمواج هائجة. يترنح القارب ويتأرجح، مما يجعل صعوده مهمة شاقة، تجبرني على أداء قفزة خرقاء مبتورة من الرصيف. وما إن أستقر بداخله، حتى يعتصرني الندم على ما تجرعته من خمر بينما يعتلي القارب تموجات المياه المتصاعدة.

أغمض عينيّ، وأرفع وجهي للرياح، تاركة المطر يجلد بشرتي. ليس علاجًا سحريًا بالتأكيد؛ فمعدتي تواصل غليانها ورأسي لا يكف عن النبض. لكن برودة

المطر تكفي لتبديد غيوم الثمالة، ولسعته كفيلة بإعادة تركيزي على ما يتحتم عليّ فعله تاليًا.

عبور البحيرة.

أفك وثاق القارب من الرصيف، ولا أجرؤ على تشغيل المحرك. أدرك تمامًا كيف ينتقل الصوت عبر هذه البحيرة، حتى في خضم عاصفة، ولا أود المجازفة بافتضاح أمري. عوضًا عن ذلك، ألجأ للتجديف، مستخدمة ضربات بطيئة وموزونة لمغالبة اضطراب المياه. إنه جهد مضنٍ – يفوق ما توقعته بكثير – يجبرني على التوقف في منتصف البحيرة لالتقاط أنفاسي.

وبينما يواصل القارب صعوده وهبوطه، ألتف في مقعدي وأمسح ببصري كل منزل يستقر على شواطئ بحيرة جرين. منزل عائلتي ومنزل فيتزجيرالد غارقان في عتمة تجعلهما يذوبان في سواد الليل. وكذا الحال مع منزل إيلي، ما ينبئني بأنه لم يعد بعد.

وعلى النقيض من ذلك، يتوهج الطابق الأول بأكمله في منزل عائلة ميتشل، مما يدفعني لتخيل بون يذرع الغرف جيئة وذهابًا، حانقًا عليّ. ثم هناك منزل آل رويس، مظلم في طابقه الأول ولا ينبعث الضوء إلا من نافذة غرفة النوم الرئيسية في الطابق الثاني. لعل توم، بعد أن فرغ من مآربه في المنزل المجاور، يأوي إلى فراشه، رغم أن الساعة لم تتجاوز الثامنة مساءً.

إلى الغرب، يزحف جدار من الغيوم الحالكة السواد، طامسًا النجوم والقمر ومعظم قبة السماء ذاتها. يبدو كموجة عاتية. موجة توشك أن تنقض على الوادي وتُغرق كل ما يعترض طريقها.

لقد حلت العاصفة.

أستأنف التجديف، وقد بت أخشى البقاء في البحيرة في ظل هذا الطقس المتدهور أكثر من خشيتي مما ينتظرني على الضفة المقابلة. فقد اشتد هطول المطر، وازدادت عتْو الرياح، وتسارع هيجان المياه. تطلب الأمر ثلاث ضربات بالمجداف

لقطع مسافة ضربة واحدة في الظروف العادية. وحين أبلغت الضفة الأخرى أخيرًا، كانت كتفاي مشدودتين وموجعتين، وذراعاي واهنتين كالهلام. بالكاد أملك القوة لربط القارب بينما يتقلب في مهب الريح، ويصطدم جانبه مرارًا برصيف عائلة فيتزجيرالد.

يستلزم الخروج من القارب قفزة محفوفة بالمخاطر مرة أخرى، هذه المرة نحو الرصيف. ثم أهرول نحو اليابسة، منهكة، ومتوترة، ومبللة حتى العظم. وفي السماء، يبدأ الرعد في الزمجرة. وتضيء ومضات البرق طريقي بينما أتخبط عبر الحديقة قاصدة الأبواب الزجاجية المزدوجة في الجزء الخلفي لمنزل فيتزجيرالد.

موصدة.

بالطبع.

وكذلك الحال مع الباب الأمامي والباب الجانبي المفضي إلى المطبخ. وأنا أقف تحت وابل المطر أهز المقبض، أدرك أن توم يتمكن من الدخول لأن آل فيتزجيرالد على الأرجح قد منحوه نسخة من المفاتيح تحسبًا لأي طارئ قد يلم بالمنزل. إنه عرف شائع بين ملاك المنازل هنا على البحيرة. يمتلك آل فيتزجيرالد مفاتيح منزل عائلتي، وكذلك إيلي. والأرجح أن هناك مفتاحًا قابعًا في مكان ما في منزل البحيرة يتيح لي ولوج هذا الباب بالذات.

ونظرًا لنفاد خيارات الأبواب، أجرب النوافذ، لأصيب الهدف في محاولتي الثالثة. نافذة غرفة الجلوس. وما يزيد الأمر مثالية هو وقوعها في الجانب الذي لا يواجه منزل آل رويس، مما يمنحني متسعًا من الوقت والغطاء لأرفع النافذة، وأنزع الشبكة، وأتسلل للداخل.

أتعثر للداخل وأغلق النافذة لأمنع تسلل المطر. يتصادم سكون المنزل بشكل مروع مع العاصفة في الخارج، مما يجعله يبدو أشد هدوءًا.

وأشد إثارة للريبة.

لا أملك أدنى فكرة عما – أو من – يتربص بي هنا، حقيقة تجعل قلبي يقرع بقوة تضاهي الرعد المزمجر في السماء بالخارج. السكون والصمت ثقيلان لدرجة تدفعني للرغبة في الاستدارة والزحف عائدة من النافذة. لكن توم قدم إلى هنا لغاية ما. والفضول لمعرفة هذه الغاية يدفعني للمضي قدمًا، رغم أنني بالكاد أتبين طريقي. لم أخطُ سوى خطوتين قبل أن أصطدم بخزانة جانبية مكتظة بصور مؤطرة ومصباح (تيفاني).

سحقًا للسيدة فيتزجيرالد وتحفها العتيقة.

المنزل مكتظ بها حتى آخره. صناديق مزخرفة، مقاعد حب تتزين بالمنسوجات، ومصابيح أرضية بطراز الروكوكو تتدلى البلورات من أغطيتها. كل منها عقبة يتحتم عليّ تفاديها وأنا أتنقل عبر العتمة.

قلتُ، بصوت أقرب للهمس منه للكلام:

– «مرحبًا؟ كاثرين؟ هل أنتِ هنا؟»

أتوقف بين المطبخ وغرفة الطعام، مصيخة السمع لأي صوت قد يشي بوجودها. في البداية، لا أسمع سوى وقع المطر المتزايد على السقف ومزيدًا من دوي الرعد. لكن سرعان ما يتناهى إلى مسمعي صوت – بعيد ومكتوم.

صرير.

أسمعه ثانية، يتصاعد من الأسفل، خافتًا كالدخان.

القبو.

أتوجه نحو باب في ممر قصير متفرع من المطبخ، مؤمن بقفل سلسلة قديم الطراز موضوع في مكانه حاليًا. لوجود خزانة أطباق ضخمة بجواره، لظننت في العادة أنه يفضي إلى مخزن طعام أو خزانة مكانس. لكن السلسلة تشي بغير ذلك، لا سيما حين أمعن النظر. إنها مثبتة بمسامير في قطعتين خشبيتين صغيرتين سُمرتا في الباب

والجدار المحاذي له، وكأنه إصلاح مؤقت. وحديث. ينبعث من الخشب رائحة نشارة طازجة، مما يعيد إلى ذهني منشار المعادن الذي ابتاعه توم رويس مؤخرًا.

هذا من صنيع يديه.

وبالداخل يقبع شيء – أو شخص – يأبى أن يطلع عليه أحد.

ترتجف يدي وأنا أتخبط مع السلسلة، مزلقة إياها لتحرير القفل. حابسة أنفاسي، أسحب الباب ليُفتح، كاشفًا عن درجات تهوي في بركة من الظلام الدامس.

– «مرحبًا؟» أنادي، فيفزعني كيف يبتلع الظلام صوتي، مطفئًا إياه كشمعة.

لكن صريرًا آخر ينبعث من جوف ذلك الظلام، وكأنه يدعوني للنزول عبر تلك الدرجات.

يستقر مفتاح إضاءة خلف الباب مباشرة. أنقره، فينبثق وهج برتقالي باهت في الأسفل، مجلببًا معه صريرًا آخر وما خُيل إليّ أنه همهمة.

يجذبني الصوت للأمام، فأطأ الدرجة الأولى، حيث أتوقف وأصيخ السمع باهتمام.

لا شيء.

إن كان ثمة أحد بالأسفل، فقد لاذ بصمت مطبق.

أخطو درجة أخرى.

ثم أخرى، فتئن تحت وزني، ويفزعني الصوت.

يعقبه صرير آخر.

ليس مني.

بل من بقعة أعمق في القبو.

أهرول نزولًا عبر الدرجات المتبقية، إلى القبو الذي يضيئه مصباح يتيم يتدلى عاريًا من السقف. القبو مجرد هيكل خرساني. أرضية أسمنتية. جدران خرسانية. والدرجات التي هبطتها للتو ليست سوى هيكل عظمي من الخشب.

أخطو خطوة أخرى، فيتسع مجال رؤيتي، كاشفًا عن خردة متكدسة في زوايا القبو. منبوذات من تجارة تحف السيدة فيتزجيرالد. خزائن أدراج مشققة، وكراسٍ مبتورة الأرجل، وصناديق تتكدس فوق بعضها.

وملتصقًا بالجدار، يستقر سرير نحاسي قديم الطراز، يعتليه شيء ما.

لا.

ليس شيئًا.

شخص ما.

أتسلل مقتربة وأرى...

يا إلهي.

كاثرين.

ترتدي ذات الثياب التي رأيتها بها في الليلة التي اختفت فيها. الجينز والسترة البيضاء، التي تلطخت الآن بالبقع. حذاؤها مفقود، كاشفًا عن قدمين حافيتين تلوثتا برحلتها من منزلها إلى هنا. وخط من الحساء، لا يزال رطبًا، يسيل من زاوية فمها نحو عنقها.

لكن ذراعيها هما ما يبعث الرعب في نفسي أكثر من أي شيء.

لقد رُفعتا فوق رأسها وقُيدتا إلى زوايا السرير النحاسي بحبل معقود حول معصميها. وألمح المزيد من الحبال عند كاحليها، تثبتها ممددة الأطراف فوق غطاء بلاستيكي فُرد على المرتبة.

أطلقت شهقة مخنوقة.

سمعتها كاثرين، فرفرفت أجفانها لتنفتح. نظرت إليّ، في البداية مشتتة تمامًا، ثم غارقة في ذعر مطبق.

– «من...»

أوقفت نفسها، ولا تزال تحدق، ولانت عيناها الواسعتان المذعورتان بنظرة تعارف.

– «كيسي؟» كان صوتها غريبًا. مبحوحًا ومبتلًا قليلًا، وكأن ثمة ماء في مؤخرة حلقها. لا يبدو كصوتها على الإطلاق. «أهذه أنتِ حقًا؟»

قلتُ:

– «أنا هي. أنا هي وسأقوم بمساعدتكِ.»

أسرعت إليها، ووضعت يدي على جبهتها. كانت بشرتها باردة ولزجة من العرق. وشاحبة. شاحبة بشكل مفزع. تشققت شفتاها من الجفاف. فغرتها ونعقت بصوت واهن:

– «أنقذيني. أرجوكِ.»

مددت يدي نحو الحبل المعقود حول معصمها الأيمن. كان مربوطًا بإحكام شديد. احمر الجلد تحته من الاحتكاك، وتساقطت قشور من الدم الجاف من الحبل.

– «منذ متى وأنتِ هنا؟» سألت. «لِمَ فعل توم هذا بكِ؟»

يئست من فك الحبل حول معصميها وانتقلت إلى الطرف المعقود بالحاجز النحاسي. كان هو الآخر مشدودًا بإحكام، وشددته بعجز.

لكن ثمة صوت.

بالقرب من الدرج.

صرير مرتفع بشكل غير طبيعي يصدر عن شخص يندفع من الدرجة السفلية.

توم.

مبللًا بماء العاصفة.

تعابير وجهه مزيج من المفاجأة وخيبة الأمل والخوف.

قال وهو يندفع نحوي:

– «ابتعدي عنها. لم يكن يجدر بكِ البحث عنها يا كيسي. كان يجدر بكِ، حقًا، أن تدعينا وشأننا.»

واصلت التخبط مع الحبل، وكأن إصراري المحض كفيل بفك عقدته. كنت لا أزال أشد حين لف توم ذراعه حول خصري وسحبني بعيدًا. تخبطت في قبضته، أركل وأضرب. بلا طائل. كان قويًا بشكل مذهل، وسرعان ما وجدت نفسي مدفوعة نحو الدرج. اصطدمت الدرجة السفلية بربلتي ساقي فهويت للخلف حتى جلست رغماً عني.

قلتُ:

– «ما الذي تفعله بها بحق الجحيم؟»

أجاب توم:

– «أحميها.»

– «من ماذا؟»

– «من نفسها.»

نظرت إلى السرير النحاسي، حيث سكنت كاثرين. لكن عينيها ظلتا مفتوحتين، تراقباننا. ولدهشتي، لم تبدُ منزعجة بل مستمتعة قليلًا.

– «لا أفهم. ما خطب زوجتك؟»

– «تلك ليست زوجتي.»

– «إنها تبدو كـ كاثرين تمامًا.»

– «إنها تبدو مثلها،» قال توم. «لكنها ليست هي.»

اختلست نظرة أخرى إلى السرير. ظلت كاثرين بلا حراك، قانعة بمراقبة حديثنا. ربما كان كلام توم هو ما تسلل تحت جلدي، لكن شيئًا ما بها بدا غير طبيعي. طاقة كاثرين تبدو مختلفة عما عهدته.

قلتُ:

– «إذن من تكون؟»

– «شخص آخر،» قال توم.

رأسي يدور. لا أملك أدنى فكرة عما يتحدث عنه. ولا أفهم ما يجري. كل ما أعلمه هو أن الموقف أغرب بكثير مما تخيلت – وأنه يقع على عاتقي نزع فتيله.

– «توم.» أخذت خطوة نحوه، رافعة يدي لأبين أنني لا أنوي إيذاءه. «أحتاج أن تخبرني بما يجري.»

هز رأسه نافيًا. «ستظنين أنني مجنون. وربما أنا كذلك. لقد تداولت هذا الاحتمال كثيرًا في الأيام القليلة الماضية. لكان التعامل معه أيسر من هذا.»

أشار توم نحو كاثرين، ورغم أنني لست واثقة، أظن أن ما تفوه به للتو قد راق لها. ارتفعت زوايا فمها بشكل طفيف جدًا لتشكل ربع ابتسامة.

– «لن أظن ذلك،» قلت. «أعدك.»

التم يأس في نظرة توم وهي تتنقل بيني وبين المرأة التي ينكر أنها زوجته، رغم أنها كذلك بوضوح. «لن تفهمي.»

– «سأفهم إن شرحت لي الأمر.» خطوت خطوة أخرى نحوه. بهدوء. بحذر. «أرجوك.»

– «ذلك الكلام الذي ألقاه إيلي على مسامعنا في الليلة الأخرى؟» قال توم بهمهمة خائفة ومثقلة بالذنب. «عن البحيرة وإيمان الناس بوجود أرواح حبيسة في المياه؟»

– «أذكر ذلك.»

– «أظن... أظن أن ذلك حقيقي. أظن أن ثمة شيئًا كان في تلك البحيرة. شبح. روح. أيًا كان. وكان يتربص هناك. في الماء. وهذا الشيء تلبس كاثرين حين كادت تغرق، والآن... الآن أحكم سيطرته عليها.»

لا أدري كيف أرد.

ما عسى المرء أن يقول حين يواجه هراءً كهذا؟

الفكرة الوحيدة التي تجول في خاطري هي أن توم محق. لقد فقد صوابه.

يقول:

– «أعلم أنكِ تظنين أنني أكذب. وأنني أتفوه بالتفاهات. كنت لأشعر بالشيء ذاته لو لم أعش ذلك بنفسي. لكنها الحقيقة. أقسم لكِ يا كيسي. كل هذا حقيقي.»

أتجاوز توم، الذي لم يعد يحاول منعي من الاقتراب من السرير. أقف عند طرفه، أتشبث بالحاجز النحاسي، وأحدق في كاثرين. يتسع طيف الابتسامة بحضوري، ليزهر في ابتسامة عريضة تبعث على الغثيان.

أقول:

– «إن لم تكوني كاثرين، فمن أنتِ إذن؟»

تجيب بصوت ازداد عمقًا قليلًا، ليتحول إلى نبرة مألوفة بشكل يبعث قشعريرة في الأوصال:

– «أنتِ تعرفين من أكون. إنه أنا – لين.»

***

صعقة من الصدمة اجتاحتني، خاطفة ومدوية لدرجة خُيل إليّ أن تيارًا كهربائيًا يمر عبر إطار السرير. أفلتّ قبضتي عنه، وأنا أترنح قليلًا، أُحدق في الشخص المقيد. شخص هو، بلا أدنى شك، كاثرين رويس. ذات الجسد الممشوق، والشعر الطويل، والابتسامة التي تتصدر اللوحات الإعلانية.

ومع ذلك، أبدو الوحيدة هنا التي تدرك هذه الحقيقة، مما يوقعني في حيرة: من الأجدر بالقلق بشأنه أكثر؟ كاثرين لادعائها هذا الزعم الخيالي، أم زوجها لتصديقه إياه.

قال توم:

– «ألم أخبركِ؟»

ومن على السرير، أضافت كاثرين:

– «أعلم كم يبدو هذا غريبًا يا كيسي. وأعلم بماذا تفكرين.»

هذا مستحيل. لقد قيل لي للتو إن زوجي، الميت منذ أكثر من عام، يسكن جسد امرأة ظننتها مفقودة منذ أيام. لا أحد سواي يمكنه أن يدرك حجم الفوضى التي تعصف بأفكاري.

على الأقل الآن أستوعب سر كل كتمان توم، ناهيك عن أكاذيبه. لقد آمن باستحالة الإبقاء على كاثرين بالجوار والتظاهر بأن الأمور تسير كالمعتاد، في حين أن الموقف برمته، في نظره، كان أبعد ما يكون عن المعتاد. لذا اختطفها إلى المنزل

المجاور، بعيدًا عن قصرهم الزجاجي وعن عيوني المتلصصة. خبأ هاتفها المحمول، ونشر تلك الصورة المفبركة على إنستغرام، وسعى جاهدًا لكتمان ما اعتبره الحقيقة.

لأنه، من كان ليصدقه؟

أنا، بالتأكيد، لا أصدق.

الفكرة أبعد من أن توصف بالجنون.

إنها جنون مطبق ومختل.

قال توم، وكأنه يقرأ أفكاري بسهولة:

– «هذا حقيقي يا كيسي.»

– «أنا أؤمن بأنك تظن ذلك.» كانت كلماتي هادئة وحذرة – مؤشر واضح على أنني قد حسمت أمري. في هذه اللحظة، توم هو الأخطر بينهما. «متى بدأت تظن أن هذا يحدث؟»

– «ليس بالوقت المبكر الذي كان يجدر بي ملاحظته.» استرق توم نظرة مائلة نحو جسد زوجته، وكأنه يعجز عن مواجهتها بالكامل. «أدركت أن ثمة خطبًا في اليوم الذي انتشلتها فيه من البحيرة. كانت تتصرف بغرابة. ليست على طبيعتها تمامًا.»

هذا يطابق الوصف الذي سردته لي كاثرين عما اعتقدت أنه يصيبها. الوهن المفاجئ. نوبات السعال. الإغماء. يتوارد إلى ذهني أن هذا قد يكون شكلًا من أشكال الوهم التزامني، حيث يؤثر أحدهما على الآخر. لعل أعراض كاثرين أوحت لـ توم بأنها ممسوسة، مما دفع كاثرين بدورها لتصديق ذلك. أو العكس.

تابع توم:

– «استمر الأمر في التفاقم. حتى، ذات ليلة، بدا وكأن كاثرين لم تعد هناك. لم تعد تتصرف أو تتحدث كـ كاثرين. حتى حركاتها تغيرت. واجهتها بالأمر...»

قاطعت كاثرين:

– «وأنا صارحته بالحقيقة.»

لم أسأل متى حدث هذا لأنني أعلم سلفًا.

في الليلة التي سبقت اختفاء كاثرين.

لو أغمضت عينيّ، سيمكنني استحضار المشهد بوضوح سينمائي. توم يتوسل لـ كاثرين وهي تقف عند النافذة.

مَن.

هذه هي الكلمة التي كابدت لتبينها.

مَن كانت؟

لين، على ما يبدو. فكرة سخيفة للجميع باستثناء الشخصين الآخرين في هذا القبو. وأنا عالقة بينهما، وجنونهما يحاصرني من الجانبين، أدرك أنني بحاجة للفصل بينهما. فرغم أن توم كان يطعم كاثرين بوضوح، إلا أنه أهمل كل شيء آخر. تنبعث من السرير رائحة منفرة، تنبئ بأنها لم تغتسل منذ أيام. ورائحة أشد قذارة تفوح من دلو في زاوية القبو.

قلتُ، محاولة ألا أسمح للرعب الذي يملؤني بالتسرب إلى صوتي:

– «توم، هل يمكنك تركنا بمفردنا؟ لدقيقة واحدة فقط؟»

نظر أخيرًا إلى السرير وإلى الشخص الذي يظنه أحدًا غير زوجته.

– «لا أظنها فكرة سديدة يا كيسي.»

– «أريد فقط التحدث إليها،» قلت.

واصل توم تردده، رغم أن جسده بأسره بدا تواقًا للمغادرة. ساقاه متباعدتان، وكأنه يتأهب لسباق سريع، ومائل قليلًا نحو درج القبو.

– «لن أطيل،» قلت. «كاثرين لن تذهب إلى أي مكان.»

– «لا تفكي وثاقها.»

– «لن أفعل،» قلت، رغم أن هذا هو أول ما أعتزم فعله.

– «ستطلب منكِ ذلك. إنها... ماكرة.»

– «أنا مستعدة لذلك.» وضعت كلتا يدي على كتفيه وأدرته حتى تلاقت أعيننا. ولإدراكي بأن استرضاءه هو السبيل الوحيد لإقناعه بالرحيل، قلت: «اسمع، أعلم أنني تسببت لك في جحيم من المتاعب في الأيام الماضية. التلصص والشرطة. أنا آسفة حقًا. لم أكن أعلم ما يجري، فظننت الأسوأ. وأعدك بأن أعوضك عن ذلك قدر المستطاع. لكن الآن، أرجوك، إن كان هذا زوجي، فأريد التحدث إليه. على انفراد.»

تدبر توم الأمر، مغلقًا عينيه وضاغطًا بأصابعه على صدغيه وكأنه عراف يحاول استحضار المستقبل.

– «حسنًا،» قال. «سأمنحكِ خمس دقائق.»

وبعد أن حسم أمره، شرع في صعود الدرج بتثاقل. وفي منتصف المسافة، استدار ليرمقني بنظرة قلق أخيرة.

– «أنا جاد يا كيسي،» قال. «لا تلبي لها أي طلب.»

تركت كلماته تتردد في ذهني وهو يكمل صعود الدرجات المتبقية بخطوات ثقيلة. وحين بلغ القمة، سمعت الباب يُغلق خلفه، وما أثار رعبي، صوت انزلاق السلسلة لتوصد الباب.

الشيء الوحيد الذي كبح ذعري من أنني بتُّ محتجزة هنا أيضًا، هو الشخص القابع على السرير. ففي هذه اللحظة، كاثرين تكفي لإثارة قلقي.

سألتُ:

– «لِمَ تفعلين هذا يا كاثرين؟»

– «أنتِ تعلمين أن هذه لست أنا.»

– «لكن هذا هو مظهركِ،» قلت، رغم أن ذلك لم يعد دقيقًا تمامًا. فملامح كاثرين بدت تتغير بمهارة، لتصبح أشد قسوة وبرودة. كطبقة من الجليد تتشكل على سطح مياه ساكنة.

– «المظاهر قد تكون خادعة.»

يمكنها أن تكون كذلك. وأنا أعلم ذلك حق المعرفة. لكنني لا أصدق لثانية واحدة أن زوجي الميت يسكن جسد كاثرين. فإلى جانب كون ذلك منافيًا لكل قوانين العلم والمنطق، هناك حقيقة بسيطة وهي أن عقول البشر قادرة على اجتراح أفعال غريبة. تنشطر، وتتحور، وتخلق شتى أنواع المتاعب. قد تكون كاثرين مصابة بورم في الدماغ يدفعها للتصرف على غير طبيعتها، أو أنها تعاني من اضطراب تعدد الشخصيات غير المشخص الذي لم يتبدَ إلا الآن. هي تعلم من هو لين. وتعلم ما حل به. وبعد أن كادت تلقى المصير ذاته، لعلها أقنعت نفسها بأنها أصبحت هو. كل ذلك يبدو أكثر منطقية من هراء (المس بالروح القابعة في البحيرة) هذا.

ومع ذلك، والآن وقد أصبحنا وحدنا، لا يسعني التخلص من الإحساس بأن لين موجود في مكان ما في هذا القبو. يملأ حضوره الغرفة تمامًا كما كان يفعل حين كان حيًا. سواء في شقتنا أو في منزل البحيرة، كنت دائمًا أدرك تواجده، حتى وإن كان بعيدًا عن ناظري في غرفة أخرى. يغمرني الإحساس ذاته الآن.

لكن يستحيل أن يكون هنا.

الأمر ببساطة غير ممكن.

قلت لـ كاثرين:

– «أنتِ بحاجة للمساعدة. مستشفى. أطباء. دواء.»

– «هذا لن يجدي معي نفعًا.»

– «إنه أفضل من بقائكِ حبيسة هنا.»

– «أتفق معكِ في هذه النقطة.»

– «إذن دعيني أساعدكِ يا كاثرين.»

– «عليكِ أن تبدئي بمناداتي باسمي الحقيقي.»

عقدت ذراعي على صدري وزفرت بضيق.

– «إن كنتِ لين، فأخبريني بشيء لا يعلمه سوانا. برهني لي أنكِ هو حقًا.»

– «أواثقة من رغبتكِ في ذلك يا سي؟»

شهقتُ.

سي كان لقب الدلع الذي أطلقه لين عليّ. لم يكن يعلم به أحد خارج دائرة الأصدقاء المقربين والعائلة. وقطعًا لم تكن كاثرين لتعلمه، إلا إن زل لساني به في لحظة ما. من الوارد أنني ذكرته عرضًا حين كنا نحتسي القهوة على الشرفة أو نتجاذب أطراف الحديث في القارب بعد أن انتشلتها من البحيرة، رغم أنني لا أحتفظ بأي ذكرى لذلك.

– «كيف لكِ أن تعرفي ذلك؟»

– «لأنني من ابتكره، أتذكرين؟ بل واستخدمته في آخر حديث لنا، على أمل أن تلتقطي التلميح.»

تخبط قلبي في صدري وأنا أسترجع تلك المكالمة الهاتفية في وقت متأخر من الليل وتلويحة كاثرين الغامضة من النافذة.

(أنا بخير. انظري). [I'm fine. See]

الآن أدرك ما قالته حقًا.

(أنا بخير يا سي). [I'm fine, Cee]

لكنني أدرك أيضًا أن كاثرين هي من تفوهت بذلك. لا يمكن أن يكون أي شخص آخر. مما يعني أنني حتمًا نطقت بلقب لين في مرحلة ما. فتذكرته كاثرين وجعلته مجرد لبنة أخرى في جدار وهمها الشاسع.

– «هذا ليس كافيًا،» قلت. «أحتاج إلى دليل أقوى من ذلك.»

– «ما رأيكِ بهذا إذن؟» اتسعت ابتسامة كاثرين، لتمتد كبقعة زيت على وجهها. «لم أنسَ أنكِ قتلتني.»

الوقت الحاضر

قلتُ:

– «لا تزال لم تجب عن سؤالي. ماذا عن توم؟» بعد أن تركت دقيقة تمر دون أن أنبس بكلمة.

– «إنه بخير،» قلت. «في هذه اللحظة، زوجك هو آخر ما يشغل بالي.»

تجمدت في مكاني، مدركة زلتي.

حتى هذه اللحظة، نجحت في كبح فكرة أنني أحدث كاثرين. لكن من السهل أن يزل لساني حين تكون هي من أراها مقيدة وممددة على السرير وكأنها في جلسة تصوير تثير الجدل من أيام عرضها للأزياء. ورغم اختلاف الملابس، تبدو كاثرين مشابهة بشكل مخيف لحالتها حين انتشلتها من البحيرة. شفاه باهتة من البرد. شعر مبلل يلتصق بوجهها في خصلات تقطر ماءً. وعينان براقتان مفتوحتان على اتساعهما.

ومع ذلك، أدرك تمامًا أن كاثرين لم تعد حاضرة. لقد أمست مجرد وعاء لشخص آخر. شخص أشد سوءًا. أظن أن ما يحدث أشبه بمس شيطاني. براءة يبتلعها الشر. أتخيل (ليندا بلير)، برؤوس تدور، وحساء البازلاء.

قلتُ:

– «أنت من أخشاه.»

– «من اللطيف أن أرى أنكِ لا تزالين تكترثين.»

– «ليس هذا هو سبب خوفي.»

أنا أخشى أن يحرر نفسه، ويهرب، وينطلق طليقًا ليستأنف كل أفعاله البشعة التي اقترفها حين كان على قيد الحياة.

لقد أردى ميغان كين، وتوني بورنيت، وسو إلين سترايكر.

اختطفهن، ثم قتلهن، ثم ألقى بجثثهن في الأعماق الحالكة لـ بحيرة جرين.

ورغم أنه قد يتخذ هيئة كاثرين رويس الآن، قابعًا في جسدها، ناطقًا بلسانها، وناظرًا بعينيها، إلا أنني أدرك هويته الحقيقية.

ليونارد برادلي.

لين.

الرجل الذي تزوجته.

والرجل الذي توهمت أنني قد محوته من على وجه هذه البسيطة للأبد.

قـبـل ذلـك..

حين مازحت تلك المحررة التي أعرفها حول إطلاق اسم (كيف تصبح وجبة دسمة للصحف الصفراء في سبع خطوات سهلة) على مذكراتها المقترحة، كان يجدر بي إضافة خطوة أخرى للعنوان. خطوة سرية، تُطوى كعلامة مرجعية بين الخطوتين الخامسة والسادسة.

(تكتشفين أن زوجك قاتل متسلسل).

وهو ما حدث لي في الصيف الذي أمضيناه في بحيرة جرين.

حدث ذلك مصادفة، بالطبع. لم أكن أتلصص على حياة لين، أو أبحث عن أسرار مظلمة، لافتراضي الساذج بخلو حياته منها. كان زواجنا يبدو ككتاب مفتوح. شاركته كل شيء، وظننت أنه يبادلني ذات الشفافية. حتى حلت تلك الليلة التي أدركت فيها نقيض ذلك.

كان ذلك بعد أقل من أسبوع من نزهتنا على المنحدر الصخري عند الطرف الجنوبي لـ بحيرة جرين. منذ تلك الظهيرة، أمعنت التفكير في مقترح لين بأن نحاكي (العنيد العجوز) البارز من الماء ونستقر هنا للأبد. وارتأيت أنها فكرة سديدة، وأنه يجدر بنا تجربتها لعام لنرى ما ستؤول إليه الأمور.

وجدت أنه من الجميل أن أزف له قراري ليلًا بينما نحتسي النبيذ بالخارج بجوار النار. ما عكر صفو خطتي هو رذاذ الصباح الذي بلل أعواد ثقاب الموقد الطويلة للغاية والتي تركناها بالخارج طوال الليل، مما استحال معه إشعال تلك النار.

قال لين:

– «هناك ولاعة في صندوق أدوات الصيد الخاص بي. أستخدمها لإشعال سيجاري.»

أصدرت صوت تهوع. كان يعلم مدى مقتي لتلك السيجار التي كان يدخنها أحيانًا أثناء الصيد. كانت رائحتها الكريهة تأبى الزوال حتى بعد أن يفرغ منها.

سأل:

– «هل تريدين مني إحضارها؟»

ولأن لين كان منشغلًا بفتح زجاجة نبيذ وتقطيع بعض الجبن ليرافقه، أخبرته أنني سأنزل إلى القبو لأحضرها. قرار لم يستغرق سوى جزء من الثانية بدّل مجرى كل شيء، رغم أنني لم أدرك ذلك حينها.

انطلقت نحو القبو. لم يساورني أي تردد حينها. مجرد هرولة سريعة على الدرج تلتها انطلاقة مباشرة نحو غرفة الطين والجدار الطويل المكسو برفوف تعج بمعداتنا الخارجية. وفي الأعلى، استقر الرف الذي احتفظ فيه لين بصندوق أدواته. كان بلوغه يتطلب تمددًا. وقفت على أطراف أصابعي وذراعاي ممدودتان، لأقبض عليه بكلتا يدي.

تخبط كل ما بداخل الصندوق وأنا أنزله إلى الأرض، وحين فتحته، تجلى أمامي تشابك من الطعوم المطاطية الملونة كحلوى زاهية، غير أنها كانت مزودة بخطافات شائكة حادة تكفي لإسالة الدماء.

إنذار، كما أدرك الآن. إنذار تجاهلته في حينه.

عثرت على الولاعة في قاع صندوق الأدوات، برفقة بضعة من تلك السيجار اللعينة. وتحتها، مدسوسًا في الزاوية الخلفية، كان منديل أحمر مطويًا في شكل مستطيل متكتل.

في البداية، حسبته حشيشًا. فرغم أنني لم أتعاطَ الماريجوانا منذ سنوات مراهقتي الغارقة في المخدرات، كنت أعلم أن لين كان يفعل ذلك بين الحين والآخر. افترضت أنه شيء آخر يدخنه أثناء الصيد حين لا يكون في مزاج للسيجار.

لكن عوضًا عن كيس صغير يحوي أوراقًا مجففة، وحين بسطت المنديل، طالعتني ثلاث رخص قيادة. أُرفقت بكل منها خصلة شعر بمشبك ورق، وتطابق لون كل خصلة مع لون شعر المرأة صاحبة الصورة.

قلبت الرخص عشرات المرات، والأسماء والوجوه تتوالى كعرض شرائح قادم من الجحيم.

ميغان كين.

تونـي بورنيت.

سو إلين سترايكر.

أول خاطر داهمني، وليد سذاجة وإنكار، هو أن شخصًا آخر قد دسها هناك. لم أكترث لكون صندوق الأدوات يخص لين. ولندرة الزوار في منزل البحيرة -فزيارات أمي تراجعت وتيرتها مع تقدمها في السن، ومارني وخالتي انقطعتا عن المجيء منذ سنوات. وما لم يكن هناك مستأجر أجهله- فإن الخيار الأوحد المتبقي هو لين.

الخاطر الثاني، ما إن تبدد ذلك الأمل الزائف الأول، هو أن لين كان يخونني. حتى تلك اللحظة، لم ألقِ بالًا قط لمسألة الخيانة. لم أكن زوجة غيورة. ولم أرتاب يومًا في إخلاص زوجي. في وسط يعج بزير النساء، لم يبدُ هو من النوع الذي ينخرط في الخيانة. وحتى وأنا أقبض على هويات ثلاث نساء غريبات في يدي، واصلت منح لين قرينة الشك.

حاولت إقناع نفسي بوجود تفسير منطقي. وأن هذه الرخص، السارية المفعول جميعها، وخصلات الشعر ليست سوى مستلزمات احتفظ بها من فيلم شارك فيه. أو لعلها أبحاث لمشروع قادم. أو أن مهووسين أرسلوها إليه. وباعتباري شخصًا تلقى يومًا ما دجاجة حية تحمل اسمي من معجب عند باب المسرح، كنت خبيرة بهدايا المعجبين الغريبة.

لكنني حين أعدت تفحص الرخص، أدركت أن اسمين منها كانا مألوفين إلى حد ما. مسندة ظهري إلى حوض غرفة الطين العتيق، أخرجت هاتفي وبحثت عنهما في محرك بحث جوجل.

ميغان كين، الاسم المألوف الأول، فُقدت في الصيف الماضي وأُفترض أنها ضحية جريمة قتل. تناهت قصتها إلى مسامعي لأن إيلي سرد علينا تفاصيل القضية برمتها حين قضينا، أنا ولين، أسبوعًا عند البحيرة في الصيف الذي اختفت فيه.

سو إلين سترايكر، الاسم الآخر الذي ميّزته، تصدرت نشرات الأخبار قبل بضعة أسابيع. اختفت ورُجح غرقها في بحيرة أخرى تبعد أميالًا عدة جنوبًا من هنا. وحسب علمي، كانت الشرطة لا تزال تبحث عن جثتها.

لم أعثر على شيء يخص توني بورنيت سوى صفحة على (فيسبوك) أنشأها أصدقاؤها سعيًا لجمع معلومات عن مكان تواجدها. وآخر من رآها كان بعد شهرين من اختفاء ميغان كين.

فجأة، اجتاحني الغثيان.

ليس رغبة في التقيؤ.

بل شعور بالحمى.

تصبب العرق من بشرتي بينما جسدي يرتجف قشعريرة. ومع ذلك، رفض جزء مني تصديق الأسوأ. لا بد أن هذا كله مجرد خطأ مروع. أو دعابة سمجة. أو صدفة غريبة. فهذا لا يعني بالضرورة أن لين هو من أخفى أولئك النساء الثلاث. لم يكن ببساطة قادرًا على فعل شيء كهذا. ليس لين الحنون، والمرح، واللطيف، والمرهف المشاعر.

لكن حين راجعت تطبيق التقويم الذي نستخدمه معًا لتنظيم جداولنا، لاحظت نمطًا يبعث على القلق – في الأيام التي اختفت فيها كل امرأة، لم نكن معًا.

اختفت سو إلين سترايكر في عطلة نهاية أسبوع عدت فيها إلى نيويورك لتسجيل تعليق صوتي لإعلان تجاري. وبقي لين هنا في منزل البحيرة.

اختفت ميغان كين وتوني بورنيت حين كان لين في لوس أنجلوس، منكبًا على كتابة سيناريو البطل الخارق الذي أرقه لأشهر.

كان من المفترض أن يبث هذا بعض الطمأنينة.

لكنه لم يفعل.

لأنني لم أمتلك أي دليل يثبت تواجده في لوس أنجلوس حقًا في كلتا المرتين. كنا نسافر بداعي العمل كثيرًا – معًا وبمفردنا – لدرجة أنني لم أتوقف قط لأتساءل عما إذا كانت وجهة لين المعلنة هي وجهته الحقيقية. ووفقًا للتقويم، كانت تلكما الرحلتان إلى لوس أنجلوس تستغرقان عطلة نهاية الأسبوع. يغادر الجمعة، ويعود الاثنين. ورغم يقيني بأن لين كان يهاتفني من المطار في كل مرة قبل الإقلاع وبعد الهبوط، إلا أنني أدركت فجأة أنه كان بإمكانه إجراء تلك المكالمات من سيارة مستأجرة متجهة من وإلى فيرمونت.

في اليوم الذي اختفت فيه ميغان كين، نزل لين في فندق (شاتو مارمونت). على الأقل، هذا ما ادعاه تطبيق التقويم. لكن حين هاتفت الفندق وسألت عما إذا كان ليونارد برادلي قد سجل دخوله في تلك العطلة، جاءني الرد بالنفي.

– «أُجري حجز باسمه،» أفادني موظف الاستقبال. «لكنه لم يحضر قط. ولأنه لم يلغِ الحجز، اضطررنا لخصم المبلغ من بطاقته الائتمانية. أفترض أن هذا هو سبب اتصالكِ.»

أنهيت المكالمة واتصلت بالفندق الذي زُعم أنه أقام فيه في العطلة التي تلاشت فيها توني بورنيت. فكانت الإجابة مطابقة. حجز مؤكد، لم يُلغَ، ولم يصل لين قط، والمبلغ خُصم من البطاقة.

حينها أدركت.

لين – لين الذي أعرفه – اقترف أمرًا مروعًا بحق أولئك الفتيات. وخصلات الشعر والرخص في صندوق أدواته لم تكن سوى تذكارات. تذكارات مريضة احتفظ بها ليخلد بها ذكرى جرائمه.

في غضون دقائق، عصفت بي كل المشاعر المروعة التي يمكن تخيلها. خوف وحزن وصدمة وحيرة ويأس، تتصادم جميعها في لحظة واحدة مدمرة.

بكيت. دموع ساخنة، ولأنني كنت أرتجف بشدة، تساقطت من وجنتيّ كقطرات المطر تتناثر من شجرة تعصف بها الرياح.

أطلقت أنينًا، وكممت فمي بقبضتي كي لا يتناهى الصوت إلى لين في الطابق العلوي.

كان الغضب، والجرح، والشعور بالخيانة طاغيًا لدرجة أنني ظننت بصدق أنه سيقضي عليّ. ولم يبدُ هذا المصير مروعًا بالنظر إلى كل شيء. فمن شأنه أن يخلصني من عذابي، ناهيك عن إعفائي من مواجهة المعضلة حول خطوتي التالية. اللجوء إلى الشرطة كان أمرًا مفروغًا منه. توجب عليّ تسليم لين. لكن متى؟ وكيف؟

قررت إخبار لين بأنني لم أفلح في العثور على ولاعته وأنني مضطرة للتوجه سريعًا إلى المتجر لابتياع المزيد من أعواد الثقاب. ثم سأقود سيارتي مباشرة إلى أقرب مركز شرطة وأفشي لهم بكل شيء.

أوهمت نفسي بقدرتي على فعل ذلك. فأنا ممثلة، في نهاية المطاف. بوسعي التظاهر، لبضع دقائق، بأنني لست مريضة، ولا مرعوبة، ولا أتأرجح بين رغبة في إنهاء حياتي ورغبة في إنهاء حياة لين.

دسست الرخص وخصلات الشعر في جيبي واتجهت للطابق العلوي، متأهبة لاختلاق كذبة لـ لين والفرار نحو الشرطة.

كان لا يزال في المطبخ، يبدو جذابًا بلمسة ذكية كعادته في مئزره السخيف (قبّل الطاهي). كان قد سكب كأسين من النبيذ ورتب الجبن على طبق. لقد جسد مشهدًا مثاليًا للسكينة الزوجية.

باستثناء السكين في يده.

كان لين يستخدمها ببراءة تامة، مقطعًا شرائح السلامي لترافق طبق الجبن. لكن قبضته عليها، والابتسامة المرتسمة على وجهه، وتصلب يده حتى شحب لون مفاصلها، أثارت ارتعاشًا في يديّ. لم يسعني سوى التساؤل عما إذا كان قد أزهق أرواح تلك الفتيات الثلاث بذات السكين، وبذات القبضة المحكمة، متحلّيًا بذات الابتسامة الراضية.

– «لقد استغرق ذلك دهرًا،» قال لين، غافلًا تمامًا عن أن كل شيء قد انقلب رأسًا على عقب منذ آخر لحظة جمعتنا. وأن وجودي بأسره قد استحال إلى رماد وكأنني شخصية في أحد تلك الأفلام السخيفة للأبطال الخارقين التي كان يُفترض أن يكتبها بينما كان هنا، ينهي حيوات ثلاثة أشخاص.

واصل التقطيع، وكان النصل يصدر صوت ارتطام متكرر بلوح التقطيع. وأنا أستمع لذلك، تلاشت كل تلك المشاعر المروعة التي كانت تعتصرني.

باستثناء شعور واحد.

الحنق العارم.

كان يسري في أوصالي، وكأنني كأس ماء ضُربت بمطرقة. شعرت بالهشاشة ذاتها. وبالاستعداد ذاته للتهشم. وبينما كان يجتاحني، بدأت أختلق مبررات تثنيني عن التوجه للشرطة. أو على الأقل، ليس بمفردي.

أول ما خطر ببالي كان مستقبلي المهني. وليسامحني الله على ذلك. حقيقة لا أزال أمقت نفسي بسببها. لكنني أدركت فورًا أن هذا سيكتب نهايته. لن يوظفني أحد بعد الآن. سأصبح منبوذة. إحدى أولئك الذين تورطوا في فضيحة مخزية تلطخ

سمعتهم للأبد. فبمجرد أن يُذاع نبأ أن لين قاتل، سيصدر الناس أحكامهم عليّ – وقلة قليلة ستمنحني قرينة الشك. كنت على يقين من أن الأغلبية ستتساءل كيف عجزت عن إدراك وجود قاتل متسلسل يرتع تحت أنفي، ويقطن شقتي، وينام في سريري.

أعلم ذلك لأنني كنت أطرح على نفسي التساؤلات ذاتها. كيف لم أرتب في شيء؟ كيف غفلت عن العلامات؟ كيف لم أعلم؟

والأدهى من ذلك سيكون أولئك الذين سيفترضون أنني كنت على علم بالأمر. ستتطاير التكهنات، متسائلين عما إذا كنت أنا نفسي قاتلة. أو على الأقل شريكة.

لا، السبيل الأوحد للخروج من هذا المأزق وحفظ سمعتي ومسيرتي المهنية هو اصطحاب لين معي. إن أقر بفعلته – أمامي، ثم أمام الشرطة – فربما أخرج من هذه المعمعة بلا خدش. كضحية لا حول لها ولا قوة.

– «آسفة،» قلت، مندهشة من قدرتي على النطق أصلًا. «مارني أرسلت لي رسالة بخصوص أمر ما.»

توقف لين عن التقطيع، وبقي السكين معلقًا فوق لوح التقطيع.

– «رسالة؟ خُيل إليّ أنني سمعتكِ تتحدثين إلى أحدهم.»

– «لقد اتصلت بها في النهاية. أنت تعلم كم تحب الثرثرة.»

– «ماذا عن الولاعة؟»

ابتلعت ريقي، شاعرة بعدم الارتياح.

– «ماذا عنها؟»

– «هل عثرتِ عليها؟»

– «أجل.»

وبهذه الكلمة اليتيمة، شرعت في التحضير لما ستكون حتمًا أسوأ ليلة في حياتي. ناولت لين الولاعة وطلبت منه إضرام النار ريثما أصعد للطابق العلوي لأبدل

ثيابي. وفي غرفة النوم، حشرت الرخص في عمق درج الخزانة قبل أن أنزلق في سروال جينز وبلوزة موردة لطالما تغزل لين بأنها تزيدني جاذبية. وفي الحمام، التقطت عدة أقراص من مضاد الهيستامين الذي يستخدمه لصد الحساسية. وفي المطبخ، أسقطت أحدها في كأس من النبيذ وحملته للخارج إلى لين. كانت غايتي مزدوجة – إرخاء أعصابه بما يكفي ليعترف، مع إبقائه في حالة من السكر والتخدير تمنعه من اللجوء للعنف أو تشكيل أي خطر.

تجرع لين النبيذ بسرعة. وحين أفرغ كأسه، حملته للداخل، ودسست فيه قرصًا آخر من مضاد الهيستامين، وملأته من جديد.

ثم كررت الفعلة للمرة الثالثة.

طوال ما تبقى من الليلة، واصلت الابتسام، والثرثرة، والضحك، والتنهد برضا، وتصنعت السعادة المطلقة. كان ذلك أعظم أداء قدمته في حياتي.

– «لنخرج إلى الماء،» قلت حين اقترب منتصف الليل.

– «في القارب؟» قال لين، بصوت غلب عليه التلعثم والغمغمة. بدأت الأقراص تؤتي مفعولها.

– «أجل، في القارب.»

نهض، ترنح، وهوى ككيس رمل عائدًا إلى مقعده.

– «يا إلهي. أنا منهك حقًا.»

– «أنت مخمور فحسب،» قلت.

– «ولهذا السبب لا أود أخذ القارب للخارج.»

– «لكن المياه ساكنة والقمر ساطع.» انحنيت مقتربة منه، وضغطت بصدري عليه وهمست في أذنه: «سيكون الأمر رومانسيًا.»

أشرق وجه لين كما يفعل دائمًا حين يتوهم أنه سيحظى بليلة حميمية. ورؤية ذلك المشهد حينها أثارت في نفسي تساؤلًا عما إذا كان هذا هو نفس الوجه الذي

ارتسم عليه حين كان يزهق أرواح ميغان، وتوني، وسو إلين. ظلت هذه الفكرة المروعة تطاردني وأنا أقوده إلى القارب.

– «لا محرك؟» سأل حين دفعت القارب مبتعدة عن الرصيف.

– «لا أريد إيقاظ الجيران.»

جدفت نحو منتصف البحيرة وأسقطت المرساة في الماء. بحلول ذلك الوقت، كان لين منتشيًا حد الثمالة.

لقد حانت اللحظة.

– «لقد وجدتها،» قلت. «رخص القيادة في صندوق أدوات الصيد الخاص بك. خصلات الشعر. لقد وجدت كل شيء.»

أصدر لين صوتًا خافتًا. نصف ضحكة مكتومة تشي بالإدراك.

– «أوه،» قال.

– «لقد قتلت تلك النساء، أليس كذلك؟»

لزم لين الصمت.

– «أجبني. قل لي إنك قتلتهن.»

– «وماذا ستفعلين إن قلت نعم؟»

– «سأتصل بالشرطة،» قلت. «ثم سأحرص على أن تُزج في السجن ولا ترى النور أبدًا.»

انفجر لين في البكاء فجأة. لم يكن بكاءً نابعًا من شعور بالذنب أو الندم. بل كانت دموعًا أنانية، انهمرت لأنه ضُبط متلبسًا وبات يواجه عقابه المحتوم. كان ينتحب كالطفل، ومال نحوي بذراعين ممدودتين، وكأنه ينشد المواساة.

– «أرجوكِ لا تفشي أمري يا سي،» قال. «أرجوكِ. لم أقوَ على السيطرة على نفسي. حاولت. حاولت حقًا. لكنني سأتحسن. أقسم لكِ.»

اجتاحني شعور طاغٍ وأنا أرقب زوجي يستجدي الرحمة بعد أن جرد منها الآخرين. تحول جذري في داخلي تركني أشعر بخواء وحرقة كفانوس هالوين مجوف.

لقد كان كراهية.

كراهية تغلي وتأبى الانطفاء.

كرهت لين – لما اقترفه، ولخداعه لي بكل هذه البراعة.

كرهته لتدميره الحياة التي بنيناها معًا، ليمحو خمس سنوات رائعة ويستبدلها بهذه اللحظة التي ينوح فيها ويتوسل ويتشبث بي بينما أرتد أنا مشمئزة.

كرهته لإيذائه لي.

لكنني لم أكن الضحية الوحيدة. ثلاث ضحايا أخريات كابدن عذابًا أشد من عذابي. ومعرفتي بذلك بعثت في نفسي أملًا بأنهن، على أقل تقدير، حاولن المقاومة، وأذاقن لين شيئًا من الألم في خضم ذلك. وإن لم يفعلن، حسنًا، فقد أتيحت لي الفرصة الآن للقيام بذلك نيابة عنهن.

لأنه كان لا بد من شخص يذيق لين ثمن أفعاله.

وبصفتي زوجته الغاضبة، المخدوعة، والمدمرة الآن، وجدت نفسي فجأة في الموقف المثالي لأفعل ذلك بالضبط.

– «أنا آسف جدًا يا سي،» قال لين. «أرجوكِ، أرجوكِ سامحيني. أرجوكِ لا تسلميني.»

أخيرًا، لنت وضممته في عناق. بدا لين وكأنه يذوب حين لففت ذراعيّ حوله. وضع رأسه على صدري، ولا يزال يجهش بالبكاء، بينما توالت آلاف الذكريات من زواجنا في ذهني.

– «أحبكِ كثيرًا،» قال لين. «هل تحبينني؟»

– «ليس بعد الآن،» قلت.

ثم دفعته فوق حافة القارب وراقبته يتوارى في غياهب الماء المظلم.

***

قالت كاثرين مرة أخرى، وكأنني لم أسمعها في المرة الأولى:

– «لقد قتلتني.»

سمعتها جيدًا، لكن بالكاد. جسدي بأسره يرتجف من الصدمة. طنين داخلي يتصاعد ليصبح أعلى فأعلى، متدرجًا من همس إلى صرخة.

هذا ما أريد فعله تمامًا.

أن أصرخ.

ربما أنا أصرخ حقًا ولا أدرك ذلك، والضجيج لا يزال يتصاعد في داخلي بصخب يحجب كل الأصوات الخارجية.

أرفع يدي إلى فمي لأتأكد. إنه مطبق بإحكام، شفتاي مضغوطتان معًا، ولساني ساكن وبلا حراك. جوف فمي جاف – شديد الجفاف والخدر من فرط المفاجأة، والخوف، والحيرة، لدرجة أتساءل معها إن كنت سأقدر على النطق مجددًا.

لأنه يستحيل أن تعرف كاثرين ما اقترفته بحق لين.

لا أحد يعلم.

لا أحد سواي.

وسواه.

وهذا يعني أن توم كان محقًا بشأن قصة نار المخيم التي سردها إيلي. ورغم عبثيتها المطلقة، إلا أنها التفسير الأوحد لما أختبره في هذه اللحظة. روح لين أو طيفه أو أيًا كان ما تبقى منه بعد أن فارقت الحياة جسده، استقرت في بحيرة جرين، قعيدة في المياه المظلمة، تترقب اللحظة المناسبة لتحل محل أول شخص يلقى حتفه هناك.

والذي تصادف أن يكون كاثرين.

لقد كانت ميتة في تلك الظهيرة التي خرجت فيها لإنقاذها. أنا موقنة بذلك الآن. لم أصل إليها في الوقت المناسب، وهي حقيقة أكدتها حالتها – ذلك الجسد الهامد، وتلك العيون الميتة، وشفتيها الزرقاوتين، ولحمها البارد كالثلج.

وقد ظننتها ميتة بالفعل.

حتى، فجأة، لم تعد كذلك.

حين دبت الحياة في كاثرين مجددًا، منتفضة وتسعل وتلفظ الماء، بدا الأمر وكأن معجزة من نوع ما قد تحققت.

معجزة سوداء.

تلك التي لا يؤمن بها سوى الأشخاص الذين تحدث عنهم إيلي.

بطريقة ما، تلبس لين كاثرين، ليعيدها إلى الحياة. وفي خضم ذلك، بعث نفسه من الموت، ولو في جسد مختلف. أما أين تقبع كاثرين الآن – كاثرين الحقيقية بكل ما يجعلها هي – فلا أملك أدنى فكرة.

– «لين...»

توقفت، متفاجئة من مدى سهولة النطق باسمه حين لا يكون هو من أراه أمامي.

إنها كاثرين. جسدها. وجهها. كل شيء يعود لها باستثناء الصوت، الذي يزداد شبهًا بصوت لين مع كل كلمة ينطق بها، وموقفه.

هذا كله لين. لدرجة أن عقلي ينقلب كمفتاح، يجعلني أراها كأنها هو.

يقول:

– «الآن فهمتِ. أراهن أنكِ ظننت أنكِ لن تريني مجددًا أبدًا.»

لست واثقة لأيهما يشير. ربما لكليهما. والأمر يصدق في كلتا الحالتين.

قلتُ:

– «لم أظن ذلك.»

– «لا تبدين سعيدة.»

– «لست كذلك.»

لأن هذا من نسج الكوابيس. أسوأ مخاوفي وقد تجسد واقعًا. ذنبي يتخذ هيئة ملموسة. يتطلب الأمر كل ما أوتيت من قوة كي لا يغمى عليّ. ورغم ذلك، تتراقص بقع زرقاء كالذباب في مجال رؤيتي.

أعجز حقًا عن تصديق أن هذا يحدث.

لا ينبغي أن يحدث.

كيف بحق الجحيم يحدث هذا؟

مائة احتمال تتدافع في عقلي المشلول بالصدمة، محاولة الرسو على أي تفسير منطقي. هل حدث لأن رماد لين قد نُثر في بحيرة جرين؟ أم أن هناك مزيجًا من المعادن في الماء أبقى روحه حية؟ أم لأنه مات قبل أوانه، فُرض عليه التجوال في الأعماق؟ أم أن البحيرة، ببساطة، ملعونة ومسكونة كما يدعي إيلي ومارني؟

لكن لا شيء من هذا منطقي.

لا يمكن أن يكون حقيقيًا.

مما يعني أنه ليس كذلك. يستحيل أن يكون كذلك.

يبدأ الارتياح بالتسلل إلى جسدي وعقلي حين أدرك أن كل هذا ليس سوى حلم. مجرد كابوس من صنع البوربون. هناك احتمال كبير جدًا أنني لا أزال في الشرفة، فاقدة للوعي في كرسي هزاز، تحت رحمة عقلي الباطن.

أمرر يدي على خدي، أتساءل عما إذا كان يجدر بي صفع نفسي لأستيقظ. لكني أخشى أن لا يحصد ذلك سوى الخيبة. فهذا لا يبدو ككابوس. كل شيء نابض بالحياة، واقعي للغاية، بدءًا من التحف غير المتناسقة التي تتزاحم في زوايا الغرفة كمتفرجين صامتين، مرورًا بصرير السرير، وصولًا إلى الرائحتين المتشابكتين؛ رائحة العرق المنبعثة من لين ورائحة البول المتصاعدة من الدلو القريب.

وتخطر ببالي فكرة أخرى.

أنني، بدلاً من أن أكون في حلم، قد أكون ميتة بالفعل ولم أدرك ذلك إلا الآن. الله وحده يعلم كيف حدث ذلك. تسمم كحولي. نوبة قلبية. ربما غرقت في البحيرة ولهذا السبب أرى لين في جسد كاثرين. إنه مطهري الشخصي، حيث تتصادم الآن أفعالي الخيرة والشريرة.

لكن هذا لا يفسر وجود توم. أو لماذا لا يزال قلبي ينبض. أو لماذا يتصبب العرق من بشرتي في هذا القبو الخانق. أو كيف تواصل العاصفة هيجانها في الخارج.

يقول لين:

– «بعد ما فعلتهِ بي، من الطبيعي ألا تكوني سعيدة. لكن لا تقلقي. لم أخبر توم بذلك.»

لقد تفوهت بخمس كلمات بالضبط لزوجي الميت منذ زمن، وهي خمس كلمات أكثر مما ينبغي. ومع ذلك، لا يسعني مقاومة إضافة كلمتين أخريين إلى الحصيلة.

– «ولماذا لا؟»

– «لأن أسرارنا متشابكة كزواجنا. لقد اقترفت أمرًا فظيعًا، مما دفعكِ لاقتراف أمر فظيع بدوره.»

– «ما فعلته أنت كان أسوأ بكثير مما فعلته أنا يا لين.»

يقول:

– «القتل يظل قتلًا.»

– «أنا لم أقتلك. أنت غرقت.»

يقول لين:

– «تلاعب بالكلمات. أنتِ السبب في موتي.»

هذا الجزء حقيقي، لكنه ليس سوى نصف القصة. أما البقية – ذكريات أأبى التفكير فيها لكنها لا تفارق عقلي – فتجتاحني كألف موجة عاتية. كل تلك التفاصيل التي حاولت طردها بأي كحول أمكنني العثور عليه. لقد عادت.

كل.

واحدة.

منها.

وأنا أغرق فيها.

أذكر انحنائي على حافة القارب، أراقب لين وهو يتخبط ويبصق الماء لفترة ربما استغرقت دقائق لكنها بدت كالساعات، وأنا أوقن طوال الوقت أن الأوان لم يفت بعد، وأنه يسعني الغوص، وإنقاذه، واصطحابه إلى الشاطئ للاتصال بالشرطة، لكنني أدركت أيضًا أنني لا أرغب في فعل ذلك.

لأنه اقترف فظائع ويستحق العقاب.

ولأنني أحببته، ووثقت به، وعشقته، وبتّ أمقته الآن لكونه شخصًا آخر غير الذي عرفته.

لذا، منعت نفسي من الغوص. من إنقاذه. من حمله إلى الشاطئ. من الاتصال بالشرطة.

منعت نفسي وراقبته يغرق.

ثم، وحين تيقنت من موته، سحبت المرساة وجدفت بالقارب عائدة إلى الشاطئ. في داخل المنزل، كان أول ما فعلته هو صب كأس من البوربون، مستهلة بذلك عادة لا تزال مستمرة حتى اليوم. حملته إلى الشرفة وجلست في أحد الكراسي الهزازة، أشرب وأراقب المياه، يساورني الخوف من أن لين لم يغرق حقًا وأنني سأراه يسبح نحو الرصيف في أي لحظة.

وبعد انقضاء ساعة وذوبان الثلج في كأسي الفارغة، قررت أنني بحاجة للاتصال بشخص ما والاعتراف.

اخترت مارني. فهي ترجح العقل. وستعلم ما يجدر فعله. لكنني لم أستطع إجبار إصبعي على النقر على الهاتف وإجراء المكالمة. ليس من أجلي. بل من أجل مارني. لم أرد زجها في قذاراتي، وجعلها شريكة في أمر لا ناقة لها فيه ولا جمل. لكن ثمة سبب آخر منعني من الاتصال بها، سبب لم أدركه إلا متأخرًا.

لم أرد منها أن تسلمني للشرطة.

وهو ما كانت ستفعله حتمًا. مارني شخص صالح، أفضل مني بكثير، ولم تكن لتتردد في إدخال الشرطة في الأمر. ليس بدافع العقاب لي. بل لأنه كان التصرف الصائب.

وأنا، التي لم أأتِ التصرف الصائب قط، لم أرد المجازفة.

لأن هذه القضية لم تكن قضية دفاع عن النفس واضحة المعالم. لم يحاول لين إيذائي جسديًا. ربما كان سيفعل لولا ذلك المزيج القوي من الكحول ومضاد الهيستامين الذي كان يعتمل في نظامه. لكنه كان مخمورًا ومخدرًا وكان لدي متسع من الخيارات للفرار.

حتى لو ادعيت الدفاع عن النفس، لم تكن الشرطة لتقتنع بذلك. لن يروا سوى امرأة خدرت زوجها، واصطحبته إلى البحيرة، ودفعته في الماء، وراقبته وهو يغرق. لن يشفع له كونه قاتلًا متسلسلًا. أو أن خصلات الشعر والهويات المسروقة كانت أدلة على جرائمه. كانت الشرطة ستوجه لي تهمة القتل على أي حال، رغم أنني لم أقتل زوجي.

لقد غرق.

أنا فقط اخترت ألا أنقذه.

لكن الشرطة ستعاقبني على ذلك بكل تأكيد. وأنا لم أرد أن أعاقب على معاقبتي لـ لين.

لقد استحق ذلك.

أما أنا فلا.

لذا طمست آثاري.

بداية، أخرجت الشعر والرخص من درج الخزانة، ومسحتها بعناية بالمنديل الذي وجدتها فيه، وخبأت كل شيء خلف اللوح المرتخي في جدار القبو. ثم أعددت إبريقًا من القهوة، وصببته في حافظة لين الحرارية المهترئة، وعدت إلى القبو. هناك،

التقطت كل ما كان يأخذه لين معه حين يذهب للصيد. القبعة الخضراء المرنة، صنارة الصيد، وصندوق الأدوات.

وحين خرجت من الباب الأزرق، تركته مواربًا قليلًا ليبدو وكأن لين قد استخدمه أيضًا. ثم حملت كل شيء إلى القارب، وهي مهمة لم تكن باليسيرة. فالظلام كان دامسًا ولم أستطع استخدام المصباح اليدوي لأن ذراعاي كانتا مثقلتين وخشيت أن يلاحظه أحد على الضفة المقابلة.

وبعودتي إلى القارب، جدفت إلى وسط البحيرة. وبعد إلقاء القبعة في الماء، أنزلت نفسي فيه وسبحت عائدة إلى الشاطئ. وما إن دلفت إلى منزل البحيرة، حتى خلعت ملابسي المبللة، ووضعتها في المجفف، وارتديت قميص نوم، وتسللت إلى الفراش.

ولم يغمض لي جفن.

أمضيت الليل بأكمله يقظة، متأهبة لكل صرير في المنزل، وكل حفيف ورقة، وكل رشة ماء لطيور البحيرة. كل صوت كان يوحي لي إما بوصول الشرطة لاعتقالي أو بعودة لين، الذي نجا بطريقة ما، إلى المنزل.

وكنت أعلم أي السيناريوهين هو الأسوأ.

ولم أدرك فداحة ما اقترفته إلا بعد أن انبثق الفجر على البحيرة.

ليس بحق لين.

فأنا لا أشعر بالذنب حيال ذلك. لم أشعر به حينها ولا أشعر به الآن.

كما أنني لا أفتقده.

أنا أفتقد الشخص الذي توهمته هو.

زوجي.

الرجل الذي أحببته.

لم يكن ذلك الشخص هو من راقبته يغوص تحت الماء. كان شخصًا آخر. شخصًا شريرًا. وقد لقي ما يستحقه.

ومع ذلك، يعتصرني الندم على ما اقترفته. كل ثانية من كل دقيقة من كل ساعة أقضيها بكامل وعيي، ينهشني هذا الشعور. لأنني كنت أنانية. كنت غاضبة جدًا، ومجروحة، ومغدورة حد اللعنة، لدرجة أنني لم أمنح النساء اللواتي قتلهن لين سوى تفكير عابر. هن الضحايا الحقيقيات لأفعالي. هن وعائلاتهن وأفراد الشرطة الذين لا يزالون يكابدون لكشف الحقيقة.

بقتلي لـ لين عوضًا عن تسليمه، حرمتهم جميعًا من الإجابات. لا تزال ميغان كين، وتوني بورنيت، وسو إلين سترايكر هناك، في مكان ما، وبسببي، لن يعرف أحد مكانهن أبدًا. ولا تزال عائلاتهن تعيش في دوامة من الترقب القاسي، حيث يتشبثون بأمل ضئيل في عودتهن.

أُتيح لي الحداد على لين – أو على الأقل على الرجل الذي ظننته – في حفلتي تأبين، واحدة على كل ساحل. جلست في كلتيهما يمزقني الشعور بالذنب لأنني مُنحت حق الغرق في حزني، وهو ترف لم تحظَ به عائلات ضحاياه. لم يُمنحوا حفل تأبين واحدًا، فضلًا عن اثنين. لم يُسمح لهم قط بالحداد الكامل.

النهاية الحاسمة.

هذا هو ما قتلته في تلك الليلة.

ولهذا أشرب حتى يدور رأسي وتتقلب معدتي ويفرغ عقلي بشكل لذيذ. ولهذا أمضي كل وقتي هنا جالسة على هذه الشرفة، أحدق في الماء، آملة أنه، إن أمعنت النظر بما يكفي، فإن إحدى تلك الأرواح البائسة ستعلن عن وجودها على الأقل.

كانت محاولتي اليتيمة للتكفير عن خطيئتي هي ارتداء زوج من القفازات ونبش بطاقة بريدية لـ بحيرة جرين كنت قد ابتاعتها خلال زيارة قبل سنوات، لأسباب لم أعد أذكرها. وعلى ظهرها، خربشت ثلاثة أسماء وأربع كلمات.

(أظن أنهن قابعات هنا).

استخدمت يدي اليسرى في الكتابة. لقد أصاب خبير الخطوط الذي استعانت به ويلما كبد الحقيقة في ذلك. ألصقت طابعًا بريديًا ذاتي اللصق على ظهر البطاقة البريدية وأسقطتها في صندوق بريد عشوائي بينما كنت أسير نحو أقرب حانة. وهناك، أفرطت في الشرب لدرجة أنني وصلت إلى المسرح الذي كانت تُعرض فيه مسرحية (ذرة شك) ثملة حد الثمالة.

كانت الساعة الواحدة ظهرًا في يوم الأربعاء.

وبحلول الوقت الذي استعدت فيه وعيي أخيرًا، كنت قد فقدت وظيفتي.

والمفارقة أن إرسال البطاقة البريدية كان أسوأ من مجرد فعل عديم النفع. فقد زاد الأمور تعقيدًا بدلًا من أن يجليها، إذ أوهم ويلما وبون بأن كاثرين رويس هي المرسلة – وأن توم هو من اقترف جرائم لين.

وتحتم عليّ التظاهر بأنني أشاطرهما هذا الظن. فالخيار الأوحد الآخر كان الاعتراف بما اقترفته.

لكن الآن، وأنا أراقب رجلًا ليس زوجي قطعًا ولكنه كذلك في الوقت عينه، أدرك أن فرصة سانحة قد أُتيحت لي لتصحيح خطيئتي الفادحة.

لقد عاد لين. بوسعه إخباري بما فعله بضحاياه، وبوسعي أخيرًا مساعدة من أحبوا ميغان كين، وتوني بورنيت، وسو إلين سترايكر في الحصول على النهاية التي سلبتهم إياها.

لا أزال أجهل كيف أو لماذا وقع هذا التحول السريالي للأحداث. وأشك في أنني سأدرك القوى – سواء أكانت علمية أم خارقة للطبيعة – التي تقف وراءه أبدًا. فإن كانت هذه معجزة ملتوية من نوع ما، فلن أهدر وقتي في محاولة تفسيرها. بل سأستثمرها إلى أقصى حد.

أتقدم بخطوة نحو السرير، مثيرة نظرة متطفلة من لين. من الغريب مدى سهولة إحلاله محل كاثرين في عقلي. فرغم إدراكي التام بأنها هي من أمامي، لا يسعني منع نفسي من تخيله.

– «أنتِ تدبرين لأمر ما يا سي،» يقول وأنا أدنو منه. «أرى تلك اللمعة في عينيكِ.»

أنا الآن بجوار السرير، قريبة بما يكفي للمسه. أمد يدًا ترتجف، وأضعها على ساقه اليمنى، ثم أسحبها فجأة وكأنني لسعت بموقد ساخن.

يقول لين:

– «لا تخافي. لم أكن لأؤذيكِ أبدًا يا سي.»

– «لقد فعلت ذلك بالفعل.»

يطلق ضحكة خافتة ومريرة. «تقولها المرأة التي راقبتني أغرق.»

لا أملك أن أناقضه. هذا بالضبط ما اقترفته، وفي خضم ذلك حكمت على عدد لا يحصى من الأشخاص بحياة من الريبة. إنهم في أمس الحاجة إلى إجابات. تمامًا كحاجتي للتحرر من ثقل الذنب الذي يكسر ظهري منذ أكثر من عام.

تعود يدي إلى ساق لين، وتنزلق فوق منحنى ركبته وصولًا إلى قصبتها، قاطعة المسافة حتى الحبل الملتف حول كاحله. أمد يدي نحو الطرف الآخر من الحبل، المربوط بإحكام حول إطار السرير والمختوم بعقدة ضخمة ومربكة.

يقول لين:

– «ماذا تفعلين؟»

أعطي العقدة جذبة. «سأخرجك من هنا.»

***

استغرق فك العقدة وقتًا طويلًا. طويلًا لدرجة أنني مندهشة من عدم ظهور توم قبل أن أنتهي. لم أمس الحبل الملتف حول كاحل لين. وكحال القيود على جميع أطرافه، أعتزم استخدامها مجددًا.

عوضًا عن تحرير ساقه الأخرى، انتقلت إلى يديه. فككت يده اليسرى أولًا، وانصاعت العقدة أسرع الآن بعد أن أتقنت الحيلة. وبمجرد تحرر يده، حركها لين نحوي، وللحظة ذعر ظننت أنه سيصفعني. لكن بدلًا من ذلك، استقرت كفه على

وجنتي، تداعبها برقة تضاهي ملمس الريش، تمامًا كما كان يفعل بعد أن نمارس الحب.

– «يا إلهي، لقد افتقدتكِ.»

أتملص من لمسته وأشرع في فك الحبل المربوط بيده اليمنى. «لا يسعني قول الشيء ذاته.»

يقول:

– «لقد تبدلتِ. أصبحتِ أشرس الآن. وأقسى.»

– «بسببك.»

أفك الحبل من إطار السرير وأشده بحركة سريعة مبتعدة عن السرير. يُجبر لين على التمايل معه، منجذبًا جزئيًا للأعلى كدمية متحركة. أبقي الحبل مشدودًا وأنا أعبر أمام السرير وأمسك بالحبل الذي لا يزال معقودًا حول يده اليسرى.

يقول لين:

– «لقد نسيتِ ساقي الأخرى.»

قلتُ:

– «لا، لم أنسَ. انزلق للأمام ودعني أقيد يديك خلف ظهرك. إن يسرت الأمر عليّ، سأحرر ساقك الأخرى.»

– «هل يمكنني أن أحظى بقبلة أولًا؟»

يغمزني بغمزة غزلية. رؤيتها تثير الغثيان في معدتي.

قلتُ:

– «أنا جادة. سيعود توم في أي لحظة الآن.»

يومئ لين برأسه فأرخي الحبل. وبمجرد أن تستقر يداه خلف ظهره، أضغطهما معًا وألف الحبل حول معصميه عدة مرات قبل أن أعقد أضيق عقدة بوسعي صنعها.

وبعد أن تيقنت من عجزه عن الفكاك، أنتقل إلى أسفل السرير وأبدأ في معالجة الحبل الملتف حول كاحله الأيسر.

يعود توم في اللحظة التي أنهي فيها فك العقدة، وبينما يسقط الحبل عن إطار السرير، يتردد صدى خطواته القادمة من بئر السلم.

ينزلق لين عن السرير بينما أبحث عن شيء أردع به توم، إن استلزم الأمر.

أفترض أنه لن يدعنا نرحل بسلام. تقع عيني على رجل طاولة مكسورة تستند إلى صندوق كبير. وبإمساكي بها، أدرك أننا بلا خطة. لم يكن ثمة متسع من الوقت لوضع واحدة. جل ما آمله هو أن يكون لين عازمًا كعزمي على الخروج من هذا القبو.

وأن لا يحاول إيذائي في خضم ذلك.

عند أسفل الدرج، يتوقف توم، يلقي نظرة على السرير، ويعيد النظر بذهول.

– «ما الـ...»

يندفع لين نحوه قبل أن يتمكن من إكمال جملته، مصطدمًا بـ توم بكتفه ككبش بري هائج.

يسقط توم على الأرض مأخوذًا بالمفاجأة.

يبقى لين منتصبًا ويهرول نحو الدرج، بينما تجرجر الحبال حول كاحليه خلفه.

يمد توم يده، ويمسك بأحدها، ويجذبه. وقبل أن يتمكن من الجذب بقوة كافية لطرح لين أرضًا، أهوي برجل الطاولة المكسورة على ذراعه. يصرخ توم من الألم ويفلت الحبل، ليتيح لـ لين الفرصة للفرار.

واقفة بينهما، ولا أزال ألوح بقطعة الخشب التي استخدمتها للتو كسلاح حتى يتسنى لروح الرجل الذي تسببت في موته الفرار في جسد المرأة التي ظننت أن توم قد قتلها، وتتردد في جمجمتي فكرة واحدة.

ماذا أفعل بحق الجحيم؟

الإجابة بسيطة: لا أعلم. لم أكن مهيأة لأي من هذا. وكيف لي أن أكون؟ والآن وقد أصبح الأمر واقعًا – واقعًا ملموسًا، ويا إلهي إنه يحدث حقًا – فإنني أنساق وراء غريزتي، مدفوعة برغبتي في العثور على النساء اللاتي قتلهن لين وخوفي من أن يكتشف توم إدانتي بما اتهمته بفعله تمامًا. في هذه اللحظة، يبدو الفصل بينهما الخيار الأمثل.

لذا أركض خلف لين، وأدفعه دفعة قوية، وأحاول دفعه صعودًا على الدرج قبل أن يدركنا توم. وهو ما كاد يفعله. كنا في منتصف الدرج حين اندفع خلفنا، مما اضطرني للتلويح برجل الطاولة المكسورة نحوه وكأنها مضرب بيسبول. ارتطم الخشب بأحد جدران بئر السلم قبل أن يرتد نحو الآخر.

ترنح توم متفاديًا الضربة، وتعثر، وسقط على يديه وركبتيه. وطوال الوقت، كان يصرخ فيّ.

– «كيسي، توقفي! أرجوكِ لا تفعلي هذا!»

واصلت تقدمي، لألحق بـ لين عند قمة الدرج وأدفعه عبر الباب. وحين أصبحنا كلانا خارج بئر السلم، استدرت فرأيت توم يتسلق الدرج بصعوبة، مناديًا:

– «لا! انتظري!»

أغلقت الباب بقوة، ومددت يدي نحو السلسلة، ودفعتها في مكانها في اللحظة التي اصطدم فيها توم بالباب. انفرج الباب بفتحة صغيرة قبل أن توقفه السلسلة. وملأ وجه توم الفجوة البالغة بوصتين بين الباب والإطار.

هسس قائلًا:

– «اسمعيني يا كيسي! لا تثقي بها!»

دفعت الباب، محاولة إغلاقه مجددًا بينما شرع لين، إلى جانبي، في دفع خزانة الأطباق القريبة. لم تتزحزح قيد أنملة. همهم ودفع، متناسيًا أنه الآن في جسد شخص لا يمتلك سوى نصف حجمه وقوته السابقة. مضطرة للمساعدة، أفلت الباب

وبدأت في سحب الخزانة. معًا، تمكنا من زحزحتها بوصة واحدة أمام الباب قبل أن يتراجع توم للخلف، متأهبًا للقيام بمحاولة فرار أخرى.

ركل الباب بقوة ساحقة.

تحطمت السلسلة.

وانفرج الباب بقوة قبل أن يرتد مصطدمًا بخلفية الخزانة.

وسط أنين وجهد، دفعنا، لين وأنا، الخزانة ضد الباب، مجبرينه على الإغلاق ومحتجزين توم على الجانب الآخر. راح يطرق ويركل ويتوسل إليّ لأخرجه.

وأنوي فعل ذلك.

في النهاية.

أما الآن، فأنا بحاجة لنقل لين إلى منزل البحيرة، حيث يتسنى لي استجوابه في هدوء.

خرجنا من باب المطبخ، وتلاشت طرقات توم ونداءاته تحت هدير العاصفة في الخارج. كانت الرياح تعوي، وتلوي الأشجار المحيطة بقوة أدهشتني أنها لم تنكسر. المطر ينهمر كستار يحجب الرؤية والرعد يصدع فوقنا. ولمع وميض برق، رأيت في ضوئه لين يشرع في الركض. وقبل أن يتمكن من الفرار، أمسكت بالحبال التي لا تزال تلتف حول كاحليه وجذبتها كعنان حصان. سقط لين على الأرض. وبلا أي حيلة أخرى، قفزت فوقه، مثبتة إياه في مكانه بينما يجلدنا المطر معًا.

همغم لين تحتي:

– «ظننتكِ تحرريننني.»

– «لست قريبًا حتى من ذلك.» انزلقت من فوقه. «انهض.»

نهض – وهي مهمة لم تكن باليسيرة وذراعاه لا تزالان مقيدتين خلف ظهره وأنا أحكم قبضتي على الحبال حول كاحليه وكأنه كلب عنيد مقيد بمقود. وحين استقر على قدميه أخيرًا، دفعته للأمام.

– «توجه نحو الرصيف. ببطء. القارب هناك.»

– «آه، القارب،» قال لين وهو يجر قدميه في اتجاه الماء. «ذلك يعيد الذكريات.»

ونحن نتحرك وسط العاصفة، تساءلت عن مقدار ما يتذكره حقًا من الليلة التي هلك فيها. وإذا ما أخذنا سخريته بعين الاعتبار، أفترض أنه يتذكر جلها. مما يثير فضولي عما إذا كان على دراية بالأشهر الأربعة عشر التي انقضت بين تلك اللحظة والآن. يصعب تصور أنه كان واعيًا بمرور الزمن وروحته تسبح في الماء. ومن جهة أخرى، لم أتخيل يومًا أن أراه يمشي متثاقلًا على رصيف في جسد عارضة أزياء سابقة، ومع ذلك هأنذا هنا.

ومرة أخرى، أفكر: هذا لا يحدث. هذا كابوس. هذا لا يمكن أن يكون حقيقة.

لسوء الحظ، يبدو الأمر واقعيًا للغاية، بما في ذلك الرياح، والمطر، والأمواج التي تتصاعد من البحيرة التي تعصف بها الرياح وتتحطم على الرصيف. لو كان هذا حلمًا، لما كنت مبللة حتى العظم. أو مرعوبة حد اللعنة. أو قلقة من أن انزلاق مياه البحيرة حول كاحليّ قد يؤدي إلى انزلاقي عن الرصيف.

و أمامي، ينزلق لين بالفعل، ويساورني الخوف من سقوطه في الماء. ويداه مقيدتان خلف ظهره، فإنه سيغرق حتمًا. ولا يقلقني جانب الغرق. بوضوح. ما يقلقني هو أن يغرق قبل أن يخبرني بمكان جثث ضحاياه.

ينجح لين في الحفاظ على توازنه ويسقط في القارب تمامًا كما يرتفع على موجة في نهاية الرصيف. أتبعه مسرعة وأبدأ فورًا بعقد الحبال الملتفة حول كاحليه بقوائم مقعده المثبت في الأرض.

– «كل هذا مبالغ فيه،» يقول وأنا أنهي ربط الحبال حول قوائم المقعد.

– «اسمح لي أن أختلف معك.»

وبعد إحكام وثاق لين، أتسلق إلى مؤخرة القارب وأشغل المحرك. التجديف غير وارد في هذه المياه الهائجة. والمهمة شاقة حتى والمحرك الخارجي يعمل بأقصى طاقته. فالرحلة التي تستغرق عادة دقيقتين امتدت لتقارب الخمس عشرة دقيقة. وحين بلغنا الضفة المقابلة أخيرًا، تطلب الأمر ثلاث محاولات واصطدامين عنيفين بالرصيف قبل أن أتمكن من ربط القارب.

أكرر الرقصة التي أديناها للتو في منزل آل فيتزجيرالد. أفك وثاق ساقي لين، وأجبره على النزول من القارب وهو يتأرجح على الأمواج، وأتخبط معه صعودًا على الرصيف بينما تتحطم المياه حولنا.

وبحلول الوقت الذي بلغنا فيه المنزل، كان لين قد أصبح مكفهرًا وصامتًا. لم ينبس ببنت شفة وأنا أسوقه صعودًا إلى الشرفة، ثم إلى داخل المنزل نفسه. الصوت الوحيد الذي سمعته كان تنهيدة مستاءة حين حششته على صعود مجموعة أخرى من الدرجات، هذه المرة إلى الطابق الثالث.

وعند قمة الدرج، اخترت أول غرفة نوم طالعتها عيناي.

غرفتي القديمة.

فهي لا تقتصر على توفير مخرج سريع إلى الدرج إن ساءت الأمور بشدة واضطررت للهروب، بل إن السريرين المفردين بداخلها يتميزان بإطارات نحاسية شبيهة بتلك الموجودة في قبو آل فيتزجيرالد.

وحين حان وقت تقييد لين بهذا السرير، فعلت عكس ما فعلته في منزل آل فيتزجيرالد. كاحله الأيسر أولًا، لتثبيته في مكانه، يليه معصمه الأيسر.

ولأن السرير مدفوع في زاوية الغرفة، أُجبرت على إمالة جسدي بأكمله فوق جسده لأتمكن من تقييد معصمه الأيمن. وضعية بالغة الحميمية. مألوفة وغريبة في آن معًا. ذكرى الليالي الطويلة والكسولة وأنا أستلقي فوق لين تتصادم مع واقع جسده الجديد وبشرة كاثرين الناعمة، وشعرها الطويل، وصدرها الممتلئ.

أربط معصمه على عجل، وأصابعي تتعثر مع الحبل خشية أن يستغل اللحظة لردعي. وبدلًا من ذلك، يحدق فيّ، بنظرة هائمة كعاشق متيم كـ (روميو). تنفرج شفتاه في تنهيدة عميقة من التوق، وتلفح أنفاسه وجهي.

رائحتها كريهة، وملمسها أشد سوءًا.

كأنها انتهاك.

أتلوى مبتعدة، وأنهي العقدة العشوائية، وأنزلق من فوقه، وأنتقل إلى أسفل السرير. وبمجرد أن أربط ساقه اليمنى بإطار السرير، أهوي على السرير المقابل وأقول:

– «ستجيب على بعض الأسئلة من أجلي.»

يظل لين صامتًا، رافضًا النظر إليّ. يختار السقف عوضًا عن ذلك، محدقًا فيه بملل مصطنع.

قلتُ:

– «حدثني عن كاثرين.»

مزيد من الصمت.

– «ستضطر للحديث في النهاية.»

ولا يزال لين صامتًا.

– «حسنًا.» أقف، وأتمطى، وأتجه نحو الباب. «بما أننا لن نغادر مكاننا حتى تشرع في الحديث، أظنني سأُعد بعض القهوة.»

أتوقف في عتبة الباب، مانحة لين فرصة للرد. وبعد ثلاثين ثانية أخرى من الصمت، أتوجه للمطبخ وأشغل آلة القهوة. أستند إلى رخامة المطبخ، مصيخة السمع لأزيز وقطرات (مستر كوفي)، وأخيرًا يطبق عليّ الثقل الكامل لأحداث الليلة.

عاد لين.

كاثرين في مكان ما.

وتوم محتجز في قبو آل فيتزجيرالد.

وأنا؟ أنا على وشك التقيؤ.

يباغتني الغثيان في هجوم خفي. في لحظة، أكون منتصبة القامة. وفي اللحظة التي تليها، أجدني منثنية على الأرض بينما يدور المطبخ ويدور ويدور. أحاول النهوض، لكن ساقيّ أضعف من أن تسنداني فجأة. أُجبر على الزحف إلى الحمام الصغير، حيث أتقيأ في المرحاض.

وحين أنتهي، أجلس مسندة ظهري للحائط، أبكي وألهث وأصرخ في منشفة انتزعتها من الحامل بجانبي. لقد تحولت من الرغبة في تصديق أن لا شيء من هذا يحدث إلى الرغبة في معرفة كيف أوقفه عن الحدوث.

لأنني لن أتمكن من التماسك.

لا يعني هذا أنني قريبة حتى من التماسك الآن.

لكنني أعلم أن الأمر سيزداد سوءًا إن لم يبدأ لين في الحديث. فقدرة المرء على تحمل التوتر، والخوف، والعبثية المطلقة محدودة قبل أن ينهار تمامًا.

لم أبلغ تلك المرحلة بعد، رغم أنني قد أفعل قريبًا جدًا. وحتى ذلك الحين، هناك عمل يجب إنجازه. لذا أقف، متفاجئة قليلًا من قدرتي على ذلك، وأرش وجهي بالماء البارد. وبينما أجففه بالمنشفة التي صرخت فيها، تداهمني فكرة مواساة صغيرة.

على الأقل لا يمكن أن يزداد الوضع سوءًا.

حتى يحدث ذلك بالفعل.

***

نظرًا لانشغالي الشديد إما بالتقيؤ، أو اللهاث، أو الصراخ في المنشفة المكتومة، أو رشق وجهي بالماء، لم يتناهَ إلى سمعي صوت توقف السيارة في الممر.

أو فتح الباب وإغلاقه حين ترجل السائق.

أو وقع أقدام تقترب من المنزل.

أول ما أنذرني بوجود أحدهم كان طرقة على الباب. طرقتان مدويتان ومفزعتان وكأنهما طلقات نارية. كنت أرمق نفسي في مرآة الحمام الصغير حين سمعتهما، وتجمدت تعابيري في لوحة مثالية للذعر، كغزال شلته أضواء سيارة. شفاه منفرجة.

عينان متسعتان كعملتين معدنيتين يملؤهما الذهول. ووجهي، الذي كان منذ ثانية واحدة فقط مورّدًا ومنتفخًا، شحب لونه تمامًا.

طرقتان إضافيتان انتشلتاني من ذهولي. مدفوعة بغريزة البقاء البدائية، انطلقت أعدو من الحمام والمنشفة لا تزال في يدي، مدركة ما يتحتم عليّ فعله دون تفكير. حلقت صعودًا على الدرج نحو غرفة النوم، مفزعة لين الذي حاول أخيرًا التفوه بشيء.

لم أمنحه الفرصة.

حشرت المنشفة في فمه وعقدت طرفيها خلف رأسه.

ثم عدت أدراجي نزولًا، متوقفة في منتصف المسافة لالتقاط أنفاسي. هبطت ما تبقى من الدرجات ببطء، مستشعرة نبضات قلبي تتباطأ من خفقان محموم إلى نبض رتيب. وفي البهو، سألت:

– «من بالباب؟»

– «ويلما آنسون.»

قفز قلبي – نبضة واحدة عنيفة وجامحة – قبل أن يستقر مجددًا. مسحت العرق عن جبيني، ورسمت على وجهي ابتسامة عريضة تكفي لبلوغ أبعد المقاعد في المسرح، وفتحت الباب. وجدت ويلما على الجانب الآخر، تنفض المطر الذي بللها في المسافة بين سيارتها والشرفة.

قلتُ بنبرة مشرقة:

– «أيتها المحققة، ما الذي يأتي بكِ في هذا الطقس؟»

– «كنت في الجوار. هل يمكنني الدخول؟»

– «بالتأكيد.» فتحت الباب على مصراعيه ودعوتها إلى البهو، حيث أمضت ويلما ثانية في التحديق بي بنظرة باردة وفاحصة.

سألت:

– «لِمَ أنتِ مبللة هكذا؟»

أجبتُ، مختلقة كذبة من العدم:

– «كنت بالخارج أتفقد قاربي. والآن أنا على وشك احتساء بعض القهوة.»

– «في هذا الوقت؟»

– «الكافيين لا يقلقني.»

قالت ويلما:

– «يا لحظكِ. لو شربت كوبًا الآن، لبقيت مستيقظة حتى الفجر.»

ولأنها كانت لا تزال تتفحصني، باحثة عن أي شائبة تشي بخلل ما، أشرت لها أن تتبعني لعمق المنزل. فالتصرف بخلاف ذلك لن يزيدها إلا ريبة. قدتها إلى المطبخ، حيث صببت قهوة في كوب قبل أن أحمله إلى غرفة الطعام.

لحقت بي ويلما إلى هناك. وبينما كانت تتخذ مقعدًا على طاولة الطعام، استرقت نظرة باحثة عن المسدس القابع في جرابه تحت سترتها. كان هناك، مؤكدًا أنها هنا في مهمة رسمية.

قلتُ وأنا أجلس قبالتها:

– «سأفترض أن هذه ليست زيارة ودية.»

أجابت ويلما:

– «افتراض في محله. أظنكِ تدركين سبب زيارتي.»

في الواقع، لا أدرك. فالأحداث التي توالت في الأربع والعشرين ساعة الماضية أكثر من كافية لتبرير زيارة من شرطة الولاية.

قلتُ:

– «إن كان الأمر يتعلق بمكالمتي الهاتفية السابقة، فأريد أن أعتذر لكِ بشدة. لم أكن أزن الأمور حين اتهمت بون.»

قالت ويلما:

– «لم تكوني كذلك بالفعل.»

– «وأنا لا أعتقد أن له أي صلة بما يجري.»

– «ليس له أي صلة.»

– «يسعدني أننا متفقتان.»

قالت ويلما، مبينة عدم اكتراثها البتة لاتفاقنا من عدمه:

– «بالطبع. من المؤسف أنني لست هنا لمناقشة أمر بون كونراد.»

– «إذن لِمَ أنتِ هنا؟»

رمقتها عبر البخار المتصاعد من كوب قهوتي، محاولة قراءة أفكارها. كان ذلك مستحيلًا.

سألت ويلما:

– «هل راقبتِ منزل آل رويس على الإطلاق هذا المساء؟»

الوقت الحاضر

أرتشف جرعة من البوربون وأحدق في الشخص المقيد إلى السرير، يمزقني مزيج من الرعب والانبهار كيف يمكن لشر مطلق أن يسكن جسدًا بهذا الجمال. أمر لا ينبغي أن يكون ممكنًا. ومع ذلك، إنه يحدث. وأنا أشهده بأم عينيّ. مشهد يدفعني لإبقاء الكأس ملتصقة بشفتي.

وهذه المرة، أبتلع جرعة كبيرة.

يقول لين وهو يراقبني أشرب:

– «أذكر حين كنتِ تترنحين بعد كأس نبيذ واحدة. من الجلي أن ذلك قد تغير. أظن أن لي يدًا في هذا.»

أبتلع ما في فمي. «بل يدان وأكثر.»

يسأل لين:

– «هل يُسمح لي بالقول إنني قلق عليكِ؟ لأنني كذلك بالفعل. هذا لا يشبهكِ يا سي. لقد ابتعدتِ كثيرًا عن الشخص الذي وقعت في حبه.»

– «الشعور متبادل.»

– «ولأجل ذلك قررتِ الشرب حتى الموت؟»

أقول:

– «أنت، من بين كل الناس، لا يحق لك الحكم عليّ. لا أود سماع شفقتك اللعينة. لأن هذا...» أرفع كأس البوربون التي لا تزال مقبوضة في يدي، «...هو خطيئتك. كلها بالكامل. والآن، يمكننا التحدث بإسهاب عن سبب شربي، لكن فقط بعد أن تخبرني المزيد عن تلك الفتيات اللواتي أزهقت أرواحهن.»

– «تريدين معرفة كيف فعلتها؟»

يبتسم لين. ابتسامة مريضة، شبحية، تبدو مدنسة على وجه كاثرين الرقيق والفاتن. يتطلب الأمر كل ذرة ضبط نفس أملكها كي لا أصفعه لأمحوها.

أقول:

– «لا. أريد أن أعرف لِمَ فعلتها. كان ثمة ما يتجاوز مجرد المتعة. دافع قسري أجبرك على هذا الفعل.»

يتصاعد صوت من الخارج.

عاصفة من الرياح، تعوي كشبح أسطوري عبر البحيرة.

تصفع منزل البحيرة، فيرتجف البناء بأسره، باعثًا طنينًا جماعيًا من ألواح النوافذ. ويعود مصباح السرير ليومض مجددًا.

لكنه هذه المرة، لا يكف عن الوميض.

يقول لين:

– «أنتِ لا تريدين المعرفة حقًا يا سي. أنتِ فقط تظنين ذلك. لأن الإدراك الحقيقي لأفعالي سيتطلب منكِ مواجهة كل ما تغاضيتِ عنه أو تجاهلتهِ فيّ، لأنكِ كنتِ منشغلة بلملمة جراح طفولتكِ البائسة. لكن أمكِ العاهرة لم تتخلَ عنكِ. ولم تبتلي بأب يوسعكِ ضربًا. ولم تكبري وتتقاذفكِ دور الرعاية ككلب شارد منبوذ.»

يروم لين استدرار شفقتي، وهو ما ينجح فيه. فما كابده لا ينبغي لطفل أن يقاسيه. ومع ذلك، أدرك تمامًا أن كُثراً غيره قهروا هذه الظروف، ومضوا في حياتهم دون أن يلحقوا الأذى بغيرهم.

أقول:

– «تلك الفتيات اللواتي أزهقت أرواحهن لا ذنب لهن في كل هذا.»

– «لم أكترث. كنت لا أزال أتوق لإيذاء أحدهم. كنت بحاجة لذلك.»

وأنا كنت بحاجة لأن يكون الرجل الذي توهمته. ذلك الرجل اللطيف، والنبيل، والساحر الذي ظننت بسذاجة أنني اقترنت به. عجزه – أو رفضه – عن تحقيق ذلك يغمرني بمزيج لزج من الغضب والحزن والأسى.

قلتُ، وارتعاشة تسري في صوتي، أجهل إن كان منبعها الغضب أو اليأس:

– «إن كان هذا ما يعتمل في داخلك، فما الذي دفعك للإصرار على جَري إلى هذا المستنقع؟ كان يجدر بك أن تتركني وشأني. وعوضًا عن ذلك، سمحت لي بالوقوع في حبك. سمحت لي بالزواج منك وبناء حياة معك. حياة كنت تدرك منذ البداية أنك ستدمرها.»

يهز لين رأسه نافيًا. «لم أتخيل قط أن تؤول الأمور إلى هذا الحد من السوء. توهمت أنني قادر على كبح جماح نفسي.»

قلتُ، والارتعاشة تستحيل إلى زلزال:

– «كان يجدر بزواجنا أن يكون رادعًا لك. كان يجدر بي أن أكون كافية كفرد!»

يقول لين:

– «لقد كافحت لئلا أستسلم لذلك الدافع. لكن الرغبة أبت التلاشي، مهما استمتمت في قمعها. في بعض الليالي، وبينما كنتِ تغطين في النوم، كنت أستلقي مؤرقًا، متأملًا نشوة رؤية الحياة تتسرب من عيني أحدهم، وأنا موقن بأنني السبب في ذلك. وكلما أمعنت التفكير، اشتدت مقاومتي. وكلما اشتدت مقاومتي، تعاظم ذلك الدافع بداخلي.»

– «حتى أتيت إلى هنا ونفذت مأربك.»

يقول لين، ويتقلص بطني لفكرة قتله لآخريات في أماكن أخرى:

– «ليس في البداية. في لوس أنجلوس. أحيانًا، حين كنت أسافر للعمل هناك بمفردي، كنت أذرع الشوارع، وألتقط بائعة هوى، وأصطحبها إلى غرفتي.»

لا أجفل من الخبر. فبعد أن علمت أن زوجك قد قتل ثلاث نساء على الأقل، تفقد خيانته لسعتها المعهودة في الظروف الطبيعية.

– «وذات ليلة، لم أرغب في تكبد عناء الغرفة. استقلينا سيارتي وحسب، وركنا في بقعة هادئة، وأبرمنا الاتفاق المالي المعتاد. وبينما كان الأمر يحدث، وأنا مستلقٍ على المقعد الأمامي، وهي راكعة في مساحة القدمين، تقدم لي خدمة رخيصة لا تستحق ثمنها، فكرت، ما أيسر أن أقتلها في هذه اللحظة.»

ارتجف من الاشمئزاز. مجددًا، أعجز عن استيعاب أن هذا الرجل كان زوجي، وأن معظم لياليّ انقضت إلى جواره، وأنني عشقته بكل ذرة في كياني. والأدهى من ذلك، أعجز عن تجاوز كيف انطلت عليّ حيلته بالكامل. خلال فترة ارتباطنا، لم يساورني أدنى شك – ولا لمرة واحدة – في أنه يمتلك ولو جزءًا يسيرًا من هذه القسوة والانحطاط.

قلتُ، رغم عدم رغبتي في سماع الإجابة لكن حاجتي الملحة لها:

– «وهل فعلت؟»

يقول لين:

– «لا. كان الأمر محفوفًا بالمخاطر. لكني أيقنت أن ذلك سيحدث يومًا ما.»

– «ولِمَ هنا؟»

– «ولِمَ لا هنا؟ إنه مكان هادئ ونائي. بالإضافة إلى ذلك، كان يسعني استئجار سيارة، والقيادة إلى هنا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، ثم العودة والتظاهر بأنني كنت في לוס أنجلوس. وأنتِ لم تشكي في شيء قط.»

قلتُ:

– «لكنني اكتشفت الأمر في النهاية.»

– «بعد فوات الأوان لـ ميغان، وتوني، وسو إلين.»

يجتاحني ألم حاد في أحشائي، طاعن وموجع وكأنني أخذت السكين القابع على السرير بجواري وغرسته في خاصرتي.

– «أخبرني أين تركت جثثهن.»

– «لأكفر عن خطاياي؟»

أهز رأسي وأرتشف جرعة أخرى من البوربون. «لتكفر عن خطاياي أنا.»

يقول لين:

– «أرى. ثم ماذا؟ ولا تتظاهري بأنكِ لم تحسبي حساب ذلك. أنا أعلم يقينًا ما تعتزمين فعله. بمجرد أن تعقبي أثر تلك الجثث، ستقتلينني مرة أخرى.»

حين كان حيًا، كنت أستغرب قدرة لين الخارقة على قراءة أفكاري. أحيانًا كنت أشعر وكأنه يلم بكل مزاجاتي، ونزواتي، واحتياجاتي، وهو ما كنت أعشقه تمامًا. يا لها من نعمة أن يكون رفيق دربك ملمًا بك إلى هذا الحد. لكن في استرجاع الذكريات، كان ذلك نقمة أكثر منه نعمة. أرجح أن هذه هي الوسيلة التي مكنت لين من إخفاء حقيقته عني طوال تلك المدة. وأنا موقنة بأنها الوسيلة ذاتها التي يدرك بها خطتي الحالية.

قلتُ، إذ لا أرى جدوى من الكذب، فلن يصدقني إن فعلت:

– «أجل. هذا ما أعتزم فعله.»

– «وماذا إن رفضت؟»

أضع الكأس على المنضدة، بجوار المصباح الذي لا يكف عن الوميض. إنه كضوء وامض متقطع، يُغرق الغرفة في دفعات قصيرة من الظلام والنور بينما تنزلق يدي مجددًا نحو السكين. «حينها سأقتلك على أية حال.»

يقول لين، متعمداً نطق اللقب بفحيح مبالغ فيه:

– «لا أظنكِ ترغبين في تلطيخ يديكِ بمزيد من الدماء يا سي. خبرتي تخبرني أنكِ لن تترددي في قتلي. لكن الضحية الأخرى هي من يجب أن تجعلكِ تتريثين.»

– «أي ضحية أخرى؟»

– «كاثرين، بالطبع.»

لا حاجة له لإضافة كلمة أخرى. أنا الآن أعي تمامًا ما يعنيه.

إن قتلته، فسأكون قد قتلت كاثرين رويس أيضًا.

وعلى أذيال هذا الكشف، يأتي بصيص آخر من الوضوح. بصيص يبعث على الأمل، وإن لم يكن أقل تعقيدًا.

قلتُ:

– «إنها لا تزال هناك.»

لم يُمنح لين فرصة للرد. فقاطعه عواء ريح أخرى بالخارج.

تدنو.

تنقض.

ترتطم بالمنزل، فيرتجف كل شيء، وأنا من ضمن ذلك. أمد يدي إلى المنضدة لأتشبث بها. وفي الردهة، يسقط شيء على الأرض ويتهشم.

يتوقف المصباح الجانبي عن الوميض لبرهة تكفي لألمح كأس البوربون تهتز، ولين يصارع القيود، وابتسامة متعالية ترتسم على شفتيه.

ثم يغرق المصباح، والغرفة، ومنزل البحيرة بأسره في عتمة حالكة.

***

يغلفني الظلام بمباغتة وسرعة تجعلني أشهق. يتسلل صوت شهقتي عبر أرجاء الغرفة، مضخمًا بفعل العتمة المطبقة. هذا الظلام الآن أشد حلكة من تابوت أُحكم غطاؤه.

أبقى متسمرة على السرير، آملة أن يكون هذا مجرد انقطاع عابر وأن يعود التيار الكهربائي في غضون ثوانٍ. وحين تنقضي دقيقة وتبقى الأضواء مطفأة، أستسلم للمهمة التي تنتظرني – البحث عن المصابيح اليدوية والشموع وإنارة المكان قدر الإمكان.

فرغم انعدام ثقتي بـ لين في النور، إلا أنني لا أثق به البتة في الظلام.

أنهض وأغادر الغرفة، مستعينة بالذاكرة العضلية المترسخة من آلاف الليالي هنا للتنقل بين الأسرة وبلوغ الباب.

في الردهة، يطحن شيء تحت حذائي الرياضي.

زجاج مهشم.

ينتشر حطامه على الأرضية الخشبية. أحاول تجنبه، فأركل مصدره دون قصد – إطار صورة سقط من الجدار حين اهتز المنزل.

أواصل طريقي نحو الدرج. وعوضًا عن نزوله مشيًا، أجلس وأنزلق درجة تلو أخرى حتى أبلغ الأسفل. بحلول هذا الوقت، تكون عيناي قد اعتادتا العتمة بما يكفي لأشق طريقي إلى غرفة المكتب، حيث أحتفظ بمخزون طوارئ من المصابيح والشموع. أعثر على فانوس (ليد)، ومصباح يدوي، وعدة شموع غليظة قادرة على الاشتعال لساعات.

وأعثر على ولاعة.

إحداهن التي لا بد أنها تقبع هنا منذ دهور.

على الأقل منذ الصيف الماضي.

وبما أن لين كان المكلف بجمع مؤن الطوارئ وتفقدها، فقد كان على علم بوجودها.

يا له من وغد.

أشعل الفانوس وأطوف به من غرفة لأخرى، موقدة الشموع في طريقي. بعضها من مخزون الطوارئ. وأخرى شموع زينة في مرطبانات زجاجية تراكمت على مر السنين، ولم تُشعل قط حتى هذه اللحظة. تمتزج روائحها وأنا أتنقل عبر المنزل. صنوبر وقرفة، خزامى وزهر البرتقال. روائح عطرة لموقف بالغ البشاعة.

في الطابق العلوي، أشعل شمعة في غرفة النوم الرئيسية قبل العودة إلى الغرفة حيث لا يزال لين مقيدًا.

أضع الفانوس على السرير وأستقر الشمعة على المنضدة. أنقر الولاعة وأقربها من فتيل الشمعة، الذي يصدر أزيزًا خافتًا مع اشتعال اللهب.

قلتُ:

– «أردتني أن أعثر على رخص القيادة تلك، أليس كذلك؟ لهذا أرسلتني إلى صندوق أدواتك للصيد وليس إلى الولاعة مع مؤن العاصفة. أردتني أن أعلم بما اقترفته.»

يتململ لين على السرير، ويلقي ظله الضخم والمتراقص على الجدار بجواره. يصبغ ضوء الشمعة وجهه بأنماط متقلبة من النور والظلام. وفي كل لمحة من الظلام، يخيل إليّ أنني ألمح لين في هيئته الحقيقية، وكأن كاثرين تتحول إليه. خدعة بصرية قاسية.

قال:

– «كان الأمر أقرب للعبة. أدركت أن ثمة احتمالًا لعثورك عليها، تمامًا كما أدركت إمكانية تغافلك عنها كليًا. كان الترقب لمعرفة ما إن كنتِ ستعثرين عليها أم لا يبعث على الإثارة. وقد اكتشفت ذلك في النهاية.»

– «لكن ليس قبل أن يفوت الأوان بالنسبة لك.» أرفع كأس البوربون إلى شفتي وأتجرع بلعة انتصار. «لكنه لم يفت بعد بالنسبة لـ كاثرين، أليس كذلك؟ إنها لا تزال موجودة.»

قال لين:

– «أجل. في مكان ما في الأعماق. ظننتكِ تدركين ذلك.»

لقد أخطأ في ذلك. لا أزال أعجز عن استيعاب أي من هذا. ليس فقط الشذوذ عن الطبيعة الذي سمح بحدوث هذا، بل كيفية حدوثه.

– «هل تعي ما يجري؟»

قال لين:

– «عليكِ أن تسأليها.»

– «وهل هذا ممكن؟»

– «ليس بعد الآن. كان ذلك ممكنًا حين كانت لا تزال تحتفظ بمعظم سيطرتها.»

تنساب أفكاري نحو تفاعلاتي القليلة مع كاثرين. حديثنا في القارب بعد انتشالها من البحيرة. تجرعنا لنبيذ زوجها الذي يبلغ ثمنه خمسة آلاف دولار للزجاجة. ارتشافنا للقهوة في صباح اليوم التالي، وتذمرها من حال زواجها. كل ذلك كان كاثرين. أو معظمه. أفترض أن لين كان يطفو على السطح أحيانًا، كما حدث حين لمح منظاره على الشرفة أو حين راسلني رغم جهل كاثرين برقم هاتفي.

– «ومتى أحكمت سيطرتك؟» سألت.

قال لين:

– «حدث الأمر تدريجيًا. استغرقني بعض الوقت لأعتاد على هيئتي الجديدة، لأستوعب آليات عملها، ولأتعلم كيف أتحكم فيها. ويا إلهي، كم قاومت. أبت كاثرين الاستسلام دون قتال.»

طوبى لها، فكرت، قبل أن تبتلعني فكرة أخرى.

– «هل ثمة سبيل لاستعادتها؟»

لم يجب لين.

قلتُ:

– «ثمة سبيل حتمًا. وإلا لأجبت بالنفي فورًا.»

قال لين:

– «قد يكون هناك سبيل، أجل. وليس في نيتي البوح به لكِ.»

– «لا يمكنك البقاء هكذا. أنت سجين. ليس فقط هنا، في هذه الغرفة، بل في جسد شخص آخر.»

– «ويا له من جسد فاتن. أظن أنه سيسهل الأمور عليّ كثيرًا.»

رمق لين صدر كاثرين بنظرة شهوانية مبالغ فيها. رؤيته يفعل ذلك فجرت بداخلي غضبًا لربما كتمته طوال حياتي. ليس غضبًا موجهًا إليه فحسب، رغم أنه منحني أسبابًا لا حصر لها لأغضب منه، بل غضبًا موجهًا لكل الرجال الذين يتوهمون أن حياة النساء، وخاصة الجميلات منهن، ممهدة بالورود.

– «يسهل؟» قلت. «أنت لا تدرك حجم المشقة في كونكِ امرأة. أو كم هو مثير للجنون أن تشعري دائمًا بأنكِ مستهدفة لمجرد أن هذا هو حال مجتمعنا المختل. صدقني، لست مؤهلًا للتعامل مع هذا. انتظر حتى تضطر للمشي في الشارع وحدك ليلًا أو الوقوف على رصيف مترو الأنفاق وتتساءل عما إذا كان أحد الرجال من حولك – أو أكثر – سيحاول التحرش بك. أو الاعتداء عليك. أو قتلك تمامًا كما قتلت تلك الفتيات الثلاث اللواتي يقبعن الآن في مكان ما في تلك البحيرة.»

وجدت السكين في يدي، رغم أنني لا أحتفظ بأي ذكرى لالتقاطه. والآن، وقد أصبح في قبضتي، طرت عبر الغرفة، وتأججت في داخلي براكين غضب مكبوت، ووضعت النصل على عنق لين. ازدرد ريقه، واحتك نبض جلده ببرودة السكين الفولاذي.

– «ربما يجدر بي إنهاء الأمر الآن،» قلت. «فقط لتذوق مرارة ذلك.»

قال:

– «تذكري ما قلته لكِ. إن قتلتني، فستقتلين كاثرين أيضًا. طعنتك لي هي طعنة لها أيضًا. دمي هو دمها الآن.»

لم أبعد السكين فورًا. الغضب الذي يغلي في داخلي كالقطران الساخن أجبرني على إبقائه هناك لدقيقة إضافية، والنصل على شفا اختراق الجلد. خلال تلك الثواني الستين، شعرت بوضوح، وحيوية جامحة، وأنني أخيرًا أمسك بزمام الأمور.

هذا، فكرت، ما يجب أن يشعر به الرجل.

لكن بعد ذلك لمحت لين يرمقني، وفي تلك العينين الرماديتين المخضرتين اللتين كانتا تخصان كاثرين رويس ولكنهما الآن له، رأيت استحسانًا.

قال بينما استمر نصل السكين في خدش جسده:

– «لطالما أيقنت أننا ثنائي مثالي.»

مذعورة، ارتددت للوراء، وهويت على السرير الآخر، وتهاوى السكين من يدي.

لقد أصبحت هو.

لبرهة وجيزة فحسب.

لكنها كانت كافية لأستشعر في داخلي ما أوقن أنه لم يكن جزءًا مني.

لقد كان لين.

يلتف حول أعضائي، ويتسلل بين ضلوعي، ويشد عضلاتي، وينمو في عقلي كورم خبيث.

زفرت نفسًا واحدًا مصدومًا.

– «ماذا فعلت للتو؟»

استمر لين في الابتسام. «لقد حذرك توم من دهائي.»

لقد فعل، لكن لم يخطر ببالي قط أن توم كان يعني هذا.

– «كيف فعلت ذلك؟» سألت، رغم أنني أملك تخمينًا قويًا. لقد حدث ذلك آنفًا، حين زفر أنفاسه في وجهي وأنا أربط معصمه الأيمن. تلك الأنفاس الكريهة بدت وكأنها انتهاك لأنها كانت كذلك بالفعل.

لقد زرع لين جزءًا من نفسه في داخلي.

– «حيلة بارعة، أليس كذلك؟» قال.

تراجعت أعمق في السرير، مبتعدة عنه حتى التصق ظهري بالجدار، وتعاظم خوفي من مجرد القرب منه أكثر من أي وقت مضى. إنه معدٍ.

– «كيف كان هذا ممكنًا؟ كيف يمكن لأي من هذا أن يكون ممكنًا؟»

حدق لين في البقعة التي يلتقي فيها الجدار بالسقف والجزء من ظله الطويل الذي يعبر ذلك الفاصل. «حين كنت على قيد الحياة، لم أعر الحياة الآخرة أي اهتمام. كنت أفترض أن الموت هو النهاية المطلقة. لكنني الآن أدرك الحقيقة. الآن أعلم أن ثمة شيئًا يتخلف وراءنا. أرواحنا، على ما أظن. حين يموت الناس على اليابسة، أرجح أنها تمتطي زفرتهم الأخيرة وتتلاشى في النهاية في الغلاف الجوي. لكن حين غرقت، فإنها...»

– «انسابت في البحيرة،» قاطعته.

– «بالضبط. لا أدري إن كان هذا يحدث في جميع المسطحات المائية أم أن ثمة سرًا في بحيرة جرين هو ما يسببه. كل ما أدركه هو أنني كنت سجينًا هناك.»

– «وماذا عن ميغان، وتوني، وسو إلين؟» سألت. «هل أرواحهن حبيسة البحيرة أيضًا؟»

– «لابد لكِ من الموت في الماء ليتحقق ذلك.» توقف لين، مدركًا أنه أفشى لي للتو تلميحًا عما حل بهن. متعمدًا بالكامل، أنا واثقة. «لذا، لا، أخشى أنني كنت الوحيد.»

ورغم أنني لست ملمة بخفايا بحيرة جرين كـ إيلي، إلا أنني أعلم أنه لم تشهد البحيرة حالة غرق منذ أن شيد جد جدي النسخة الأولى من منزل البحيرة. كان لين أول غريق منذ عام 1878 على الأقل.

حتى ظهرت كاثرين.

– «كيف تسنى لك التسلل إلى كاثرين؟ أو إليّ، في هذا الصدد؟»

– «لأن أرواحنا – إن كانت هي كذلك فعلًا – لا تحتاج للتبخر في الأثير. إنها مزيج من الهواء والسائل والظل. زلقة. بلا وزن. بلا شكل. لكي تبقى، جل ما تحتاجه هو وعاء. البحيرة كانت واحدًا. وجسد كاثرين وعاء آخر. أنا كالماء الآن، بوسعي أن أُسكب من كأس لأخرى. وما اختبرتيه أنتِ، يا حلوتي، لم يكن سوى قطرة. كيف كان الشعور؟»

مروع.

وطاغٍ.

إدراك جعلني أمد يدي نحو كأس البوربون، أتوق لرشفة أخرى. كانت فارغة. لم ألحظ ذلك.

أسيرة لحاجتي للشرب ورغبتي في الابتعاد عن لين قبل أن يتسلل إلى داخلي مجددًا، هبطت من السرير، والتقطت الفانوس، وتراجعت خارج الغرفة. عند عتبة الباب، توقفت ورمقته بنظرة تحذير.

– «أعد الكرة وسأزهق روحك،» قلت.

في الطابق السفلي، صببت قطرة من البوربون في الكأس الفارغة، وارتجفت وأنا أستحضر كلمات لين للتو.

(مجرد قطرة).

هذا كل ما تطلبه الأمر.

لقد استحال كياني إليه، وتركني ذلك بشعور من الانتهاك، والقذارة، والتلوث.

أضفت المزيد من البوربون إلى الكأس، أملأها كما كان بوسع لين أن يملأني، منسكبًا من وعاء إلى آخر. أظن أن هذا هو ما تمثله (بحيرة جرين). وعاءً شاسعًا ترعرع فيه شره كفيروس في طبق (بتري)، متربصًا بالمضيف المناسب ليعبر.

والآن، وقد وجد ضالته في جسد كاثرين رويس، لا أرى سوى سبيلين لوقف هذا الكابوس.

الأول، القضاء عليه على اليابسة، والرهان على تبخر روحه في الهواء. خيار مستبعد طالما أنه قابع داخل كاثرين. لقد صدق لين. لا أرغب في إراقة المزيد من الدماء على يدي.

أما السبيل الثاني، فهو إفراغه في وعاء مختلف.

وجهت نظري نحو الأبواب الزجاجية المزدوجة المفضية إلى الشرفة. كان النور المنبعث من الفانوس، ممزوجًا بشعلة الشمعة في المطبخ، قد أحال الزجاج إلى مرآة مرتجلة. دنوت منها، وانعكاسي يزداد وضوحًا مع كل خطوة. وأنا أتأمل طيفي، وضعت يدي على قلبي، ثم مررتها على صدري ونزولًا إلى معدتي. ثم تحسست رأسي، ووجهي، وعنقي، وذراعيّ – كل المواضع التي لامست فيها حضور لين العابر – لأتيقن من زواله.

أظن ذلك.

أشعر وكأنني عدت إلى طبيعتي؛ تلك النفس المعذبة، المدمرة لذاتها، والمحطمة.

اقتربت أكثر من الباب حتى لم تفصلني عن الزجاج سوى بوصة واحدة، محدقة في انعكاسي، الذي بادلني التحديق. تعانقت أنظارنا، وكلانا ندرك تمامًا الخطوة التالية.

تراجعت عن الباب، التقطت الفانوس، وغادرت المطبخ، متناسية البوربون تمامًا.

صعدت الدرج، وتوقفت عند الدرجة العلوية لآخذ نفسًا عميقًا، مستجمعة شجاعتي لمواجهة لين مجددًا قبل المضي قدمًا.

ثم اجتزت الاستراحة نحو الممر، حيث سحقت مرة أخرى بقايا الزجاج المهشم من إطار الصورة المتساقط. دفعت الباب ودلفت إلى غرفة النوم، المضاءة بتوهج الشمعة المرتعش.

– «إن أخبرتني بمكان الفتيات، سـ...»

ذبل صوتي وتلاشى.

السرير خاوٍ.

وفي الموضع الذي كان يفترض أن تُقيد فيه يدا لين، تتدلى حبلان من أعمدة السرير. الحبال عند قدم السرير كانت أقصر ونهاياتها ممزقة، مقطوعة بوضوح بأداة حادة. أما النصفان الآخران فملتويان في البقعة ذاتها على الأرض حيث تركت السكين.

الذي توارى الآن، كحال لين تمامًا.

***

تسمرت في منتصف غرفة النوم، أرهف السمع لأي أثر يشي بوجهة لين. لم ألتقط أي صوت لفتح أو إغلاق باب أثناء وجودي في الطابق السفلي، وهو أمر يحمل في طياته جانبين.

الجانب الإيجابي: لم يغادر المنزل.

الجانب السلبي: لا يزال بالداخل، متسلحًا بسكين وضغينة.

رفعت الفانوس ودرت ببطء، أمسح الغرفة بأكملها بنظري، أبحث عن مخابئ محتملة. تحت كلا السريرين، كبداية. تلك المساحات المظلمة تجعلني أترقب انبثاق يد لين منها، ملوحًا بالسكين. قفزت إلى السرير الذي كان لين ممددًا عليه، وأنفاسي متقطعة وأنا أحدد موقع مخبأ محتمل آخر.

الخزائن.

هناك خزانتان، كلاهما مساحتان ضيقتان صُممتا لملابس الفتيات الصغيرات أمثالي أنا ومارني في طفولتنا. لا تتسع أي منهما لشخص بضخامة لين.

لكن الأمر يختلف مع كاثرين رويس.

بنيتها الرشيقة كفيلة بأن تندرج هناك بسهولة.

خطوت نحو قدم السرير، ألعن صرير النوابض المزعج. متشبثة بإطار السرير بيدي المتعرقتين، أنزلت قدمي إلى الأرض، واحدة تلو الأخرى. ثم تقدمت على أطراف أصابعي، بخفة راقصة باليه، نحو الخزانة الأولى.

حابسة أنفاسي، مددت يدي.

أمسكت بمقبض الباب.

أدرته.

توقف قلبي حين نقر الباب مفصحًا عن فتحه.

سحبته، ببطء، فاحتجت المفاصل المهملة لسنوات بصرير مكتوم.

الخزانة فارغة.

انزلقت نحو الخزانة الأخرى في الغرفة، متأهبة لأداء الرقصة ذاتها من جديد. أنفاس محبوسة. مقبض يُمسك ويُدار. مفاصل تئن. كلها أفضت إلى النتيجة ذاتها.

خزانة فارغة وعقل يعج بالأفكار.

لقد تسلل لين إلى أرجاء أخرى من المنزل.

إنه مكان فسيح، يعج بمخابئ تصلح للتربص.

كل لحظة أمضيها بالداخل هي لحظة إضافية من الخطر، ويجب أن أخرج.

الآن.

اندفعت هاربة من غرفة النوم، انعطفت يسارًا بحدة في الممر، وتخبطت في بركة الزجاج المهشم في طريقي إلى الدرج. طرت نزولًا على الدرجات بسرعة خيالية لدرجة أن قدمي بالكاد لامستها. انزلقت لأتوقف في غرفة المعيشة، التي باتت محيطًا من الظلال تتراقص في ضوء الشموع. تنقلت بنظري من زاوية لأخرى، ومن مدخل لآخر، أتساءل إن كنت قد ولجت للتو في فخ.

قد يكون لين في أي مكان.

في زاوية تكتنفها الظلال. أو تلك المساحة المعتمة بجوار المدفأة. أو غياهب الزاوية تحت الدرج.

يصعب الجزم لأن كل شيء يلفه الظلام، والسكون، والصمت. لا يتناهى إلى مسامعي سوى وقع المطر في الخارج ودقات ساعة الحائط الكبيرة. كل تكتكة منها تذكرني بأن كل ثانية أمضيها في هذا المنزل هي ثانية إضافية في حضن الخطر.

استأنفت حركتي، توّاقة للمغادرة لكنني أجهل السبيل الأمثل لذلك. الأبواب الزجاجية المزدوجة تفضي إلى الشرفة، والدرجات، والرصيف الخشبي، والماء.

بوسعي استقلال القارب وتوجيهه عبر المياه الهائجة نحو رصيف بون، بافتراض أنه سيمد لي يد العون. وهو ضمان غير مؤكد بعد اتهامي له.

وهناك الباب الأمامي، الذي يتيح لي الوصول إلى الممر، والطريق، ومن ثم الطريق السريع. وهناك، حتمًا، سيتوقف أحدهم لمساعدتي. لن يكون بلوغ ذلك الطريق يسيرًا في هذا الطقس، لكنه قد يكون ملاذي الأخير.

حزمت أمري، وانطلقت كالسهم نحو البهو، أطوي الغرف التي أتجاوزها بسلام واحدة تلو الأخرى.

غرفة المعيشة.

غرفة المسحوق.

المكتبة.

غرفة المكتب.

وما إن بلغت البهو، حتى عاد التيار الكهربائي. غمر النور أرجاء المنزل، بباغتة ورهبة تضاهي انقطاعه. تلاشت الظلال التي كانت تحيط بي منذ ثانية كالأشباح. تسمرت في مكاني وسط هذا السطوع المباغت، مستشعرة حركة خلفي كانت متوارية في الظلام وباتت الآن مفضوحة.

لين.

وثب من إحدى الزوايا، والسكين مرفوعة، منقضًا نحوي. أسقطت الفانوس وهويت على الأرض، في حركة أملتها المفاجأة أكثر من كونها تكتيكًا. وبسبب باغتة الموقف، استمر لين في اندفاعه لبرهة مكنتني من التشبث بأحد كاحليه.

لقد أصبح أضأل حجمًا في جسد كاثرين، وأيسر في إسقاطه من ذي قبل. هوى أرضًا في لمح البصر.

وانفلت السكين من قبضته.

تدافعنا كلانا نحوه، نتخبط فوق بعضنا البعض، وأطرافنا تتشابك. مددت يدي، ولامست أطراف أصابعي مقبض السكين. خمش لين ذراعي، منتزعًا إياها بعيدًا. لقد أضحى فوقي الآن، يضغط بثقله، ووزن كاثرين مذهل في ثقله. ومن تحته، لمحت ذراعه تمتد متجاوزة ذراعي، وتبلغ السكين، وتقبض عليه.

ثم تدحرجنا عبر أرضية البهو.

انقلبت على ظهري.

واعتلاني لين مجددًا، متقوسًا فوق خصري، ومشهرًا السكين.

تصلب كياني بأسره والسكين تحوم، وراحت أترقب هبوطها، آملة ألا تفعل لكن موقنة بأنها ستفعل. سمرني الخوف على الأرض. وكأنني فارقت الحياة بالفعل، مجرد جثة هامدة، ثقيلة وبلا حراك.

وفوقي، انتُزِع لين فجأة للخلف.

وتخبطت ذراعاه.

وتلاشى ثقله.

وانتُزعت السكين من قبضته.

وبينما كان يُجر بعيدًا عني، تبينت هوية منقذي.

إيلي.

وخلفه، كان الباب الأمامي مشرعًا، يدع تيارًا من هواء الليل القطبي وقطرات المطر الباردة تجتاح المكان. ركل إيلي الباب ليغلقه، وفيما لين يتلوى بين قبضتيه، نظر إليّ من الأعلى.

– «وصلتني رسالتكِ. هل أنتِ بخير؟»

بقيت على الأرض، ساكنة كالموتى، وأومأت برأسي.

– «جيد،» قال إيلي. «والآن، هل تتفضلين بإخباري ما الذي يجري هنا بحق الجحيم؟»

أذعنت لطلب إيلي وبدأت في سرد الأحداث بعد أن عاونني في ربط لين بكرسي في غرفة المعيشة. ولأنه لا يزال يراه كـ كاثرين في نظره، استلزم الأمر بعض الجهد لإقناعه. ولم يرضخ في النهاية إلا لأنه شهدها للتو تعتليني مشهرة سكينًا.

لكن الآن، وقد بات لين مكبلًا بحبال عُقدت بإحكام شديد يمنعه من التملص كما فعل في غرفة النوم، انتقلنا، إيلي وأنا، إلى غرفة المكتب، حيث راقبنا الموظ المعلق على الحائط بينما نجلس متقابلين.

سأل إيلي:

– «كم شربتِ من الكحول اليوم؟»

– «كمية هائلة.» نظرت في عينيه، مترقبة رمشة منه. «لكن هذا لا يعني أن أيًا مما سأخبرك به الآن محض كذب.»

– «أرجو ذلك.»

وشرعت في سرد كل شيء له.

بدأت بجرائم لين، مستدلة برخص القيادة وخصلات الشعر التي انتزعتها من خلف اللوح المرتخي في القبو كدليل قاطع. وهي تقبع الآن على طاولة القهوة بيننا. بعد نظرة سريعة، صرح إيلي بعدم رغبته في رؤيتها مجددًا، ومع ذلك، ظلت عيناه تنجذبان نحو صور ميغان كين، وتوني بورنيت، وسو إلين سترايكر وأنا أروي كيف اكتشفت ما اقترفه لين.

قلتُ:

– «ثم قتلته.»

رفع إيلي، الذي كان يختلس نظرة أخرى إلى الهويات، عينيه نحوي بصدمة.

قال:

– «لقد غرق.»

– «فقط لأنني تسببت في ذلك.»

استحوذت على انتباهه التام وأنا أصف أحداث تلك الليلة، مفصلة كل خطوة في جريمتي.

سأل إيلي:

– «ولِمَ تخبرينني بهذا الآن؟»

أجبتُ:

– «لأنه يضفي المنطق على كل ما عداه.»

و(ما عداه) هو كل ما كان يجري في بحيرة جرين. ومجددًا، لم أغفل أي تفصيلة ولم أتجاوز عن أي من تصرفاتي السيئة. كنت آمل أن يغمرني الاعتراف بشعور بالنقاء كخاطئ بعد التوبة. وعوضًا عن ذلك، لم أشعر سوى بالخزي. لقد اقترفت الكثير من الأخطاء لدرجة تمنعني من إلقاء اللوم كاملًا على لين.

أصغى إيلي بعقل متفتح. وبعد وصولي إلى الجزء الذي تلبس فيه لين جسد كاثرين، قلت:

– «كنت محقًا. ثمة شيء كان يتربص في البحيرة. لا أدري إن كانت هذه ظاهرة تشمل كل المسطحات المائية أم تقتصر على بحيرة جرين، أو لعل هناك سرًا في لين نفسه. لكنه واقع يا إيلي. وهو يحدث الآن وفي هذه اللحظة.»

لم يعلق بعد ذلك. بل اكتفى بالنهوض، ومغادرة غرفة المكتب، والتوجه إلى حيث يُحتجز لين. تناهت أصواتهما من غرفة المعيشة، خافتة وملحة لدرجة يستحيل معها تمييز الكلمات بوضوح.

مضت عشر دقائق.

ثم خمس عشرة.

استمر حديث إيلي مع لين لعشرين دقيقة. جزء يسير من الوقت الذي أمضيته في الحديث، لكنه كان كافيًا ليثير قلقي من عدم تصديقه لي. أو الأسوأ، أن ينطلي عليه أي من أكاذيب لين.

حبست أنفاسي حين عاد إيلي أخيرًا إلى غرفة المكتب وجلس.

قال:

– «أنا أصدقكِ.»

– «أنا...» كابدت لأنطق، مرتبكة من مزيج من الدهشة والارتياح. «لِمَ؟ أعني، ما الذي جعلك تقتنع؟»

مد إيلي رقبته ليختلس نظرة نحو غرفة المعيشة البعيدة. «لقد... عفوًا، هو... اعترف.»

تلك الكلمة – هو – أكدت لي جدية إيلي. ومعرفتي بأنه يصدقني كانت لتصيبني بالإغماء من فرط الارتياح في العادة، لولا الأمر الأخير الذي توجب عليّ إخباره به.

خطتي للخطوة التالية.

مجددًا، استعرضت معه كل خطوة، مجيبة عن تساؤلات إيلي ومبددة مخاوفه.

قلت حين انتهيت:

– «إنه الخيار الأوحد.»

في النهاية، أومأ إيلي. «أفترض ذلك. متى تنوين التنفيذ؟»

التفت نحو النافذة، متفاجئة بإدراك أن العاصفة قد انجلى غبارها بينما كنت أحدث إيلي وكان هو يحدث لين. لم تعد الرياح تعصف بالنوافذ، ولم يعد المطر يطرق على السقف. وحل محلهما ذلك السكون العميق الذي يعقب دائمًا الأنواء الهوجاء، وكأن الغلاف الجوي، بعد أن زأر وزمجر حتى استُنزف، يأخذ الآن نفسًا

طويلًا ومريحًا. والسماء، التي كانت حالكة السواد، رقّت الآن إلى لون رمادي متوسط.

الفجر يلوح في الأفق.

قلتُ:

– «الآن.»

***

في غرفة المعيشة، وقفنا، إيلي وأنا، أمام لين، الذي كان لا يزال يحاول اصطناع الملل من كل ما يجري. لربما أفلح لين القديم في ذلك. لكن نسخته الجديدة، العالقة بوجه كاثرين الفائق التعبير، عجزت عن ذلك. فالفرول كان يتسرب من خلف قناع نفاذ الصبر الذي يتصنعه.

قلتُ:

– «أخبرني بمكان أولئك الفتيات، وسأطلق سراحك.»

انتفض لين، وتبخر مللُه المصطنع في لمح البصر. «هكذا ببساطة؟ ما الثمن؟ لا بد من وجود فخ.»

– «لا فخ البتة. خياراتي هنا محدودة جدًا. لا يسعني قتلك لأن ذلك يعني قتل كاثرين أيضًا. ولا أستطيع إبقاءك مقيدًا هكذا للأبد. قد أحاول، كما فعل توم رويس. أصفدك في القبو. أطعمك وأحممك. لكن دائرة البحث عن كاثرين ستتسع حتمًا، ولن يمر وقت طويل قبل أن يُكشف أمرك.»

– «وهل أنا حر في الذهاب لأي مكان؟»

– «كلما كان أبعد، كان أفضل،» قلت. «يمكنك محاولة تقمص حياة كاثرين رويس لبعض الوقت، لكني أرجح أن ذلك سيكون في غاية الصعوبة. إنها شخصية مشهورة جدًا. ومتابعوها الأربعة ملايين على (إنستغرام) سيميزونك بسهولة وسط الحشود. نصيحتي لك هي أن تغير مظهرك وتهرب لأبعد مسافة وبأسرع ما يمكنك.»

أطال لين التفكير، ولا ريب أنه كان يزن عقبات بدء حياة جديدة في مكان جديد وفي جسد مألوف للغاية.

– «وهل أنتِ مستعدة لمد يد العون لي؟»

– «أنا مستعدة لإنزالك عند رصيف آل رويس،» قلت. «وبعدها، أنت وشأنك. ما تفعله لا يعنيني في شيء.»

– «بل ينبغي أن يعنيكِ،» قال لين. «فبوسعي إثارة جحيم من المتاعب هناك بمفردي. أو، في هذا الصدد، إثارة جحيم من المتاعب هنا. أنتِ تعلمين ما أنا قادر على فعله.»

إن كان يبتغي إثارة حفيظتي، فقد أخفق. توقعت منه مثل هذا التهديد. وبصراحة، كنت لأصاب بالذهول لو لم يفعل.

– «إنها مجازفة لا مفر لي منها،» قلت. «هذا ليس الخيار الأمثل. بل هو الخيار الأوحد. لكلينا.»

نظر لين إلى إيلي. «وهو سيبقى هنا.»

– «لقد أخبرته بذلك مسبقًا.»

ورغم أنني كنت لأتمنى بقاء إيلي بجانبي في كل هذا، إلا أنني بحاجة لتوجهه إلى المنزل المجاور لتشتيت انتباه بون. آخر ما أتمناه هو أن يلمحني بون ومعي شخص يظنه كاثرين خارجين إلى البحيرة.

كان سيحاول ردعي حتمًا.

وكذا كان ليفعل إيلي لو علم بخطتي الحقيقية.

قلت لـ لين:

– «سنكون وحدنا فحسب.»

أشرق وجهه. «كما تمنيت دائمًا.»

وقبل أن نغادر، أعدت طي رخص قيادة ميغان وتوني وسو إلين وخصلات شعرهن في المنديل وأجبرت إيلي على أخذه.

قلت وأنا أدون اسم المحققة ويلما آنسون ورقم هاتفها:

– «إن لم أعد، فلتسلم هذه للمحققة. أخبرها أنها مني. ستعلم ما يجدر بها فعله بها. وما تعنيه.»

قال إيلي:

– «أنتِ تنوين العودة، أليس كذلك؟»

أجبته بما آمل أن يبدو مقنعًا:

– «بالطبع.»

وبمعاونة إيلي، حررت لين من الكرسي. وما إن استقام واقفًا، حتى أجبرنا معصميه للأمام وربطناهما معًا، وسط احتجاجه الصارخ.

– «ظننتكِ تطلقين سراحي.»

– «وأنا كذلك،» قلت. «بعد أن ترشدني بالضبط لمكان الفتيات. وحتى ذلك الحين، الحبال باقية.»

أطبق لين شفتيه بعد ذلك، ولازم الصمت ونحن نسوقه إلى الشرفة الخلفية. كانت البطانية المأخوذة من القارب مكومة في أحد الكراسي الهزازة. التقطتها وألقيتها على كتفي لين. ورغم أنها لا ترقى لمستوى التمويه، إلا أنها نأمل أن تزيد من صعوبة تمييز بون لهوية من يرافقني في القارب إن أخفق إيلي في إلهائه.

نزلنا نحن الثلاثة درجات الشرفة، وعبرنا العشب، وبلغنا الرصيف. كانت آثار العاصفة المنقضية بادية في كل زاوية. تجردت الأشجار من أوراقها الخريفية، التي تناثرت الآن على الأرض في بقع برتقالية وبنية. وفرع ضخم، حطمته الرياح، استقر على أحد كراسي (أديروندك) بجوار حفرة النار.

وفاضت البحيرة ذاتها عن ضفافها، فتجمعت المياه في العشب المحاذي للشاطئ وغمرت أجزاء من الرصيف. خاض لين عبرها، بخفة ملحوظة في خطواته. بدا كرهينة يوقن باقتراب تحريره.

أنا أتوق للحظة التي سيدرك فيها أن ذلك لن يحدث.

سأل إيلي:

– «هل أنتِ واثقة من عدم رغبتك في مرافقتي لكِ؟»

– «لا،» قلت. «لكنني واثقة من ضرورة قيامي بذلك بمفردي.»

أصر إيلي على عناق قبل السماح لي بصعود القارب. عناق وثيق لدرجة ظننت معها أنه لن يفلتني أبدًا. وخلاله، همست في أذنه:

– «أخبر مارني وأمي بما تراه مناسبًا عما حدث. أيًا كان ما تظن أنه الأيسر عليهن تقبله.»

تراجع وتفحص وجهي، وارتخت ملامحه حين أدرك أنني لن ألتزم بالخطة التي رسمتها له.

– «كيسي، ما الذي تعتزمين فعله؟»

لم يسعني إخباره. أعلم أنه سيحاول إثنائي عن ذلك – والأرجح أنه سيفلح. مجازفة أأبى الخوض فيها. لقد تهربت من دفع ثمن خطاياي طويلًا. والآن حان وقت التكفير.

– «أخبرهما بأسفي لزجهما في حماقاتي،» قلت. «وأنني أحبهما وأرجو أن يغفرا لي.»

وقبل أن يسنح لـ إيلي بالاعتراض، طبعت قبلة سريعة على خده، وتحررت من عناقه، ووطأت القارب.

كان آخر ما فعلته قبل دفع القارب عن الرصيف وتشغيل المحرك هو تحرير قطعة من الحبل المعقود حول وتد على حافة القارب. ولا يزال الطرف الآخر من الحبل موصولًا بالمرساة.

سأحتاج ذلك لاحقًا.

***

انطلقنا قبيل شروق الشمس، والضباب يزحف على سطح البحيرة المثقلة بمياه الأمطار. كان الضباب كثيفًا لدرجة أشعرتنا وكأننا نطفو بين السحب لا على الماء. وفي الأعلى، بدأ الرمادي الذي يسبق الفجر يتورد خجلًا. كان المشهد بأسره فاتنًا وهادئًا لدرجة أنني سمحت لنفسي بنسيان ما أوشك على اقترافه، لبرهة قصيرة. رفعت وجهي نحو السماء، وشعرت بلسعة اليوم الجديد على وجنتيّ، وتنفست هواء الخريف العليل. وحين استعدت تأهبي، نظرت إلى لين الجالس في مقدمة القارب.

– «أين؟» سألت.

أشار إلى الطرف الجنوبي للبحيرة، فجذبت حبل المحرك لتدب فيه الحياة. أبقيته على سرعة منخفضة – انزلاق هادئ فوق الماء يبعث في نفسي شعورًا مذهلًا من الـ (ديجا فو). هذا الموقف يطابق تمامًا أول لقاء لي بـ كاثرين، وصولًا إلى البطانية التي تلتحف بها كتفيها. وما يزيد الأمر سريالية هو إدراكي بأن لا شيء، حتى كاثرين نفسها، لم يعد كما كان.

أنا أيضًا تبدلت.

أنا بكامل وعيي، كبداية.

وهي مفاجأة منعشة.

وهناك أيضًا حقيقة أنني لم أعد أهاب شيئًا. تلاشت تلك المرأة التي كان يرعبها افتضاح سرها المظلم لدرجة العجز عن النوم دون كأس أو ثلاث.

أو أربع.

إن حرية الاعتراف التي طالما توقت إليها في المنزل قد تجسدت أخيرًا. ومعها جاء إحساس بحتمية المصير.

أنا أعلم ما سيحدث تاليًا.

وأنا مستعدة له.

– «أنا مندهش أنك لم تسأليني بعد،» قال لين، رافعًا صوته ليتغلب على أزيز المحرك.

– «أسألك عن ماذا؟»

– «السؤال الذي أوقن أنه يراودك. طوال هذا الوقت كنتِ تتساءلين عما إذا كان قد ساورني يومًا نية لقتلك حين كنت على قيد الحياة. والإجابة هي لا يا سي. أحببتكِ أكثر من أن أفكر في ذلك مجرد تفكير.»

أصدقه.

مما يثير غثياني.

أمقت حقيقة أن رجلًا كـ لين – رجلًا قادرًا على قتل ثلاث نساء بدم بارد ثم إلقائهن في البحيرة التي نطفو عليها الآن – قد أحبني. والأسوأ من ذلك هو حقيقة أنني بادلته الحب. حب أحمق، ومتفائل، وساذج أرفض تعريض نفسي له مجددًا.

– «لو كنت تحمل لي ذرة حب،» قلت، «لكنت انتحرت قبل أن تزهق روحًا أخرى.»

عوضًا عن ذلك، اختار الجبن. ومن نواحٍ عدة، لا يزال كذلك، متخذًا من كاثرين رويس درعًا وورقة مساومة في آن معًا. فهو يدرك طبعي جيدًا ليفترض أنني سأرفض التضحية بها في سبيل النيل منه.

لكن ما يجهله تمامًا هو حجم التضحية التي أنا مستعدة لتقديمها.

ومع اقترابنا من الطرف الجنوبي للبحيرة، رفع لين يده. «لقد وصلنا،» نادى.

أطفأت المحرك، وساد صمت مطبق. لم أعد أسمع سوى صوت مياه البحيرة، التي هيجها القارب إلى أمواج صغيرة، وهي ترتطم بهيكله بينما يستقر ويهدأ ويسكن. وأمامنا، برزت شجرة ميتة من الضباب كصاري سفينة أشباح في بحيرة جرين.

العنيد العجوز.

– «هذا هو المكان،» قال لين.

بالطبع سيختار هذه البقعة. إنها من الأماكن القليلة في البحيرة المحجوبة عن أنظار المنازل المنتشرة على الشاطئ. والآن، ينتصب الجذع الذي قصرت الشمس لونه كشاهد قبر، يكلل مثوى ثلاث نساء في قاع المياه.

– «جميعهن هناك؟» سألت.

– «أجل.»

انحنيت على حافة القارب وحدقت في الماء، آملة بسذاجة أن يخترق بصري ما دون السطح. وعوضًا عن ذلك، لم أرَ سوى انعكاسي يحدق فيّ بعينين اتسعتا لفضول يغلفه الخوف. مددت يدي ومررتها عبر الماء، مشتتة الانعكاس، وكأن ذلك سيطرده للأبد. وقبل أن يلتئم انعكاسي مجددًا، وتستقر ملامحي الشبحية في أماكنها كقطع أحجية، اختلست لمحة للأعماق الداكنة خلفه.

إنهن يقبعن هناك.

ميغان وتوني وسو إلين.

– «هل أنتِ راضية الآن؟» سأل لين.

هززت رأسي ومسحت دمعة. لست قريبة حتى من الرضا. ما أشعر به هو الارتياح، الآن وقد علمت أنهن لسن مفقودات للأبد، وأن ذويهن سيتمكنون أخيرًا من الحداد بكرامة والمضي قدمًا.

أخرجت هاتفي، والتقطت صورة للعنيد العجوز الممتد خارج الماء، وأرسلتها إلى إيلي.

كان يترقب رسالتي.

الجزء الأخير من الخطة الذي أطلعته عليه.

أما ما يلي ذلك فلا يعلمه سواي.

أولًا، أسقطت هاتفي في كيس (زيبلوك) اختطفته من المطبخ وأحكمت إغلاقه. وضعت الكيس على مقعدي الشاغر، حيث آمل أن يُعثر عليه إن لم تصل رسالتي لـ إيلي. ثم وقفت، فتمايل القارب قليلًا. تطلب الأمر جهدًا للحفاظ على توازني وأنا أتقدم نحو لين.

– «لقد نفذت ما طلبتِه،» قال. «الآن عليكِ إطلاق سراحي.»

– «بالطبع.» توقفت لبرهة. «هل يمكنني أن أحظى بقبلة أولًا؟»

اندفعت نحوه، وجذبته إليّ، وطبعت شفتي على شفتيه. في الوهلة الأولى، كان الاختلاف صادمًا. توقعت أن يماثل ذلك تقبيل لين. لكن شفاه كاثرين أرق، وأكثر أنوثة، ورقة. هذا التباين الضئيل جعل من الأيسر مواصلة تقبيل الرجل الذي عشقته يومًا وبات الآن يثير اشمئزازي.

وإن استشعر لين هذا الاشمئزاز، فإنه لم يبده.

عوضًا عن ذلك، بادلني القبلة.

برقة في البداية، ثم بشراسة عنيفة.

هواء ساخن يندفع من فمه إلى فمي، وأدركت ما كان يفعله.

إنه ما أردته أن يفعل.

– «استمر،» همست بين شفتيه. «لا تتوقف. اهجرها وخذني بدلًا منها.»

دفعت نفسي نحوه، والتفت ذراعاي حوله، أضمه بقوة. أفلتت أنة من فم لين، وانسلّت إلى فمي، لتنضم إلى ما عداها مما ينسكب في جوفي كالبوربون من الزجاجة.

إنه كالحرير. تمامًا كما وصفه لين. مزيج من الهواء والماء. بلا وزن ومع ذلك ثقيل للغاية.

وكلما تغلغل المزيد منه في داخلي، ازداد شعوري بالخدر. وسرعان ما داهمتني الدوار. ثم الوهن. ثم انقطاع الأنفاس. ثم—يا إلهي—الغرق في مزيج مرعب

من الماء والهواء ولين ذاته، جوهره يملأ رئتي حتى عميت عيناي واختنقت وسقطت على أرضية القارب.

لثانية واحدة، تلاشى كل شيء.

لم أشعر بشيء.

أخيرًا، النسيان التام الذي طالما توقته لأربعة عشر شهرًا.

ثم أفقت، مفزوعة كمن انتُشل من الموت بالإنعاش القلبي الرئوي. انتفض جسدي وأنا أشهق، ثم أزفر. انفتحت عيناي على سماء صبغها الفجر بلون غزل البنات الوردي. وبجواري، اعتدل لين في جلسته.

غير أنه لم يعد لين.

إنها كاثرين رويس.

أدركت ذلك لأنها رمقتني بذات النظرة الواسعة المذعورة التي رأيتها حين عادت للحياة في يوم لقائنا الأول.

– «ماذا حدث للتو؟» قالت، بصوتها الذي عاد ليميزها بلا ريب.

– «لقد خرج منكِ،» قلت.

من الجلي أن كاثرين تلم بالوضع بما يكفي لتستوعب مقصدي. تلمست وجهها، وعنقها، وشفتيها، وقالت:

– «هل أنتِ واثقة؟»

أنا واثقة. لين بداخلي الآن. أستشعر وجوده هناك، يغزو كياني كالفيروس. قد أبدو بخير من الخارج، لكنني في الداخل لم أعد أملك نفسي بالكامل.

أنا أتغير.

وبسرعة.

– «إليكِ ما أحتاج منكِ فعله.» تحدثت بسرعة، خشية فقدان السيطرة على صوتي قريبًا. بالفعل، كان لين يتشعب في أوردتي. لقد مارس هذا من قبل. وهو الآن

يعلم وجهته وكيفية إحكام سيطرته. «خذي القارب إلى منزل بون. إيلي سيكون هناك. أخبريهما أنكِ ضللتِ طريقكِ في الغابة. قد لا يصدقكِ بون، لكن إيلي سيعاونه على الاقتناع. القصة هي أنكِ وتوم تشاجرتما، فخرجتِ للتنزه وضللتِ طريقكِ، رغم أن توم ظن أنكِ قد هجرته.»

أطلقت سعلة خشنة كورق الصنفرة.

– «هل أنتِ بخير؟» سألت كاثرين.

– «أنا بخير.» لاحظت التغير في صوتي. إنه أنا، لكن بنبرة مختلفة. كأنما أبطئ تسجيل صوتي قليلًا. «توم محتجز في قبو آل فيتزجيرالد. ورغم أنني لست واثقة تمامًا من مسايرته لقصتكِ، إلا أنني أظن أنه سيفعل. الآن، دعيني أفك وثاقكِ.»

تطلب فك عقدة الحبل حول معصمي كاثرين جهدًا مروعًا. كان لين يشرع في مقاومتي. يداي خرقاوان وخدرتان، وأفكار عشوائية مباغتة تقتحم عقلي.

لا تفعلي هذا يا سي.

أرجوكِ لا تفعلي.

أفلحت في إرخاء الحبل بما يكفي لتتكفل كاثرين بالباقي. وبينما كانت تسل يديها من القيود، شرعت في إعداد قيودي الخاصة. لم يكن الأمر يسيرًا. ليس مع تزايد صخب لين.

لا تفعلي يا سي.

لقد وعدتني.

غامت رؤيتي واضطرب تقديري للمسافات.

أدركت أنني أشعر بالثمالة.

غير أن هذا لا يمت للكحول بصلة. إنه لين بالكامل.

وفي ظل مقاومته لكل حركة لي، استغرقني الأمر ثلاث محاولات للإمساك بالحبل الموصول بالمرساة. واستغرق عقدها حول كاحلي وقتًا أطول.

– «تذكري...» اضطررت للتوقف. نطق تلك الكلمة اليتيمة سلبني أنفاسي. «أخبريهما أنكِ ضللتِ طريقكِ. وأنكِ تجهلين ما حل بي.»

– «انتظري،» قالت كاثرين. «ماذا سيحل بكِ؟»

– «سأكون أنا المفقودة.»

التقطت المرساة، وقبل أن تشرع كاثرين – أو لين – في ردعي، قفزت في الأعماق الجليدية لـ بحيرة جرين.

***

الماء يحيط بي من كل جانب.

بارد. هائج. مظلم.

شديد الظلام.

مظلم كالموت وأنا أهوي نحو قاع البحيرة. كنت حمقاء حين ظننت أن نزولي سيكون هادئًا – هبوطًا بطيئًا ولا مفر منه يشبه الاستسلام لنوم أبدي. في الواقع، إنها فوضى عارمة. ألتوي عبر المياه الحالكة، والمرساة لا تزال معانقة صدري. وفي غضون ثوانٍ أرتطم بالقاع، وطبقات الطمي المتراكمة لقرون لم تفلح في التخفيف من حدة الارتطام.

أهوي على جانبي وسط سحابة من الطمي، وتفلت المرساة من بين ذراعيّ. أتخبط باحثة عنها، عمياء في الأعماق المظلمة والموحلة بينما يبدأ جسدي في الطفو. لقد بدأ تواقًا للهواء، ويتحتم عليّ مجاهدة ذراعيّ كي لا تتخبطا، وساقيّ كي لا تركلا.

لكنهما تحاولان رغم ذلك.

أو بالأحرى، لين من يحاول.

حضوره كالحمى، يمزج بين البرودة والحرارة، يسري في أوصالي، ويحركها رغمًا عني. أدور في الظلام، جاهلة ما إن كنت أطفو للأعلى أم أغوص للأسفل. ولا أزال عمياء وأتخبط، تقع يدي على الحبل الممتد بين كاحلي والمرساة.

أتشبث به حتى بينما يحاول لين انتزاع أصابعي بعيدًا، وصوته الحانق يصدح في رأسي.

أفلتي الحبل يا سي.

لا تجبريني على البقاء هنا، أيتها العاهرة اللعينة.

أحكم قبضتي على الحبل، مستعينة به لأسحب نفسي عائدة نحو قاع البحيرة. وحين أبلغ نهايته، أقبض على المرساة، وأرفعها إلى صدري، وأتدحرج على ظهري. يبدو الأمر محتومًا الآن وقد بلغته.

يبدو صائبًا.

في ذات البقعة التي وُوريَت فيها ميغان كين، وتوني بورنيت، وسو إلين سترايكر الثرى.

خدرت أطرافي، ورغم أنني أجهل إن كان ذلك جراء الخوف أم البرد أم سيطرة لين. لا يزال يتوق بشدة لبلوغ السطح. ينتفض جسدي بلا سيطرة ضد قاع البحيرة. كله من صنيعته.

لكن بلا طائل.

هذه المرة أنا أشد بأسًا.

لأنني أمنح لين تمامًا ما كان يبتغيه حين كان حيًا.

سأكون أنا وهو فقط.

باقيين هنا للأبد.

ولم يمضِ وقت طويل حتى استسلم لين. كان محتومًا عليه ذلك، الآن وقد بدأ هذا الجسد الذي نتقاسمه في الخفوت. تتباطأ نبضات قلبي. وتتلاشى أفكاري.

ثم، وحين استُنزفت آخر قطرة من قوتي، أفتح فمي وأدع المياه المظلمة تتدفق للداخل.

***

حركة.

في العتمة.

أستشعرها على الحواف النائية لوعيي. نبضتان من الحركة تسيران في اتجاهين متعاكسين. شيء يدنو بينما ينسل شيء آخر مبتعدًا.

الحركة التي ثبتت انتقلت إلى كاحلي، لمسة كوقع الريشة تفك الحبل المعقود هناك.

ثم أُرفع.

لأعلى، ولأعلى، ولأعلى.

وسرعان ما أشق السطح وتشرع رئتاي في العمل بطاقة مضاعفة، وتؤديان بطريقة ما وظيفتين في آن واحد. تسعلان الماء بينما تلتهمان الهواء. ويستمر الأمر هكذا. شهيق، زفير، شهيق، زفير. وحين ينتهي، لا يبقى أثر للماء، بل مجرد هواء عذب ومبارك.

أشعر بمزيد من الحركة الآن. شيء يُمرر فوق كتفيّ ويُحكم حول صدري حتى أبدأ في الطفو.

أفتح عينيّ على سماء بلون وردي يخطف الأبصار.

عيناي أنا.

لا عيناه.

جسدي أنا، لا يحوي سوى أفكاري، وقلبي، وروحي.

لقد توارى لين.

وأنا أوقن بذلك تمامًا كما يوقن المريض بانحسار حماه.

لقد سكب لين نفسه من وعاء – جسدي – إلى وعاء آخر.

بحيرة جرين.

المكان الذي انبعث منه وحيث سيقبع للأبد، كما آمل.

أشيح بوجهي عن السماء نحو الشخص الذي يسبح بجواري. كاثرين تتألق، بابتسامة أبهى وأجمل من أي صورة ظهرت فيها قط.

قالت:

– «لا تجزعي، لكني أظنك كدتِ تغرقين.»

****

يقول توم لـ كاثرين:

– «بماذا سنخبر الناس؟ لقد كافحت لكتمان الأمر، لكن خبر اختفائكِ ذاع. وتدخلت الشرطة.»

يرمقني بنظرة لا تخلو من اتهام، وإن كانت حادة بما يكفي لتفضح امتعاضه المستمر، متناسيًا أن عودة كاثرين – بكل ما تحمله الكلمة من معنى لطبيعتها القديمة – كانت بفضلي أنا وحدي. وقد تجلى ذلك بوضوح حين عدنا إلى قبو آل فيتزجيرالد. في الوهلة الأولى، بدا توم مستعدًا للإجهاز علينا كلتينا. لكن ما إن شرعت كاثرين في سرد تفاصيل لا يعلمها أحد سواها، حتى غمره الفرح بحضورها. أما حضوري أنا، فلم يلقَ الترحيب ذاته.

نجلس الآن نحن الثلاثة برفقة إيلي في غرفة معيشة آل رويس. اغتسل توم وكاثرين للتو وبدلا ثيابهما. أما أنا، فأرتدي طقمًا رياضيًا من (فيرساتشي) استعرته من كاثرين، يجمع بين كونه مريحًا للغاية ومثيرًا للسخرية بالقدر ذاته.

أقول:

– «نخبرهم بشيء يقارب الحقيقة قدر الإمكان. أنكما تشاجرتما.»

تلتفت كاثرين نحو زوجها بدهشة:

– «فعلنا؟»

– «لقد لكمتِني.» يميل توم للأمام ليمنحها رؤية أوضح للكدمة التي لا تزال تتلاشى تحت عينه. «حسنًا، هو من فعل.»

لم يُنطق اسم لين ولو مرة واحدة منذ عودتي أنا وكاثرين. أظن أن الاعتراف بالشخص الذي استحوذ عليها، بكل ما تعنيه الكلمة، يثير استياءهما. ولا مانع لدي في ذلك. فأنا لا أود سماع اسمه مجددًا أبدًا.

أقول:

– «الشرطة ستصدق أنه إثر الشجار، غادرت كاثرين غاضبة. وأنها خرجت في نزهة طويلة في الجبال، تاركة كل شيء خلفها.»

يضيف توم:

– «وأنها ضلت طريقها في الغابة.»

أجيب بإيماءة:

– «أنت ظننت أنها هجرتك، ولهذا لم تبلغ عن اختفائها ونشرت تلك الصورة على (إنستغرام). لقد منعك خجلك من الاعتراف بانهيار زواجكما.»

تلمس كاثرين الكدمة على وجه زوجها.

– «يا لك من مسكين يا توم. لا بد أن هذا كان شاقًا عليك.»

يقول، وصوته يرتجف وعيناه تترقرقان بالدموع:

– «ظننت أنني فقدتكِ للأبد. لم أكن أعرف كيف أستعيدكِ.»

– «حاولت،» تقول كاثرين. «حاولت جاهدة ألا أستسلم لذلك.»

يسأل إيلي:

– «إذن كنتِ تعين ما يجري؟»

– «نوعًا ما.» تعانق كاثرين نفسها، وكأن ذكراها تبث فيها قشعريرة. «بالطبع، كانت هناك نوبات فقدان الوعي. في دقيقة أكون بخير، وفي الدقيقة التالية أستيقظ في مكان ما دون أدنى ذكرى عن كيف وصلت إليه. ثم كانت هناك تلك الحاسة السادسة الغريبة. عرفت أشياء لا مبرر لمعرفتي بها. كـ رقم هاتفكِ يا كيسي. أو ذلك المنظار في شرفتكِ. لم أمتلك واحدًا قط. ولم أهتم يومًا بمراقبة الطيور. لكن حين رأيته، طفت

فجأة ذكريات عن شرائه، وحمله بين يدي، ومراقبة الأشجار عبر البحيرة من تلك الشرفة تحديدًا. ثم تلاشت تلك الذكريات.»

قشعريرة تسري في أوصالي وأنا أصغي لوصف كاثرين لشعور انسلال شخص آخر ليسلبها السيطرة تدريجيًا. ورغم أنني كابدت الأمر ذاته، إلا أنني على الأقل كنت مدركة لما يقع. أما بالنسبة لـ كاثرين، فقد بدا الأمر وكأنها تفقد صوابها.

تتابع كاثرين:

– «لم أستوعب حقيقة ما يجري إلا في الليلة التي بحثت فيها عن الأمر عبر الإنترنت. شعرت بالحماقة وأنا أبحث عن مقالات حول البحيرات المسكونة والأشباح في المرايا. لكن بعد ذلك عثرت على قصص لأشخاص آخرين اختبروا ذات المعاناة. ذكريات مبهمة لأحداث لم يعيشوها قط، ووهن مباغت، وشعور طاغٍ بفقدان السيطرة المتدرج. حينها أدركت حقيقة ما يحدث.»

وقد تزامن ذلك مع اللحظة التي راقبتها فيها من الضفة المقابلة للبحيرة. أراقب كاثرين وهي تحملق باهتمام في الحاسوب، والصدمة ترتسم بوضوح على محياها.

يقول توم:

– «كان يجدر بكِ إخباري.»

– «كنت لتظن أنني جُننت. وهو تمامًا ما كنت أشعر به. لذا اكتفيت بتقبيل وجنتك واقتراح العودة إلى الفراش. أعلم أن هذا يبدو حماقة، لكني تمنيت أن تكون مجرد حالة عابرة. كأن أخلد للنوم وأستيقظ في الصباح لأعود إلى طبيعتي السابقة.»

يقاطع إيلي:

– «وعوضًا عن ذلك، حدث النقيض.»

تومئ كاثرين إيماءة قاتمة.

– «أجل. آخر ما أعيه هو عودة توم إلى الفراش ودخولي إلى الحمام. حدقت في المرآة، والهلع يتملكني حين بدأ انعكاسي يتشوش. فقد كل شيء وضوحه. ثم لم

يعد هناك سوى الظلام. لا أملك أي ذكريات بعد ذلك سوى استيقاظي في القارب هذا الصباح. لكن في اللحظة التي استعدت فيها وعيي، أيقنت أن الكابوس قد انقضى وأنه قد رحل. بفضلكِ، يا كيسي. لقد كنت ضائعة وأنتِ من عثر عليّ.»

– «وهذا ما سنسرده للشرطة،» أقول. «لم أستطع النوم، فخرجت بالقارب لأتفقد ما إن كانت العاصفة قد ألحقت أي أضرار بالشاطئ، ولمحتكِ تتعثرين خارجة من الغابة في حالة ذهول.»

في المجمل، هي قصة محبوكة. لا تشطح كثيرًا عن حدود المعقول، إن تغاضينا عن جزئية (التلبس بروح رجل غريق). أظن أن الناس سيبتلعونها.

حتى ويلما.

وبعد إحكام فصول روايتنا، أتأهب للعودة إلى منزلي عبر البحيرة. ألمحه من خلال نوافذ غرفة معيشة آل رويس العملاقة، يبدو دافئًا ومرحّبًا كالعش. عش أتوق للعودة إليه بأسرع ما يمكن.

وقبل أن أغادر، يصافحني توم قائلًا:

– «أتفهم الدوافع وراء ما اقترفتِه. لكن هذا لا يعني أنني استمتعت بالبقاء محتجزًا في ذلك القبو لاثنتي عشرة ساعة. أو بتسليط الشرطة في أثري.»

أردُ مقلصةً وجهي حرجًا من مدى الجنون الذي لابد أنني بدوت عليه حينها:

– «أو بضربك برجل طاولة؟»

تلين نظرة توم الحانقة، وكذلك صوته.

– «تحديدًا ذلك. لكن كل هذا هان لأنك أعدتِ إليّ كاثرين. لذا، شكرًا لكِ.»

– «أنت تتناسى أن كاثرين قد أعادتني أنا أيضًا،» أقول. «أظن أن هذا يجعلنا متعادلين.»

يتخلف توم في الداخل بينما نخطو أنا وإيلي وكاثرين نحو الباحة الخارجية. في الخارج، يسطع اليوم واعدًا. والشمس تلفح وجهي والنسيم يداعب شعري الذي لا يزال رطبًا، أكاد لا أصدق أنني، قبل ساعتين فقط، كنت قابعة في قاع البحيرة، مستسلمة للبقاء هناك للأبد.

لست نادمة على ذلك القرار.

لكن شخصًا آخر اتخذ قرارًا مغايرًا. ارتأت كاثرين أنني أستحق الحياة، ومن أكون أنا لأعارضها؟ لا سيما وأن ثمة فصولًا لم تكتمل بعد.

وهو ما يُذكرني به إيلي بالطبع. قبل أن يتوجه نحو منزله المجاور، يضع منديلًا مطويًا بين يدي.

– «أنتِ أعلم مني بما يجب فعله بهذا،» يقول. «آمل ألا يجلب لك الكثير من المتاعب.»

– «وارد جدًا أن يفعل،» أقول. «لكنني مستعدة لتحمل العواقب.»

يودعني إيلي بعناق، تاركًا إياي وكاثرين وحدنا لنتجه نحو الرصيف وقاربي المربوط عند نهايته. تشبك ذراعها بذراعي وتحرص على تلامس كتفينا – ودودة جدًا حتى دون تأثير لين.

– «عليّ أن أخبركِ بشيء،» تقول. «تلك الذكريات التي تحدثت عنها؟ تلك التي لم تكن لي ومع ذلك راودتني؟ لقد استقيت بعضها قبل أن يحكم سيطرته. وأخرى تسللت بينما كنت فاقدة للوعي وهو من يتولى القيادة كليًا. لكنها جميعًا لا تزال محفورة في ذهني.»

أسرع من خطوتي. لا أود معرفة ما كان يتذكره لين.

– «لقد كنتِ مصدر سعادته المطلقة، يا كيسي. أعلم أن هذا ربما ليس ما تودين سماعه، لكنها الحقيقة. لقد أحبكِ بصدق، وما اقترفه – لا يمت لكِ بصلة. لا يمكنكِ لوم نفسكِ على أي من ذلك. كان ليفعله مهما حدث. في الواقع، انتابني

إحساس بأن وجودكِ في حياته هو ما ردعه عن محاولة ذلك أبكر. لقد ظن أن ما قد يفقده أغلى من أن يفرط فيه.»

– «ومع ذلك، مضى قدمًا وفعله على أية حال،» أقول.

تتوقف كاثرين عن المشي وتديرني حتى نصبح وجهًا لوجه.

– «ولهذا السبب لا أدينكِ على ما فعلتِه به.»

بالطبع هي تعلم. لقد انطبع لين على كاثرين كالوشم. كان الله في عونها.

– «لربما كنت لأفعل الشيء ذاته،» تقول. «من السهل التنظير عن العدالة والمسؤولية وأخذ زمام الأمور على عاتقك حين لا تكون أنت الضحية. لكن هذا حدث لكِ، يا كيسي. وقد فعلتِ ما كانت لتفعله الكثير من النساء لو كن مكانكِ.»

– «أخشى أن ذلك لن يشفع لي عند الشرطة.»

– «ربما لا،» تقول كاثرين. «لكنني لا أعتزم إخبارهم بأي شيء عن هذا. سيبقى هذا السر بيننا نحن الاثنتين فقط.»

أتمنى بصدق لو كان ذلك ممكنًا، لكن الأمر يتجاوزني وكاثرين. ثمة أطراف أخرى يجب وضعها في الحسبان، كأصدقاء وعائلات ثلاث نساء لا يزلن غارقات في ظلمة بحيرة جرين الجليدية. إنهن يتصدرن أفكاري وأنا أصعد إلى القارب وأشق طريقي عبر الماء. أحتفظ بقبضتي على هاتفي، الذي لا يزال داخل كيس (زيبلوك)، متأهبة للاتصال بـ ويلما آنسون بمجرد عودتي إلى المنزل.

غير أن الشخص الواقف على رصيفي يؤجل هذه الخطة قليلًا.

– «أهلًا،» يقول بون، ملوحًا لي بحذر وأنا أطفئ المحرك وأوجه القارب نحو الرصيف.

– «أهلًا بك.»

أترك لـ بون مهمة ربط القارب، أولًا لأنه يبدو توّاقًا لذلك، وثانيًا لأنني منهكة. أشد إرهاقًا من أن أخوض في حديث معه في هذه اللحظة، رغم يقيني بأن ذلك لا مفر منه.

– «أخبرني إيلي أنكِ عثرتِ على كاثرين،» يقول، مختلسًا نظرة عبر الماء. «هل هي بخير؟»

– «إنها بخير.»

أسرد له نسخة موجزة من القصة الرسمية ونحن نمشي من الرصيف إلى الشرفة. أنهوى جسدي في كرسي هزاز. بينما يظل بون واقفًا.

– «يريحني سماع أنها سالمة معافاة،» يقول. «لحسن حظها. ولحسن حظ توم.»

يلتزم الصمت بعد ذلك، تاركًا لي مهمة استكمال الحديث.

– «هل لهذا السبب أتيت؟»

– «أجل. ولأخبركِ أيضًا بأنني سأغادر البحيرة. لقد أنهيت كل ما بعهدي من عمل في منزل عائلة ميتشل، ووجدت شقة استوديو لطيفة على بُعد بضع بلدات من هنا. الآن لم يعد عليكِ القلق من فكرة مجاورة قاتل.»

ورغم أن صوت بون كان لا يزال يحمل مسحة من الغضب الذي لمسته في آخر حديث لنا، إلا أن ثمة نبرة أخرى ترافقه. نبرة حزن.

– «أنا آسف لعدم مصارحتي لكِ بالحقيقة كاملة. لكن ينبغي أن يكون جليًا لكِ الآن أنني لا أمت بصلة لما حل بـ كاثرين أو بتلك الفتيات المفقودات،» يقول بون، مذكرًا إياي بأنه لا يزال يجهل تمامًا أمر جرائم لين – أو كيف جعلته يدفع ثمنها. مرتين.

– «أما بخصوص ما حل بزوجتي،» يتابع بون، «أجل، خضعت لتحقيق إثر وفاتها. وأجل، كانت هناك فترة ساد فيها الظن بأنني من قتلها. لم يتوفر دليل يثبت

ذلك، كما لم يتوفر دليل ينفيه. أو على الأقل، دليل كنت على استعداد لكشفه للناس.»

أرفع نظري إليه، مندهشة وقد تملكني فجأة فضول لا يرتوي.

– «كان هناك ما هو أعمق مما أخبرت به الشرطة؟»

– «زوجتي لم تسقط عن الدرج في حادث عرضي.» يتوقف بون، ويلتقط أنفاسه. «لقد انتحرت.»

أجفل، مصدومة.

– «أعلم ذلك لأنها تركت لي رسالة تعتذر فيها وتخبرني بأنها كانت تعيسة لفترة طويلة – وهو أمر كنت أتوهم أنني أدركه ولكني لم أكن كذلك حقًا. لقد انزلقت في ظلام دامس، وألوم نفسي لأنني لم أدرك مدى سوء حالتها إلا بعد فوات الأوان.»

يجلس بون أخيرًا.

– «اتصلت بـ ويلما فور عثوري على رسالة الانتحار. جاءت، قرأتها، وأخبرتني بضرورة إعلان الأمر. بحلول ذلك الوقت، أدركنا كلانا أن أصابع الاتهام تشير إليّ. كان ذلك بديهيًا. لكني لم أستطع الإقدام على ذلك. فخبر كهذا كان ليدمر عائلتها. ارتأيت أن تقبلهم لفكرة الحادث العرضي سيكون أهون عليهم من معرفة أنها أنهت حياتها بيدها. كانوا، كحالي، سيلومون أنفسهم لعدم ملاحظتهم مدى معاناتها وفشلهم في تداركها. أردت أن أجنبهم كل ذلك. ولم أرد أن يُدان اسم ماريا بما فعلته بنفسها. أو الأسوأ، أن يلطخ ذلك ذكراها لديهم. أردت حماية الجميع من ذات الشعور بالذنب والألم الذي كنت أكابده. وافقت ويلما على مضض، وقمنا معًا بحرق الرسالة.»

لا عجب أن ويلما كانت على يقين تام ببراءته. على عكسي، كانت تلم بالقصة كاملة. وما بدا كأنه ثقة عمياء لم يكن في واقعه سوى ولاء نبيل ونادر.

– «إنها صديقة وفية،» أقول.

– «إنها كذلك حقًا. أدت دورها ببراعة وأقنعت جميع زملائنا ببراءتي. آمل أن تصدقيني أنتِ أيضًا في يوم من الأيام.»

أظن أنني أفعل ذلك بالفعل.

لا أعرف عن زواجهما ما يكفي لأطلق أحكامًا على بون – وهو أمر لم أتردد في فعله حين كان البوربون يجري في عروقي أكثر من الدماء. أما الآن، فكل ما أعلمه هو أن بون، في قرارة نفسه، يبدو رجلًا صالحًا يكابد لترويض شياطينه كحالنا جميعًا. وبصفتي شخصًا فشل فشلًا ذريعًا في ترويض شياطينه، يجدر بي منحه قرينة الشك.

– «شكرًا لك على سرد جانبك من القصة،» أقول. «وأنا أصدقك.»

– «حقًا؟»

– «حقًا.»

– «إذن يجب أن أغادر قبل أن تعدلي عن رأيك،» يقول بون، راسمًا تلك الابتسامة الساحرة للمرة الأخيرة. وقبل أن يغادر الشرفة، يناولني بطاقة عمل. طُبع عليها اسم كنيسة قريبة، ويوم من أيام الأسبوع، وتوقيت محدد.

– «هذا هو اجتماع (مدمني الكحول المجهولين) الأسبوعي الذي أحضره،» يقول. «في حال راودتكِ الرغبة في المحاولة يومًا ما. قد يكون الأمر مربكًا في البداية. وقد يسهل عليكِ وجود وجه مألوف هناك.»

ينصرف بون قبل أن يتسنى لي الرد، مفترضًا سلفًا أن إجابتي ستكون بالرفض. وهو محق بالطبع. لا نية لدي بتاتًا لتعريض نفسي لمهانة الوقوف أمام حشد من الغرباء للبوح بعيوبي التي لا تحصى.

ليس الآن.

لكن ربما قريبًا.

كل ذلك يعتمد على ما ستؤول إليه خطوتي التالية.

قبل اليوم، كنت لأتجرع عدة كؤوس قبل الاتصال بـ ويلما آنسون. أما الآن، فلا أتردد قط، رغم يقيني التام بأنني سأواجه عاصفة من غضبها، وتهمة قتل مرجحة من زملائها.

لقد تهربت من هذا الأمر طويلًا.

وحان الوقت أخيرًا لأكون صريحة تمامًا.

***

من الواضح أن ويلما لا تكنّ أي ود لسترة النجاة التي ألزمتها بارتدائها قبل مغادرة الرصيف الخشبي. كانت تجذبها بامتعاض كما يتململ طفل في مقعد السيارة، متذمرة من شعورها بالاختناق.

– «هذا حقًا غير ضروري،» تقول. «أنا أجيد السباحة تمامًا.»

– «السلامة أولًا،» أقول من مؤخرة القارب، حيث أتولى القيادة مرتدية سترة نجاة مطابقة.

أرفض تمامًا تكرار مأساة كاثرين رويس. قد تبدو بحيرة جرين مسالمة، لا سيما الآن وانعكاسات الغروب تجعل مياهها تتلألأ كشمبانيا وردية، لكنني أدرك حقيقتها.

لين لا يزال هناك في الأسفل.

أنا موقنة بذلك.

لقد غادرني وعاد إلى المياه. وهو الآن يتربص تحت السطح مباشرة، يتحين فرصته، منتظرًا الضحية التالية.

ليس في نوبتي.

تختلس ويلما نظرة حذرة إلى المياه، وإن كان لسبب مغاير تمامًا. فالجانب الغربي من البحيرة، القابع في منأى عن أشعة الشمس الغاربة، قد اتشح بالسواد. ظلال تتجمع على الشاطئ وتزحف ببطء عبر صفحة بحيرة جرين.

– «ألا يمكن تأجيل هذا للغد؟» تسأل.

– «أخشى أن ذلك غير ممكن.»

أتفهم إرهاقها. لقد كان يومًا طويلًا وعصيبًا. فبعد أن هاتفتها لأزف إليها خبر العثور على كاثرين، قضت ويلما ظهيرتها في استجوابنا جميعًا. كان لـ كاثرين وتوم حق الصدارة، حيث قدما روايتهما المجهزة سلفًا للأحداث. أقسمت كاثرين أنها ضلت طريقها أثناء تنزهها في الغابة. وأقسم توم أنه ظن أنها قد هجرته. أما عن مكان تواجده الليلة الماضية حين قدمت ويلما، فقد تذرع بقلقه من ضراوة العاصفة، مما دفعه للجوء إلى قبو آل فيتزجيرالد.

علمت بكل هذا من ويلما شخصيًا، حين قدمت لتدوين إفادتي. سردت جانبي من القصة، والذي تطابق حرفيًا مع رواية آل رويس. وإن كانت لا تزال تضمر شكوكًا حول أي منا، فلم تبدِ ويلما ذلك. ولم يكن هذا مفاجئًا.

قلتُ لها:

– «ثمة أمر آخر يجب أن أطلعكِ عليه. لكن ليس هنا. على البحيرة.»

وها نحن هنا، وقد انشطرت صفحة البحيرة إلى نصفين متمايزين. إلى اليسار، وردي سماوي. وإلى اليمين، أسود يتلألأ. أوجه القارب عبر المنتصف، ومسار المحرك يمزج النور والظلام معًا.

– «تحدثت إلى بون،» أقول بينما ننزلق فوق الماء. «لقد كشف لي الحقيقة حول ما حدث لزوجته.»

– «أوه.» لم تبدُ ويلما مندهشة. أرجح أنها كانت تعلم مسبقًا. «هل يبدل هذا من نظرتكِ إليه؟»

– «أجل. وإليكِ أيضًا. كنت أظنكِ من النوع الذي يلتزم بالقوانين بحذافيرها.»

– «أنا كذلك،» تقول ويلما. «لكنني أيضًا مستعدة لتقديم استثناء بين الحين والآخر. أما بالنسبة لـ بون، فهو من الأخيار يا كيسي. صدقيني في هذا.»

بلغنا (العنيد العجوز)، الذي يستقر في الجانب المظلم من البحيرة. أطفئ المحرك، وأخرج المنديل من جيبي، وأناوله لـ ويلما. تفتحه، وتتسع عيناها ذهولًا.

أخيرًا، رد فعل لا لبس فيه.

– «عثرت عليها في القبو،» أقول. «قبو منزلي.»

لا ترفع ويلما عينيها عن الرخص وخصلات الشعر. إنها تدرك مغزى كل هذا.

– «النساء الثلاث جميعًا في البحيرة.» أشير إلى (العنيد العجوز)، الذي أصبح الآن مجرد طيف في الغسق المتسارع. «هناك تحديدًا.»

– «كيف لكِ أن تجزمي بذلك؟»

– «لأنه لا يوجد مكان آخر كان زوجي ليخفيهن فيه.»

لا يسعني مصارحتها بالحقيقة، لأسباب لا تحصى، أهمها أنها لن تصدقني. جل ما آمله هو أن يكون هذا – بوح زوجة لزوجة – كافيًا لإقناعها.

– «سأستدعي الغواصين غدًا لأرى إن كنتِ محقة،» تقول. «وإن كنتِ كذلك، حسنًا، فحياتكِ على وشك أن تصبح أكثر تعقيدًا بكثير. سيعلم الناس أن زوجكِ كان قاتلًا – وسيدينونكِ بسببه.»

– «أعلم ذلك.»

– «هل تعلمين حقًا؟ هذا أشد وقعًا بكثير من عناوين الصحف الفضائحية،» تقول ويلما. «ستقضين بقية حياتكِ مقترنة بذلك الرجل. يمكنكِ المحاولة للتبرؤ من أفعاله، لكن ذلك سيكون شاقًا. قد لا تتمكنين من إظهار وجهكِ للعلن لفترة طويلة جدًا.»

تتوارد إلى ذهني تلك الصورة التي أرفع فيها نخبًا لصيادي الصور الفضائحية والتي تصدرت الصفحة الأولى لصحيفة (نيويورك بوست).

– «لقد توليت أمر ذلك بالفعل. علاوة على ذلك، لا أبتغي سوى تحقيق العدالة. أريد أن يعرف كل من عرف وأحب ميغان، وتوني، وسو إلين ما حل بهن – وأن يوقنوا بأن من اقترف ذلك لن يجرؤ على إيذاء أحد مجددًا.»

يخيم صمت على القارب – دقيقة صمت على أرواح النساء الثلاث اللواتي ترقد أجسادهن الآن في الأعماق. وحين تنقضي، يكون آخر خيط من الشفق قد توارى خلف الجبال، تاركًا إيانا جالستين في عتمة المساء الباكر.

– «منذ متى وأنتِ تعلمين؟» تسأل ويلما.

– «منذ فترة طويلة بما يكفي.»

– «بما يكفي لتأخذي زمام الأمور بيديكِ؟»

– «إن كنت قد فعلت ذلك،» أقول، «فسيكون من العسير جدًا إثباته الآن.»

أتسمر في مكاني، أخشى حتى التنفس وأنا أترقب رد ويلما. لم تيسر الأمر عليّ، إذ انقضت دقيقة كاملة تقريبًا قبل أن تنطق: «أفترض أنكِ محقة.»

يتفتح الأمل في صدري. أظن أن هذا لربما، عسى، وعلى الأرجح أحد تلك الاستثناءات النادرة التي أشارت إليها ويلما آنفًا.

– «لقد حُرق جثمان لين في النهاية،» أقول. «لا توجد جثة لفحصها.»

– «هذا يجعل الأمر مستحيلًا،» تقول ويلما. «علاوة على ذلك، لا أرى مبررًا لفتح تلك القضية مجددًا، بالنظر إلى عدم اكتشاف أي شبهة جنائية في المقام الأول.»

أزفر بحرارة، محررة جل الخوف والتوتر اللذين كانا يعتملان في داخلي. يبدو أنه يوم حظي. منحتني كاثرين رويس فرصة ثانية للحياة. وها هي ويلما آنسون تمنحني فرصة ثالثة.

أمتلك من الوعي الذاتي ما يكفي لأدرك أنني لا أستحق أيًا منهما. لكني سأقبل بهما ممتنة على أية حال.

لم يتبق سوى القلق بشأن تفصيلة صغيرة واحدة.

– «وماذا عن البطاقة البريدية؟»

– «ماذا عنها؟» تقول ويلما. «لقد فُحصت تلك البطاقة من كل زاوية ممكنة. لن نتوصل أبدًا لمرسلها. في الواقع، لن أستغرب لو تلاشت فجأة من غرفة الأدلة. أمور كهذه تضيع طوال الوقت.»

– «لكن...»

تخرسني بنظرة يمكن قراءتها بوضوح لا عهد لي به فيها. «هل تنوين مجادلتي في هذا الأمر حقًا؟ أنا أمنحكِ مخرجًا يا كيسي. خذيه.»

وأفعل ذلك.

بكل سرور.

– «شكرًا لكِ،» أقول.

– «على الرحب والسعة.» تنقضي ثانيتان. «إياكِ والتطرق لهذا الموضوع مجددًا وإلا عدلت عن قراري.» وتنقضي ثانيتان أخريان. «والآن أعيديني إلى الشاطئ. الوقت متأخر، ولقد أثقلتِ كاهلي للتو بجبل من المعاملات الورقية لأتعامل معها.»

***

كان الليل قد أرخى سدوله تمامًا بحلول وقت مغادرة ويلما. طفت في أرجاء المنزل المظلم أشعل الأضواء قبل أن أتوجه إلى المطبخ لأقرر ماذا سأُعد للعشاء. كأس البوربون الذي صببته الليلة الماضية لا يزال يقبع على الرخامة. مرآه يبعث في نفسي ارتجافة ظمأ عارم.

ألتقطه.

أدنيه من شفتي.

ثم، وبإدراك أعمق، أحمله إلى الحوض وأسكبه في المصرف.

وأفعل الشيء ذاته بما تبقى من الزجاجة.

ثم زجاجة أخرى.

ثم كل الزجاجات.

يتأرجح مزاجي كبندول ساعة وأنا أطهر المنزل من الكحول. ثمة ذات الغضب العارم الذي يجتاحك وأنت تتخلصين من مقتنيات حبيب خائن. وهناك ضحكة (لا-أكاد-أصدق-أنني-أفعل-هذا). يمتزج الحماس، الجامح والفوضوي، بالتنفيس واليأس والفخر. وهناك مسحة حزن – مفاجأة غير متوقعة. لم أظن أنني سأرثي لحياة الشرب التي لم تورثني سوى الخراب. ومع ذلك، وبينما تتبخر محتويات الزجاجة تلو الأخرى في المصرف، تغمرني موجة من الأسى.

أنا أفقد صديقًا.

صديقًا مريعًا، نعم.

لكن ليس دائمًا.

أحيانًا كان الشرب يجلب لي سعادة غامرة، وسأفتقده حتمًا.

وبعد انقضاء ساعة، ظلت أبواب خزانة المشروبات مشرعة، لتفضح الخواء الذي يعمُّها. وعلى الرخامة اصطفت كل الزجاجات التي كانت تؤويها، فارغة جميعها الآن. بعضها أقدم من جيل الألفية، وأخرى ابتاعتها هذا الأسبوع.

الآن لم يتبق سوى واحدة، زجاجة نبيذ أحمر بقيمة خمسة آلاف دولار على طاولة غرفة الطعام تعود لـ توم رويس. ولعلمي بمدى غلائها، لم يطاوعني قلبي على سكبها. عبر نافذة غرفة الطعام، ألمح منزل آل رويس يسطع في ليل أكتوبر. كنت لأعيد النبيذ الآن لولا تأخر الوقت وشدة إرهاقي.

لقد استنزفني إفراغ كل تلك الزجاجات. أو لعلها مجرد أعراض الانسحاب. فها أنا ذا أستبق التوجس من العواقب الجانبية التي تنتظرني بلا ريب.

نسخة جديدة من كيسي في طريقها للظهور.

شعور غريب. أنا هي أنا – ولست أنا. وهذا، لو فكرت مليًا، ربما ما خالج كاثرين قبل أن يحكم لين سيطرته عليها تمامًا.

(لست على طبيعتي مؤخرًا،) أخبرتني. *(مضت أيام وأنا لا أشعر بأنني بخير).*

تقتحم الذكرى كصاعقة رعدية. مدوية. مزعجة. ومشحونة بالكهرباء.

لأن ما باحت لي به كاثرين ذلك اليوم لا يستقيم مع مجمل الأحداث. حين علمت بعودة لين وتحكمه بها كالدمية، افترضت أنه السبب وراء شعورها بذلك الوهن والغرابة.

كان يقع عليه جزء من اللوم، بلا شك. لقد خبرت ذلك بنفسي خلال الوقت القصير الذي تلبسني فيه.

لكن لين لم يكن المسبب الأوحد لحالة كاثرين.

وأنا موقنة بذلك لأنها حين أسرت لي بشعورها بأنها ليست على طبيعتها، كان ذلك في الصباح الذي احتسينا فيه القهوة على الشرفة. أي بعد يوم واحد من انتشالي

لها من البحيرة. لكن وفقًا لرواية كاثرين، فقد داهمها ذلك الشعور الغريب قبل ذلك بوقت طويل – قبل أن يدخل لين في الصورة أصلًا.

(بدا الأمر وكأن جسدي بأسره توقف عن العمل).

أدير ظهري للنافذة وأتأمل زجاجة النبيذ القابعة على الطاولة.

ثم أختطف هاتفي وأتصل بـ ويلما آنسون.

تُحال المكالمة للبريد الصوتي على الفور. وبعد الصافرة، لا أكلف نفسي عناء ترك اسمي أو رقمي. بل أصرخ بما يجب أن أقوله، راجية أن تستمع ويلما إليه قبل فوات الأوان.

– «تلك القطعة من زجاجة النبيذ التي أجبرتكِ على أخذها؟ هل ظهر تقرير المختبر بعد؟ لأنني أظنني كنت على صواب، يا ويلما. أظن أن توم رويس كان – ولا يزال – يحاول قتل زوجته.»

أنهي المكالمة، وأهرع للشرفة، وألتقط المنظار. لا أستغرق سوى ثانية لضبط التكبير والبؤرة. يتشوش منزل آل رويس ثم يستعيد وضوحه ليصبح جليًا كالبلور.

أمسح المنزل بنظري، متفقدة كل غرفة.

المطبخ خاوٍ.

وكذا الحال مع المكتب الذي يعلوه مباشرة وغرفة النوم الرئيسية إلى اليمين.

ألمح كاثرين أخيرًا في غرفة المعيشة. متمددة على الأريكة، تسند ظهرها بوسائد وتتدثر ببطانية. وعلى طاولة القهوة بجوارها تقبع كأس نبيذ أحمر كبيرة.

ولا أزال أقبض على المنظار بيد واحدة، وأمد يدي الأخرى نحو هاتفي. يرتجف في يدي بينما ينزلق إبهامي على الشاشة، باحثًا عن رقم كاثرين.

وعبر البحيرة، تمد يدها نحو النبيذ، وتلتف أصابعها حول الكأس.

أشد قبضتي على الهاتف وأضغط زر الاتصال.

ترفع كاثرين الكأس إلى شفتيها، وتوشك على الارتشاف.

يرن الهاتف رنة واحدة.

تنتفض للصوت، وتتسمر اليد الممسكة بالكأس.

الرنة الثانية.

تجول كاثرين بنظرها في الغرفة، باحثة عن هاتفها.

الرنة الثالثة.

تلمحه قابعًا على مقعد قريب فتعيد الكأس إلى طاولة القهوة.

الرنة الرابعة.

تمد كاثرين يدها نحو الهاتف، وتنزلق البطانية عن حجرها. تمسك بها بيد وتمد الأخرى نحو الهاتف.

الرنة الخامسة.

– «أغلقي الخط، يا كيسي.»

أخفض المنظار وأستدير بحدة لأجد توم يبرز من منزلي، وينضم إليّ على الشرفة. يقبض على زجاجة النبيذ من عنقها كعصا. ويصفع طرفها الغليظ براحة يده الحرة بينما يتقدم نحوي.

ينبعث صوت كاثرين حادًا من هاتفي حين تجيب أخيرًا.

– «مرحبًا؟»

ينتزع توم الهاتف من يدي، وينهي المكالمة، ويقذفه من فوق سياج الشرفة. يرتطم الهاتف بصوت تحطم في العتمة بالأسفل قبل أن يطلق رنينًا متقطعًا. كاثرين تعاود الاتصال بي.

– «أراهن أنكِ تتمنين الآن لو لم تكوني حشرية إلى هذا الحد،» يقول توم. «لم يكن أي من هذا ليحدث لو أنكِ بقيتِ بعيدة عن الأمر. كانت كاثرين لتكون في عداد الأموات، وأنتِ لتظلين هنا تغرقين في الثمالة، وكنت لأحظى بما يكفي من المال لإنقاذ شركتي. لكن كان لا بد لكِ من إنقاذها ثم مراقبتنا بلا توقف، وكأن حياتنا

مجرد برنامج واقعي سخيف. ولقد أفسدتِ كل شيء بتوريطكِ للشرطة. الآن لا يمكنني تسميم كاثرين ببطء. يجب أن أكون بالغ الحذر، وأمحو أثري، وأجعل الأمر يبدو كحادث بحت. ولهذا احتجزتها مقيدة في القبو بدلًا من قتلها فورًا. ولحسن حظي، كان لزوجكِ الكثير من الأشياء المثيرة للاهتمام ليشاركني إياها حول هذا الشأن.»

أجفل – كرد فعل أعجز عن كبحه لانشغالي المفرط بالزجاجة الثقيلة التي تواصل صفع راحة يد توم.

– «لقد تحدثنا مطولًا وهو في ذلك القبو،» يقول. «تجاذبنا أطراف الحديث لساعات. لم يكن ثمة الكثير لفعله بعد أن بدأت صديقتكِ المحققة تضيق الخناق عليّ. أتريدين معرفة أشد الأمور إثارة للدهشة التي أخبرني بها؟»

يرفع الزجاجة، ثم يهوي بها.

صفعة.

قلتُ:

– «أنه أنا من قتلته.»

– «وليس ذلك فحسب. الطريقة التي نفذتِ بها الأمر كانت مذهلة.»

صفعة.

– «جريمة قتل لا تشوبها شائبة،» يقول توم. «أكثر إبداعًا مما كان في تلك المسرحية السخيفة. استلهمت الفكرة من هناك أولًا، لكنكِ تعلمين ذلك سلفًا. تسميم زوجتي بجرعات ضئيلة لتفارق الحياة بسبب آخر وأرث أنا كل شيء.»

صفعة.

– «لكن زوجكِ – لين الثرثار العزيز – أوحى لي بفكرة أدهى. مضاد للهيستامين في كأس من النبيذ. لجعلها تغط في نعاس عميق. ألقي بها في الماء

وأدعها تغوص. شرطة هذه الأنحاء لا تميل قط للاشتباه بوجود شبهة جنائية حين يغرق أحدهم. كما تعلمين تمامًا.»

صفعة.

في مكان ما بالأسفل، يتوقف هاتفي عن الرنين مع استسلام كاثرين.

– «الأرجح أنها ترتشف من الكأس الآن.» يشير توم إلى المنظار الذي لا يزال مقبوضًا في يدي. «تفضلي بالمراقبة. أعلم أنكِ تستمتعين بذلك.»

أرفع المنظار، مستعينة بكلتا يدي لردع ارتجافهما. ورغم ذلك، يهتز منزل آل رويس كأنما تضربه هزة أرضية. عبر العدسات المرتعشة، أرى كاثرين قد انتقلت إلى نافذة غرفة المعيشة. تحدق في الخارج، وكأس النبيذ قد عاد إلى يدها.

ترفعه إلى شفتيها وتشرب.

– «كاثرين، لا!»

لا أدري إن كانت كاثرين قد سمعت صرختي وهي تشق طريقها عبر البحيرة، لأن توم انقض عليّ في لمح البصر. لوحت بالمنظار نحو رأسه. فتلقاه بذراعه قبل أن يهوي بالزجاجة على ذراعي.

أسقطت المنظار ووجع ممض يسري في ذراعي.

أصرخ، وأترنح للخلف مصطدمة بكرسي هزاز، وأهوي على أرضية الشرفة.

– «والآن أدركتِ كيف يكون الشعور،» يقول توم.

يلوح بالزجاجة ثانية. وتندفع عبر الهواء، متجاوزة وجهي ببوصات معدودة.

أزحف للخلف على الشرفة، وذراعي اليمنى تنبض ألمًا بينما يواصل توم التلويح بالزجاجة، يمزق بها الهواء، ويدنيها أكثر فأكثر.

وأكثر.

وأكثر.

– «أعلم كيف أُخفيكِ عن الوجود،» يقول توم. «لين أسر لي بذلك أيضًا. لا يتطلب الأمر سوى بعض الحبال، وبضعة صخور، ومياه شديدة، شديدة العمق. ستتلاشين، تمامًا كحال الفتيات اللواتي قتلهن. ولن يعرف أحد قط ما حل بكِ.»

يلوح بالزجاجة مجددًا، وأتفادى الضربة متراجعة نحو قمة درجات الشرفة.

يهوي توم بالزجاجة مرة أخرى وأنخفض لتفاديها، مكابدة لحفظ توازني. تلتها لحظة من انعدام الوزن – لحظة قاسية في وهمها بأنني قد أفلح في مقاومة الجاذبية. وتوجت بارتطام مدوٍ على الدرجة التالية.

ثم أسقط، أتقلب للخلف نزولًا على الدرجات، وكل حافة منها تلسعني كلكمة قوية.

على وركي.

على ظهري.

على وجهي.

وحين توقف التدحرج، وجدت نفسي مستلقية على ظهري على الأرض، أئن من الوجع والدوخة تعصف بي إثر السقوط. غامت رؤيتي. وكان طيف توم يتبدد ويتضح وهو يلحق بي نزولًا عبر الدرجات.

ببطء.

درجة تلو أخرى.

والزجاجة تعاود صفع راحته.

صفعة.

أحاول إطلاق صرخة، لكن صوتي يخذلني. أنا أشد إيلامًا، وانقطاعًا للأنفاس، ورعبًا من أن أفلح في ذلك. جل ما يسعني فعله هو المحاولة للوقوف، والترنح نحو الماء، آملة أن يلمحني أحد.

أدركني توم عند حافة البحيرة. كنت أتخبط في الماء حين قبض على قميصي، وجذبني نحوه، ولوح بالزجاجة.

انحرفت نحو اليسار، وهوت الزجاجة على كتفي الأيمن.

مزيد من الألم المبرح.

أطاحت بي الضربة على ركبتي. غصت أعمق في البحيرة، والماء الآن يلامس وركي، جليدي كالثلج. صعقتني البرودة بما يكفي من الطاقة لأتمكن من الالتفاف نحو توم، وأطوق ركبتيه بذراعيّ، وأجذبه معي للأسفل.

غصنا معًا – كتلة تعج بالفوضى والاضطراب من أذرع تتلوى وسيقان تركل. انزلقت زجاجة النبيذ من يد توم، متوارية في الماء في اللحظة ذاتها التي انتشلني فيها. لف يديه حول عنقي، وبعصرة قوية، غمرني مجددًا في الأعماق.

نفد هوائي في لمح البصر. البحيرة متجمدة، وقبضة توم تطوق عنقي بقسوة، والظلام في الأعماق يحجب عني كل شيء. مدفوعة لقاع البحيرة، أركز جهدي في الركل والتخبط والمقاومة، وصدري يضيق ويضيق. ضاق لدرجة خيل إليّ أنه سينفجر.

ومع ذلك، لم يشغل تفكيري سوى لين.

في هذه البحيرة بالذات.

يترقب موتي في المياه المظلمة ليتمكن من الهيمنة مجددًا.

لن أسمح بحدوث ذلك.

أرفض ذلك تمامًا وبكل جوارحي.

أمرر يدي على قاع البحيرة، باحثة عن صخرة أستعين بها لضرب توم. لعلها تكفي لردعه عن الضغط على حلقي. ولعله يفلتني بالكامل. ولعلي أفلح في الفرار.

وعوضًا عن صخرة، لامست أظافري زجاجًا.

زجاجة النبيذ.

أمد يدي إليها، وأقبض على عنقها، وألوح بها.

تخترق الزجاجة سطح الماء، تمزق الهواء قبل أن تهوي على جانب جمجمة توم.

تراخت يداه عن عنقي وهو يطلق تأوهًا، يترنح، ثم يسقط. أرتفع من الماء. ويرتطم توم به، وجهه لأسفل وبلا حراك.

على الضفة المقابلة من البحيرة، بدأت سيارات الشرطة في التجمع في ممر منزل آل رويس. وتنعكس أضواؤها على صفحة المياه في ومضات حمراء وبيضاء وزرقاء بينما يجتاح الضباط الفناء الخلفي ويندفعون إلى الداخل.

لقد وصل متسجي لـ ويلما.

حمدًا لله.

أحاول النهوض، لكني لا أفلح إلا في الاستناد على ركبتي. وحين أحاول المناداة على أفراد الشرطة، تخرج صرخاتي كنعيق مكتوم. حنجرتي أشد تضررًا من ذلك.

إلى جواري، لا يزال توم منكبًا على وجهه في الماء. وفي موضع فوق أذنه اليسرى مباشرة، تستقر فجوة صغيرة حيث هوت الزجاجة على جمجمته. وتتدفق الدماء منها، تمتزج بالماء لتخلق غيمة سوداء تتسع وتنتشر.

أدرك موته في اللحظة التي أقلبه فيها. عيناه باهتتان كقطع نقدية عتيقة وجسده ساكن بشكل يبعث على الرهبة. أتحسس عنقه، فلا أجد نبضًا. وفي غضون ذلك، يواصل الدم النزف من الفجوة في رأسه.

أقف أخيرًا، مجبرة ساقيّ على إطاعة أمري. زجاجة النبيذ، التي لا تزال سليمة، مقبوضة في يدي. أحملها إلى الشاطئ، وأضعها في شريط صخري فاصل بين البحيرة واليابسة.

خلفي، ينتفض توم عائدًا للحياة بشهقة مائية.

ليس صدمة.

ليس في هذه البحيرة.

أخطو عائدة إلى الماء وأمسك بذراعيه. أحاول ألا أنظر إليه، لكن الأمر حتمي وأنا أسحبه إلى الشاطئ، متأكدة من ألا يلامس أي جزء من جسده مياه البحيرة. تلتقي عيناه بعيني ويبتسم.

– «يجب أن نكف عن الالتقاء بهذه الطريقة،» يقول قبل أن يهسس باللقب الذي أرتجف ذعرًا وأتوقعه في آن معًا. «سي.»

– «سنفعل ذلك،» أقول.

أختطف الزجاجة، وأحطمها على الصخور، وبطعنة والتواء، أغرس الحافة المدببة في حلقه حتى أتيقن من أنه لن يقوى على النطق مجددًا أبدًا.

فيما بعد..

أنا آخر من يستيقظ.

بالطبع.

أصبح النوم متأخرًا أمرًا يسيرًا الآن بعد أن تبدل مسار الشمس في كبد السماء مع تعاقب الفصول، لتتسلل أشعتها عبر صف النوافذ بزاوية مائلة تخطئ السرير تمامًا. وحين أنهض، تسبقني رائحة القهوة وجلبة الطهي متسللة من أسفل الباب. يبدو أن الجميع قد استيقظوا منذ دهور.

في الطابق السفلي، أجد المطبخ خلية نحل تنبض بالحياة. تتجمع مارني وأمي عند الموقد، تتجادلان حول الطريقة المثلى لإعداد الخبز الفرنسي المحمص. أطبع قبلة على وجنة كل منهما وأتركهما لمناقشتهما بينما أصب لنفسي كوبًا من القهوة.

وفي غرفة الطعام، يتولى إيلي وبون ترتيب الطاولة. ستة أماكن جلوس في المجمل.

– «صباح الخير أيتها النائمة،» يقول بون. «ظننا أنكِ لن تستيقظي أبدًا.»

أرتشف من قهوتي. «كنت مرهقة. لقد أمضيت ليلة طويلة.»

– «ليلة رأس السنة كفيلة بذلك.»

لقد استقبلنا جميعًا العام الجديد على الشرفة الخلفية، نرفع كؤوس شراب الزنجبيل في نخب عند حلول منتصف الليل.

كانت ليلة جميلة.

وازدادت جمالًا.

– «يجدر بـ كيسي أن تستلهم منك سر الاستيقاظ المبكر،» تقول أمي لـ بون من المطبخ. «حين استيقظت هذا الصباح، كنت مستيقظًا بالفعل وسريرك مرتب سلفًا.»

من الجانب الآخر لغرفة الطعام، يرمقني بون بنظرة ماكرة كادت تفجرني ضحكًا. لا نزال نجهل ما إذا كانت أمي لم تفطن بعد لعلاقتنا أو أنها أدركت ذلك منذ أسابيع وتتلاعب بنا الآن. وبغض النظر عن الحقيقة، يبدو أنها لعبة نستمتع بها جميعًا. على النقيض من المونوبولي، التي يهزمني فيها بون في كل مرة بلا رحمة.

لم أُطلعه على الحقيقة المرة لما ألمّ بـ كاثرين وكيف تيقنت من أن لين كان وراء مقتل الفتيات الثلاث. وينطبق الأمر ذاته على مارني وأمي. فهن، كشريحة واسعة من أمريكا، ما زلن يعتقدن أن كاثرين ضلت طريقها خلال نزهة – بعد أن اختل توازنها إثر السم الذي دسّه لها توم في جرعات صغيرة – وأنني عثرت بالصدفة على خصلات شعر ورخص قيادة الفتيات المفقودات أثناء تقليب أغراض لين.

في قرارة نفسي، أُمني النفس بمصارحة بون ومارني وأمي يومًا ما. أنا أعني ذلك بصدق. كل ما أحتاجه هو المزيد من الوقت. فقد تطلب الأمر شجاعة بالغة لأعترف لـ بون بأنني اختلست النظر إليه من الشرفة بينما كان يسبح عاريًا عند رصيف آل ميتشل.

رد عليّ بابتسامة خبيثة، قائلًا إنه افترض ذلك منذ البداية.

بل وأردف مقترحًا أن أكرر فعلتي متى ما حلّ الدفء.

أما بخصوص بقية القصة، فالبوح بها أشد عسرًا، ولست مستعدة بعد لاختتام (شهر العسل) الذي أعيشه مع بون، أيًا كان مُسماه. علاوة على ذلك، في الوقت الراهن على الأقل، أحتاج إلى زاوية واحدة في حياتي لم تلوثها أحداث أكتوبر.

في اليوم التالي لهجوم توم، اجتاحت فرقة من شرطة الولاية المتخصصة في البحث والإنقاذ مياه البحيرة. أُنتشلت جثامين ميغان كين، وتوني بورنيت، وسو إلين سترايكر جميعها في آنٍ واحد، وقبعت في ذات البقعة التي أشار إليها لين.

أصيبت وسائل الإعلام بلوثة جماعية. لا يسعني تخيل كم محرر صحفي تطلب الإنعاش بعد سماع أن مؤسس (ميكسر)، توم رويس، حاول تسميم أيقونة الموضة كاثرين رويس، لكن مسعاه أُحبط على يد كيسي فليتشر (المضطربة)، التي اكتشفت لتوها أن زوجها الراحل كان سفاحًا متسلسلًا.

يا له من عنوان مدوٍ.

اجتاحت الفوضى بحيرة جرين لأكثر من أسبوع. تدافعت عربات الصحافة عبر الطريق الحصوي المحيط بالبحيرة لدرجة اضطرت معها الشرطة لنصب حواجز لصدّهم. حينها أطلت المروحيات، تحوم على مقربة من سطح الماء، والمصورون يتدلون من حوافها كأنهم جنود من القوات الخاصة يتأهبون لاقتحام ساحة قتال. بل وتجرأت إحدى المراسلات على اجتياز مسافة ميلين مشيًا بكعب عالٍ لتطرق باب منزلي وتلقي بعض الأسئلة. ناولها إيلي كيس ثلج لتسكين آلام قدميها وطلب منها الانصراف.

منذ ذلك الحين، نادرًا ما أبرح منزل البحيرة. وعلى النقيض من كيسي القديمة، التي لم تكن لتأبه لرفع كأسها ثملةً أمام عدسات المصورين المتلصصين، أعي تمامًا أن أي إطلالة لي لن تزيد نار التغطية الإعلامية إلا استعارًا. ورغم أنني حظيت بفيض من التعاطف لإنقاذي حياة كاثرين، إلا أن ويلما آنسون كانت محقة حين تنبأت بأن أصابع الاتهام ستشير إليّ بسبب جرائم لين. وبينما لا تظن الأغلبية أنني تواطأت معه في جرائمه بحق النساء الثلاث، فإن الجميع يلقي باللوم عليّ لغفلتي عنها في حياته. وأنا أتقبل ذلك لسببين:

الأول: أنا أدرك الحقيقة المطلقة.

الثاني: أنا أيضًا أواصل لوم نفسي.

وحين أخرج، أتنكر في زي التخفي. حضرت جنازات ضحايا لين الثلاث – امرأة نكرة متدثرة بنظارة شمسية ضخمة وقبعة عريضة الحواف، قعيدة في مؤخرة كنائس شبه خاوية. رغبت كاثرين في مرافقتي، لكنني أثنيتها متذرعة بأنها ستلفت الأنظار أكثر من اللازم. في قرارة نفسي، كنت أروم العزلة لأهمس بدعاء لـ ميغان، وتوني، وسو إلين.

اعتذرت لهن عن عجزي في إيجادهن في وقت أبكر، وصليت راجية أن يغفرن لي.

آمل من أعماق قلبي أن دعواتي قد بلغتهن.

– «الإفطار سيكون جاهزًا في غضون خمس دقائق،» تقول مارني. «اذهبي لاستدعاء كاثرين. إنها بالخارج في الشرفة.»

أختطف إحدى السترات الشتوية الكثيرة التي باتت تتزاحم في البهو وأتجه نحو الشرفة الخلفية. كاثرين متكورة في أحد الكراسي الهزازة، تحتسي فنجانًا من القهوة متدثرة بمعطف من تصميم كبار المصممين يجعلها تبدو وكأنها هبطت لتوها من (سانت موريتز).

– «عام سعيد،» تقول، مشرقة بابتسامة نحوي من تحت قلنسوة مبطنة بفرو صناعي.

– «ولكِ بالمثل.»

عرضت كاثرين قصرها الزجاجي للبيع وانتقلت للإقامة في منزل عائلتي المطل على البحيرة فور تخرجنا، هي وأنا، من المستشفى. وعلى عكسي، ازدهرت سمعتها بشكل ملحوظ عقب مأساة أكتوبر. فهذا هو ديدن الحياة حين يُقدم زوجك على محاولة قتلك – وفي جعبة الشرطة كأس نبيذ مهشمة وملوثة بالسم لتأكيد ذلك.

وعلى نقيض عزلتي، انخرطت كاثرين في دوامة مكثفة من اللقاءات الإعلامية. تصدرت غلاف مجلة (بيبول)، وروت حكايتها في برنامج (جود مورنينج أمريكا)، وسطرّت مقالًا بوحًا لمجلة (فانيتي فير). وفي كل تلك المنابر، حرصت على الإشادة بنبل صداقتي والإشارة إلى أنني كابدت من الصدمة ما يضاهي معاناتها. وبفضل ذلك – ولأن أولئك المصورين المتهورين اقتنصوا لقطة لنا ونحن نتبادل الضحكات على الشرفة – أطلقت علينا الصحافة لقب (الأرامل المريحات).

لن أُخفي الأمر. هذا اللقب يروق لي نوعًا ما.

– «هل كان من الغريب ألا نحتسي الشمبانيا عند منتصف الليل؟» تسأل كاثرين.

انقضت عشرة أسابيع منذ آخر كأس حقيقية ارتشفته. عشرة أسابيع طويلة، متثاقلة، ومتشنجة. لكنني أمضي قدمًا، وحالي اليوم أفضل من الأسبوع المنصرم، والذي كان بدوره أفضل من سابقه. خفّت رغبتي الملحة في الشرب خلال هذه الفترة. يبعث ذلك في نفسي بصيصًا من الأمل، رغم يقيني بأن هذا التوق لن يفارقني للأبد. سيظل هذا الظمأ يطاردني كطرف مبتور – غائب ولكنه محسوس بشدة.

لكنني قادرة على تدبر الأمر.

الجلسات تمدني بالقوة.

وكذلك وجود شبكة دعم تملأ الآن كل غرفة من غرف هذا المنزل الذي كان يومًا ما خاويًا.

– «بصراحة، كان تغييرًا منعشًا لنمط حياتي،» أقول.

– «نخب ذلك.»

نقرع أكوابنا ونلقي بنظرة على البحيرة. تجمدت أطرافها في منتصف نوفمبر، ومن المرجح أن تظل كذلك حتى يحل مارس. كست الثلوج الوادي بارتفاع قدم كاملة قبل يومين من عيد الميلاد، محيلة كل شيء إلى واحة بيضاء متلألئة وكأنها

لوحة من أعمال (كورير وآيفز). وفي اليوم الآخر، حشرنا، أنا ومارني، أقدامنا في أحذية تزلج ضيقة للغاية وانطلقنا نتزلج على الجليد تمامًا كما كنا نفعل في طفولتنا.

– «هل تظنين حقًا أنهما قد تلاشت أرواحهما؟» تسأل كاثرين.

ألتفت إليها مندهشة. فرغم كل ما قاسيناه معًا، بالكاد تطرقنا للحديث عن الأمر في عزلتنا. أرجح أن كلتينا تخشى من استحضار الماضي لئلا يلقي بظلاله الكئيبة على الحاضر.

لكن هذا الصباح، ومع انبلاج فجر العام الجديد، يغمرني شعور بتباشير أمل ساطعة تكفي لتبديد أي عتمة قد يستدعيها الحديث عن الأمر.

– «أظن ذلك،» أقول. «آمل ذلك.»

– «وماذا لو لم تكن كذلك؟ ماذا لو كان كلاهما لا يزال يتربص هناك، يترقب؟»

راودتني هذه الفكرة مرارًا، خاصة في الليالي التي يهاجمني فيها التوق للشرب، فأنتهي بي المطاف أذرع أروقة المنزل كروح هائمة. أتأمل سطح الماء وأتساءل عما إذا كان لين قد أفلح، بطريقة ما، في العودة إلى هناك، يتربص مجددًا بضحية جديدة تسقط فريسة للبحيرة، أو ما إذا كان توم قد حل مكانه في تلك الأعماق الداكنة. ولأننا لا نزال نجهل كنه وأسباب كل ما جرى، يصعب طي هذه الصفحة للأبد. لعل مياه بحيرة جرين تحمل سرًا يجمع بين السحر والشر. أو لعل لين ذاته كان مشؤومًا بسبب أفعاله البشعة.

في كلتا الحالتين، أوقن أن هناك احتمالًا – مهما تضاءل – أن يتكرر الكابوس.

وإن حان ذلك اليوم، سأكون هنا.

وسأكون على أهبة الاستعداد.

–تمت–

البيت المقابل للبحيرة

البَيت المُقابل للبُحَيرة

تدور أحداث الرواية داخل منزل منعزل يطل على بحيرة أمريكية هادئة، حيث تمتزج العزلة القاتلة بهواجس المراقبة المستمرة.

تتركز القصة حول الممثلة الأرملة كيسي فليتشر، التي تهرب من أحزانها العميقة بمراقبة جيرانها الأثرياء بالضفة المقابلة. تقضي البطلة وقتها في التلصص المريب على الزوجين توم وكاثرين، حتى تنقذ الزوجة من غرق محقق وتصادقها.

تنقلب الأحداث الغامضة فجأة عندما تختفي كاثرين في ظروف مريبة، مما يثير شكوك كيسي المظلمة بصدد الزوج. تبدأ كيسي تحقيقا محفوفا بالمخاطر لكشف الحقيقة، لتكتشف أسرارا مرعبة تتجاوز حدود الخداع وتتلاعب بالهلاوس النفسية.

9 789778 242355